رواية

أميليو سالغاري

القرصان الأسود

ترجمها عن الإيطالية: كاصد محمد

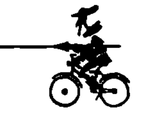


المتوسط

أميليو سالغاري

القرصان الأسود

ترجمها عن الإيطالية: كاصد محمد



المتوسط

القرصان الأسود

المؤلف: أميليو سالغاري / المترجم: كاصد محمد
عنوان الكتاب: القرصان الأسود
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-26-7



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

-١-
قراصنة التورتو

انبثق من البحر صوت جهوري ذو جلجلة معدنية، وتردّد صداه في الظلام، متوعّداً:

- قفوا، يا رجال القارب، وإلا أغرقناكم!

كان هناك رجلان على متن قارب صغير، يتقدّم ببطء فوق الأمواج داكنة الزرقة، مبتعداً عن الشاطئ الشاهق الذي يمتد غائراً على خط الأفق، كما لو أنهما يخشيان خطراً، قد يداهمهما من تلك الناحية، لكنهما أوقفا القارب حال سماعهما ذلك الصوت.

سحب البحّاران مجدافيهما على عجل، ثم نهضا بقلق، ينعمان النظر في ظلّ كبير، كما لو أنه انبثق فجأةً من بين الأمواج. كانت أعمارهما تقارب الأربعين، إلا أنهما كانا نشيطين وفطّين، ويبدوان أكثر فظاظة بفعل اللحى الكثّة التي - ربما - لم يمرّ عليها مشط قطّ. يعتمر كل منهما قبّعة من اللبّاد ممزّقة من الأعلى، ومثقبة من جميع الجهات، ويرتديان قميصاً من القماش الخفيف باهت اللون، ودون أكمام، بالكاد يغطي الصدر، وتحيط خصر كلّ منهما قطعة متهرّئة من القماش الأحمر، وقد عُلّق فيها زوج من المسدّسات الكبيرة والثقيلة التي كانت تُستخدم في أواخر القرن السادس عشر. كان سروالاهما ممزّقين أيضاً، في حين كانت أقدامهم متّسخة بالطين الداكن.

قد يبدوان كهاربين من سجن ما في خليج المكسيك، لو أن تلك السجون التي شُيّدت في غويانا - فيما بعد - كانت موجودة. حال رؤيتهما لذلك الظلّ الذي بدا واضحاً في زرقة الأفق الداكنة بين لمعان النجوم، تبادلا نظرات قلقة:

- أنعمِ النظر، يا كارمو - قال الأصغر سناً - انظر جيداً، فنظرك أقوى من نظري، وكما تعلم، فهي مسألة حياة، أو موت.

- إني أرى سفينة حربية كبيرة، ورغم أنها ليست ببعيدةٍ تماماً، فلا أعرف إذا ما كانت قادمة من التورتو، أم من المستعمرات الإسبانية.

- لعلّهم من رفاقنا البحّارة؟ ولكنْ: كيف يجرؤون على الوصول إلى هنا، تحت مرمى نيران مدافع القلاع الإسبانية، مجازفين - أيضاً - بالاصطدام بفرقة ما من تلك السفن الحربية التي تحمي المراكب المشحونة بالذهب؟!

- على أي حال، يا ستيلر، فقد رأونا، ولن يتركوننا نفرّ منهم، وحتّى لو حاولنا الفرار، فإن رشقة من بنادقهم كافية لإرسالنا إلى الجحيم.

تردّد صدى ذات الصوت الجهوري مرة أخرى في الظلام، وتلاشى بعيداً في مياه الخليج:

- مَن هناك؟

- الشيطان، - تمتم ستيلر.

بينما صعد رفيقه على مقدّمة القارب، وصرخ بأعلى صوته:

- مَن يتجرّأ علينا؟ فليأتِ هذا الفضولي هنا، وسنجيبه بمسدّساتنا!

لم يغتظ الرجل الذي كان على متن السفينة من هذا التهديد، بل بدا أنه كان سعيداً؛ أذ أجاب:

- مرحباً بالرجال البواسل بين رفاقهم "أخوة الشاطئ"!

- أخوة الشاطئ! - هتف البحّاران فرحاً.

ثم أضاف كارمو:

- ليبتلعني البحر، إن أنا لم أتعرّف على ذلك الصوت الذي بلّغنا بهذا الخبر السعيد.

- ومَن قد يكون برأيك؟ - سأله رفيقه الذي صار يجدف بحيوية.

- هناك رجل واحد - فقط - من التورتو يجرؤ على الوصول تحت قلاع الإسبان.

- ومَن يكون؟

- القرصان الأسود.

- يا للهول! أجل هو ... هو، لا غيره!

- أيّ أخبار سيئة سنحمل لهذا البحّار المقدام! - تمتم كارمو بحسرة - وقد مات أخاه!

- وهو الذي كان يأمل الوصول مبكراً؛ كي ينقذه من أيدي الإسبان، أليس كذلك، يا صديقي؟

- أجل، يا ستيلر.

- إنه الأخ الثاني الذي تم شنقه؟

- أجل، إنه الثاني. كلاهما عُلّقا على المشنقة اللعينة!

- لكنه سينتقم لهما، يا كارمو!

- بالتأكيد، سيفعل، ونحن سنكون إلى جانبه. سيكون اليوم الأجمل في حياتي حينما سأرى حاكم ماراكايبو اللعين معلّقاً على حبل المشنقة، سأتصرّف - أخيراً - بالزمزدتين اللتين علّقتهما في سروالي، سيعودان عليّ بما لا يقلّ عن ألف قرش، سآكل بها ما شئتُ مع رفاقي.

- آه، ها قد وصلنا، ألم أقل لك إنها سفينة القرصان الأسود؟!

تلك السفينة التي كان يصعب تمييزها قبل قليل بفعل الظلام الدامس، كانت سفينة متينة كتلك التي يصنعها قراصنة التورتو لمطاردة سفن النقل الإسبانية الضخمة التي تنقل الذهب من أمريكا الوسطى، والمكسيك والأقاليم الإكوادورية، إلى أوربا. كانت تلك السفن الشراعية ذات صوار طويلة جداً، تمكّنها من استغلال أي نسمة هواء، ضيقة من الأسفل، مقدّمتها ومؤخّرتها عاليتان جداً، كما كان شائعاً في تلك الحقبة، وكانت مسلّحة بشكل هائل. فيها اثنا عشر مدفعاً، تمتد فوهاتها السوداء من على متن السفينة، بينما نُصب مدفعان بعيدا المدى على الجانب المرتفع من مقدّمة السفينة، مهمّتهما تحطيم مُتُن السفن بصواريخها. انتظرت السفينة القارب، وعلى ضوء فنار ضعيف، يمكن لمح عشرة أو اثني عشر رجلاً على مقدّمتها، يصوّبون بنادقهم نحوه، جاهزون لإطلاق النار، إذا ما تطلّب الأمر. حالما وصل بحّارا القارب إلى السفينة، التقطا حبلاً، كان قد رُمي إليهما، فسحبا المجاديف، وربطا القارب، ثم تسلّقا السلّم برشاقة باهرة. وجّه عليهما رجلان بندقيّتيهما بينما اقترب آخر، يحمل فانوساً لرؤية القادمين الجدد.

- مَن أنتما؟ - سألهما أحدهم.

- بأمير الشياطين؟ - هتف كارمو - ألا تعرفون أصدقاءكم؟

- ليبتلعني سمك القرش، إن لم يكن هذا كارمو الباسكيي! - صرخ الرجل الذي كان يحمل الفانوس - ألا تزال حياً، بينما الكلّ في الترتو يظنّك ميتاً؟ آه، أرى أن هناك شخصاً آخر قد أُعيد إلى الحياة! ... أولستَ أنت ستيلر الهامبورغي؟

- بلحمه ودمه، - أجاب ستيلر.

- حتّى أنت - إذنْ - استطعتَ الفرار من حبل المشنقة؟

- يبدو أن الموت ينبذني، يا عزيزي، وقد خطر في ذهني أن أعيش بضع سنين أخرى.

- ماذا عن القبطان؟

- اصمت - صاح كارمو.

- بوسعك أن تتكلّم: هل قُتل؟

- هل أنهيتُم نعيقكم، يا سرب الغربان؟ - صرخ الصوت المعدني الذي هدّد رجليَ القارب.

- يا إلهي - تمتم ستيلر راجفاً - القرصان الأسود .

بينما رفع كارمو صوته مجيباً:

- ها نحن هنا، يا قبطان.

نزل رجل من على منصّة القيادة، واتّجه نحوهما واضعاً يده على مقبض مسدّسه الذي يتدلّى من حزامه. كانت ملابسه سوداء أنيقة، بشكل غير معتاد بين قراصنة خليج المكسيك، أولئك الرجال الذين يكتفون ببنطال وقميص، ويعتنون بأسلحتهم أكثر ممّا يعتنون بهندامهم. كان يرتدي عباءة من الحرير الأسود مزركشةً بالأسود، وأربطتها سوداء أيضاً، ويرتدي بنطالاً من الحرير الأسود، يشدّه برباط أسود، ويضع حذاء فرسانياً، ويعتمر قبّعة كبيرة من الجوخ مزيّنة بريشة سوداء طويلة، تتدلّى حتّى كتفه. كان مظهر الرجل كملابسه، يوحي بالحزن، ووجهه الشاحب، كالرخام، يبرز من بين أشرطة الياقة السوداء وأطراف القبّعة، تزيّنه لحية قصيرة ومجعّدة بعض الشيء. لكنه كان حسن الملامح: أنف جميل، شفتان صغيرتان وحمراوان كالمرجان، جبهة عريضة مع بعض التجاعيد الخفيفة التي تضفي على ذلك الوجه شيئاً من المالنكوليا، عينان سوداوان كالليل، برمشين طويلين، تلمعان ببريق، يملأ قلوب أشجع بحّارة الخليج رعباً.

كان طويلاً ممشوقاً ومهيباً ذا يدين أرستقراطيتين، وذلك يجعله يبدو - منذ الوهلة الأولى - بأنه رجل من الطبقة العليا، وأنه أهل للقيادة. حالما رآه

رجلا القارب يتوجّه نحوهما، نظر كل منهما للآخر، وهمسا بوجل:

- القرصان الأسود!

- مَن أنتما؟ ومن أين مجيئكما؟ - سألهما القرصان بعد أن وقف أمامهما، وكان لا يزال يضع يمينه على مقبض مسدّسه.

- نحن من بحّارة التورتو، من "أخوة الشاطئ". - أجاب كارمو.

- ومن أين جئتما؟

- من ماراكايبو.

- هل هربتما من قبضة الإسبان؟

- أجل، أيها القبطان.

- وإلى أي سفينة كنتما تنتميان؟

- إلى سفينة القرصان الأحمر.

جفل القرصان الأسود حال سماع ذلك، ثم صمت لحظة، وهو يتأمّل البحّارين، بعينين، يتطاير منهما الشرر.

- إذنْ؛ كنتما على سفينة أخي - قال القرصان بصوت راجف.

أخذ بيد كارمو، وكأنه يجرّه بقوة، وتوجّه به نحو مؤخّرة السفينة. وعند وصوله تحت منصّة القيادة، رفع القبطان رأسه نحو رجل واقف في الأعلى، كأنه ينتظر الأوامر، وقال له:

- اتّجه إلى أعالي البحار، يا سيد مورغان، وليبقَ الرجال متأهّبين لحمل السلاح، وأبلغ المدفعيين أن لا يُطفئوا الفتائل. أبلغني إذا ما استجدّ أمر ما.

- أمرك، أيها القبطان - أجاب الرجل - إذا ما اقتربت منا سفينة، أو مركب ما، فإني سأبلغك حتماً.

نزل القبطان إلى عنبر السفينة آخذاً بذراع كارمو، ودخل في كابينة أنيقة الأثاث، ينيرها فانوس مذهّب، رغم أن سفن القراصنة تُطفئ كل الأنوار عند الساعة التاسعة مساءً، ثم أشار إلى كرسي، وقال:

- الآن ستخبرني كلّ شيء.

- أنا تحت أمرك، أيها القبطان.

وبدلاً من أن يسأله، بقي القبطان يحدّق فيه شابكاً ذراعيه على صدره. أصبح أكثر شحوباً من ذي قبل، يرتفع صدره بين الحين والآخر بفعل تنهّداته. فرج شفتيه مرتين؛ ليقول شيئاً ما، لكنه عاد، وأطبقهما، كما لو أنه يخشى أن يسأل سؤالاً، يكون جوابه مرعباً. أجهد نفسه أخيراً، وسأل بصوت خافت:

- لقد قتلوه، أليس كذلك؟

- مَن؟

- أخي الملقّب بالقرصان الأحمر.

- نعم، أيها القبطان، - أجاب كارمو بحسرة. - لقد قتلوه، كما فعلوا من قبل بأخيك القرصان الأخضر.

أطلق القرصان صرخة مبحوحة، تمزّق القلب. شاهده كارمو، وقد ازداد شحوبه بشكل رهيب، وضع يده على قلبه، ثم تهاوى على الكرسي، وقد دسّ وجهه تحت قبّعته.

بقي القرصان على تلك الحال لبضع دقائق، سمعه خلالها كارمو ينشج، ثم وثب على قدميه، كما لو أنه خجل من لحظة الضعف تلك. اختفت - تماماً - تلك العاطفة الجيّاشة التي اجتاحته قبل قليل، فكان وجهه هادئاً، وجبهته صافية، ولم تعد بشرته رخامية كذي قبل، لكن نظراته كانت قاتمة مخيفة.

جال لمرتين في الكابينة، كما لو أنه يسعى لتهدئة نفسه تماماً قبل أن يستكمل الحديث، ثم عاود الجلوس قائلاً:

- كنتُ أخشى أن أصل متأخّراً، ولكنْ؛ لم يبق لي بعد الآن سوى الانتقام. هل قتلوه رمياً بالرصاص؟

- بل شنقاً، يا سيدي.

- أمتأكّد من ذلك؟

- لقد رأيتُه بأمّ عيني يتدلّى من على المشنقة في ساحة غرناطة.

- متى قتلوه؟

- هذا اليوم، بعد منتصف النهار.

- وكيف مات؟...

- ميتة أبطال، يا سيدي. وما كانت تليق به إلا تلك الميتة ...

- أكمل.

- بينما كان الحبل يشتدّ ضيقاً حول رقبته، تمالك قواه، وبصق في وجه الحاكم.

- في وجه فان غولد الكلب؟

- أجل، ذلك الدوق الفيامينغي اللعين.

- هو مرة أخرى! ... لقد أقسم على عداء مستميت لي إذنْ؟ أخ قتله غدراً، واثنان شنقاً!

- كانا القرصانين الأكثر شجاعة في الخليج، يا سيدي، فمن الطبيعي - إذنْ - أن يكنّ لهما كل هذا الكره.

- ولكنْ؛ بقي لي أن أنتقم! ... صرخ القرصان بصوت رهيب. - لن أموت قبل أن أفني فان غولد هذا وعائلته بأكملها، ثم أحرق المدينة التي يحكمها.

ماراكايبو ... أنت سبب هلاك أخويّ، ولكني سأدمّرك! .. حتّى لو تحتّم علي أن أستنجد بكل قراصنة الترتو وقراصنة سان دومينكو وكوبا، سأهدمك حجراً بعد حجر. والآن، تكلّم، يا صديقي، حدّثني عن كل شيء. كيف تمكّنوا منكم؟

- لم يتمكّنوا منا، أيها القبطان، بل أخذونا على حين غرّة، بينما كنا مجردين من الأسلحة. فكما تعلم أن أخاك توجّه إلى ماراكايبو للانتقام لموت أخيه القرصان الأخضر، بعد أن أقسم - كما فعلت أنت - على شنق الدوق الفيامينغي. كنّا ثمانين شخصاً، جاهزين ومتأهّبين لكل شيء، حتّى لمواجهة جيش بأكمله، لكننا لم نأخذ بالحسبان سوء الأحوال الجوية. حال وصولنا إلى مدخل خليج ماراكايبو، فوجئنا بعاصفة فظيعة، رمت بنا على الشواطئ الضحلة، فقامت الأمواج الهائجة بتحطيم سفينتنا. تمكّن ستة وعشرون منا - فقط بعد عناء طويل - من النجاة، والوصول إلى الشاطئ، كنا جميعاً في حالة مزرية؛ بحيث لم يكن بوسعنا القيام بأدنى مقاومة، وقد فقدنا كل أسلحتنا أيضاً. قام أخوك برفع هممنا، وقادنا ببطء عبر المستنقعات خشية أن يشعر بنا الإسبان، ويلاحقوننا. اعتقدنا أن بإمكاننا الاختباء في الغابات الكثيفة، لكننا وقعنا في الكمين. هجم علينا ثلاث مائة إسباني، يقودهم فان غولد بنفسه، طوّقونا، وقتلوا مَن قاوم منا، واقتادونا أسرى إلى ماراكايبو.

- وهل كان أخي من بين الأسرى؟

- أجل، أيها القبطان، ورغم أنه لم يكن يحمل سلاحاً سوى الخنجر إلا أنه دافع عن نفسه كالأسد، وكان يفضّل الموت في ساحة القتال على الموت شنقاً، إلا أن الدوق تعرّف عليه، وبدلاً من قتله بالرصاص، أو بالسيف، فإنه أبقى عليه. اقتادونا إلى ماراكايبو بعد أن أساء لنا الجند وأهاننا الأهالي، ثم حُكم علينا بالشنق حتّى الموت. وفي صباح الأمس، حالفنا الحظ أنا وصديقي ستيلر أكثر من رفاقنا، واستطعنا الهرب بعد أن قتلنا خنقاً الخفير المسؤول عنا. اختبأنا في كوخ رجل هندي، ومنه شاهدنا موت أخيك ورفاقنا البحّارة الشجعان. في المساء، وبمساعدة رجل أسود، أبحرنا في قارب صغير،

وقد قرّرنا عبور خليج المكسيك، والوصول إلى التورتو. هذا كل شيء، يا سيدي القبطان.

- هكذا مات أخي، إذنْ! - قال القرصان بهدوء مرعب.

- لقد رأيتُه كما أراك الآن أمامي.

- وهل لا يزال معلّقاً على المشنقة اللعينة؟

- أجل، سيبقى معلّقاً لثلاثة أيام.

- وبعد ذلك سيرمونه في مستنقع ما.

- أظنهم سيفعلون ذلك، أيها القبطان.

نهض القرصان مندفعاً، واقترب من البحّار.

- أتخاف الموت؟ - سأله بلهجة غريبة.

- لا أخاف حتّى من أمير الشياطين، يا قبطان.

- إذنْ؛ فأنت لا تهاب الموت؟

- كلا.

- وهل سترافقني؟

- إلى أين؟

- إلى ماراكايبو؟

- متى؟

- الليلة.

- هل سنهجم على المدينة؟

- كلا، ليس لدينا العدد الكافي الآن، سنقوم بذلك في وقت لاحق. سنذهب أنا وأنت ورفيقك.

- نحن فقط؟ - أجاب كارمو باستغراب.

- أجل، نحن فقط.

- ولكنْ؛ ماذا تودّ أن تفعل، يا سيدي؟

- أجلب جثمان أخي.

- لكنْ؛ حذار، يا قبطان، فإنك تجازف بحياتك.

- أتعرف مَن هو القرصان الأسود ؟

- إنه برق وصواعق! هو القرصان الأكثر إقداماً في الترتو.

- اذهبْ إذنْ، وانتظرني على ظهر السفينة، واجعلهم يجهّزون لنا قارباً.

- لا حاجة لذلك، أيها القبطان، فلدينا قاربنا، إنه مركب سريع حقاً.

- اذهب الآن إذنْ!

-٢-

المغامرة الجريئة

عجّل كارمو في تنفيذ الأوامر لمعرفته بخطورة المماطلة مع القرصان المرعب. كان ستيلر ينتظره عند مدخل السفينة، برفقة رئيس الطاقم وبعض البحّارة الذين كانوا يسألونه عن موت القرصان الأحمر وطاقمه، بينما كانوا يبدون نواياهم في الانتقام الشنيع من إسبان ماراكايبو، ومن الحاكم، على وجه الخصوص. عندما علم ستلر بوجوب تجهيز القارب للعودة إلى الساحل الذي هربا منه بمعجزة، لم يستطع إخفاء استغرابه وقلقه حيال الأمر.

- سنعود مرة أخرى إلى هناك! ... هتف ستيلر - سنموت - حتماً - يا كارمو.

- لن نعود وحدنا هذه المرة.

- ومَن سيكون برفقتنا، إذنْ؟

- القرصان الأسود .

- إذنْ؛ فليس هناك ما أخشاه، فهذا الرجل الشيطان يساوي مئة قرصان.

- لكنْ؛ هو - فقط - مَن سيأتي معنا.

- لا يهمّ، يا كارمو، فمعه ليس هناك ما نخشاه. وهل سندخل إلى ماراكايبو؟

- أجل، يا عزيزي، وسنكون - حقاً - أبطالاً، إن أنهينا مهمّتنا بنجاح. يا رئيس الطاقم، زوّدونا بثلاث بنادق وبعض الذخيرة وحربتين لنا نحن الاثنين،

وبعض الطعام. لا ندري ماذا قد نلاقي، ومتى سنعود.

- كل شيء جاهز - أجاب رئيس الطاقم، - بل إني لم أنس حتّى التبغ.

- شكراً، يا صديقي، أنت جوهرة البحّارة.

- ها هو، - قال ستيلر في تلك الأثناء.

ظهر القرصان الأسود على متن السفينة، كان يرتدي لباسه الأسود ذاته، ولكنه يتقلّد سيفاً طويلاً، وفي حزامه مسدّسان ضخمان، وخنجر إسباني حادّ جداً، يسمّى ميسريكورديا. يحمل على ذراعه عباءة كبيرة، سوداء كملابسه. اقترب من رجل كان يشرف على القيادة، والذي يجب أن يكون نائبه، تبادل معه بضع كلمات، ثم توجّه إلى البحّارين قائلاً:

- هيا، لننطلق.

- نحن جاهزان - أجاب كارمو.

نزل الثلاثة إلى القارب الذي اقتيد حتّى مقدّمة السفينة، وكان مجهّزاً بالذخيرة والمؤن. التحف القرصان بعباءته، وجلس في مؤخّرة القارب، بينما تناول البحّاران المجذافين، وبدآ التجديف بجهد.

أطفأت السفينة مصابيحها، وتبعت القارب دون أن تجتازه. ربما أراد نائب القبطان أن يرافق رئيسه حتّى أقرب نقطة من الساحل؛ ليحميه في حال مفاجأة ما.

كان القرصان شبه مستلق في مؤخّرة القارب مسنداً رأسه على ذراعه بصمت، لكن نظرته الحادّة كنظرة صقر تراقب الأفق الضبابي بتأنّ، كأنه يحاول تمييز الساحل الأمريكي الذي يخبّئه الدجى. كان يلتفت - بين آونة وأخرى - نحو سفينته التي تتبعه على مسافة، ليست ببعيدة، ثم يعاود النظر باتجاه الجنوب.

كان ستيلر وكارمو يجدفان بجهد كبير، جعل القارب الرشيق يحلّق فوق

الأمواج السوداء. لم يبدُ عليهما القلق بشأن العودة إلى ذلك الساحل الذي يعجّ بأعدائهما اللدودين، ذلك بفعل ثقتهم بإقدام وشجاعة القرصان الذي يكفي ذكر اسمه - فقط - لنشر الرعب في كل المدن الساحلية لخليج المكسيك الكبير. كان البحر قرب ماراكايبو ساكناً كالزيت، ممّا جعل المركب يزداد سرعة دون كبير عناء من المجدفين. لم تكن أمواج الخليج القوية لتصل إلى ذلك الساحل الذي تحفّ المرتفعات بجانبيه، لذلك فمن النادر أن تضرب الأمواج ذلك الساحل.

كانت قد مرّت ساعة والبحّاران يجدفان حينما نهض القرصان فجأة، وقد كان ساكناً تماماً حتّى تلك اللحظة، كأنه يودّ رؤية متّسع أكبر من الأفق. لاحظ ضوءاً ضعيفاً، لا يصعب تمييزه عن ضوء النجوم، يتوهّج بين دقيقة وأخرى مع مستوى سطح الماء في الجهة الجنوبية الغربية.

- ماراكايبو، - قال القرصان بنبرة قاتمة، تفشي عن غضب مضمر.

- أجل، - أجاب كارمو ملتفتاً.

- كم نبعد عنها؟

- ربما ثلاثة أميال، أيها القبطان.

- سنصل عند منتصف الليل، إذنْ.

- نعم.

- هل ستكون هناك مراكب خفارة؟

- قد تكون هناك مراكب الجمارك.

- من الأفضل تحاشيها.

- نحن نعرف مكاناً، يرسو فيه القارب بهدوء، ثم نخبّئه بين الأحراش.

- حسناً.

- أتسمح لي بكلمة، أيها القبطان؟

- قل.

- من الأفضل أن لا تقترب سفينتنا أكثر من هذا.

- لقد غيّروا اتجاههم، وسينتظروننا في أعالي البحر، - أجاب القرصان. بقي صامتاً للحظات، ثم أردف قائلاً:

- هل حقاً أن هناك فرقة في البحيرة؟

- أجل، أيها القبطان، إنها فرقة الأميرال توليدو التي تحرس ماراكايبو وجبل طارق.

- آه! ... هم خائفون، إذنْ؟ لا يزال الأولونيزي في الترتو، ولكنْ؛ حال قدومه لمساعدتنا، فسوف نُغرق هذه الفرقة بأكملها. فلينتظرنا فان غولد أياماً قليلة، وبعدها سيعرف ما نحن قادرون على فعله.

التحف بعباءته، وأنزل القبّعة على عينيه، ثم جلس محدّقاً في تلك النقطة المضيئة التي تشير إلى فنار المرفأ. استعاد القارب مسيره، لكنه لم يكن متّجهاً نحو مدخل ماراكايبو البحري؛ لأنهم كانوا يحاولون مغافلة حرس الجمرك، والذين إذا ظفروا بهم، سيعتقلونهم دون شك.

بعد نصف ساعة من ذلك، صاروا على مرأى من ساحل الخليج؛ إذ كانوا لا يبعدون عنه إلا القليل. كان الساحل ينحدر بلطف تجاه البحر، وتنتشر عليه أشجار بالاتوفيري، والتي غالباً ما يكون انتشارها على مصبّات الأنهار، وتسبّب هذه الأشجار القيء الحاصل نتيجة الحمّى الصفراء.

في العمق ما وراء الساحل؛ حيث السماء المتناثرة النجوم، تلوح غابة مظلمة، تتطاير منها كتل ضخمة من الأوراق الكبيرة الحجم. أبطأ كارمو وستيلر في تجديفهما، والتفتا نحو الشاطئ، وهما يجدفان بحذر شديد؛ لكيلا يُحدثا

أي ضوضاء، وكانا ينظران في كل الاتجاهات، كما لو أنهما يخشيان مفاجأة ما. في حين لم يتحرك القرصان الأسود مطلقاً، كانت أمامه البنادق الثلاث التي وُضعت في القارب؛ لكي يواجها برشقة منها أول مركب، يجرؤ على الدنوّ منهم. رسا القارب عند منتصف الليل ما بين أشجار البالاتوفيري، متوغّلاً ما بين تلك الأشجار وجذورها الملتوية. نهض القرصان، تفحّص الشاطئ على عجل، ثم قفز بخفّة إلى اليابسة، وربط القارب إلى أحد الأغصان.

- اتركا البنادق - أمر القرصان كارمو وستيلر - ألديكما مسدّسات؟

- أجل، يا قبطان - أجاب ستيلر.

- أتعرفان أين نحن الآن؟

- نحن على مسافة عشرة أو اثني عشر ميلاً من ماراكايبو.

- وهل تقع المدينة خلف هذه الغابة؟

- أجل، إنها على أطراف هذه الغابة العملاقة.

- أبوسعنا دخولها الليلة؟

- هذا مستحيل، يا قبطان، إن الغابة كثيفة جداً، ولن نتمكّن من عبورها قبل صباح الغد.

- إذنْ؛ سيتحتّم علينا الانتظار حتّى مساء الغد؟

- إذا كنتَ لا تريد المجازفة بدخول ماراكايبو نهاراً، فعلينا الانتظار.

- ليس من الحذر أن نظهر في المدينة نهاراً - أجاب القرصان، كما لو أنه يكلّم نفسه. - لو كانت سفينتي معي الآن، لتُساندنا، وتنتظرنا، لأقدمتُ على ذلك، ولكن الفولغورا - الآن - تُبحر في مياه الخليج.

بقي صامتاً للحظات، غارقاً في تفكير عميق، ثم سأل رفيقيه:

- ألا يزال أخي هناك؟

- سيبقى معلّقاً في ساحة غرناطة لثلاثة أيام - أجابه كارمو - لقد أخبرتكَ بذلك مسبقاً، يا سيدي.

- إذاً؛ لدينا ما يكفي من الوقت. أتعرفان أحداً ما في ماراكايبو؟

- أجل، نعرف الزنجي الذي منحنا القارب الذي هربنا به. إنه يعيش في كوخ منعزل على أطراف الغابة

- ألن يشي بنا؟

- نحن نضمن أمانته يا سيدي. -

- هيا بنا، إذنْ.

صعدوا إلى الشاطئ، كان كارمو في المقدّمة، بينما كان القرصان في الوسط وستيلر في المؤخّرة، توغّلوا في الغابة المظلمة بحذر ويقظة واضعين أيديهم على مقابض مسدّساتهم. كانت الغابة أمامهم دامسة الظلام، كأنها كهف شاسع. تنتصب جذوع الأشجار بأشكالها وأحجامها المختلفة، تتدلّى منها أوراق هائلة الحجم، تحجب رؤية السماء. تمتدّ الأغصان من كل الجهات، وتلتوي على بعضها، تنحدر من جذوع الأشجار والنخيل، أو تتسلّقها، تمتدّ يميناً وشمالاً. بينما الجذور الضخمة الملتوية على بعضها تمتد على الأرض، وتعرقل مسير البحّارة، مجبرة إياهم على الالتفاف حولها؛ لإيجاد منفذ للمرور، أو استخدام الحراب لتقطيعها. بين الفينة والأخرى، تتفجر في الظلام نقاط ضوئية، تعكس أضواء متقطعة ما بين آلاف الأشجار تلك، تتراقص بمستوى الأرض تارةً، وبين الأغصان تارةً أخرى. تنطفئ فجأة، ثم تضيء من جديد، مشكّلة موجات ضوئية ذات جمال، لا مثيل له. كانت تلك الحباحب الضخمة المنتشرة في أمريكا الجنوبية، والتي تبعث أضواء وهّاجة، تتيح القراءة على بعد عدّة أمتار، مهما كانت الكتابة صغيرة. أما

إذا وُضعت أربعة منها في قنينة زجاجية، فإن لها القدرة على إنارة حجرة كاملة. ثم كانت هناك - أيضاً - الخنافس المضيئة، حشرات غاية في الجمال تتواجد على شكل مجاميع كبيرة في غابات غويانا والإكوادور. كان البحّارة الثلاثة مستمرّين في مسيرهم بصمت، متّخذين جانب الحيطة والحذر، فلم تكن خشيتهم من البشر فقط، ولكنْ؛ من حيوان اليغور المفترس أيضاً، ومن الثعابين، بالذات ثعبان الجاراكارا السام جداً، والذي يصعب الانتباه إليه؛ لأن لون جلده يشبه لون الأوراق اليابسة.

بعد أن ساروا ما يقارب الميلين، توقّف كارمو فجأة، وكان يسير أمامهم لخبرته في هذه الأماكن، ثم حشا أحد مسدّسيه.

- أهو يغور؟ أم إنسان؟ - سأله القرصان دون أيّ اضطراب.

- قد يكون يغور، كما وقد يكون إنساناً - أجاب كارمو. - فلا ضمان في هذا المكان في أن تعيش يوماً آخر.

- وأين لمحتَهُ؟

- على مسافة عشرين خطوة مني.

انحنى القرصان نحو الأرض، حبس أنفاسه، وأنصت بانتباه، فسمع خشخشة أوراق، كانت خشخشة خفيفة جداً؛ بحيث لا تسمعها إلا أذن متمرّسة.

- قد يكون حيواناً ما،- قال وهو ينهض. - حسناً ... نحن رجال لا يخشون الأهوال. استلّوا حرابكم، واتبعوني.

التفّ حول جذع شجرةٍ عملاقة بين النخيل، ثم توقّف بين كومة أوراق عظيمة الحجم، يتقصّى في الظلام.

لم تعد هناك أيّ خشخشة أوراق، رغم ذلك تسلّل إلى أذن القرصان

صوت معدني، ثم صوت حادّ، كما لو أن ماسورة بندقية قد كبست.

- توقّفوا! هناك شخص ما يلاحقنا، وهو ينتظر الفرصة المؤاتية؛ ليفتح النار علينا.

- لعلهم رأوا قاربنا يرسو على الشاطئ؟ - تمتم كارمو بقلق. - إن لهؤلاء الإسبان جواسيس في كل مكان.

كان القبطان يحمل سيفه بيمينه، ومسدّساً بيساره، التفّ حول كومة الأوراق تلك دون أن يصدر أي ضوضاء. وفي لحظة رآه كارمو وستيلر وهو يثب بخفة، ثم ينقض بقفزة واحدة على شخص ما، كان قد نهض للتو من بين الشجيرات. كان هجوم القرصان مفاجئاً وعنيفاً حتّى إن الرجل الذي كان مختبئاً قد تدحرج بفعل الضربة التي وجّهها له القرصان في وجهه بمقبض السيف.

باغت كارمو وستيلر الرجل، سارع الأول في أخذ البندقية التي سقطت منه دون حتّى أن يجد الوقت ليحشوها، بينما كان الآخر يوجّه مسدّسه على رأسه قائلاً له:

- إذا تحرّكت، فأنت ميت.

- يبدو أنه أحد أعدائنا - قال القرصان بعد أن انحنى ينظر إليه.

- إنه أحد جنود فان غولد الملعون، - أجاب ستيلر.

- ماذا كان يفعل مختبئاً هنا، يا ترى؟ إني متحمّس حقاً لمعرفة ذلك.

الإسباني الذي كان لا يزال مشوّشاً بفعل ضربة مقبض سيف القرصان صار يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً، محاولاً النهوض.

- اللعنة! - تمتم بصوت مرتجف. - لعلّي وقعت بين أيدي الشياطين؟

- لقد أصبت، - أجاب كارمو - بما أنكم تتندّرون بتسميتنا هكذا نحن القراصنة.

جفل الإسباني من شدة الخوف حتّى إن كارمو شعر بذلك.

- لا تجعل الخوف يتملّكك الآن - قال له كارمو ضاحكاً. - وفّره إلى وقت لاحق، حينما ستتدلّى راقصاً الفندنغو بفوضوية في الفراغ، وغصن قنّب شديد يلتفّ حول عنقك.

التفت كارمو صوب القرصان الذي كان يراقب الأسير بصمت، وسأله:

- أقتله، يا سيدي؟

- كلا - أجاب القبطان.

- تفضّل أن نشنقه على أغصان تلك الشجرة؟

- ولا حتّى هذا.

- لعلّه أحد أولئك الذين ساهموا في شنق «أخوة الشاطئ» والقرصان الأحمر، يا سيدي.

ما إن جاء ذكر أخيه حتّى ومض بريق في عيني القرصان سرعان ما خبا.

- لا أريده أن يموت، - قال بصوت حاد. - قد يكون أكثر نفعاً لنا حياً من كونه مشنوقاً.

- إذنْ؛ لنحسن وثاقه،- أجاب البحّاران.

- نزع كل منهما عصابة الصوف الحمراء التي كان يتحزّم بها، وشدّا بهما يدي السجين، دون أي مقاومة منه.

- والآن لنر مَن تكون، - قال كارمو.

ثم أشعل قطعة من فتيل مدفع كان يحملها في جيبه، ودنا بها إلى وجه الإسباني. كان المسكين الذي وقع بين أيدي قراصنة التورتو المرعبين رجلاً يقارب الثلاثين من العمر، فارع الطول ونحيفاً كحال ابن جلدته دون كيشوت، وجهه مضلّع، وتعتليه لحية حمراء اللون، عيناه رماديتان، اتسعتا من شدة الخوف. كان يرتدي معطفاً من الجلد الأصفر المزيّن، سروالاً قصيراً وواسعاً مخططاً بالأسود والأحمر، وحذاء طويلاً من الجلد الأسود. تعتلي رأسه خوذة من الحديد الصلب، تزيّنها ريشة متهرّئة، في حين يتدلّى من حزامه سيف طويل، أصاب الصدأ الشديد أطراف غمده.

- قسماً بشفيعي بعلزبول، - هتف كارمو ضاحكاً، - إذا كان كلّ جنود حاكم ماراكايبو مثل هذا الجندي، فهذا يعني أنه - بالتأكيد - لا يطعمهم الدجاج، لأن هذا أنحف من سمكة مجفّفة. أعتقد أن من الأفضل شنقه، يا قبطان.

- لم آمر بشنقه - أجاب القرصان. ثم جسّ الأسير بطرف سيفه، وقال له:

- والآن، تكلّم، إذا أردتَ البقاء حياً.

- أنا ميت، لا محال- أجاب الإسباني - لا أحد يخرج حياً من بين أيديكم، وحينما سأحكي لكم ما تودّون معرفته، هذا لا يعني - بالتأكيد - أنكم ستوفّرون حياتي.

- إن الإسباني يتحلّى ببعض الشجاعة - قال ستيلر.

- سيكون كلامه ضمان العفو عنه - قال القرصان، ثم أضاف - هيا، تكلّم.

- كلا- أجاب الأسير.

- لقد أعطيتُك الأمان؟

- وكيف لي أن أصدّقك؟

- كيف؟! ... ألا تعرف مَن أنا؟

- لا بد أنك أحد أولئك القراصنة.

- أجل، ولكن اسمه القرصان الأسود .

- يا سيدتي، يا حامية غوادالوب - هتف الإسباني، وقد تغيّرت سحنته
- القرصان الأسود هنا!... هل جئتَ لتبيدنا كلنا، وتنتقم لأخيك القرصان الأحمر؟

- أجل - أجابه القرصان بصوت كئيب - إن لم تتكلّم، سأبيدكم كلكم، ولن يبقى من ماراكايبو حجراً واحداً.

- يا كلّ القدّيسين! ... أنت هنا؟ - كان يردّد الإسباني الذي لا يزال مشوّشاً من شدة الفزع.

- تكلّم!...

- أنا رجل ميت، ما الفائدة إذا تكلّمتُ؛ إذنْ؟!.

- اعلم أن القرصان الأسود رجل نبيل، والرجل النبيل لا يخلف بوعده - أجابه القرصان بصوت مهيب.

- إذنْ؛ سل ما شئتَ، يا سيدي.

-٣-

الأسير

رفع ستيلر وكارمو الأسير بإشارة من القبطان، وأجلساه تحت جذع شجرة دون أن يفكّا قيده، وإن كانا واثقين أنه لن يحاول الهرب. جلس القرصان أمامه فوق أحد الجذور البارزة من الأرض كأفعى عظيمة، بينما كان البحّاران يحرسان المكان خشية أن يكون هناك أحد ما برفقة الجندي.

- أخبرني الآن - سأله القرصان بعد لحظات صمت - ألا يزال أخي معلّقاً؟

- أجل- أجاب الأسير. - لقد أمر الحاكم أن يبقى معلّقاً ثلاثة أيام وثلاث ليال قبل أن تُرمى جثته في الغابة طعاماً للوحوش.

- أتعتقد أن من الممكن سرقة الجثة؟

- أعتقد ذلك، بما أن ساحة غرناطة لا يحرسها ليلاً سوى حارس واحد، فبطبيعة الحال، ليس للخمسة عشر المشنوقين أن يفرّوا.

- خمسة عشر! ... - هتف القرصان بنبرة قاتمة. - إذنْ؛ فان غولد الشرس لم يُبق على أحد منهم؟

- أجل.

- ألا يخشى انتقام قراصنة التورتو؟

- إن ماراكايبو مجهّزة بالجيوش والمدافع.

لاحت ابتسامة ازدراء على شفتي القرصان المقدام.

- وهل تظنّ أن المدافع تُخيفنا؟ - قال القرصان - إن حرابنا تفوقها بكثير،

لقد رأيتُم ذلك في هجومنا على سان فرانسيسكو دي كامباكي، وعلى سان أغوسطينو ديلا فلوريدا، وفي معارك أخرى.

- أنت على حق، ولكن فان غولد في مأمن من كل خطر في ماراكايبو.

- أتعتقد ذلك؟! ... حسناً، سنرى ذلك حينما سأهجم عليكم مع الأولونيزي.

- ستهجم مع الأولونيزي! ... - هتف الإسباني مذعوراً. ولكنْ؛ يبدو أن القرصان لم ينتبه للخوف الذي اعترى الإسباني؛ إذ أكمل حديثه، وقد تغيّرت نبرة صوته:

- ماذا كنتَ تفعل هنا في الغابة؟

- كنتُ أراقب السواحل.

- أكنتَ وحدك؟

- أجل، وحدي.

- فأنتم تخشون مباغتتنا، إذنْ؟

- لا أنكر ذلك، وقد نبّهنا أحدهم برؤيته لسفينة غريبة في الخليج.

- أتقصد سفينتي؟

- إذا كنتَ أنت هنا، فلا بد أن تكون تلك هي سفينتك.

- وهل قام الحاكم بتحصين المدينة؟

- لقد قام بأكثر من ذلك، لقد بعث بعض الأشخاص لتنبيه الأميرال.

هذه المرة كان القرصان هو مَن انتابته رجفة، إن لم تكن بدافع الخوف، فبدافع القلق حتماً.

- آه! ... - هتف القرصان وقد شحبت سحنته - لعل سفينتي في خطر داهم؟

ثم هزّ القرصان كتفيه، وأضاف:

- حسناً، حينما تصل سفن الأميرال الحربية، سأكون أنا حينها على متن الفولغورا.

ثم نهض فجأة، صفّر مناديا البحّارين اللذين كانا يحرسان المكان، وقال لهما:

- لنرحل.

- وماذا سنفعل بهذا الرجل؟ - سأله كارمو.

- اجلباه معكما، وإن هرب، فستدفعان الثمن غالياً.

- يا رعود هامبورغ - هتف ستيلر - سأمسكه من رقبته حتّى لا يخطر في باله أن يهرب.

جعلوا يمشون واحداً خلف الآخر، كارمو في المقدّمة، وستيلر في المؤخّرة خلف الأسير؛ كي لا يغفل عنه أبداً. بدأت خيوط الفجر تلوح في الأفق، وصار الظلام يتبدّد أمام أضواء الصباح الوردية التي صبغت السماء، والتي بدأت تنتشر حتّى بين جذوع الأشجار العظيمة تلك. استيقظت القردة التي يكثر تواجدها في أمريكا الجنوبية، في فنزويلا على وجه الخصوص، وملأت الغابة بغريب صراخها. انتشرت تلك القردة على نخل الآساي ذات الجذع الطويل والجميل، وبين الأوراق الخضراء لأشجار القابوق، ووسط النباتات التي تلتفّ حول جذوع الأشجار، إمّا معلّقة على أغصان الشجر، أو وسط نبتات البروميليا بأغصانها المحمّلة بالأزهار.

تتواجد هناك مجموعة صغيرة من الميكو، القردة الأكثر جمالاً وذكاءً

وحذقاً، رغم صغر حجمها، حتّى إنها يمكن أن تُخبّأ في جيب الجاكيت. ثم على مسافة منها تتواجد قردة حمراء، تكبر السنجاب بقليل، تحيط رؤوسها لبدة، تجعلها تشبه صغير الأسد، ثم كانت هناك مجموعة أخرى من القردة النحيفة، ذات الأطراف الطويلة التي تجعلها تشبه عنكبوتاً عظيماً. هذه الحيوانات التي كان لديها هوس تخريب كل شيء، كانت هي الرعب الذي يسيطر على المزارعين المساكين.

كانت هناك الطيور أيضاً، والتي تضمّ صراخها إلى صراخ القردة. تنتشر الببغاوات ما بين أوراق الأشجار الكبيرة، والتي تستخدم في صنع القبّعات الخفيفة والجميلة في باناما، أو ما بين نبتات لارانسيا ذات الأزهار التي تبعث عطراً حاداً جداً، أو فوق نخلة الكواريزما ذات الأزهار الأرجوانية. وكانت ببغاوات الماهيتاكو الصغيرة الحجم تغرّد بأعلى صوتها، وهي نوع من الببغاوات ذات رأس سمائي اللون. ثم كانت تغرّد ببغاوات المكاو أيضاً، وهي ببغاوات كبيرة الحجم وحمراء اللون، والتي تصرخ عالياً "آرا آرا" من الصباح حتّى المساء دون هوادة. وكذلك الكوراديرة، والتي تسمّى - أيضاً - الطيور البكّاءة، ذلك أن صراخها يشبه البكاء، فتبدو وكأنها تتذمّر دائماً. كان القراصنة وأسيرهم الإسباني معتادين على التجوال في غابات القارة الأمريكية وغابات جزر خليج المكسيك، لذلك لم يتوقّفوا للاستمتاع بالنظر لهذه النباتات، أو لتلك القردة والطيور، بل كانوا يحثّون السير ما أمكنهم، باحثين عن الطرق المفتوحة والخالية من الحيوانات المفترسة والهنود؛ لكي يخرجوا بأسرع وقت ممكن من هذه الفوضى النباتية، ويصلوا إلى ماراكايبو.

كان القرصان كئيباً وغارقاً في تأملاته، كما هي عادته دائماً، حتّى حينما يكون على متن سفينته، أو في الولائم الصاخبة مع قراصنة التورتو. كان ملتحفاً بعباءته، ومسدلاً قبّعته على عينيه، يده اليسرى مسندة على مقبض السيف، يسير خلف كارمو دون أن ينظر إلى رفيقيه، أو إلى السجين، وكأنه يجول في الغابة وحده. كان رفيقاه على دراية بطبيعته تلك، لذلك لم يتجرأ أحدهما

على سؤاله، أو مقاطعة لحظة تأملاته تلك. كل ما كان يقومان به هو تبادل الآراء بصوت خافت حول الاتجاه الذي يجب سلكه، ثم يسرعان الخطى، مروراً بين تلك الشباك النباتية الواسعة، بين جذوع النخيل وأشجار الجاكاراندة وأشجار الماساراندوبة؛ حيث يسبّب حضورهم هرع الطيور المسمّاة الطنان، أو الطير الذبابة، بريشه اللامع الزرقة، ومنقاره الأحمر الناري اللون.

كانوا يسيرون مسرعين منذ ساعتين تقريباً، وإذا بكارمو يتوقّف، عاين الأرض والأشجار غير مرة، وبعد لحظة من التردد، أشار إلى بقعة، تغطّيها أشجار الكاجو، وهي أشجار بأوراق صلبة، تطلق أصواتاً غريبة عند مهبّ الريح.

- إنه هنا، يا ستيلر، أليس كذلك؟ - سال كارمو - لا أظنني مخطئ في تقديري.

في تلك الأثناء، وصلت إلى مسامع البحّارة صدى أنغام موسيقية عذبة، تخرج من تلك البقعة، وكأنها تصدر عن فلوت ما.

- ما هذا؟ - سأل القرصان بعد أن رفع رأسه، وأزال عنه العباءة.

- إنه فلوت موكو،- أجاب كارمو، وابتسامة ترتسم على وجهه.

- ومَن يكون موكو هذا؟

- إنه الزنجي الذي ساعدنا على الهرب، يقع كوخه وسط هذه الأشجار.

- ولماذا يعزف؟

- قد يكون منهمكاً في تدريب ثعابينه.

- أهو ساحر ثعابين؟

- أجل، يا قبطان.

- ولكن هذا الفلوت قد يفضح أمرنا.

- سآخذه منه، ثم نحرّر الأفاعي؛ لتذهب بنزهة في الغابة.

أمر القرصان بالتقدّم، ولكنه استلّ سيفه كأنه يخشى مفاجأة ما.

اقتحم كارمو تلك البقعة سالكاً طريقاً، يصعب تمييزها، ثم توقّف فجأة، وصرخ بدهشة ممزوجة باشمئزاز. كان هناك كوخ من الأغصان المتشابكة يغطّي سقفه سعف النخيل، وكأنه مخبئاً تحت الكوجيرا، وهي شجرة يقطين كبيرة عادة ما تظلّل أكواخ الهنود. كان يجلس أمام ذلك الكوخ زنجي ذو هيئة هرقلية. كان نموذجاً رائعاً للعنصر الإفريقي، طويل القامة عريض الصدر والمنكبين، تبرز عضلات ذراعيه وساقي،ه وهي تنمّ عن قوة عظيمة.

رغم شفتيه الكبيرتين وأنفه المسطّح ووجناته البارزة إلا أنه لم يكن قبيحاً، بل كانت تغلب عليه ملامح الطيبة والبراءة والطفولية، ولا يبدو عليه أي من تلك الملامح الغليظة التي تبدو عادة على الأفريقيين. كان جالساً على جذع شجرة، ويعزف الفلوت المصنوع من قصب البامبو الذي يبعث أنغاماً مطوّلة وعذبة، تولّد شعوراً بالاسترخاء، بينما كانت ترقص أمامه ثماني أو عشرة من الأفاعي الأكثر خطراً في أمريكا الجنوبية. كانت بينها بعض أفاعي الجاراراكا، تِبغية اللون مثلّثة الرأس، وذات عنق دقيق، وهي أفاعٍ سامة جداً حتّى إن الهنود يلقّبونها بالملعونة. ثم كانت بينها - أيضاً - أفاعي الناجا المسمّاة - أيضاً - يا يا، وهي سوداء اللون، وتبثّ سموماً صاعقة. ثم أفاعي البويجينيغا ذات الأجراس، وبعض الأوروتو، وهي أفاعٍ، تتشكّل على رأسها علامة الصليب بالخطوط البيضاء، وتسبّب لدغتها شللاً جزئياً.

حالما سمع الزنجي صرخة كارمو، رفع عينيه الكبيرتين، كأنهما بورسلان، دقّق النظر في البحّار، ثم أبعد الفلوت عن شفتيه، وقال له بدهشة:

- أهذا أنت؟ ... أنت هنا مجدداً! .. كنتُ أظنك الآن تبحر في الخليج، في مأمن من الإسبان.

- أجل، هذا أنا، ولكنْ؛ ... لينزع روحي الشيطان إن أنا تقدّمتُ خطوة واحدة تجاهك مع كل هذه الأفاعي حولك.

- إن أفاعيي لا تؤذي الأصدقاء - أجاب الزنجي ضاحكاً. - انتظر لحظة، يا رفيقي الأبيض، سأرسلها - الآن - إلى النوم.

تناول سلّة من الأوراق المضفورة، وأدخل فيها الأفاعي التي لم تُبد أيّ إعتراض، ثم غطّاها جيداً، ولمزيد من الحيطة، وضع فوقها صخرة كبيرة، ثم قال:

- بوسعك - الآن - دخول الكوخ، يا رفيقي الأبيض. هل جئتَ وحدك؟

- لا، جاء معي قبطان سفينتي، أخو القرصان الأحمر.

- القرصان الأسود ؟ ... أهو هنا؟ ... ماراكايبو كلها سترتجف، إذا علمت بذلك! ...

- اصمت، يا رفيقي الزنجي. هيّئ لنا كوخك، وسوف لن تندم على ذلك.

وصل عند ذلك القرصان والأسير وستيلر، حيّا بيده الزنجي الذي كان ينتظره عند مدخل الكوخ، ثم دخل خلف كارمو قائلاً:

- أهذا هو الرجل الذي ساعدك على الفرار؟

- أجل، يا قبطان.

- لعله يكره الإسبان؟

- مثلنا تماماً.

- أيعرف ماراكايبو؟

- تماماً كما نعرف نحن التورتو.

التفت القرصان، وصار يتأمل الجسم العضلي لسليل أفريقيا، ثم أضاف، كما لو كان يكلّم نفسه:

- هذا هو الرجل الذي كنتُ أبحث عنه.

ألقى نظرة في الكوخ، وقع تحت ناظره كرسي خشن مصنوع من الأغصان، فجلس عليه، وعاد غارقاً في تأملاته.

في الوقت ذاته، قام الزنجي بجلب بعض الفطائر المجهّزة من طحين البفرة، وهو طحين مستخرج من أغصان سامّة، ولكنها تفقد سمّها بعد أن تُبشر، وتُعصر، وبعض فواكه الأنونة التي تحتوي تحت قشرتها على كريم أبيض لذيذ جداً، ثم جلب - أيضاً - الكثير من الموز المسمّى بالموز الذهبي، وهو من أصغر أنواع الموز، ولكنه لذيذ جداً، ومغذّ. إضافة إلى هذا كلّه، جلب - أيضاً - يقطينة مليئة بالبولكوه، وهو مشروب مخمّر، يُستخرج بكميات كبيرة من الصّبّار.

جلس البحّارة الذين لم يأكلوا قطعة خبز طوال الليلة الفائتة، وجعلوا يأكلون بشره دون أن ينسوا إطعام الأسير الإسباني. بعد أن انتهوا من الطعام، ارتموا على أفرشة من أوراق الأشجار، كان قد هيأها الزنجي في الكوخ، وناموا بسكينة، كما لو كانوا في آمن مكان في الأرض.

كان موكو يحرسهم بعد أن أحسن وثاق الأسير الذي عهد به إليه رفيقه الأبيض. لم يتحرّك أي من القراصنة الثلاثة طوال النهار، ولكنْ؛ حالما حل الظلام، هبّ القرصان الأسود فجأة، وقد أصبح أكثر شحوباً من المعتاد، واتّقد في عينيه بريق حزن. جال بخطوات مضطربة في الكوخ، مرتين، أو ثلاث، ثم توقّف أمام الأسير، وقال له:

- لقد وعدتُك ألا أقتلك، بينما كان بوسعي أن أشنقك على أول شجرة في الغابة، يجب عليك - إذنْ - أن تخبرني فيما إذا كان بوسعي دخول قصر الحاكم دون أن يلتفّ لي أحد.

- أتودّ الذهاب لاغتياله انتقاماً لأخيك القرصان الأحمر؟

- اغتياله! ... - هتف القرصان بغضب. - أنا أقاتل، ولكنْ؛ لا أقتل غدراً؛ لأني رجل نبيل. أجل، سأدعوه إلى المبارزة، ولكنْ؛ لن أغتاله.

- لكن الحاكم رجل متقدّم في السّنّ، بينما أنت لا تزال شابا يافعاً، يا سيدي. على أي حال، ليس بوسعك أن تدخل إلى سكناه دون أن ينتبه إليك الجند الذين يقومون على حراسته.

- يقال إنه شجاع.

- كالأسد.

- هذا جيد، أرجو أن ألاقيه قريباً.

التفت إلى البحّارين اللذين نهضا، ثم قال لستيلر:

- أنت ستظل هنا لحراسة هذا الرجل.

- ولكنْ؛ سيكفيننا الزنجي ذلك، يا قبطان.

- كلا، الزنجي قويّ كهرقل، وسأحتاجه - حتماً - في نقل جثمان أخي. هيا، يا كارمو، لنذهب لاحتساء قنّينة خمر إسباني في ماراكايبو.

- لتلتهمني أسماك القرش! ... أفي مثل هذه الساعة، يا قبطان؟! - هتف كارمو.

- أأنت خائف؟

- إذا كنت أنت بصحبتي، فبوسعي النزول إلى العالم السفلي، وسحب السيد بلزعبول من أنفه، ولكني أخشى أن يتعرّفوا عليك.

ارتسمت ابتسامة استهزاء على شفتي القبطان.

- سنرى ذلك - قال - هيا بنا.

-٤-

مبارزة في الحانة

كانت ماراكايبو من أهمّ المدن الإسبانية على ساحل الخليج المكسيكي، على الرغم من أن عدد سكانها لا يتجاوز العشرة آلاف نسمة. تقع تلك المدينة على أطراف جنوب خليج ماراكايبو، مقابل المضيق الذي يصبّ في البحيرة الواسعة التي تحمل الاسم ذاته، والتي تمتدّ في القارة، لعدّة أميال، وتحتل موقعاً إستراتيجياً سرعان ما أكسبها أهمّيّة كبيرة، وقد كانت تُستخدم كمركز تجاري لجميع السلع والمنتجات من فنزويلا. شيّد فيها الإسبان قلعة ضخمة، نُصبت عليها العديد من المدافع، في حين وضعوا حاميات على الجزيرتين اللتين تطلان على أحد جوانب الخليج؛ ليحمياها من خطر الهجمات المفاجئة لقراصنة التورتو.

لقد شيّد المغامرون الأوائل - حال وصولهم إلى تلك السواحل - أبنية جميلة في المدينة، ثم كانت هناك بعض القصور أيضاً، والتي شيّدها المهندسون الإسبان الذي قدموا من إسبانيا بحثاً عن الثروة في العالم الجديد. كانوا ينعزلون عن الأماكن العامة، ويجتمعون في تلك القصور؛ حيث يلتقي أصحاب المناجم الأثرياء؛ ليقيموا - في كل الفصول - حفلات لرقص الفندانغو والبوليرو.

دخل القرصان ورفيقاه، كارمو والزنجي، إلى مدينة ماراكايبو دون أن يلاحظهما أحد. كانت الشوارع لا تزال مزدحمة، والحانات التي تبيع خمور ما وراء الأطلسي، تكتظ بمرتاديها، ذلك أن الإسبان - حتّى في مستعمراتهم - لم يتخلّوا عن عادتهم في شرب النبيذ الجيد المنتج في مالاغا، أو كسيريس الإسبانيتين. أبطأ القرصان في سيره، ورغم ارتفاع درجة الحرارة في ذلك

المساء، فقد كان القرصان ملتحفاً بعباءته، وقد أنزل قبّعته على عينيه، وأسند يساره على مقبض السيف، وكان ينظر بانتباه إلى الطرق والمنازل، كما لو أنه يريد طباعتها في ذهنه. حال وصولهم إلى ساحة غرناطة التي كانت مركز المدينة، توقّف في ركن أحد البيوت مستنداً إلى الجدار، كما لو أن ضعفاً أصاب ذلك المقدام جوال الخليج.

كان منظر الساحة حزيناً جداً حتّى إنه قد يثير مشاعر أشد الرجال لا مبالاة على وجه الأرض. تتدلّى خمس عشرة جثة من على خمس عشرة مشنقة، تشكّل شبه دائرة أمام قصر، يرفرف فوقه العلم الإسباني. كانت جميع الجثث عارية القدمين سوى واحدة كانت ترتدي لباساً أحمر كالنار، وحذاء بحرٍ طويلاً. تحوم فوق تلك المشانق أسراب من الجوارح، يبدو أنها تنتظر تفسّخ جثث أولئك المساكين بفارغ الصبر؛ لكي تنقض على لحومهم. اقترب كارمو من القرصان، وقال له بصوت خافت:

- ها هم رفاقنا.

- أجل - أجاب القرصان بصوت كئيب. - إنهم يناشدوننا الانتقام لهم، وسننتقم لهم قريباً..

تنحّى عن الجدار بجهد كبير، أحنى رأسه فوق صدره، كما لو أنه يحاول إخفاء مشاعره الجيّاشة التي أربكت ملامحه، ثم ابتعد على عجل؛ حيث دخل في حانة عادة ما يجتمع فيها المؤرقون؛ ليحتسوا ما طاب لهم من كؤوس الخمر. وجد طاولة شاغرة، فجلس على الكرسي، أو ربما هوى بنفسه على الكرسي، دون أن يرفع رأسه، بينما كارمو يصرخ:

- ناولني كأساً من أفضل ما لديك من نبيذ كسيريس، أيها الساقي الخسيس! ... إذا لم يكن أصلياً، فإني - حتماً - سأقصّ أذنيك ... لقد سبّبتْ لي ريح الخليج عطشاً شديداً حتّى إني قد أحتسي كل ما لديك.

هذه الكلمات التي تلفّظها كارمو بلهجة البحّارة جعلت صاحب الحانة يجلب وبسرعة أفضل ما لديه من النبيذ. ملأ كارمو ثلاثة كؤوس، لكن القرصان كان غارقاً في أفكاره الحزينة حتّى إنه لم يمسّ كأسه.

- يا إلهي - همس كارمو منبّهاً الزنجي - يبدو أن القرصان في غاية الغضب، وأنا حقاً لا أود أن أكون مكان الإسبان. أقسم أن المجيء إلى هنا لهو تحدّ كبير، ولكن هذا الرجل لا يخشى شيئاً.

جال كارمو بنظره في المكان، وقد اعتراه الفضول، وشيء من الخوف، فالتقت عيناه عيون خمسة أشخاص، يتقلّدون سكاكين النافاجا الإسبانية الكبيرة الحجم، وكانوا ينظرون إليه بتوجّس.

- يبدو أنهم كانوا ينصتون إلي - قال للزنجي - مَن هؤلاء؟

- إنهم باسكيون، وهم يعملون تحت إمرة الحاكم.

- أبناء بلدي مجنّدون تحت راية أخرى! إذا كانوا يظنّون أنهم يخيفونني بسكاكينهم هذه، فهم مخطئون.

في تلك الأثناء، أنهى أولئك الأشخاص سجائرهم التي كانوا يدخّنونها، ثم شربوا بعض أقداح المالاغا، وجعلوا يتحدثون بصوت عال؛ لكي يثيروا انتباه كارمو بأحاديثهم:

- أرأيتم المشنوقين؟ - ... سأل أحدهم.

- لقد ذهبتُ لأراهم هذا المساء أيضاً - أجاب آخر - إنه لمشهد جميل هذا الذي توفّره لنا تلك الجيف! ... أحدهم يجعلك تتفجّر ضحكاً، ذلك الذي يتدلّى لسانه من فمه الكبير.

- والقرصان الأحمر؟ - سأل ثالث - لقد وضعوا في فمه سيجارة، لجعله يبدو أكثر إثارة للسخرية.

- أما أنا؛ فأود أن أضع مظلّة بين أيديهم؛ ليحتموا من شمس الغد، لنرى ...

هوت قبضة يد ما على الطاولة بقوة حتّى إنها جعلت الأقداح تتأرجح، وقطعت جملة المتكلم الأخير.

كارمو الذي لم يتمكّن من السيطرة على أعصابه، وقبل أن يخطر في ذهن القرصان إيقافه، نهض فجأة، وضرب الطاولة المجاورة تلك الضربة القوية.

- يا إلهي العظيم! - صرخ كارمو - أيّ شجاعة تلك في السخرية من الأموات! الشجاعة الحقيقية، يا فرساني الأعزاء، هي في السخرية من الأحياء!

نهض الأشخاص الخمسة الذين أدهشهم الغضب المفاجئ لهذا الشخص الغريب، واضعين أيديهم على سكاكينهم، ثم قال أحدهم، وكان دون شكّ الأكثر إقداماً بينهم، مقطباً حاجبيه:

- ومَن تكون أنت، أيها الفارس؟

- أنا باسكي طيّب، أحترم الموتى، ولكنْ؛ بوسعي أن أبقر بطون الأحياء أيضاً.

عند سماع هذا الجواب، ضحك الأشخاص الخمسة بدلاً من أن يأخذوه على محمل الجد، ممّا أدى إلى ازدياد فورة غضب البحّار.

- آه! هكذا إذنْ - قال البحّار، وقد شحبت سحنته من شدة الغضب.

نظر إلى القرصان الأسود الذي لم يتحرّك من مكانه، كما لو أن هذا الشجار لا يعنيه، ثم مدّ يده تجاه الشخص الذي سأله، ودفعه بغضب صارخاً به:

- لتجابه ذئب البحر، أيها الكلب!...

سقط الرجل الذي دفعه كارمو على طاولة قريبة، ولكنه سرعان ما هبّ

واقفاً، وقد سحب سكينه من حزامه، وفتحها، فأصدرت صوتاً حاداً. كاد يهجم على كارمو، ويغرس السكّين فيه لولا أن الزنجي، الذي كان مجرد مشاهد، هبّ - فجأة - إثر إشارة من القرصان، ووقف بين المتشاجرين حاملاً كرسياً من الخشب والحديد مهدّداً:

- قف، وإلا حطّمتُ رأسك!... - صرخ بوجه الرجل.

حالما رأى الباسكيون الخمسة هذا العملاق الأسود كالفحم بعضلاته الهائلة، تقهقروا؛ كي لا يحطّمهم هذا الكرسي الذي يرتفع في الهواء فوق رؤوسهم.

جاء عشرة أو خمسة عشر من الرجال راكضين حالما سمعوا بهذا الشجار، يتقدّمهم رجل متقلّداً حسامه، وكان رجلاً متسلّطاً، يعتمر قبّعة عريضة، تتدلّى منها ريشة نحو إحدى أذنيه، ويغطّي صدره درع جلدي قديم.

- ماذا يجري هنا؟ - سأل بخشونة، وقد استلّ حسامه بحركة درامية.

- ما يحدث هنا، أيها الفارس العزيز - قال كارمو، وقد انحنى بطريقة هزلية - لا يعنيك مطلقاً.

- آه! ... قسماً بكل القدّيسين - صرخ الرجل المتسلّط مقطباً حاجبيه - يبدو أنك لا تعرف دون غامارا ميراندا، شريف بادايوز، نبيل كامارغوا، وفيسكونت ...

- فسيكونت بيت الشيطان، - قال القرصان الأسود، وقد نهض فجأة، وهو يحدّق في الرجل. - أليس كذلك، أيها الفارس، الكونت، الماركيز، الدوق، إلخ؟...

ازداد احمرار سيد غامارا والأماكن الأخرى، ثم شحب وجهه، وقال بصوت خافت:

- قسماً بكل ساحرات الجحيم!... لا أعرف ما يمنعني من إرسالك إلى الجحيم لترافق هذا الكلب القرصان الأحمر ورفاقه الأربعة عشر الذين يعرضون الآن مشهداً جميلاً في ساحة غرناطة.

هذه المرة، كان القرصان هو مَن شحبت سحنته بشكل رهيب. وبإيماءةٍ منه، أوقف كارمو الذي كاد ينقضّ على الرجل، خلع عباءته وقبّعته، وبحركة خاطفة، استلّ حسامه، وقال بنبرة غضب:

- الكلب هو أنت، وستكون أنت مَن يرافق المشنوقين، أيها الملعون.

أومأ إلى الحضور بأن يفسحوا المجال، ثم وقف أمام خصمه في موضع الدفاع بأناقة وثقة، هزّت خصمه.

- هيا، يا كونت بيت الشيطان - قال، وقد كزّ على أسنانه - أحد ما سيسقط قتيلاً خلال لحظات.

اتّخذ الخصم موضع الدفاع، ثم استوقف القرصان قائلاً:

- لحظة، أيها الفارس، قبل أن يلتقي السيفان، فإن من حقّ المبارز أن يعرف اسم خصمه.

- إن نسبي أشرف من نسبك، أيكفيك هذا؟

- كلا، ما أريد معرفته هو الاسم.

- أتريد ذلك حقاً؟ ... حسناً، ولكن هذا أسوأ بالنسبة لك، فبعد قليل لن تستطيع الوقوف بوجه لأحد.

دنا منه، وهمس في أذنه بعض الكلمات. صرخ الخصم دهشة، وربما خوفاً أيضاً، ثم تراجع خطوتين، كما لو أنه يحاول الاستنجاد بالحضور، أو أن يفشي لهم السر، لكن القرصان الأسود انقضّ عليه بحيوية مجبراً إياه على الدفاع عن نفسه. شكّل الحضور دائرة حول المتبارزين. كان كارمو والزنجي

في الصفّ الأول، ولكنْ؛ لا يبدو أنهما قلقان من نتيجة المبارزة، على الأخصّ كارمو الذي كان يعرف مهارات القرصان جيداً.

منذ الضربات الأولى، أدرك دون غامارا أنه أمام خصم رهيب، مصمّم على قتله في أول زلّة، يلجأ إلى كل مهاراته في القتال؛ ليحتمي من الضربات المتتالية. على أن دون غامارا لم يكن أيّ مبارز، كان طويل القامة ضخم الجثة، وقوياً، يده ثابتة، وذراعه شديدة البأس، كان يقاوم طويلاً، ويبدو أن ليس من السهل كسر همّته. لكن القرصان الذي كان رشيقاً وخفيف الحركة لم يتح فرصة استراحة لخصمه، كما لو أنه يخشى أن يفضح أمره إذا ما حصل على فرصة سانحة. كان سيفه يهدّد الخصم دائماً، مجبراً إياه على دفع ضرباته باستمرار. كانت ذؤابة سيف القرصان تلمع في كل الاتجاهات، تضرب بقوة سيف الخصم، فيتطاير الشرر، وكانت حركاته السريعة كالبرق تُربك الرجل. بعد دقيقتين، صار الرجل يلهث، ويتباطأ رغم قوته الهرقلية. كان يشعر بالحرج من صدّ كل تلك الضربات التي يسدّدها القرصان، وصار يفقد هدوءه. صار يشعر أنه مهدّد بالموت حقاً، وقد ينتهي به المطاف برفقة المشنوقين في ساحة غرناطة. في حين كان القرصان يبدو وكأنه استلّ سيفه للتو، كان يقفز بخفة جاكوار، مسدّداً ضرباته بقوة متزايدة نحو الخصم. كانت عيناه فقط، واللتان يتّقد فيهما لهيب قاتم، تفصحان عن الغضب الذي يسكن أعماقه. تلك العينان اللتان لم يرفعهما لحظة واحدة من عيني الخصم، كما لو أنه يحاول أن يسحره، ويربكه. توسّعت دائرة المشاهدين؛ ليفسحوا المجال إلى الرجل الذي كان في تقهقر مستمرَ، مقترباً إلى الحائط أكثر.

كارمو الذي كان في الصفّ الأول صار يضحك، متوقّعاً النهاية القريبة لهذه المبارزة الرهيبة. فجأة وجد الرجل نفسه ملاصقاً للحائط، فشحبت سحنته، ورصعت جبينه قطرات كبيرة من العرق البارد.

- كفى ... - تحشرج بصوت منهك.

- لا - أجابه القرصان بنبرة مرعبة - يجب أن يُدفَن سرّي معك.

هجم الرجل بضربات يائسة، استجمع قواه قدر المستطاع، ثم هجم بثلاث، أو أربع طعنات متتالية، لكن القرصان الذي كان ثابتاً كالصخرة تلافاها بذات السرعة.

- الآن، سأسمّرك إلى الحائط - قال له القرصان.

علم الرجل الذي جنّنه الخوف أنْ لا مفرّ له، فجعل يصرخ قائلاً:

- النجدة! ... إن هذا هو الق...

لم ينه جملته. قاطعه سيف القرصان الذي اخترق صدره، مسمّراً إياه إلى الحائط.

طفح الدم من فمه، ولطخ درعه الجلدي الذي لم يكن كافياً لصدّ طعنة السيف الرهيبة تلك. فتح عينه، ونظر إلى خصمه نظرة رعب أخيرة، ثم هوى على الأرض بكل ثقله، وقد كسر نصل السيف الذي كان يسمّره إلى نصفين.

- لقد ذهب إلى الجحيم - قال كارمو بنبرة سخرية.

انحنى كارمو على الجثة، انتزع السيف من يده، وقدّمه إلى القرصان الذي كان يحدّق في الجثة بنظرة قاتمة، وقال له:

- بما أن سيفك قد انكسر، فخذ هذا إذنْ، بالآلهة عليك! إنه نصل طليطلي، كن واثقاً من ذلك، يا سيدي.

أخذ القرصان سيف القتيل دون أن يتفوّه بكلمة، تناول قبّعته، ورمى على الطاولة ديناراً ذهبياً، وخرج من المكان، يتبعه كارمو والزنجي، دون أن يجرؤ أحد على إيقافه.

-٥-

جثمان القرصان الأحمر

كان الظلام شديداً جداً حينما وصل القرصان ورفاقه إلى ساحة غرناطة حتّى إن ليس بوسع أحد تمييز الآخر على مسافة عشرين خطوة. يسود الصمت الساحة إلا من بعض صرخات النسور السوداء التي تحوم فوق المشانق. لم تعد تُسمع حتّى خطوات الخفير الذي يحرس قصر الحاكم، ذلك القصر العظيم المنتصب أمام المشانق. كان القرصان ورفاقه يختبئون خلف جدران البيوت تارة، وخلف جذوع الأشجار تارة أخرى، يتقدّمون ببطء وترقّب وحذر، وأيديهم على أسلحتهم؛ لكي يصلوا إلى المشانق دون أن يلاحظهم أحد. وحين يتردّد صدى ضوضاء ما، بين الحين والأخر، في تلك الساحة الكبيرة، فإنهم يتوقّفون، ويختبئون تحت ظلّ شجرة ما، أو تحت أقواس الأبواب المظلمة، ينتظرون بقلق أن يسود الصمت من جديد.

صاروا على مسافة بضع خطوات من المشنقة الأولى التي يتدلّى منها عارياً أحد رفاقهم، تهزّه نسمات المساء، حينما أشار القرصان، منبّهاً رفاقه، إلى هيئة إنسان يتحرك عند إحدى زوايا قصر الحاكم.

- قسماً بآلاف أسماك القرش - تمتم كارمو - إنه الخفير! ... هذا الرجل سيفسد علينا مهمّتنا.

- ولكن موكو قوي - قال الزنجي - سأذهب الآن، وأخطف هذا الجندي.

- وهكذا سيبقر بطنك، يا رفيقي.

ابتسم الزنجي، وقد انكشفت أسنانه البيضاء كالعاج، والتي كانت حادّة جداً حتّى إن سمك القرش قد يحسده عليها، ثم قال:

- إن موكو محتال، ويزحف مثل الأفاعي التي يسحرها.

- اذهب - قال له القرصان الأسود - أريد دليلاً على إقدامك قبل أن أصحبك معي.

- لك ذلك، يا سيدي. سأخطف هذا الرجل، كما كنتُ أخطف تمساح الجاكاري من البحيرة.

تناول الزنجي من حزامه حبلاً دقيقاً من الجلد المفتول، ينتهي بأنشوطة، كان وهقاً حقيقياً يشبه الوهق الذي يستخدمه رعاة البقر المكسيكيون لاصطياد الثيران. غادر المكان بصمت، ودون أن يثير أي ضوضاء. كان القرصان يختبئ خلف جذع شجرة، فصار يتأمّله بانتباه، معجباً بما أبداه من حزم في مواجهة رجل مسلّح رغم أنه لا يحمل أي سلاح.

- إن رفيقي هذا لجريء حقاً - قال كارمو.

أومأ القرصان برأسه مؤكداً ذلك دون أن يتفوّه بكلمة، بينما كان يراقب الأفريقي الذي يزحف على الأرض مثل أفعى، مقترباً على مهل من قصر الحاكم. ابتعد الحارس عن زاوية القصر متّجهاً نحو البوابة، كان يحمل مطرداً، ويتقلّد سيفاً. حينما رأى الجندي قد أدار ظهره، زحف موكو بسرعة أكبر، والوهق بيده، وحينما وصل على مسافة اثنتي عشرة خطوة، نهض على عجل، هزّ الحبل في الهواء مرتين، أو ثلاث، ثم رماه بيد ثابتة. تناهى إلى مسامع القرصان وكارمو أزيز خفيف، ثم صرخة مخنوقة، هوى الجندي على الأرض، وقد سقط المطرد من يده، وصار يتمرّغ كالمجنون. قفز موكو كالأسد، وانقضّ عليه، كمّم فمه بخرقة حمراء، كان يحملها في حزامه، أوثقه، ثم حمله، كما لو كان طفلاً صغيراً. أنجز موكو مهمّته بلحظات قليلة.

- هاهو - قال موكو رامياً الجندي عند قدمي القرصان.

- إنك رجل باسل - أجاب القرصان - اربطه إلى هذه الشجرة، واتبعني.

نفّذ الزنجي أمر القرصان، وقد ساعده كارمو في ذلك، ثم لحقا بالقرصان الذي كان يتفحّص الجثث المتدلّية من المشانق.

حينما وصل القرصان إلى وسط الساحة، توقّف أمام جثة رجل يرتدي لباساً أحمر، وزيادة في السخرية، فقد وضعت بين شفتيه قطعة سيجار. ما إن رآه القرصان حتّى صرخ برعب.

- الملاعين ... لقد أنعموا في احتقاره!

أنهى صوته الذي يبدو كزئير أسد بعيد بنشيج موجع.

- سيدي - خاطبه كارمو بصوت مضطرب - كن قوياً!

أشار القبطان نحو المشنوق.

- تحت أمرك، يا قبطان- أجابه كارمو.

تسلّق الزنجي المشنقة، وبين أسنانه حربة البحّار، قطع الحبل بضربة واحدة، ثم أنزل الجثة بتأنّ. كان كارمو تحته، ورغم أن جثة القرصان الأحمر بدأت تتفسّخ، فإن كارمو تناولها برقّة بين ذراعيه، ثم لفّها بالعباءة السوداء التي ناولها إياه القرصان.

- هيا لنذهب - قال القرصان بتنهيدة - لقد أتممنا مهمّتنا. إن البحر ينتظر جثمان الرجل الباسل.

تناول الزنجي الجثة، وحملها بين ذراعيه بعد أن لفّها بالعباءة جيداً، ثم بارح الثلاثة الساحة حزانى صامتين. عند وصولهم عند أطراف الساحة، التفت القرصان، ورمق بنظرة أخيرة ذلك المشهد الحزين للأربعة عشر الذين تتدلّى أجسادهم في الظلمات، ثم قال بصوت ملؤه الألم:

- وداعاً، أيها البواسل التعساء، وداعاً، يا رفاق القرصان الأحمر، أعدكم أن القراصنة سينتقمون لكم قريباً جداً.

ثم حدّق بنظرات يتطاير منها الشرر في قصر الحاكم الضخم الواقع في عمق الساحة، وأضاف بنبرة كئيبة:

- بيني وبينك السيف، يا فان غولد!...

عاودوا السير بعجل للخروج من ماراكايبو، والوصول إلى البحر للالتحاق بسفينة القرصان، فليس لديهم شيء يقومون به في تلك المدينة التي ما عادوا يشعرون بالأمان في شوارعها بعد مغامرتهم في الحانة. كانوا قد تجاوزوا ثلاثة، أو أربعة شوارع خالية، حينما لمح كارمو - الذي كان يسير في المقدّمة - ظلال بعض الرجال المختبئين تحت ظلام قوس أحد الأبواب.

- تمهّلوا - همس كارمو لرفاقه - إذا لم يصب عيناي العمى، فيبدو لي أن هناك أشخاصاً، ينتظروننا هناك.

- أين؟ - سأله القرصان.

- هناك في العمق.

- ربما هم رجال الحانة مجدّداً.

- اللعنة، لعلّهم الباسكيون الخمسة وسكاكينهم.

- إن خمسة أشخاص ليسوا بالكثيرين، بالنسبة لنا، سندفعهم ثمن كمنهم هذا غالياً - قال القرصان، وقد استلّ حسامه.

- أظنّ أن حربتي ستحسن مجابهة سكاكينهم - قال كارمو.

خرج ثلاثة رجال من الزاوية، يرتدون المعاطف، وسدّوا الجانب الأيمن من الرصيف، في حين خرج اثنان آخران كانا مختبئين وراء عربة مهملة، وسدّوا الجانب الأيسر منه.

- إنهم الباسكيون الخمسة - هتف كارمو - ها أنا أرى سكاكينهم تلمع في أحزمتهم.

- تولَّ أنتَ الاثنين على الجانب الأيسر، وأنا سأتولى أمر الثلاثة على الجانب الأيمن - أمر القرصان - أما أنت، يا موكو؛ فلا تنشغل بنا، خذ الجثمان، وتقدّم في الطريق السالك، وانتظرنا على أطراف الغابة.

نزع الباسكيون معاطفهم، ثم طووها، ووضعوها على الأذرع اليسرى، فتحوا سكاكينهم الطويلة بأنصلها الحادة كنصل السيف.

- آه، آه ... - قال الرجل الذي دفعه كارمو مسبقاً - يبدو أننا لم نخطئ التخمين.

- أفسحوا لنا الطريق - صرخ بهم القرصان، وقد تقدّم أمام رفاقه.

تقدّم أحدهم، وقال:

- مهلاً، أيها الفارس -

- ماذا تريد؟ ...

- معرفة شيء، يشغل بالنا.

- وما هو؟

- نودّ أن نعرف مَن أنت، أيها الفارس.

- أنا رجل يفتك بمَن يضايقه - أجاب القرصان بزهو، وهو يتقدّم والسيف في قبضته.

- إذنْ؛ فلتعلم، أيها الفارس، بأننا رجال، لا نهاب أحد، وليس لأحد أن يقتلنا مثل ذلك المسكين الذي سمّرته إلى الحائط. أخبرنا باسمك وبلقبك، وإلا فلن تخرج من ماراكايبو. نحن نعمل تحت إمرة الحاكم، ومن مسؤوليتنا معرفة الأشخاص الذين يتجوّلون في الشوارع في ساعة متأخّرة كهذه.

- إذا كنتَ تودّ معرفة اسمي، فتقدّم، واسألني عنه، إن كنت شجاعاً - قال القرصان، وقد اتّخذ وضع الدفاع - عليك بالاثنين على الجانب الآخر، يا كارمو.

استلّ البحّار سكينه، وتوجّه بحزم نحو الاثنين اللذين يسدّان الطريق من الجانب الآخر. لم يتحرّك الباسكيون الخمسة، بل كانوا ينتظرون هجوم البحّارين. كانوا واقفين، وقد فتحوا سيقانهم متأهّبين لأيّ تطوّرات في الأحداث، اليد اليسرى تضغط على الحزام، واليمنى تقبض على سكين النافاجا؛ حيث الإبهام مسند على الجزء العريض من النصل. كانوا ينتظرون اللحظة السانحة؛ ليهجموا بطعناتهم القاتلة.

يبدو أنهم كانوا رجالاً متمرّسين في فنّ القتال، لا تنقصهم معرفة الطعنات الشهيرة ولا المهينة التي تشوّه الوجوه، ولا الطعنات الخلفية تحت الضلع الأخير، والتي تقصم العمود الفقري.

حينما طال انتظارهم، هجم القرصان، الذي كان مستعجلاً لفتح الطريق، على خصومه الثلاثة، مسدّداً إليهم ضربات على اليمين وعلى الشمال، بسرعة البرق، بينما هجم كارمو بسكينه كالمجنون على الاثنين الآخرين. لم يثن ذلك من عزم المتمرّسين الخمسة الذي كانوا غاية في الخفّة، وكانوا يقفزون، ويصدّون الضربات بسكاكينهم العريضة تارة، وبمعاطفهم التي لفّوها حول أذرعهم تارة أخرى.

ضاعف البحّاران من حذرهما ،حينما وجدا أنهما أمام خصوم خطرين، ولكنْ؛ حالما اختفى الزنجي في ظلام الشارع مبتعداً عن موضع الخطر، عاودا الهجوم بعنف، لكي يتخلّصا منهم على عجل قبل أن يستقطب صليل سيوفهم بعض الحرس الذين قد يهبّون لنجدة الباسكيين. مهارة القرصان في المبارزة وسيفه الذي يفوق سكاكين الخصوم طولاً كانا يتيحان له السيطرة على الموقف، بينما سكين كارمو الذي كان قصيراً يجبره على اتخاذ موقف الدفاع. كان الرجال السبعة يقاتلون بعنف، ولكنْ؛ بصمت؛ لأنهم كانوا منشغلين تماماً في تسديد الضربات، أو صدّها. يتقدّمون تارة، ويتراجعون تارة أخرى، يقفزون إلى اليمين، ثم إلى اليسار، وقراع النصال يزداد قوة.

وفي لحظة، لمح القرصان أحد خصومه الثلاثة وقد فقد توازنه، وقام بحركة خاطئة كاشفاً بذلك صدره، فطعنه القرصان بحركة خاطفة.

- ها هو أولكم - قال القرصان موجّهاً كلامه للاثنين الآخرين - لحظات، وسأرديكما قتيلين أنتما أيضاً.

لم ينتاب الباسكيان أيّ خوف، بل كانا يقاومان دون أن يتراجعا خطوة واحدة. فجأة هجم الأكثر خفّة بينهما على القرصان، انحنى نحو الأرض، ثم دفع ذراعه المحمية بالمعطف، كأنه ينوي تسديد الطعنة التي تمزّق البطن، لكنه نهض فجأة، وحاول تسديد الطعنة القاتلة، التي تقصم العمود الفقري.

أسرع القرصان، وتنحى جانباً، ثم وجّه ضربة إلى الباسكي، فجاءت بالمعطف الملتفّ على الذراع. حاول في الأثناء أن يحتمي أيضاً من الطعنات التي كان يوجّهها الباسكي الآخر، لكنه سرعان ما صرخ غضباً. لقد انكسر نصل السيف بعد اصطدامه بذراع الرجل الملفوفة بالمعطف، والذي كاد يوجّه الطعنة القاتلة للقرصان. تقهقر إلى الوراء، وهو يلوّح بما تبقى من السيف، ثم صارخاً:

- إليّ، يا كارمو!...

لم ينته كارمو بعد من خصميه، وإن كان قد أرغمهما على التراجع حتّى زاوية الشارع، ولكنه - وفي ثلاث قفزات - وصل إلى القرصان.

- اللعنة - صرخ كارمو - يبدو أننا في مأزق! ... ليت الحظ يحالفنا للتخلّص من هذه الكلاب المسعورة.

- بوسعنا التخلّص من اثنين منهم - أجابه القرصان، ثم حشا - على عجل - المسدّس الذي كان معلّقاً في حزامه.

كاد القرصان أن يطلق النار على الأقرب من بين الرجال، وإذا به يرى ظلاً عملاقاً ينقضّ على الباسكيين الأربعة الذين تجمّعوا قرب بعضهم البعض

واثقين من النصر. هذا الرجل الذي وصل في الوقت المناسب كان يحمل معه خشبة كبيرة.

- موكو!... هتف القرصان وكارمو.

ولكنْ؛ بدلاً من أن يجيبهم، رفع الزنجي الخشبة، وصار يضرب الخصوم بعنف حتّى طرحهم أرضاً بلمح البصر، فمنهم مَن حطّم رأسه، ومنهم من هشّم أضلاعه.

- شكراً، يا رفيقي - صرخ كارمو - ياللروعة! أيّ هجوم هذا!.

- لنهرب - أمر القرصان- ليس لدينا شغل هنا.

بدأ بعض السكان الذين استيقظوا على صراخ الجرحى يشرعون النوافذ لمعرفة ما كان يجري. ولكن البحّاران والزنجي كانوا قد غادروا الشارع على عجل بعد أن تخلّصوا من خصومهم الخمسة.

- أين وضعت الجثة؟ - سأل القرصان الزنجي.

- إنها خارج المدينة الآن. - أجاب الزنجي.

- شكراً لمساعدتك لنا.

- لقد خطر في ذهني أن تدخّلي قد يكون مجدياً، لذلك أسرعت في العودة.

- هل التقيت أحداً ما على أطراف الحي؟

- لم أرَ أحداً.

- إذنْ؛ لنسرع في الهرب قبل أن يصل خصوم آخرون - قال القرصان.

لم يبتعدوا كثيراً بعد حتّى هتف كارمو الذي انطلق أمامهم ليستكشف الطريق، قائلاً:

- هناك فرقة تتّجه نحونا، يا قبطان!...

- من أي جانب؟

- من ذلك الشارع.

- لنسلك شارعاً آخر، إذنْ. أشرعوا أسلحتكما، وتقدّما، أيها الشجاعان.

- لكنك غير مسلّح، يا قبطان.

- اذهب، وجرد الباسكي الذي قتلته من سلاحه، ستنفعنا سكين النافاجا؛ إذ ليس لدينا غيرها.

- إذا سمحت لي، فإني سأعطيك حربتي، يا قبطان، فأنا أجيد استعمال تلك السكاكين الطويلة.

قدّم البحّار الشجاع سكّينه للقرصان، ثم عاد أدراجه، والتقط سكّين أحد الباسكيين؛ لتكون سلاحاً فعالاً في يده. كانت الفرقة تتقدّم بسرعة، ربما لأنهم سمعوا صراخ المتبارزين وصليل السيوف. بدأ البحّاران، يتقدّمهما موكو، بالركض جنب جدران البيوت، قطعوا ما يقارب المائة والخمسين خطوة، وإذا بهم يسمعون مسيراً منتظماً لفرقة أخرى.

- اللعنة - هتف كارمو.

- لقد حوصرنا.

توقّف القرصان، وأمسك بسكّين البحّار القصير.

- لعل أحداً ما وشى بنا - تمتم.

- يا قبطان - صاح الزنجي - إني أرى ثمانية رجال مسلّحين بالمطارد وبالبنادق يتقدّمون باتجاهنا.

- يجب أن لا نجعلهم يتمكّنون منا بسهولة، يا أصدقائي - قال القرصان.

- نحن تحت أمرك، يا قبطان، أخبرنا بما علينا فعله - أجاب البحّار والزنجي بحزم.

- موكو.

- أجل، سيدي.

- ستتكفل أنت بنقل جثمان أخي إلى السفينة، هل أنت قادر على فعل ذلك؟ ستجد سفينتنا على الساحل، وهكذا ستنجو أنت وستيلر.

- حسناً، يا سيدي.

- أما نحن؛ فسنحاول جهدنا للتخلّص من أعدائنا، ولكنْ؛ إذا تمكّنوا منا، فإن مورغان يعرف ما يتوجّب عليه فعله. اذهب، واحمل الجثة إلى السفينة، ثم عد إلينا؛ لترى فيما إذا كنا أحياء، أم قتلى.

- ليس بوسعي أن أتخلّى عنكما في هذه اللحظة، يا سيدي، فأنا قوي، وقد أكون نافعاً لكما.

- كل رغبتي الآن هي أن يُرمى أخي في أعماق البحر مثل القرصان الأخضر، ثم إنك قد تكون أكثر نفعاً، إذا ما وصلت إلى سفينتي الفولغورا.

- إذنْ؛ سأعود إليكما، ومعي الإمدادات، يا سيدي.

- سيأتي مورغان حتماً، أنا متأكد من ذلك. هيا، اذهب: ها هي الفرقة تقترب.

لم ينتظر الزنجي أكثر، وبما أن الفرقتين قد قطعتا الشارع، فقد سلك موكو ممراً جانبياً. ما إن رآه القبطان يبتعد، التفت إلى كارمو، وقال له:

- لنتجهّز للهجوم على الفرقة القادمة نحونا. إذا باغتناهم بهجوم مفاجئ، قد نفتح لنا طريقاً بينهم، وسيكون بوسعنا الهرب عبر الأرياف، ثم منها إلى الغابة.

كانا - حينئذٍ - في مفترق طرق، وكانت الفرقة الثانية التي لمحها الزنجي لا تبعد عنهم أكثر من ثلاثين خطوة، في حين لم تكن الأولى قد ظهرت بعد، ربما لأنها توقّفت قليلاً.

- لنكن على أهبة الاستعداد - قال القرصان.

- أنا جاهز، يا سيدي- أجاب البحّار الذي اختبأ خلف ركن أحد المنازل.

أبطأ المسلّحون الثمانية في سيرهم، كما لو أنهم يخشون مفاجأة ما، بل إن أحدهم، ربما قائد الفرقة، قال:

- تمهّلوا، يا شباب! إن هؤلاء المشاغبين قريبون من هنا حتماً.

- نحن ثمانية، يا سيد إلفاز - قال أحد الجنود - بينما صاحب الحانة أخبرنا أن البحّارة كانوا ثلاثة فقط.

- آه! يا صاحب الحانة الملعون - تمتم كارمو - هو مَن وشى بنا، إذنْ. إذا ما ظفرتُ به، فسأثقب بطنه، وسأجعله يُفرغ ما احتساه من الخمر لمدة أسبوع!

رفع القرصان سكينة استعداداً للهجوم.

- الآن - صاح القرصان.

هجم البحّاران باندفاع لا يُقاوَم على الفرقة التي وصلت عند مفترق الطرق، وصارا يسدّدان طعنات يائسة يميناً وشمالاً بسرعة هائلة. لم يكن بوسع هؤلاء الجنود الذين فاجأهم الهجوم سوى أن يترامو في مختلف الجهات؛ لكي يتخلصوا من سيل الطعنات تلك.

عندما استعاد الجنود وعيهم بعد تلك الصدمة، كان القرصان ورفيقه قد غادرا المكان. حينما انتبه الجنود أن مَن هاجمهم كان - فقط - رجلان، لحقوهما صارخين بأعلى أصواتهم:

- أوقفوهم، إنهم القراصنة، القراصنة.

كان القرصان وكارمو يركضان بيأس دون أن يعرفا أين قد يتّجهان. لقد توغلا في متاهة من الشوارع الضيقة، ينتقلان من شارع إلى آخر، لكنْ؛ دون أن يصلا إلى الريف. استيقظ السكان على صراخ الجنود، بعد أن سمعوا عن

وجود هؤلاء القراصنة الذين يخشاهم سكان كل المدن الإسبانية، وصارت النوافذ والأبواب تفتح وتغلق بضوضاء كبيرة، فضلاً عن بعض الطلقات النارية. وضع الهاربين يكاد أن يكون حرجاً بين لحظة وأخرى، فذلك الصراخ وتلك والطلقات النارية قد تزيد من حالة الإنذار، وتصل إلى مركز المدينة، فتهبّ كل القوات ضدّهم.

- اللعنة - هتف كارمو، بينما كان يركض مسرعاً - صراخ هؤلاء الخائفين سيفضحنا. إذا لم نجد الطريق التي تقودنا إلى الريف، فسينتهي بنا الحال معلّقين على المشنقة بحبل متين.

وبينما كانا يركضان، وإذا بهما يصلان إلى طريق ضيقة، نهايتها مسدودة.

- يا قبطان - صرخ كارمو الذي كان في المقدّمة - لقد أوقعنا أنفسنا في فخ، لا مخرج منه.

- ماذا تعني بذلك؟ سأله القرصان.

- أعني أن الطريق مسدودة.

- أليس هناك أيّ حائط نتسلّقه؟

- لا، بل إنها بيوت عالية جداً.

- لا يزال مَن يلاحقوننا بعيدين، فلنعد أدراجنا إذاً، يا كارمو، ربما وجدنا طريقاً جديدة، تقودنا خارج المدينة.

وقبل أن يعاودا الركض، قال القرصان فجأة:

- لا، يا كارمو، لقد خطرت في ذهني فكرة، أعتقد أن بوسعنا استخدام الحيلة؛ لكي نضلّل الجنود.

توجّه القرصان نحو المنزل الذي تنتهي به تلك الطريق. كان منزلاً متواضعاً

من طابقين، مبنياً من الطابوق والخشب، وفي الطابق العلوي، شرفة مزيّنة بأصص زهور.

- كارمو - قال القرصان - افتح هذا الباب.

- هل سنختبئ في هذا المنزل؟

- تبدو لي الطريقة الأفضل لتضليل الجنود.

- حسناً، يا قبطان، سنتملّك هذا المنزل دون أن ندفع فلساً واحداً.

تناول سكّين النافاجا، وأدخل طرفها الحاد في ثقب القفل، فكسره. دخل البحّاران، وأغلقا الباب بسرعة، في حين كان الجنود يمرون أمام مدخل الطريق صارخين بأعلى أصواتهم:

- أوقفوهم! أوقفوهم!

وبينما كان البحّاران يتخبّطان في الظلام، وجدا سلماً، فصعداه دون تردّد، ثم توقّفا في نهايته.

- يجب أن نعرف أين سنختبئ - قال كارمو - وأن نعرف أيضاً مَن يعيش في البيت. أي مفاجأة ستكون لهؤلاء المساكين!

أخرج قدّاحة وقطعة من فتيل مدفع، وأوقدها، وصار ينفخها؛ لكي تشتعل.

- آه، أرى باباً مفتوحاً - قال كارمو.

- وهناك أحد ما يشخر- أضاف القرصان.

- حسناً، هذا يعني أن النائم هو إنسان مسالم.

فتح القرصان الباب محاولاً عدم إصدار أي ضوضاء، ودخل في غرفة متواضعة الأثاث؛ حيث يوجد سرير، يشغله شخص ما. أخذ الفتيل، وأشعل

شمعة وجدها فوق صندوق قديم، ثم دنا من السرير، ورفع الغطاء. كان هناك رجل ما، شيخ أصلع، يميل لون بشرته المجعّدة إلى لون الطابوق الكستنائي، له لحية، تشبه لحية الماعز وشوارب مبعثرة. كان ينام بعمق حتّى إنه لم يشعر بالضوء الذي أنار الغرفة.

- لا أحسب أن هذا الرجل يسبّب لنا المتاعب - قال القرصان.

أمسك به من ذراعه، ثم هزّه بقوة، ولكنْ؛ دون جدوى.

- يجب أن ننفخ بالبوق في أذنه - قال كارمو.

بعد أن هزّه القرصان للمرة الثالثة بقوة، فتح الشيخ عينيه، وما إن رأى الرجلين المسلّحين حتّى نهض بسرعة، وجلس فاتحاً عينيه برعب، ثم هتف بصوت يتقطّع من شدة الخوف:

- أنا ميت!

- هيا، يا صديقي! لا يزال هناك وقت طويل قبل أن تموت - قال كارمو
- تبدو لي الآن مفعماً بالحياة أكثر ممّا كنتَ عليه قبل قليل.

- مَن أنت؟ - سأله القرصان.

- أنا رجل مسكين، لم يسبّب الأذى لأيّ مخلوق، يا سيدي- أجاب الشيخ راجفاً.

- ونحن لا ننوي أن نمسّك بسوء، إذا ما زوّدتنا بما نريد معرفته.

- إذنْ؛ فأنت لست لصاً؟

- لا، بل أنا أحد قراصنة التورتو.

- قر... صان! .. أنا ... ميت ... إذنْ!..

- لقد قلت لك إننا لن نؤذيك.

- ماذا تريدون من رجل مسكين مثلي، إذنْ ؟

- أن نعرف أولاً فيما إذا كنتَ وحيداً في هذا البيت؟

- أنا وحيد، يا سيدي.

- ومَن يسكن في الجوار؟

- برجوازيون طيبون.

- ما عملك؟

- أنا رجل فقير، يا سيدي.

- أجل، رجل فقير يملك بيتاً، بينما أنا لا أملك حتّى سريراً - قال كارمو
- آه! ... أيها الثعلب العجوز، إنك تخشى على أموالك.

- ليس لدي أموال، يا سيدي.

انفجر كارمو ضاحكاً.

- ينادي لص البحار، يا سيدي! ... إنه لأظرف شخص لاقيته في حياتي.

نظر إليه الشيخ نظرة جانبية، ولكنه تجنّب أن يظهر استيائه من الأمر.

- قل لي باختصار - قال له القرصان بنبرة تهديد - ما هو عملك في ماراكايبو؟

- أنا محرّر عقود مسكين، يا سيدي،

- حسناً، اعلم - إذنْ - أننا سنقيم في بيتك حتّى تسنح لنا فرصة للهرب. لن نمسّك بسوء، ولكنْ؛ إياك أن تشي بنا، وإلا فإن رأسك سيفارق جسدك، أفهمتَ ما قلتُه لك؟

- ماذا تريدون مني؟ - تذمّر المسكين باكياً.

- حتّى الآن لا شيء. ارتد ملابسك دون أن تصدر أي صوت، وإلا فسأضع تهديدي محل التنفيذ.

نفّذ الرجل أمر القرصان، لكنه كان يرتجف رعباً حتّى اضطُر كارمو لمساعدته على ارتداء ملابسه.

- والآن شدّ وثاق هذا الرجل - قال القرصان - واحذر ألاّ يهرب.

- أنا مسؤول عنه، كما عن نفسي، يا قبطان. سأربطه بإحكام حتّى إنه لن يستطيع أن يقوم بأي حركة.

وبينما كان البحّار يشدّ وثاق الرجل، فتح القرصان الشبّاك المطل على الطريق؛ ليرى ما يدور في الخارج. يبدو أن الفرقة ابتعدت كثيراً، كون صراخهم لم يعد يصل إلى أسماعه، ولكنْ؛ كان هناك بعض الأشخاص الذين أيقظهم الإنذار، يتطلّعون من نوافذ البيوت القريبة، وتدور بينهم بعض الحوارات.

- هل سمعتم؟ - صرخ رجل يحمل بندقية طويلة - يبدو أن القراصنة هاجموا المدينة.

- هذا مستحيل - أجاب بعض الأشخاص.

- لقد سمعتُ صراخ الجنود.

- لعلّهم أجبروهم على الفرار؟

- أعتقد ذلك، فلم أعد أسمع شيئاً.

- يا لها من وقاحة ... يدخلون المدينة رغم عدد الجنود الهائل فيها.

- لا بد أنهم كانوا يريدون إنقاذ القرصان الأحمر.

- وقد وجدوه مشنوقاً.

- لا، إنها كانت مفاجأة لهؤلاء اللصوص! ...

- أرجو أن يمسك الجنود بقراصنة آخرين؛ لكي نشنقهم - قال الرجل الذي يحمل البندقية - فلدينا الكثير من الخشب لنصب المشانق. عمتُم مساءً، يا أصدقائي! ... أراكم غداً.

- أجل - تمتم القرصان - لديكم الكثير من الخشب، ولكنْ؛ لدينا الكثير من القنابل في سفننا؛ لندمر ماراكايبو. يوماً ما ستصلكم أنباؤنا.

أغلق الشباك بحذر، وعاد إلى غرفة محرّر العقود. في تلك الأثناء، كان كارمو قد قام بجولة في البيت، وبحث في ذخيرة العجوز، فقد تذكر أنه لم يأكل منذ مساء الأمس. لقد وجد حمامة وسمكة مشويّتين، ربما كان محرّر العقود المسكين قد جهّزهما لغداء اليوم التالي، فقدّمهما كارمو إلى القبطان.

فضلاً عن هذا كله، فقد وجد في إحدى الخزانات قناني نبيذ، يغطّيها الغبار، قناني نبيذ إسبانية الصنع: أكسيرس، بورتو، اليكانته، وماديرا.

- سيدي - قال كارمو بصوته العذب مخاطباً القرصان - بينما يلاحق الإسبان ظلالنا، تفضّل وكل من هذه السمكة الشهية، وتذوّق هذه الحمامة البرّيّة. لقد وجدتُ قناني من النبيذ الجيد، ربما يحتفظ بها محرّر العقود للمناسبات الكبرى، ستعدل مزاجك حتماً. يبدو أن صديقنا يحبّذ النبيذ القادم من ما وراء المحيط الأطلسي، لنتذوّقها، ونرى فيما إذا كانت لذيذة.

- شكراً - أجاب القرصان الذي عاد محزوناً كما ذي قبل.

جلس على المائدة، ولكنه لم يأكل إلا القليل. عاد إلى صمته وحزنه، كما عهده البحّارة دائماً. أكل قطعة صغيرة من السمكة، وشرب بعض كؤوس النبيذ، ثم نهض، وصار يتمشّى في الغرفة.

بينما التهم كارمو ما تبقّى من الطعام، وأفرغ قنينتي نبيذ، ممّا سبب

غيظ محرّر العقود المسكين الذي لم يكفّ عن التذمّر حال رؤية نبيذه، الذي جلبه بمصاريف عالية من موطنه، يستهلك بسرعة هكذا. بعد أن شرب البحّار أصبح بمزاج رائق، ممّا حدا به أن يكون كريماً، فقدّم كأساً إلى الرجل؛ ليجعله ينسى الخوف الذي مرّ به، والغيظ الذي يسيطر عليه.

- يا سلام - هتف كارمو - ما كنتُ أظن أن تنتهي هذه الليلة بهذا الكمّ من البهجة. بينما كنا بين نارين، وخطورة أن نعلّق على حبل المشنقة، ثم فجأة ينتهي بنا الحال بين هذه القناني اللذيذة، لم أكن آمل ذلك حقاً!

- لكننا ما نزال في خطر، يا عزيزي - قال القرصان - مَن يضمن أن الإسبان، إذا لم يعثروا علينا، لن يأتوا غداً للبحث عنا هنا؟ قد أكون مرتاحاً هنا، ولكني أفضل أن أكون على متن سفينتي الفولغورا.

- معك، يا قبطاني، لا أخشى شيئاً. فأنت وحدك تساوي مئة رجل.

- ربما نسيت أن حاكم ماراكايبو هو ثعلب ماكر، وأنه مستعد لأي شيء من أجل أن يلقي القبض عليّ. فأنت تعرف جيداً أن بيني وبينه حرب مميتة.

- ولكنْ؛ لا أحد يعرف أنك هنا.

- أجل، ولكنْ؛ قد يشكّون بوجودي، ثم أنسيت الباسكيين؟ أعتقد أنهم أدركوا أن قاتل الكونت كان أخا القرصانين الأحمر والأخضر.

- ربما أنت على حقّ، يا سيدي. ولكنْ؛ أتعتقد أن مورغان سيبعث لنا الدعم؟

- ليس مورغان بالرجل الذي يترك قبطانه بين أيدي الإسبان، إنه مقدام وباسل، ولن أفاجأ إذا ما اقتحم المدينة، وأمطرها بوابل من القنابل.

- قد يكون جنوناً، يدفع ثمنه غالياً، يا سيدي.

- آه ... كم قمنا بمغامرات جنونية، وكانت نتائجها - على الأغلب - جيدة.

- هذا صحيح.

جلس القرصان يرتشف النبيذ، ثم نهض، وذهب إلى الشباك المطلّ على الطريق. كان يراقب الطريق منذ نصف ساعة، ثم دخل - فجأة - إلى الغرفة، قائلاً:

- هل أنت واثق من الزنجي؟

- إنه رجل أمين، يا قبطان.

- ألا يخوننا؟

- أنا واثق منه كلّ الثقة.

- إنه هنا، إذنْ ...

- هل رأيته هنا؟

- كان يتجوّل في الطرقات.

- يجب أن نجلبه إلى هنا، إذنْ.

- وماذا فعل بجثمان أخي؟ - سأل القرصان مقطباً حاجبيه.

- سنعرف ذلك حينما يكون هنا.

- اذهب إليه، إذنْ، ولكنْ؛ كن حذراً. إذا ما لمحوك، فلن ننجو أبداً.

- اطمئن، يا سيدي - قال كارمو باسماً - امنحني عشر دقائق فقط، وسأصبح محرّر عقود ماراكايبو.

-٦-
تفاقم الخطر على البحّارة

لم تمرّ عشر دقائق حتّى خرج كارمو من بيت محرّر العقود للبحث عن الزنجي الذي لمحه القرصان يتجوّل في الطريق. في هذا الوقت القصير، تغيّر مظهر البحّار الشجاع تماماً حتّى أصبح من الصعب التعرّف عليه. قام بتشذيب لحيته وشعره بالمقصّ، ثم ارتدى - على عجل - لباساً إسبانياً، ربما كان محرّر العقود قد احتفظ به للمناسبات الكبرى، وكان يناسبه تماماً، كون مقاسه مماثلاً لمقاس الرجل. كان البحّار الرهيب بهندامه الجديد ذلك أشبه ببرجوازي من جبل طارق، وقد لا يتعرّف عليه سوى المحرّر ذاته. ولكونه شديد الحذر، فقد خبّأ مسدّسيه في جيوب ذلك الثوب الوثير؛ لأنه لا يشعر بالأمان حتّى بارتداء ذلك الثوب. خرج من المنزل بتنكره ذلك، وكأنه مواطن عادي ذاهب لاستنشاق هواء صباحي، ينظر إلى السماء مترقّباً خيوط الصباح الأولى التي قد تشقّ الظلام في أية لحظة. كان الطريق الضيّق فارغاً تماماً، ولكنْ؛ لا بد أن الزنجي كان في الجوار مادام القرصان قد لمحه منذ وقت قصير.

- سأجده في مكان ما - همس البحّار - إذا كان رفيقي الأسود قد قرّر العودة، فهذا يعني أن شيئاً ما قد منعه من مغادرة ماراكايبو. لعل فان غولد اللعين عرف أن القرصان الأسود هو مَن قتل الكونت؟ أهو قَدَرُ الأخوة الثلاثة أن يُشنقوا على يد هذا العجوز المشؤوم؟ ما هذا الذي أقول؟! سوف نخرج من هنا؛ لكي نعود يوماً ما، ونجازيه على فعلته، العين بالعين، والسّنّ بالسّنّ، والموت بالموت!

بينما كان يحاور نفسه، خرج من الطريق الضيق وكاد ينعطف عند ركن أحد البيوت حينما سدّ عليه الطريق فجأة جندي مسلّح، كان مختبئاً تحت الأروقة، وقال له بنبرة المهدّد:

- مَن هناك؟

- اللعنة - تمتم كارمو ماداً يده في جيبه، وقابضاً على أحد مسدّسيه - هذا ما كنتُ أخشاه. ثم تقمّص دور البرجوازي، وقال:

- ماذا تودّ مني، أيها الجندي؟

- أريد أن أعرف مَن أنت.

- كيف ذلك؟! ... ألا تعرفني؟ أنا محرّر عقود الحيّ، أيها الجندي.

- أرجو المعذرة، يا سيدي، لقد جئتُ منذ وقت قصير إلى ماراكايبو. ألي أن أعرف أين تنوي الذهاب؟

- هناك مسكين يحتضر، وأنت تعرف أن مَن يحتضر، يتوجّب عليه أن يتكفّل بتقسيم إرثه.

- إنك محقّ، يا سيدي، ولكنْ؛ احذر أن تصادف القراصنة.

- كيف لهؤلاء الجيف أن يقدموا على الدخول إلى ماراكايبو، وهي مدينة شديدة التحصين، ويحكمها ذلك القائد الباسل فان غولد؟

- لا أحد يعلم كيف دخلوا المدينة، فلم يرَ أحد أي سفينة قراصنة قرب الجزر، ولا حتّى في خليج كورو، ولكنْ؛ ليس هناك شك في أنهم دخلوا المدينة. يكفي أن تعرف أنهم قتلوا ثلاثة، أو أربعة أشخاص، وأنهم قاموا بسرقة جثة القرصان الأحمر الذي شُنق أمام قصر الحاكم مع رفاقه.

- يا لهم من أشقياء! ... وأين هم الآن؟

- يظن الجميع أنهم هربوا إلى الريف، وقد أُرسلت قوات إلى أماكن مختلفة أملاً في القبض عليهم، وتعليقهم على المشانق قرب رفاقهم المشنوقين.

- ربما لا يزالون يختبئون في المدينة؟

- لا، هذا مستحيل، لقد شُوهدوا، وهم يهربون باتجاه الريف.

عرف كارمو ما يكفيه، فظن أن الوقت قد حان للذهاب والبحث عن الزنجي.

- سآخذ حذري، إذا ما صادفتهم - قال كارمو - حظاً طيباً، أيها االجندي، يجب أن أذهب، وإلا فلن أصل في الوقت المناسب إلى زبوني المحتضر.

- حظاً طيباً، يا سيدي.

أنزل البحّار المحتال القبّعة على عينيه، وابتعد مسرعاً، وكان ينظر حوله؛ ليظهر خوفه للجندي، في حين لم يكن للخوف مكان في قلبه.

- آه، آه! - هتف حينما ابتعد عن الجندي - يعتقدون أننا غادرنا المدينة، إذنْ ... هذا رائع، يا أعزائي! سنبقى في بيت محرّر العقود الطيب حتّى عودة الجنود، بعدها سنخرج بهدوء. يا لها من فكرة رائعة تلك التي خطرت في ذهن القبطان! حتّى الأولونيزي، الأكثر مكراً بين قراصنة التورتو، لم تكن لتخطر في ذهنه فكرة أفضل منها.

انعطف في شارع تصطفّ على جانبيه بيوت جميلة بشرفات رائعة، وتنتصب فيها أعمدة ملوّنة، فجأة وإذا به يلمح شبحاً أسوداً عظيم الهيئة واقفاً قرب نخلة أمام بناية جميلة.

- إذا لم أخطئ الظنّ، فهذا - بلا شك - رفيقي الأسود - تمتم البحّار - إننا محظوظون حقاً هذه المرة، ولكنْ؛ هذا معلوم، فالشيطان إلى جانبنا، هذا على الأقل؛ ما يعتقد الإسبان .

لما رأى ذلك الرجل كارمو حاول أن يختبئ عند بوابة البناية ظناً منه أنه جندي إسباني، ولكنْ؛ حين أدرك أنه قد يكون في مكان غير آمن، انعطف عند الركن، ودخل في إحدى طرق المدينة الضيقة. حينما تبيّن كارمو أن ذلك الرجل إنما هو رفيقه الزنجي، خطا خطوات سريعة، فوصل البناية، ثم انعطف عند الركن، وصاح بصوت خافت:

- يا رفيقي ... يا رفيقي!

توقّف الزنجي لحظة متردّداً، ثم عاد أدراجه. تعرّف على كارمو رغم تنكّره بزي إسباني برجوازي، وهتف بدهشة وبهجة:

- هذا أنت، يا رفيقي الأبيض.

- نظرك جيد، يا رفيقي الأسود - قال البحّار ضاحكاً.

- ماذا عن القبطان؟

- لا تقلق بشأنه، إنه بخير، وهذا يكفي. لماذا عدتَ إلى المدينة؟ لقد أمرك القبطان أن تنقل جثة أخيه إلى السفينة.

- لم أستطع ذلك، يا رفيقي. لقد كانت الغابة مليئة بفرق الجنود، والتي لا بد أنها كانت قادمة من الخليج.

- لعلّهم أدركوا أننا جئنا من هناك؟

- أخشى ذلك، يا رفيقي الأبيض.

- وأين خبّأت الجثة، إذنْ؟

- في كوخي، تحت طبقة كثيفة من الأوراق الطرية.

- ألن يعثر عليها الإسبان؟

- لقد أطلقتُ الأفاعي تحرّزاً، فإذا ما اقترب الإسبان من المكان، فإنهم سيفرّون حتماً عند رؤيتهم لتلك الأفاعي.

- إنك ماكر، يا رفيقي.

- أفعل ما بوسعي فعله.

- إذنْ؛ أنت تعتقد أنه من الصعب علينا - الآن - أن نبحر؟

- لقد قلت لك إن الغابة مليئة بالجنود.

- أظنه أمراً خطيراً، وأخشى أن يقوم مورغان، نائب القبطان، بمغامرة ما، إذا ما تأخّرنا في العودة - تمتم البحّار - لنرى كيف ستنتهي هذه المغامرة.

- هل يعرفك الناس هنا في ماراكايبو، يا رفيقي؟ سأل كارمو.

- أجل، الكل يعرفني، بما أنني آتي - باستمرار - لبيع الأعشاب التي تُستخدم في العلاج.

- إذنْ؛ لن تكون مثاراً للشك؟

- لا، يا رفيقي.

- اتبعني، إذنْ، لنعد إلى القبطان.

- لحظة، يا رفيقي.

- ماذا هناك؟

- لقد جاء معي رفيقكما الآخر.

- مَن؟ ستيلر؟

- أجل، لقد كان في خطر هناك، وقد يمسكون به، لذلك هو يظنّ أنه قد يكون أكثر نفعاً هنا من أن يحرس الكوخ هناك.

- وماذا عن الأسير؟

- لقد أوثقتُهُ جيداً حتّى إننا قد نجده كما هو، إذا لم يحرره رفاقه.

- وأين هو ستيلر الآن؟

- انتظر لحظة، يا رفيقي.

وضع الزنجي يديه على شفتيه، وصرخ صرخة خفيفة شبيهة بصرخة الخفّاش، كتلك الخفافيش الضخمة المنتشرة في أمريكا الجنوبية. بعد لحظة من ذلك، وثب رجل من على سور الحديقة، ونزل قرب كارمو قائلاً:

- كم أنا سعيد برؤيتك حياً، يا رفيقي.

- وأنا أيضاً، يا صديقي ستيلر - أجاب كارمو.

- أتعتقد أن القرصان سيلومني لأنني جئتُ إلى هنا؟ حينما علمتُ أنكم في خطر، لم أستطع أن أبقى في الغابة مراقباً الأشجار.

- سيكون القبطان سعيداً، يا عزيزي. إن وجود رجل باسل في مثل هذه الأوقات العصيبة لهو أمر ثمين جداً.

- هيا، لنذهب، يا أصدقاء.

بدأت تلوح خيوط الصباح، وصارت النجوم تفقد لمعانها كون الفجر حقيقة، ليس له حضور في تلك الأقاليم، بل، ولا حتّى الصباح، فبعد الليل، يهبط النهار فجأة. تشرق الشمس، فتطرد بأشعّتها الظلام الذي يتبدّد مباشرة، فيبدأ سكان ماراكايبو بالاستيقاظ. تُفتَح الشبابيك، وتطلّ الرؤوس، فيُسمَع عطس هنا، وتثاؤب هناك، وتبدأ الأصوات تدبّ في البيوت.

بدأ السكان بالتعليق على ما حصل من أحداث في الليلة السابقة، والتي نشرت الرعب في قلوبهم، كون القراصنة يثيرون الرعب في كل المستعمرات الإسبانية في خليج المكسيك. كارمو الذي لا يود أن يلتقي أحداً خوفاً من

أن يتعرّف عليه بعض مَن كان في الحانة، صار يحثّ السير، يتبعه الزنجي وستيلر. عند وصوله إلى الطريق الضيقة وجد أن الجندي لا يزال هناك، يتمشّى من ركن إلى آخر أمام الطريق، حاملاً مطرده على كتفه.

- لقد عدتَ - إذنْ - يا سيدي المحرّر؟ - سأل الجندي حالما لمح كارمو.

- ما عساي أن أقول - أجابه البحّار - إن زبوني كان على عجلة من أمره، يريد ترك هذه الحياة البالية، فانتهيتُ منه بسرعة.

- لعلّه ترك لك من إرثه هذا الزنجي العظيم؟ - سأل الجندي مشيراً إلى الزنجي - ياللهول، إنه عبد عظيم، يساوي الكثير.

- أجل، لقد أهداه لي. عمتَ صباحاً، أيها الجندي.

انعطفوا في الشارع على عجل، ثم دخلوا منزل محرّر العقود، وأغلقوا الباب بالمزلاج.

كان القرصان الأسود ينتظرهم عند نهاية السلّم، وقد تمكّن منه، قلق ليس بوسعه إخفاؤه.

- لماذا عاد الزنجي، إذنْ؟ - سأل القرصان - وماذا عن جثة أخي؟ ... ولمَ أنت هنا أيضاً، يا ستيلر؟

أوضح كارمو ببضع كلمات الأسباب التي دفعت الزنجي إلى العودة إلى ماراكايبو، وقرار ستيلر في تقديم العون لهم، ثم أخبره بالمعلومات التي حصل عليها من الخفير الإسباني الذي كان يحرس عند مدخل الطريق.

- إنها أخبار مقلقة - قال القرصان موجّهاً كلامه للزنجي - إذا كان الإسبان ينتشرون في الغابة، وعلى الساحل، فلا أدري كيف يمكننا الوصول إلى سفينتي الفولغورا. لستُ أخشى على نفسي، ولكني أخشى على سفينتي التي قد تداهمها فرقة الأميرال توليدو.

- اللعنة - هتف كارمو - لا ينقصنا سوى هذا!

- أخشى أن تنتهي هذه المغامرة بما لا يُحمد عقباه - تمتم ستيلر - على أيِّ حال، يا صديقي كارمو، فقد كان من المفروض أن نُشنَق قبل يومين، علينا أن نكون سعداء؛ إذ تمكّنّا من العيش ثمان وأربعين ساعة أخرى.

صار القرصان يتمشّى في الغرفة ذهاباً وإياباً، يدور حول الصندوق الذي استخدموه كخوان. كان يبدو عليه القلق والتوتّر، يتوقّف بين آونة وأخرى أمام رجاله، ثم يعاود المشي مَحني الرأس.

توقّف فجأة أمام محرّر العقود الذي كان ممدّداً على السرير ومُحكم الوثاق، نظر إليه نظرة مهدّدٍ، ثم قال له:

- أنت تعرف المناطق المحيطة بماراكايبو، أليس كذلك؟

- أجل، يا سيدي - أجاب المسكين بصوت راجف.

- أبوسعك أن تُخرجنا من المدينة، وتُوصلنا إلى مكان آمن دون أن يُداهمنا رفاقك؟

- كيف لي القيام بذلك، يا سيدي؟ حالما سنخرج من بيتي، فإنهم سيتعرّفون عليكم، وسيقبضون عليكم وعليّ أيضاً، ثم سيتّهمونني بالخيانة، عندها سيقوم الحاكم، ذلك الرجل القاسي، بشنقي حتماً.

- آه ... أجل، أنت خائف من فان غولد - قال القرصان، وقد صرّ على أسنانه بشدة، بينما يلوح في عينيه بريق حزين - أجل، إن ذلك الرجل شديد، متغطرس، وبلا رحمة، إنه يعرف كيف يجعل الجميع يرتجفون منه. لا، ليس الجميع، يوما ما سأجعله يرتجف ... في ذلك اليوم، سيدفع حياته بدلاً عن حياة أخويّ.

- أتريد أن تقتل الحاكم؟ - سأل محرّر العقود بدهشة.

- إذا كنتَ تنشد الحياة، فاصمت، أيها العجوز - قال كارمو.

بدا أن القرصان لم يسمع هذا، ولا ذاك. خرج من الغرفة متّجهاً نحو الشباك الذي يطلّ على الطريق.

- ها نحن في مأزق - قال ستيلر للزنجي- أليس لرفيقنا الأسود أيّ فكرة في رأسه تخلّصنا من وضعنا الصعب هذا؟ ... لا أشعر أني بأمان في هذا المنزل.

- ربما لدي فكرة - أجاب الزنجي.

- هيا، قلها - إذنْ - يا رفيقي - قال كارمو - إذا كانت خطّتك قابلة للتطبيق، فإني أعدك أني سأحضنك، أنا الذي لم أحضن رجلاً أسود مطلقاً، بل ولا حتّى أصفر، أو أحمر.

- ولكنْ؛ يجب علينا أن ننتظر هبوط المساء.

- لسنا على عجلة من أمرنا.

- ستتنكّرون بملابس الإسبان، وتخرجون بهدوء من المدينة.

- ألا ترى أني متنكّر بزيّ محرّر العقود؟

- هذا لا يكفي.

- ماذا تريد أن أرتدي، إذنْ؟

- أن ترتدي لباس فارس، أو جندي. إذا خرجتُم من المدينة متنكّرين بأزياء برجوازية، فإن العسكر في الريف سيقبض عليكم حتماً.

- اللعنة! ... أيّ فكرة رائعة هذه! - هتف كارمو - إنك على حق، يا رفيقي الأسود! إذا تنكّرنا بزيّ الجنود، فلن يوقفنا أحد بالتأكيد، ولن يسألوننا أين نذهب، بالذات عند المساء. سيظنّون أننا فرقة استقصاء، وهكذا سيكون بوسعنا أن نركب البحر.

- ومن أين سنجلب الأزياء؟ - سأل ستيلر.

- من أين؟! سنذهب ونقتل بعض الجنود، ونأخذ ملابسهم - قال كارمو بحزم - تعرف جيداً أننا خفيفي الأيدي.

- لا حاجة أن تعرّضوا أنفسكم للخطر - قال الزنجي - إن أهل المدينة يعرفونني، لذلك بوسعي الذهاب وشراء الملابس والأسلحة أيضاً.

- إنك رجل طيب، يا رفيقي الأسود، وأنا سأحضنك كأخ.

قال البحّار ذلك، ثم فتح ذراعيه؛ ليحضن الزنجي، ولكنْ؛ لم يتسنّ له فعل ذلك، فقد طُرق الباب بقوة، وتردّد صدى الطرقات في البيت والطريق.

- اللعنة - هتف كارمو - أحد ما يطرق الباب.

دخل القرصان في تلك اللحظة، وقال:

- هناك رجل ما ربما يسأل عنك، يا محرّر العقود.

- قد يكون أحد زبائني، يا سيدي - أجاب السجين باسماً - زبون ما قد يجعل نهاري سعيداً، بينما أنا الآن ...

- كفّ عن ذلك - قال كارمو - لا يسعنا أن نسمع أحاديثك الآن.

طُرق الباب مرة أخرى وبعنف حتّى ارتج، ثم صرخ الطارق:

- افتح الباب، يا حضرة المحرّر! ليس لديّ وقت لأضيّعه.

كارمو- صاح القرصان الذي اتخذ قراره على عجل - إذا لم نفتح الباب، فقد تنتاب الشكوك هذا الرجل، فيظن أن المحرّر قد أصيب بمكروه ما، وقد يذهب لإبلاغ سلطات الحي.

- وماذا علينا أن نفعل، يا قبطان؟

- افتح الباب، ثم قيد هذا الرجلَ، وضعه مع محرّر العقود.

لم ينه القبطان جملته بعد حتّى نزل كارمو السلم بصحبة الزنجي العظيم. طُرق الباب مرة ثالثة وبعنف حتّى إن خشب الباب كاد يفلت، فأسرع كارمو بفتح الباب قائلاً:

- أه ... أي عنف هذا يا سيدي! ...

دخل شاب يبلغ العشرين من العمر، يرتدي ملابس أنيقة، ويتدلّى من حزامه خنجر أنيق، ثم صرخ قائلاً:

- أهكذا تضيّعون وقت المستعجلين؟

حالما رأى كارمو والزنجي، توقّف الشاب، ونظر بدهشة وقلق، حاول أن يتراجع خطوة، لكن الباب كان قد أُغلق بسرعة.

- من أنتما؟ - سأل الشاب.

- نحن خادما السيد محرّر العقود - أجاب كارمو، وانحنى بسخرية.

- آه، آه - هتف الشاب - أصبح دون تيريلو غنياً فجأة حتّى صار لديه خادمان؟

- أجل، لقد ورث عمّاً له، مات في البرو - قال البحّار ضاحكاً.

- خذوني إليه بسرعة. إنه على علم مسبق أن اليوم هو يوم زواجي بالآنسة كارمن دي فاسكونجيليس. أيجب علي أن أتوسّل بهذا ال ...

قاطعه الزنجي، وقد لفّ ذراعه حول رقبته، فجثا الشاب المسكين على ركبتيه مختنقاً، وكادت عيناه أن تخرجا من محجريهما، وأصبحت بشرته طاعنة السمار.

- آه، تمهّل، يا رفيقي - قال كارمو - إذا ضغطت رقبته أكثر، فإنه سيختنق تماماً. يجب أن نكون ودودين مع زبائن محرّر العقود.

- لا تقلق، يا رفيقي الأبيض - أجاب ساحر الأفاعي.

كان الشاب خائفاً جداً حتّى إنه لم يبد أية مقاومة، فأُخذ إلى الغرفة العليا بعد أن جُرِّد من خنجره، وتمّ تقييده، ورُمي قرب محرّر العقود.

- ها قد انتهينا، يا قبطان - قال كارمو.

أومأ القبطان برأسه مباركاً ما قام به البحّار، ثم دنا من الشاب الذي كان ينظر بعينين غائرتين، وقال له:

- مَن تكون أنت؟

- إنه أحد أفضل زبائني، يا سيدي - أجاب محرّر العقود - كان سيجعلني أربح، على الأقل ...

- اخرس أنت - صاح القرصان بنبرة جافة.

- لقد أصبح محرّر العقود ببغاءً، لا يصمت - قال كارمو - إذا استمر على هذا الحال، سيتوجب علينا قطع جزء من لسانه.

التفت الشاب نحو القبطان، وبعد أن حدّق فيه قليلاً، أجاب بدهشة:

- أنا ابن قاضي ماراكايبو، دون الونزو دي كونكسيفيو. أرجو أن تبيّنوا لي الآن دوافع احتجازكم لي.

- لا داعي لأن تعرف الأسباب، ولكنْ؛ إذا بقيت هادئاً، فلن تُصاب بمكروه، وستكون غداً حراً، إذا جرت الأمور على ما يرام.

- غداً! ... - هتف الشاب بدهشة وحزن - ألا تعلم - يا سيدي - أني يجب أن أتزوّج اليوم بابنة الضابط فاسكونجيلوس.

- ستتزوج غداً، إذنْ.

- حذار، يا سيدي، فأبي هو صديق الحاكم، وقد تدفع ثمن ما تفعله بي الآن غالياً. وأعلم أن في مراكايبو الجنود والمدافع، ولن تفلت منهم.

بانت على شفتي القرصان ابتسامة احتقار.

- أنا لا أخشى هذا – أجاب - فأنا - أيضاً - لديّ رجال أشدّ بأساً من هؤلاء الذين يحرسون ماراكايبو، ولديّ مدافع أيضاً.

- ولكنْ؛ مَن أنت؟

- لا داعي لأن تعرف مَن أنا.

قال ذلك القبطان، ثم أدار له ظهره، وخرج من الغرفة متّجهاً لشباك المراقبة، بينما كان كارمو والزنجي يبحثان في كل البيت، من القبو حتّى السطح، في محاولة لإيجاد ما يأكلونه على الإفطار، وكان ستيلر يحرس السجينين خشية أيّ محاولة للهرب.

بعد أن بحث الرفيقان الأبيض والأسود في كل البيت، وجدا لحماً مقدداً وبعض الجبن، وكان هذا كافياً؛ ليُصلح من مزاجهم، ويجعلهم يستمتعون بنبيذ محرّر العقود الرائع. هذا على الأقل، ما كان يؤكده البحّار كارمو.

ما إن نبّهوا القرصان أن الإفطار كان جاهزاً، وفتحوا بعض قناني نبيذ بورتو، حتّى سمعوا الباب يُطرق من جديد.

- مَن قد يكون هذا؟ - تساءل كارمو - لعلّه زبون آخر، يود أن يشارك محرّر العقود في سجنه!

- اذهب، وانظر مَن قد يكون - قال القرصان، وكان قد جلس للتوّ على المائدة.

أطلّ البحّار من الشباك دون أن يرفع دفّة الشباك، فرأى رجل عجوزاً، يبدو أنه خادم ما، أو ربما بواب المحكمة.

- اللعنة - تمتم كارمو - لا بد أنه يبحث عن الشاب. لا بد أن اختفاء الشاب قد أقلق الخطيبة وأباها والمدعوون. آه، لقد ازدادت المسألة تعقيداً.

وبما أن أحداً لم يفتح للخادم، فقد استمر في طرق الباب حتّى سبّب ضوضاء عالية، ممّا حدا بالجيران أن يطلّوا برؤوسهم من الشبابيك. كان يجب فتح الباب، وحجز هذا العجوز قبل أن يزداد شكّ الجيران، ممّا يدعوهم إلى اقتحام البيت، أو استدعاء الجنود. لذلك أسرع كارمو والزنجي، ونزلا لفتح الباب، وحالما دخل الخادم، انقضّا عليه حتّى إنه لم يستطع الصراخ، قيّداه، وسدّا فمه، ثم حملاه إلى الغرفة العليا، ورمياه قرب سيّده ومحرّر العقود.

- ليت الشيطان يأخذهم كلهم إلى الجحيم - هتف كارمو - سنحتجز كل سكان ماراكايبو إذا ما استمر الوضع هكذا لبعض الوقت.

-٧-

مبارزة بين رجلين نبيلين

لم يكن إفطاراً بهيجاً، كما تخيّله كارمو، فلم يكونوا بمزاج رائق رغم اللحم المقدّد الرائع والجبن وقناني نبيذ محرّر العقود المسكين. أصبح الجميع قلقين بفعل ما أخذته الأمور من منحى، بسبب الشاب وقضية زواجه. لا بد أن اختفاءه المفاجئ مع خادمه سبّب قلقاً للأقارب، وقد يجيء قريباً خدم آخرون، أو ربما أحد أصدقاء الشاب، وفي حال أسوأ، فقد يأتي الجنود أيضاً، أو ربما القاضي، فمن غير الممكن أن تستمر تلك الحال طويلاً. قد يحتجز القراصنة أناساً آخرين، ولكنْ؛ في النهاية لا بد أن يأتي الجنود لاعتقالهم. فكّر القرصان ورفيقاه البحّاران بخطط كثيرة، ولكنْ؛ لم تكن أي منها جيدة. كان الهرب صعباً جداً في تلك الأثناء، سيتعرّفون عليهم بدون شك، وسيعتقلونهم، ثم سيشنقونهم، كما فعلوا مع القرصان الأحمر ورفاقه المساكين. كان يجب عليهم الانتظار حتّى هبوط الظلام، ولكنْ؛ ما كان أقارب الشاب ليتركوهم بسلام. أولئك البحّارة الذين كانوا ينبغون في إيجاد الحلول لأيّ مشكلة تواجههم، كانوا هذه المرة عاجزين حيال الأمر. اقترح كارمو أن يرتدوا ملابس السجناء، وأن يخرجوا بجسارة، لكنهم وجدوا أن تطبيق الخطة مستحيل، ذلك أن لا أحد منهم بوسعه ارتداء لباس الشاب، ثم إن الوضع خطير جداً بفعل انتشار الجنود في الأرياف المحيطة. عاد الزنجي، وطرح فكرته السابقة، أي أن يذهب لشراء ملابس جنود وفرسان، ولكنْ؛ رُفضت الفكرة، ذلك أن تطبيقها يجب أن يكون عند هبوط الظلام. كانوا لا يزالون يفكرون ويبحثون عن حلّ ما لمأزقهم ذلك الذي يزداد تعقيداً مع مرور الوقت، حينما جاء شخص ثالث، وطرق باب محرّر العقود. ولكنْ؛ هذه

المرة لم يكن الطارق خادماً، بل كان رجلاً نبيلاً من كاستيليا، يتقلّد سيفاً وخنجراً، ربما كان أحد أقارب الشاب.

- اللعنة - هتف كارمو - ما أكثر الناس التي تتردّد على هذا البيت. أول مَن جاء كان الشاب، ثم الخادم، والآن هذا الرجل النبيل، وقد يأتي والد الشاب أيضاً، ثم الشهود والأصدقاء إلخ. لا بد أن الحال ستنتهي بأن يُقام العرس هنا.

ولما لم يفتح أحد الباب لذلك للكاستيلياني، فقد استمر بطرقه بعنف، لا أبد أنه كان قليل الصبر، بل وكان أشدّ ضراوة من الشاب والخادم.

- اذهب، وأفتح الباب، يا كارمو - أمر القرصان.

- أخشى أن يكون من الصعب علينا تقييد هذا الرجل، يا قبطان. إنه رجل ذو بأس، وأنا على يقين من ذلك، ولا بد أنه سيماطل بشدة.

- سأكون أنا معكم، وأنت تعلم أن ساعديّ شديدان.

وجد القرصان سيفاً في إحدى زوايا الغرفة، لا بد أنه سيف قديم لعائلة محرّر العقود، وبعد أن اختبر نصله، علّقه في حزامه، وهو يتمتم:

- إنه حديد توليدو، سيتعب خصمي الكاستيلياني حتماً.

في تلك الأثناء، كان كارمو والزنجي قد فتحا الباب الذي كاد يتحطم بفعل طرقات الرجل المستمرّة، فدخل الرجل، وكان ينظر بغيظ مقطباً حاجبيه، ومسنداً يده اليسرى على مقبض السيف، ثم قال بغضب:

- أيجب علي استعمال المدفع؛ كي تفتحوا لي الباب؟ ...

كان الوافد الجديد رجلاً مهيباً في الأربعينات من العمر، طويلاً وشديداً، وتبدو عليه الرجولة والإباء، أسود العينين، ذو لحية كثّة وسوداء، تضفي عليه مظهر المحارب. كان يرتدي لباساً إسبانياً أنيقاً من الحرير الأسود وحذاء طويلاً من الجلد الأصفر.

- سامحنا؛ إذ اطلنا عليك الانتظار، يا سيدي - أجابه كارمو وقد انحنى بسخرية - كنا منشغلين.

- وبماذا؟ - سأل الكاستيلياني.

- بعلاج السيد محرّر العقود.

- وهل هو مريض؟

- لقد أصيب بحمى شديدة جداً، يا سيدي.

- ناديني كونت، أيها الحقير.

- عذراً، يا سيدي الكونت، لم يحصل لي شرف معرفتكم.

- اذهب إلى الجحيم! ... أين ابن أخي؟ لقد جاء إلى هنا منذ ساعتين.

- لكننا لم نر أحداً، يا سيدي الكونت.

- أنت لا شكّ تهزأ بي! أين محرّر العقود؟

- إنه طريح الفراش، يا سيدي.

- خذني إليه بسرعة.

تقدّم كارمو أمامه بغية أن يقوده حتّى نهاية الممر قبل أن يعطي الإشارة للزنجي؛ لكي ينقض عليه بقوته العضلية. ما إن وصل إلى بداية السلّم حتّى التفت فجأة، وقال:

- الآن، يا رفيقي.

هجم الزنجي على الكاسيلياني، لكن الأخير الذي يبدو أنه كان متأهّباً، فضلاً عن تمتّعه بخفّة عالية، تجاوز بوثبة واحدة ثلاث درجات من السلّم بعد أن رمى كارمو جانباً بصدمة عنيفة، ثم جرد سيفه قائلاً:

- آه ... أيها المخادعان! ما سبب هذا الاعتداء؟ سأقصّ آذانكم الآن.

- إذا أردت أن تعرف سبب هذا الاعتداء، فأنا سأشرح لك ذلك، يا سيدي - أجابه صوت ما.

ظهر القرصان الأسود فجأة على قمّة السلّم شاهراً سيفه، ثم بدأ بنزول الدرجات الأولى.

التفت الكاستلياني، ولكنْ؛ دون أن يغفل عن كارمو والزنجي اللذين تراجعا حتّى نهاية الممر، ووقفا يحرسان الباب. فتح الأول سكّين النافاجا الطويل، أما الثاني؛ فقد تسلّح بقطعة خشب، سلاح خطير بين يديه.

- مَن أنت، يا سيدي؟ - سأل الكاستلياني - يمكنني الجزم بأنك رجل نبيل، لما ترتدي من لباس، ولكن اللباس لا يصنع الرهب، لذلك فقد تكون مجرد لص.

- كلمة كهذه قد تكلّفك ثمناً باهظاً، يا سيدي الجليل - أجاب القرصان.

- سنرى ذلك لاحقاً.

- تبدو شجاعاً، يا سيدي، وهذا أمر حسن. لكني أنصحك أن تطرح سيفك، وتستسلم.

- لمَن؟...

- لي.

- للصّ، ينصب الكمائن لقتل الآخرين غدراً؟

- كلا، ولكنْ؛ للفارس أميليو دي روكانيرا، سيد فينتيميلا.

- آه! أنت رجل نبيل، إذنْ. بودي أن أعرف - إذنْ - لماذا يرسل سيد فينتيميلا خادميه لقتلي؟

- هذا تصوّرك أنت، يا سيدي، لم يحاول أحد قتلك، بل كانا يحاولان نزع سلاحك فقط، وسجنك لبضعة أيام.

- وما سبب ذلك؟

- لمنعك من إبلاغ سلطات ماراكايبو أنني أتواجد هنا.

- وهل ارتكب سيد فينتيميلا جريمة، لذا؛ فهو يخشى سلطات ماراكايبو؟

- لنقل إنهم لا يكنّون لي الودّ، أو بالأحرى، هو فان غولد، والذي سيكون غاية في السعادة، لو ألقى القبض علي، كما يسعدني أنا - أيضاً - الإمساك به.

- لا أفهم ما تقصد، يا سيدي- قال الكاستلياني.

- هذا أمر لا يعنيك. والآن، هل ستستسلم؟

- أوه ! ... تظن أني سأفعل ذلك! وكيف لفارس أن يستسلم دون مقاومة؟

- ستجبرني على قتلك، إذنْ، فليس بوسعي أن أتركك تخرج من هنا، وإلا فسيقضون علينا.

- ولكنْ؛ هلا أخبرتني مَن أنتم؟

- كان من المفترض أن تدرك ذلك: على أي حال، فنحن من قراصنة التورتو. احترس يا سيدي، فإنني قاتلك.

- لن يكون ذلك بصعبٍ عليك، بما أنني سأواجه ثلاثة خصوم.

- لا تقلق بشأنهما- قال القرصان مشيراً إلى كارمو والزنجي - ليست من عادتهما أن يُقحما نفسيهما في نزال، يبارز فيه قبطانهم.

- في هذه الحالة إذنْ، سأنتهي منك بسرعة، فأنت لم تختبر بعد ساعد كونت ليرما.

- كما أنك لم تختبر بعد ساعد سيد فينتيميلا. خذ حذرك، يا كونت.

- اسمح لي بسؤال من فضلك، ماذا فعلت بابن أخي، وبخادمه؟

- إنهما محتجزان مع محرّر العقود، ولكنْ؛ لا تقلق بشأنهما، غداً سيكونان حرّين، وسيتسنّى لابن أخيك أن يتزوّج حبيبته.

- شكراً، أيها الفارس.

أجابه القرصان بانحاءة، ثم نزل السلّم، وهجم بعنف على الكاستلياني حتّى أجبره على التقهقر خطوتين. مرّت لحظات، لا يُسمع فيها سوى صليل السيوف في ذلك الممر الضيق. كان كارمو والزنجي متّكئين على الباب، يشبك كل منهما ذراعيه على صدره، يراقبان المبارزة دون أن يتفوّها بكلمة، محاولان تتبّع حركات السيفين السريعة. كان الكاستلياني يقاتل بضراوة مبارز باسل، يصدّ هجمات القرصان بثبات وعزيمة، ويوجّه بدوره ضربات قوية. ولكنه أدرك أن أمامه خصم رهيب بعضلات كالحديد. استعاد القرصان هدوءه بعد هجماته الأولى، فكفّ عن الهجوم إلا ما ندر، واكتفى بالدفاع عن نفسه، كما لو أنه كان يحاول إتعاب خصمه، ودراسة خطواته. كان ثابت القدمين، مستقيم الجسد، رافعاً يده اليسرى بشكل أفقي، تلمع عيناه، فبدا كما لو كان يلهو. حاول الكاستلياني سدى إجباره - بضربات متتالية - على التراجع نحو السلّم أملاً في إسقاطه. لم يتراجع القرصان خطوة واحدة، بل بقي ثابتاً؛ حيث هو، متصدّياً لضربات خصمه بسرعة رهيبة دون أن يحيد عن مكانه. وفي لحظة مؤاتية، اندفع القرصان فجأة نحو الكونت، ثبّت نصله على الجهة اليسرى من نصل خصمه، ثم أحناه نحو الأسفل، وأسقطه من يده، بحركة قوية وخاطفة. شحب الكاستلياني حين وجد نفسه مجرداً من سلاحه، وصرخ دون وعي. بقي القرصان مسدّداً نصله نحو صدر الخصم للحظة، بعد ذلك رفعه.

- إنك فارس باسل - قال القرصان محيياً خصمه - ما كنتَ تريد أن تسلّم سلاحك. ولكني - الآن - سآخذه منك، على أني سأُبقي على حياتك.

بقي الكاستلياني صامتاً، وقد ارتسمت الدهشة على محيّاه، ربما تبدو له أعجوبة أنه لا يزال على قيد الحياة. تقدّم خطوتين فجأة، ومد يمينه إلى القرصان قائلاً:

- يدّعي أبناء جلدتي أنْ لا أمان للقراصنة، ولا نواميس، وإنهم محترفون - فقط - في عمليات السرقة البحرية. أما أنا الآن؛ فبوسعي القول إن بين هؤلاء القراصنة مَن هم بواسل، وأن فروسيتهم وكرمهم لا تجاريهما فروسية وكرم أشرف نبلاء أوربا. ها أنا أمدّ يدي لك، يا سيدي الفارس: شكراً لك.

صافح القرصان خصمه بودّ، ثم تناول السيف، وقدّمه للكونت قائلاً:

- بوسعك الاحتفاظ بسيفك، يا سيدي، يكفي أن تعدني بأنك لن تستعمله ضدي حتّى الغد.

- أعدك بذلك، أيها الفارس، أقسم بشرفي.

- والآن؛ دعهم يقيدوك دون مقاومة، يحزنني أن أقوم بذلك، ولكنْ؛ لا بد لي من هذا الأمر.

- افعل ما تظنّه صائباً.

وبإشارة من القرصان، دنا كارمو من الكاستيلياني، وقيّده، ثم سلّمه للزنجي الذي قام باقتياده إلى الغرفة العليا؛ حيث ابن أخيه، خادمه ومحرّر العقود.

- أرجو أن تكون الزيارات قد انتهت - قال كارمو موجّهاً كلامه للقرصان.

- أما أنا؛ فأتوقع مجيء أشخاص آخرين، والتورّط في متاعب أخرى - أجاب القرصان - فاختفاء هؤلاء الأشخاص المفاجئ سيولّد شكوكاً كثيرة عند أهالي الكونت والشاب، ممّا يؤدي إلى تدخّل سلطات ماراكايبو دون شكّ. من الأفضل أن نحصّن الباب، ونتهيّأ للدفاع عن أنفسنا. هل وجدت أسلحة في هذا البيت؟

- لقد وجدتُ في مخزن القمح بندقية، وبعض الذخيرة، فضلاً عن درع ومطرد قديم صدئ.

- أظن أن البندقية ستكون نافعة لنا.

- وكيف سنقاوم، إذا ما هجم علينا الجنود؟

- سنرى ذلك فيما بعد، ولكنْ؛ كن واثقاً أن فان غولد لن يمسك بي حياً! والآن هيا لنعدّ تجهيزاتنا الدفاعية. لنترك الإفطار إلى وقت لاحق، حالما تسنح لنا الفرصة.

عاد الزنجي بعد أن ترك ستيلر على حراسة الرهائن. أخبروه بما يجب فعله، فقام، بمساعدة كارمو، بنقل كل الأثاث الثقيل والكبير الحجم الموجود في البيت إلى الممرّ، ممّا حدا بمحرّر العقود إلى التذمّر، ولكنْ؛ دون جدوى. قاما بتكديس الخزّانات والطاولات الضخمة خلف الباب، حتّى حصّنوا الباب تماماً.

لم يكتف البحّارة بذلك، فقاموا بتشييد حاجر آخر من الخزانات والأثاث عند بداية السلّم؛ لكي يعيقوا تقدّم المهاجمين إذا ما اقتحموا الباب.

حالما انتهوا من إنجاز استعداداتهم الدفاعية تلك، وإذا بهم يروا ستيلر يهبط السلم على عجل:

- يا قبطان – صاح - لقد تجمّع الكثير من الأهالي في الشارع، وكلهم ينظرون إلى هذا البيت. أحسبهم قد أدركوا أن لهذا المنزل علاقة ما باختفاء الرجال.

- آه ... - هتف القرصان دون أن تتغيّر ملاح وجهه مطلقاً.

صعد السلّم بهدوء، ثم نظر من الشباك الذي يطلّ على الشارع مستتراً خلف دفّة الشباك. لقد كان ستيلر محقّاً، كان هناك ما يقارب الخمسين

شخصاً ينتشرون على شكل مجموعات في الطرف الآخر من الشارع. كان أولئك الأهالي يتكلّمون بانفعال، ويشير بعضهم لبعض إلى بيت محرّر العقود، في حين يطلّ من النوافذ، بين الحين والآخر، سكان المنازل المجاورة.

- ها قد حدث ما كنتُ أخشاه - تمتم القرصان مقطباً حاجبيه. - لا يهمّ، إذا كنتُ سأموت في ماراكايبو، فلا بد أن هذا ما كُتب في سجلّ الأقدار. يا لأخوتي المساكين، لقد قُتلوا دون أن ينتقم لهم أحد! ... آه ... لكن ساعة موتي لم تحن بعد، ولا بد أن الحظ سيحالف قراصنة التورتو ... إليّ، يا كارمو.

ما إن سمعه البحّار يناديه حتّى هبّ إليه قائلاً:

- هاأنذا، يا قبطان.

- لقد أخبرتني أنك وجدت بعض الذخيرة.

- أجل، برميل بارود صغير، يزن ثمانية أو عشرة أرطال، يا سيدي.

- ضعه في الممر خلف الباب، وأوصله بفتيل طويل.

- يا للهول ... هل سنفجّر البيت؟

- أجل، إذا كان ذلك ضرورياً.

- وماذا عن الرهائن؟

- إذا جاء الجنود ليقبضوا علينا، فسيكون هذا من سوء حظهم. فلنا حقّ الدفاع عن أنفسنا، وسنقوم بذلك دون تردد.

- آه ... ها هم - هتف كارمو الذي كان يراقب الشارع.

- مَن؟

- الجنود، يا قبطان.

- اذهب، واجلب البرميل، ثم الحق بي أنت وستيلر، ولا تنس البندقية.

ظهرت على الطرف الآخر من الشارع فرقة من الجنود، يحملون البنادق تحت إمرة ضابط برتبة ملازم، يتبعهم جمهرة من الفضوليين. كان عددهم يقارب الأربعة والعشرين جندياً، وكانوا في أعلى درجات التأهّب، كما لو أنهم يستعدّون لحرب ما، مسلّحين بالبنادق والسيوف، وتتدلّى خناجر الميزيريكورديا من أحزمتهم.

لمح القرصان قرب الملازم رجلاً مسناً أبيض اللحية، يتقلّد سيفاً، فخمّن أنه قد يكون أحد أقارب الكونت، أو الشاب. تقدّمت الفرقة بين الأهالي الذين كانوا يحتلّون الشارع، واصطفّوا على مسافة عشر خطوات من بيت محرّر العقود. شكّلوا ثلاثة خطوط، وصوّبوا البنادق، كما لو أنهم على وشك أن يفتحوا النار. راقب الملازم النوافذ لحظات قليلة، تبادل بضع كلمات مع الرجل المسنّ الذي كان قريباً منه، ثم دنا من الباب، وصار يطرقه صارخاً:

- باسم الحاكم، آمركم بفتح الباب ...!

- أأنتم جاهزون، أيها البواسل؟ - سأل القرصان

- نحن جاهزون، يا سيدي - أجاب كارمو، ستيلر والزنجي.

- أنتما ستبقيان معي، أما أنت، أيها الأفريقي الشجاع؛ فاذهب إلى الطابق العلوي، وانظر فيما إذا كان هناك مخرج ما؛ لنهرب منه عبر السطح.

بعد ذلك، عمد إلى الشباك، وفتحه، ثم أطل منه، وسأل:

- ماذا تريد، يا سيدي؟

ما إن رأى الملازم هذا الرجل يطلّ بدلاً من محرّر العقود، بملامحه الحادة تلك وقبّعته السوداء العريضة المزيّنة بريشة سوداء طويلة، حتّى ظلّ يتطلّع إليه بدهشة وصمت.

- مَن أنت؟ - سأل بعد لحظات صمت - لقد طلبتُ محرّر العقود.

- أنا أنوب عنه، بما أنه لا يقوى على الحركة في هذه اللحظة.

- افتح لي الباب، إذنْ: افتحه بأمر الحاكم.

- وإذا لم أنفّذ الأمر؟

- إذا كان كذلك، فأنت مَن سيتحمّل عواقب الأمور. لقد وقعت أشياء غريبة في هذا المنزل، يا سيدي الفاضل، ولقد أُمرتُ أن أتحرّى عما حصل للسيد بيدرو كونكسيفيو وخادمه وعمّه كونت ليرما.

- إذا كان هذا ما يشغلك، فإني أبلغك أنهم كلهم أحياء في هذا البيت، بل هم بمزاج رائق.

- دعهم يخرجون، إذنْ.

- هذا غير ممكن، يا سيدي - أجاب القرصان.

- آمرك أن تطيع الأوامر، وإلا جعلتهم يحطّمون الباب.

- قم بذلك، إذنْ، ولكني أحذرك بأني وضعتُ خلف الباب برميلاً مليئاً بالبارود، فإذا ما حاولتُم اقتحام الدار، فإني سأوقد الفتيل، وسأفجّر البيت بمحرّر العقود، بالسيد كونسيفيو وخادمه وعمّه كونت ليرما. والآن لك أن تقوم بذلك، إن كنتَ تتحلّى بالجرأة الكافية.

لما سمع الجنود والأهالي المجتمّعون تلك الكلمات التي تفوّه بها القرصان بصوت هادئ وأعصاب باردة ونبرة لا تقبل الشك حول التهديد الرهيب، ارتجفوا رعباً، بل وتراجع الكثير منهم إلى الخلف، خوفاً من أن يتفجّر البيت بين لحظة وأخرى. حتّى الملازم تراجع - دون وعي - عدّة خطوات إلى الخلف. في حين ظلّ القرصان هادئاً أمام الشباك، كما لو كان مجرّد مشاهد، ولكنْ؛ دون أن يغفل عن بنادق الجنود، بينما كان كارمو وستيلر

يراقبان من خلفه تحرّكات الجيران الذين سارعوا بالتجمهر على الشرفات وأمام النوافذ.

- ولكنْ؛ مَن أنت؟ - سأل الملازم بعد لحظات من صمت.

- أنا - يا سيدي - رجل يكره أن يسبّب له الآخرون المتاعب أياً كانوا، حتّى لو كانوا ضباط الحاكم - أجابه القرصان.

- آمرك أن تُفصح عن اسمك.

- ولكن هذا لا يروق لي مطلقاً.

- سأجبرك على ذلك.

- وأنا سأفجّر البيت.

- إنك مجنون حقاً.

- بقدر ما أنت مجنون.

- آه! أتشتمني؟

- مطلقاً، يا سيدي، بل أجيبك فقط.

- كفّ عن هذا! ... لقد استمرّت مزحتك طويلاً.

- هذا ما تودّ، إذنْ؟ يا كارمو ... اذهب، وأوقد النار في فتيل برميل البارود.

-٨-

الفرار بأعجوبة

ما إن سمعوا هذه الأوامر حتّى تعالى صراخ الفضوليين والجنود من شدة الرعب. وكان صراخ الجيران أشد، فانفجار بيت محرّر العقود سيسبّب هدم بيوتهم، بالتأكيد، لذلك كانوا يصرخون عالياً، كما لو أن الانفجار قد حصل فعلاً. سارع الجنود والأهالي إلى الهرب حتّى نهاية الشارع، بينما كان الجيران ينزلون السلالم كالمجانين، وقد حملوا معهم ما استطاعوا من الأشياء الثمينة. كان الجميع واثقين أن هذا الرجل المجنون، حسب رأي البعض، سينفّذ تهديده دون شك. الملازم - فقط - هو مَن بقي في مكانه بشجاعة، ولكن نظراته القلقة تجاه البيت توحي بأنه لو كان وحده، أو ربما لولا تلك الأشرطة التي تجعل منه قائداً، لما بقي واقفاً في مكانه حتماً.

- كلا! ... توقّف، يا سيدي - صرخ الملازم - هل جننتَ؟

- ألديك ما تقوله، يا سيدي؟ - سأله القرصان بنبرته الهادئة.

- أطلب منك ألا تنفّذ مخططك التعيس هذا.

- بكل سرور، بشرط أن تتركنا وشأننا.

- أخل سبيل كونت ليرما والآخرين، وأعدك أني لن أسبّب لك المتاعب.

- سأفعل ذلك بكل سرور، إن أنت قبلتَ بشروطي.

- وما هي شروطك؟

- قبل كل شيء يجب أن تسحب كل القوات.

- وماذا بعد؟

- أن تجلب لي ورفاقي أمراً موقعاً من الحاكم، يتيح لنا مغادرة المدينة دون أن يعيقنا الجنود في الريف.

- ولكنْ؛ لماذا تحتاج إلى كل هذا، مَن أنت؟

- أنا رجل نبيل قادم من ما وراء البحار - أجاب القرصان بفخر وزهو.

- إذنْ؛ لا حاجة لك بهذه الوثيقة، من أجل مغادرة المدينة.

- على العكس، بل أنا بمساس الحاجة لها.

- إذنْ؛ فقد ارتكبت جريمة ما تخفيها. أخبرني ما اسمك، يا سيدي؟!

وصل في تلك الأثناء رجل تضمّد رأسه قطعة قماش ملطّخة بالدماء، يسير ببطء، ويغمز في سيره، كما لو كان أعرج، ثم دنا من الملازم. كان كارمو يقف خلف القرصان يراقب الجنود، وما إن رأى ذلك الرجل حتّى صرخ قائلاً:

- اللعنة.

- ماذا دهاك، أيها الباسل؟ - سأله القرصان ملتفتاً إليه.

- أعتقد أن أمرنا سينكشف أيها القرصان. إن هذا الرجل هو أحد الباسكيين الذين هجموا علينا بسكاكين النافاجا.

- آه! ... أجاب القرصان، وقد هزّ كتفيه.

كان ذلك الباسكي قد شاهد مبارزة القرصان في الحانة، وكان أحد الذين هجموا على البحّارين في الطريق، التفت إلى الملازم، وقال له:

- أتودّ أن تعرف حقاً مَن هو هذا الرجل النبيل ذو القبّعة السوداء، يا سيدي؟

- بالتأكيد - أجاب الملازم - أتعرفه؟

- وكيف لا؟! ... إنه أحد الرجال الذين تسبّبوا بما أنا به الآن. احذر، يا سيدي الملازم أن يهرب منك، إنه أحد القراصنة! ...

تعالت الصرخات من كل الجهات، ولكن هذه المرة ليس خوفاً، بل غضباً، ثم تبعتها إطلاقه نار، وصرخة ألم. قام كارمو، بأمر من القرصان، بالتصويب نحو الباسكي، وأرداه قتيلاً. صُوّبت عشرين بندقية تجاه الشبّاك الذي يطلّ منه القرصان، بينما كانت الجماهير تصرخ:

- اقتلوا هؤلاء الجيف!

- كلا، اقبضوا عليهم، واشنقوهم في الساحة.

- أحرقوهم أحياء!

- اقتلوهم! ... أقتلوهم! ...

أمر الملازم الجنود أن يخفضوا بنادقهم، ثم تقدّم نحو الشباك، وقال للقرصان الذي ظل واقفاً في مكانه، كما لو أن كل تلك التهديدات لا تعنيه مطلقاً:

- استسلم، أيها الرجل النبيل، لقد وصلت الكوميديا إلى نهايتها.

اكتفى القرصان بأن هزّ كتفيه.

- أفهمتَ ما قلتُ؟ - صرخ الملازم، وقد احمرّ وجهه من شدّة الغيظ.

- لقد فهمتُ تماماً، يا سيدي.

- استسلموا وإلا جعلتُهم يحطّمون الباب.

- افعل ذلك! ولكني أحذّرك أن برميل البارود مجهّز تماماً، وإني سأفجّر البيت بمَن فيه من الرهائن.

- ولكنْ؛ ستموت أنت أيضاً.

- أن أموت وسط ضجيج الحطام والدخان، لهو أفضل من الموت المخزي الذي سأواجهه بعد استسلامي.

- أعدك أننا سنُبقي على حياتك.

- إن وعودك لا تعني لي شيئاً، يا سيدي، لأني أعرف مدى مصداقيتها. إن الساعة الآن هي السادسة مساءً، وأنا لم أتناول غدائي بعد. لذلك سأتركك تفكر، بما يجب عليك فعله، وسأذهب لتناول شيئاً من الطعام مع كونت ليرما وابن أخيه، وسنحتسي كأساً من النبيذ على نخبك، هذا إن لم يتفجّر البيت قبل ذلك.

قال القرصان ذلك، ثم رفع قبّعته محيياً باحترام تامّ، وعاد إلى الداخل، وقد ترك الملازم وجنوده والجماهير في دهشة وحيرة.

- تعالوا، أيها البواسل - قال القرصان لكارمو وستيلر - أعتقد أن لدينا الوقت الكافي؛ لنتحدّث عما يجب فعله.

- وهؤلاء الجنود؟ - سأل كارمو الذي لم تكن دهشته أقلّ من دهشة الإسبان بفعل برودة أعصاب القرصان وجرأته الفريدة من نوعها.

- اتركهم يصرخون، إذا كانوا يودّون ذلك.

- إذنْ؛ هيا بنا إلى عشائنا الأخير، يا قبطاني.

- أحسب أن ساعة موتنا أبعد ممّا تظن - أجاب القرصان - انتظر حتّى يحل الظلام، وسترى أيّ معجزات سيصنع برميل البارود هذا.

دخل القرصان إلى الغرفة دون أن يضيف شيئاً آخر، حرّر كونت ليرما والشاب، ثم دعاهما إلى المائدة قائلاً:

- تفضل معي، أيها الكونت، وأنت - أيضاً - أيها الشاب. سأثق بوعدك، يا كونت، وأرجو أن لا تقوما بأيّ مبادرة ضدنا.

- من المستحيل أن نفعل شيئاً كهذا، أيها الفارس - أجاب الكونت

باسماً - فابن أخي مجرد من سلاحه، ثم إني أعلم جيداً مدى قسوة سيفك. إذنْ؛ ما الذي يقوم به أبناء بلدي؟ لقد سمعتُهم يصرخون عالياً.

- لم يفعلوا شيئاً حتّى الآن سوى محاصرتنا.

- يحزنني قول ذلك، أيها الفارس، ولكني أخشى أنهم سيقتحمون الدار، في نهاية المطاف.

- أما أنا؛ فلا أظن ذلك.

- إذنْ؛ سيحاصرونكم حتّى تضطروا إلى الاستسلام. يا إلهي، كن واثقاً إنه لشيء مؤلم حقاً، أن أرى رجلاً نبيلاً ومهذّباً مثلك بين يدي الحاكم. فهذا الرجل لا يغفر للقراصنة أبداً.

- لن أدع فان غولد يمسك بي، يجب أن أبقى حياً حتّى أصفّي حسابات قديمة مع هذا الفيامينغي.

- أتعرفه؟

- إن المصائب هي مَن عرّفتني به - قال القبطان بحسرة - إنه الرجل الذي أفنى عائلتي، وإذا كنتُ الآن قرصاناً، فإن هذا - دون شكّ - بسببه. والآن هيا، كفى كلاماً عن هذا، فكلما أذكره يغلي الدم في عروقي، ويصيبني الحزن، كما لو كنتُ في مأتم. أحتسي شرابك، يا كونت. ماذا يفعل الإسبان، يا كارمو؟

- إنهم يتجاذبون أطراف الحديث، يا قبطان - أجاب البحّار، بينما كان عائداً من الشبّاك - يبدو أنهم لم يتّخذوا - بعد - قراراً في الهجوم علينا.

- سيقومون بذلك، فيما بعد، ولكنْ؛ حينها قد لا نكون هنا. ألا يزال الزنجي مستمراً في بحثه؟

- أجل، إنه فوق السطح.

- احمل له شراباً، يا ستيلر.

قال القرصان ذلك، ثم غرق في التأمل رغم استمراره في تناول الطعام. لقد أصبح أكثر حزناً من ذي قبل، واشتد قلقه حتّى إنه لم يعد يستمع إلى أحاديث الكونت. فأنهوا عشاءهم، بصمت تامّ.

يبدو أن الجنود لم يتخذوا بعد أي قرار رغم شدة غضبهم ورغبتهم العارمة في شنق القراصنة، أو حرقهم أحياء. ولم يكن ذلك لعدم تمتّعهم بالشجاعة الكافية، على العكس تماماً، أو لأنهم كانوا يخشون انفجار برميل البارود، فانفجار البيت لا يعنيهم في شيء، بل لأنهم كانوا يخشون على كونت ليرما وابن أخيه، لأنهما شخصيّتان مهمّتان في المدينة، لذلك فَهَمُّهُم هو إنقاذهما.

ما إن حلّ الظلام حتّى جاء كارمو؛ ليخبر القرصان عن وصول فرقة أخرى من حملة البنادق فضلاً عن عدد من الجنود المسلّحين بالمطارد، وقد شغلوا مدخل الشارع.

- هذا يعني أنهم يستعدّون للقيام بشيء ما - أجابه القرصان - أرسل لي بالزنجي.

بعد لحظات ،كان الزنجي يقف أمام القرصان.

- هل بحثتَ عن مخرج ما في الطابق العلوي؟ - سأله القرصان.

- أجل، يا سيدي.

- هل هناك منفذ ما؛ لنهرب منه؟

- لا، ولكني صنعتُ منفذاً في السقف، بوسعنا المرور منه.

- وهل سيرانا الأعداء؟

- لا، يا سيدي.

- أهناك مكان ننزل فيه بعد ذلك؟

- أجل، يا سيدي، وعلى مسافة قصيرة من المنفذ.

في تلك الأثناء، دوت رشقة رصاص في الشارع، أدّت إلى ارتجاج الزجاج، واخترق بعضها النوافذ، فدخلت البيت مخلّفة ثقوباً في الجدران، وتهاوي بعض قشرة السقف. وثب القرصان، واستل سيفه بحركة خاطفة. ذلك الرجل الذي كان قبل لحظات قليلة متزناً وهادئاً، تغيّر شكله حالما شمّ رائحة البارود: اتّقد بريق في عينيه، وصبغ الاحمرار وجنتيه الشاحبتين فجأة.

- آه! ... إنهم يهجمون! ... - هتف بنبرة استهزاء. ثم التفت نحو الكونت وابن أخيه، وقال:

- لقد وعدتكما ألاّ يصيبكما مكروه، وسأفي بوعدي، مهما حصل، ولكنْ؛ عليكما أن تطيعاني، وأن تُقسما لي أنكما لن تتمرّدا عليّ.

- لك ما تريد، أيها الفارس - قال الكونت - يحزنني أن مَن يهاجمك هم أبناء جلدتي، لو لم يكن الأمر كذلك، لكان شرف لي أن أقاتل إلى جانبك.

- يجب عليكما أن تتبعاني، وإلاّ تفجر المنزل فوق رأسيكما.

- وهل سيتهدّم المنزل؟

- بعد دقائق قليلة، لن يبقى منه، ولا حتّى حجراً واحداً.

- أتريدون أن تدمّروا حياتي؟ - صاح محرّر العقود.

- اخرس، أيها البخيل - صرخ كارمو الذي كان يفكّ قيد الرجل المسكين - سننقذ حياتك، وأنت لا تزال تتذمّر.

- ولكنني لا أريد أن أفقد بيتي.

- بوسعك طلب تعويض من الحاكم.

دوت رشقة رصاص أخرى في الشارع، واخترق بعضها الغرفة، فتسبّبت بتحطيم المصباح الذي كان وسط الغرفة.

- هيا، يا رجال البحر! ... صاح القرصان - اذهب، وأشعل الفتيل، يا كارمو.

- تحت أمرك، يا قبطان.

- احذر أن ينفجر البرميل قبل أن نخرج من البيت.

- الفتيل طويل، يا سيدي - أجاب البحّار، بينما كان يهبط السلم راكضاً.

صعد القرصان إلى الطابق العلوي، يتبعه الرهائن الأربع، ستيلر والزنجي، في حين لا يزال الجنود يرشقون الرصاص مستهدفين النوافذ، بشكل خاص، ويأمرون القراصنة، بصراخ حاد، أن يستسلموا. كان الرصاص يتخلّل جميع أجزاء الدار مصدراً أزيزاً، جعل محرّر العقود المسكين يرتجف رعباً. بينما كان البحّارة وكونت ليرما، الذي كان رجل حرب هو الآخر، رابطي الجأش.

حال وصولهم إلى الطابق العلوي، أشار الزنجي إلى منفذ غير منتظم، يمكن المرور عبره إلى السطح، كان الزنجي قد صنعه باستخدام قطعة كبيرة من الخشب، انتزعها من أحد الأعمدة.

- هيا بنا - قال القرصان.

أغمد السيف، ثم تعلّق بأطراف المنفذ، بعد لحظة، وثب إلى السطح، وألقى نظرة سريعة حول المكان، فشاهد أمامه ثلاثة، أو أربعة أسطح، أشجار عالية وبعض النخلات، كانت إحداها جنب الحائط، تدلّى سعفاتها العظيمة والرائعة فوق قرميد السقف.

- أمن هنا سوف ننزل؟ - سأل القرصان الزنجي الذي التحق به في تلك الأثناء.

- أجل، يا سيدي.

- بوسعنا بعد ذلك الخروج من هذه الحديقة؟

- آمل ذلك.

عندما أصبح الجميع فوق السطح، كونت ليرما، ابن أخيه، الخادم، وكذلك محرّر العقود، الذي دفعه ستيلر بذراعيه القويتين إلى الأعلى، ظهر كارمو، وهو يقول:

- أسرعوا، أيها السادة، فبعد دقيقتين، سيتهدّم البيت تحت أقدامنا.

- لقد دمّرتم حياتي - تباكى محرّر العقود - مَن سيعوّضني عن ...

قاطعه ستيلر دافعاً إياه إلى الأمام بعنف.

- تحرّك، وإلا تفجّرت أنت - أيضاً - مع بيتك - قال له.

بعد أن تيقّن القرصان أن الأعداء لا يرونهم، قفز إلى سطح آخر، يتبعه كونت ليرما وابن أخيه. كان رشق الرصاص لا يزال مستمراً، بينما يتصاعد الدخان من البيت؛ ليتلاشى بين الأسطح. يبدو أن الجنود يسعون إلى جسّ نبض البحّارة في بيت محرّر العقود قبل أن يحطّموا الباب، ربما رغبة منهم في إجبارهم على الاستسلام. ربما ما يعيق اقتحامهم البيت هو خوفهم من أن ينفّذ القرصان تهديده الرهيب؛ ليدفن نفسه والرهائن الأربعة تحت الأنقاض. وصل القراصنة إلى أطراف السطح الأخير؛ حيث النخلة، وهم يجرّون محرّر العقود الذي ما عاد بوسعه الوقوف على قدميه. تمتدّ تحتهم حديقة كبيرة، يحيطها جدار عالٍ، ويبدو أنها تمتدّ باتجاه الريف.

- أنا أعرف هذه الحديقة - قال الكونت - إنها ملك لصديقي موراليس.

- أرجو أن لا تخوننا - قال القرصان.

- قطعاً، أيها الفارس، فأنا لم أنس - بعد - أني مدينٌ لك بحياتي.

- هيا؛ لنهبط بسرعة - قال كارمو - قبل أن يرمينا عصف الانفجار في الهواء.

ما إن أتم كلامه حتّى لاح بريق هائل، ثم تبعه انفجار عظيم. شعر القراصنة ورفاقهم بالسقف يتأرجح تحت أقدامهم، ثم سقطوا واحداً فوق الآخر، بينما كانت تهطل عليهم كسارة الحجر وأجزاء من الأثاث وقطع من الأقمشة الملتهبة بالنار.

غطّت الأسطح غيمة كبيرة من الدخان، فحجبت الرؤية لبضع دقائق، بينما كانت تصدر من الشارع جلبة تهدّم بعض الجدران والأسطح مصحوبة بصراخ ولعنات.

- اللعنة - صرخ كارمو الذي اندفع حتّى الميزاب - لم يبق سوى متر واحد لأسقط في الحديقة ككيس من الخرق.

وثب القرصان بسرعة متمايلاً وسط الدخان الذي يحيط به.

- هل الجميع بخير؟ - سألهم.

- أعتقد ذلك - أجاب ستيلر.

- ولكنْ؛ ... هناك أحد ما لا يتحرك - قال الكونت - ربما سقط عليه بعض الحطام، فقتله؟

- إنه محرّر العقود الكسول - أجاب ستيلر - لنتأكّد فيما إذا كان قد أغمي عليه بفعل الخوف.

- لنتركه حيث هو - قال كارمو - سينقذ نفسه، كيفما استطاع، هذا، إن لم يقتله الألم لفقده بيته.

- كلا - أجاب القرصان - أرى نيراناً تتصاعد بين الدخان، فقد يحترق، إن تركناه هنا. لقد تسبّب الانفجار في انتشار النيران في البيوت المجاورة.

- هذا صحيح - أكّد الكونت كلام القرصان - إني أرى بيوتاً تلتهمها النيران.

- لنستغلّ ارتباكهم هذا، ولنبادر بالهرب، يا أصدقاء - قال القرصان - أنت، يا موكو، ستتكفّل بحمل محرّر العقود.

وبينما كانوا يخرجون إلى طريق يقود إلى الجدار الذي يحيط بالحديقة، وإذا بهم يرون رجالاً مسلّحين بالبنادق يخرجون من بين الشجيرات صارخين:

- توقّفوا، وإلا فتحنا النار.

استلّ القرصان سيفه بيمينه، بينما أمسك أحد مسدّسيه باليسرى، عازماً على فتح الطريق بالقوة. فاستوقفه الكونت بحركة منه، ثم قال له:

- اترك الأمر لي، أيها الفارس.

توجّه نحو أولئك الرجال، وقال لهم:

- إذنْ؛ أنتم لم تتعرّفوا إلى صديق سيدكم؟

- السيد كونت ليرما! ...- هتف الرجال بذهول.

- أخفضوا أسلحتكم، وإلا شكوتُكم إلى سيدكم.

- معذرة، يا حضرة الكونت - قال أحد الرجال - لم نكن نعلم مَن أنتم. لقد سمعنا دوياً مخيفاً، وبما أننا نعلم أن الجنود يحاصرون قراصنة في الجوار، فقد جئنا؛ لنعيق هرب هؤلاء المجرمين الخطرين.

- لقد هرب القراصنة، لذلك بوسعكم أن تعودوا. هل هناك باب ما للخروج؟

- أجل، يا حضرة الكونت.

- افتحوا الباب لنا، إذنْ، ولا تشغلوا أنفسكم، بأشياء أخرى.

أمر الرجل الذي تكلّم بانسحاب الآخرين، ثم سلك طريقاً جانبية حتّى وصل إلى باب حديدي، وفتحه. خرج البحّارة الثلاثة والزنجي، يتقدّمهم الكونت وابن أخيه، في حين توقّف الخادم الذي كان يحمل بين ذراعيه محرّر العقود الذي لايزال مغمى عليه مع خادم صاحب الحديقة.

اصطحب الكونت البحّارة لمائتي خطوة، ثم انعطفوا في شارع آخر، فقال للقرصان:

- لقد أنقذت حياتي، أيها الفارس، لذلك فأنا سعيد أن بادلتُكَ بهذه الخدمة الصغيرة. فرجل باسل مثلك لا يستحقّ الموت شنقاً، وكن واثقاً لو أن الحاكم ألقى القبض عليك، لما غفر لك. واصلوا السير في هذه الطريق التي ستقودكم حتّى الأرياف، وعودوا إلى سفينتكم.

- شكراً، أيها الكونت - أجاب القرصان.

تصافح الرجلان بكل ودّ، وحيّا كل منهما الآخر رافعاً قبّعته.

- ها هو رجل باسل أخيراً - قال كارمو - إذا ما عدنا إلى ماراكايبو، فيجب علينا أن نعرج عليه لزيارته.

انطلق القرصان مسرعاً، يتقدّمه الأفريقي الذي ربما كان يعرف أطراف ماراكايبو أفضل حتّى من الإسبان. بعد مرور عشر دقائق، ودون أيّ عقبات، وصل البحّارة على أطراف الغابة؛ حيث يوجد كوخ ساحر الأفاعي. عندما نظروا خلفهم، شاهدوا غيمة من الدخان ترتفع فوق آخر بيوت المدينة، يتطاير منها شرر، تحمله الريح فوق الخليج. كان ذلك بيت محرّر العقود الذي أكلته النيران مع بعض البيوت المجاورة.

- يا للمسكين - قال كارمو - سيموت حسرة على منزله، وعلى مخزن النبيذ. إنها صدمة قوية جداً، بالنسبة لبخيل مثله.

توقّفوا لبضع دقائق تحت ظل شجرة سيماروبا ضخمة خوفاً من أن تكون

هناك فرقة إسبانية ما في الجوار، بُعثت للبحث في الأرياف، وبعد أن اطمأنوا إلى الصمت الذي كان يسود الغابة، انطلقوا تحت الأشجار في سير حثيث. كان مسيرة عشرين دقيقة كافية لقطع المسافة حتّى كوخ الزنجي، ولكنْ؛ قبل وصولهم بخطوات قليلة، سمعوا أنين أحد ما، فتوقّف القرصان فجأة سعياً في اكتشاف ذلك الأنين المنبعث من الظلام القاتم بين الأشجار.

- يا إلهي - هتف كارمو - إنه سجيننا الذي تركناه مقيّداً إلى جذع الشجرة، لقد نسيتُ هذا الجندي المسكين تماماً!

- أنت محقّ - تمتم القرصان، ثم اقترب من الكوخ، فشاهد الإسباني الذي كان لا يزال مقيداً.

- أتريدون قتلي جوعاً؟ - سأل المسكين - من الأفضل أن تشنقونني، إذنْ.

- أوصل أحد ما إلى هنا؟ - سأله القرصان.

- لم أر أحداً، يا سيدي.

- اذهب، واجلب جثمان أخي - أمر القرصان موجّهاً كلامه للأفريقي. ثم اقترب من الجندي الذي صار يرتجف ظناً منه أن ساعة موته قد حانت، فحرّره من قيده، وقال له بنبرة جافة:

- بوسعي أن أنتقم منك قبل الآخرين عن مقتل أخي الذي سأقبره في أعماق البحر وعن رفاقه المساكين الذين لا يزالون معلّقين في ساحة المدينة الملعونة، إلا أنني وعدتُك أن أُبقي على حياتك، والقرصان الأسود لا يخلف بوعده. أنت حرّ الآن، ولكنْ؛ عليك أن تقسم لي أنك حالما تصل إلى ماراكايبو ستذهب إلى الحاكم، وتنقل له عني هذا: أني هذه الليلة سأقسم أمام رجالي على متن سفينتي الفولغورا وأمام جثمان أخي القرصان الأحمر قسماً، سيجعله يرتجف رعباً. لقد قتل هو أخويّ، وأنا سأدمّره، وكل مَن ينتمي إلى علّته. أخبره أني أقسمتُ بالبحر وبالآلهة وبجهنم، أننا سنلتقي قريباً جداً. ثم أمسك بالسجين الذي ظلّ مندهشاً، ودفعه قائلاً:

- هيا، اذهب، ولا تلتفت خلفك؛ لأنني قد أندم على إبقائك حياً.

- شكراً، يا سيدي - قال الإسباني، ثم هرب مسرعاً خوفاً من أن لا يخرج من الغابة حياً.

ظلّ القرصان يراقبه، وهو يبتعد حتّى رآه يختفي في الظلام، عندها التفت إلى رجاله قائلاً:

- لنغادر، ليس لدينا الكثير من الوقت.

-٩-

القَسَم العظيم

كانت المجموعة التي يقودها الأفريقي، الذي خبِر تماماً دروب الغابة، يحثون السير للإسراع في الوصول إلى ساحل الخليج وركوب البحر قبل طلوع الفجر. كان الجميع قلقين بشأن السفينة التي تنتظرهم عند مدخل الخليج، ذلك أن السجين كان قد أخبرهم أن حاكم ماراكايبو بعث رسله إلى جبل طارق لطلب العون من الأميرال توليدو. كانوا يخشون أن سفن هذا الأميرال، التي تشكّل فرقة كبيرة على مستوى عالٍ من التسلّح، وعلى متنها عدد كبير من البحّارة الشجعان، أغلبهم باسكيين، قد عبرت البحيرة، وهجمت على الفولغورا، ودمّرتها. كان القرصان صامتاً، لكن قلقه واضح، يستوقف رفاقه بين الفينة والأخرى، وينصت بغية الاستماع لأيّ ضوضاء في المكان، ثم يعاود السير بسرعة أكبر، كأنه يركض. وفي بعض الأحيان، يقوم بحركات تدلّ على نفاد الصبر حينما يجد نفسه فجأة أمام مستنقع ماء، أو أمام شجرة عملاقة، سقطت بفعل الزمن، أو بفعل صاعقة ما، وقد كانت هذه العقبات تُجبر البحّارة على تغيير مسارهم، وتجعلهم يفقدون وقتا ثميناً. لحسن الحظّ أن الأفريقي يعرف الغابة جيداً، فكان يسلك بهم مسارات مختصرة، تمكّنهم من قطع الطريق، بشكل أسرع. عند الثانية صباحاً، سمع كارمو، الذي كان يسير أمام الزنجي، صخباً يأتي من بعيد، ممّا يدلّ على اقترابهم من البحر. أتاح له سمعه المرهف سماع اصطدام الأمواج بأشجار البالاتوفيري المنتشرة على الشاطئ.

- إذا سارت الأمور على ما يرام، فبعد ساعة من الآن، سنكون على متن سفينتنا، يا سيدي - قال موجّهاً كلامه للقرصان الأسود الذي لحق به في

تلك اللحظة. أومأ القرصان برأسه دون أن يتفوّه بكلمة. لم يخطئ كارمو في تقديره، فكلما تقدّموا، يصبح صخب تكسّر الأمواج أكثر وضوحاً، وبين الحين والآخر، يصل إلى أسماعهم صياح طيور البيرناكلة، وهي نوع من الإوز البرّيّ أسود الظهر أبيض الرأس، يستيقظ باكراً للسباحة على ضفاف الخليج. أومأ القرصان حاثّاً رفاقه على الإسراع لدقائق أخرى، بعد ذلك بقليل، وصلوا إلى ساحل منخفض، تنتشر عليه أشجار البالاتوفيري التي تمتدّ على طول البصر نحو الشمال، ونحو الجنوب مشكلة انحناءات مختلفة.

كان الظلام دامساً بفعل الضباب الذي تسبّبه المستنقعات المحيطة بالبحيرة، إلا أن خطوطاً ضوئية، تتقاطع في مختلف الجهات، كانت تتخلّل الظلام الجاثم فوق البحر. يبدو وكأن قمم الأمواج تتألّق، بينما كانت الرغوة، التي يسهل تمييزها على الشاطئ، كأنها زينة، لما يتخلّلها من بريق فسفوري. بعض بقاع البحر الأسود كالحبر تتحوّل فجأة إلى بقاع مضيئة، كما لو أن مصباحاً كهربائياً بقوة عالية قد أُضيء في أعماق البحر.

- إنها الأضواء الفسفورية - هتف ستيلر.

- لتذهب إلى الجحيم - قال كارمو - وكأن الأسماك تحالفت مع الإسبان؛ لتمنعنا من الإبحار.

- كلا - أجاب ستيلر مشيراً إلى الجثمان الذي يحمله الزنجي - إن الأمواج تتألّق استقبالاً لجثمان القرصان الأحمر.

- أنت محقّ، يا صديقي- تمتم كارمو.

كان القرصان الأسود في تلك الأثناء يدقّق النظر في أقاصي البحر، بغية التأكد فيما إذا كانت فرقة الأميرال في البحيرة. لم يلمح شيئاً، فشخص بنظره نحو الشمال، بدا له ظلّ عملاق، يبرز واضحاً بين الأضواء الفسفورية.

- ها هي الفولغورا هناك - قال - ابحثوا عن القارب؛ لكي نبحر.

تأمل كارمو وستيلر المكان، كانا لا يذكران أين تركا القارب، فابتعدا عن المجموعة، وقد صعدا الساحل نحو الشمال، يدقّقان البحث بين أشجار البلاتوفيري التي تتكسّر الأمواج اللامعة على جذورها وأوراقها العظيمة المصفرّة. بعد مسيرة كيلومتر، عثرا على القارب الذي سحبه الجزر بين الأشجار. ركبا البحر، واتّجها إلى حيث كان ينتظرهما القرصان والزنجي. وضعوا الجثّة الملفوفة بعباءة القرصان الأسود بين مصطبتي القارب، وقد غطّوا وجهه، ثم أبحروا بهمّة. كان الزنجي جالساً في مقدّمة القارب وبين قدميه بندقية السجين الإسباني، بينما جلس القرصان في مؤخّرة القارب مقابل الجثة. عاد غارقاً في حزنه العميق، واضعاً رأسه بين يديه، ومسنداً مرفقيه على الفخذين، يحدّق في جسد أخيه الذي تبرز هيأته من تحت العباءة الكئيبة. كان غارقاً في أفكاره الحزينة حتّى بدا كأنه غاب عن كل ما حوله: عن رفاقه وعن سفينته التي كانت تتّضح أكثر فأكثر، كلّما تقدّموا فوق البحر المتألّق حتّى بدت كحوت عظيم طافٍ فوق سطح من الذهب السائل، وحتّى عن فرقة الأميرال توليدو. كان ساكناً حتّى ليبدو أنه لا يتنفّس، في حين كان القارب يعدو مسرعاً فوق الأمواج، مبتعداً عن الشاطئ، تتألّق المياه حوله، فيتطاير من المجاديف رذاذ من الزبد اللامع الذي تبدو - أحياناً - كأنه شرر. تتمايل تحت الأمواج أسراب من الرخويات الغريبة بأعداد كبيرة، كأنها تلعب بين الأضواء. تتفتّح حيوانات قنديل البحر، كأنها كريات مضيئة، تتراقص على أنسام المساء، وحيوانات الميليتيا المضيئة كالجمر بأطرافها ذات الشكل الصليبي، والأكاليفي اللامعة، كما لو كانت مطلية بالماس، والفيليليلا الجميلة التي تعكس قشرتها بريقاً أزرق رائع الجمال، فضلاً عن الممشطيات، حيوانات ذات أجسام مستديرة، تنتشر عليها شعيرات، تعكس ألوانا خضراء. ثم كانت هناك أسماك من مختلف الأنواع، تظهر وتختفي تاركة خلفها مسارات ضوئية، وإخطبوطات بأشكال مختلفة، تتمايل في كل الاتجاهات، فتتقاطع أضواؤها المختلفة الألوان، بينما تسبح تحت سطح

الماء خراف بحر كبيرة الحجم وكثيرة الانتشار في ذلك الوقت، فتقوم برمي المياه اللامعة بذيولها الطويلة، أو بزعانفها التي لها شكل الأذرع البشرية.

كان البحّاران يجدّفان بهمّة، فيجري القارب مسرعاً فوق تلك الأمواج المتألّقة، فتتطاير بفعل التجديف، كميات هائلة من النقاط المضيئة. كانت الكتلة السوداء التي تشكّلها السفينة كبيرة جداً، ولو كان الأميرال توليديو في ذلك الشاطئ، لكانت هدفاً واضحاً، بالنسبة له. كان البحّاران يتلفّتان حولهما بين حين وآخر، وهما يجدّفان، خشية أن تفاجئهم سفن العدو. أسرعا في التجديف؛ لأن خوفاً قد سيطر عليهما، بفعل اعتقادهما ببعض الخرافات. البحر اللامع، والجثة التي يحملانها في القارب، وحضور القرصان الأسود، ذلك الشخص الحزين والكئيب الذي كان دائماً بتلك الملابس الجنائزية، كل ذلك يملؤهما برعب خفي، لذلك فهما يسرعان ما استطاعا؛ لكي يصلا إلى السفينة، ويكونا بين رفاقهما. وبينما كانوا على مسافة ميل من السفينة التي تتقدّم نحوهم، وإذا بالبحّارين يسمعان صرخة غريبة، تبدو كأنها عويل حادّ، وقد انتهت بأنين مخيف. توقّف الاثنان عن التجديف، وجالا بنظرها مرعوبين.

- أسمعتَ ذلك؟ - سأل ستيلر الذي بلّل جبينه عرق بارد.

- أجل - أجاب كارمو بصوت مرتجف.

- لعلّه كان نوعاً من أنواع السمك؟

- لم أسمع - قطّ - سمكاً يصرخ هكذا.

- وماذا قد يكون برأيك؟

- لا أعرف، ولكنني أشعر بالقلق.

- قد يكون شقيق الميت؟

- اصمت، يا رفيقي.

نظر كلاهما إلى القرصان الأسود، ولكنْ؛ يبدو أنه لم يسمع شيئاً، فقد كان صامتاً، ورأسه بين يديه يحدّق في جثة أخيه.

- هيا، ليكن الله في عوننا - تمتم كارمو، وقد أومأ إلى ستيلر؛ ليعاود التجديف. ثم مال نحو الزنجي، وسأله:

- هل سمعت الصرخة، يا رفيقي؟

- أجل - أجاب الأفريقي.

- وماذا كان برأيك؟

- ربما كان خروف البحر.

- آه ... - تمتم كارمو - قد يكون خروف البحر، ولكنْ؛ ...

توقّف عن الكلام فجأة، وشحبت سحنته. في تلك اللحظة تماماً، بدت له هيئة سوداء غير واضحة المعالم وسط دائرة من الرغوة المتألّقة، ثم غطست بسرعة في أعماق الخليج.

- أرأيتَ ذلك؟ - سأل كارمو ستيلر بصوت مخنوق.

- أجل - أجاب الآخر، وأسنانه تصطكّ رعباً.

- لقد كان رأساً، أليس كذلك؟

- أجل، يا كارمو، كان رأس ميت.

- إنه القرصان الأخضر، وهو يتبعنا؛ لكي يستقبل القرصان الأحمر.

- إنك تخيفني، يا كارمو.

- ولكنْ؛ ألم يسمع القرصان الأسود، أو يرى أي شيء من هذا؟

- مع أنه أخوهما!

- وأنتَ، أرأيت شيئاً، يا رفيقي؟

- أجل، رأيتُ رأساً.

- رأس ماذا؟

- رأس خروف بحر.

- اذهب إلى الجحيم، أنت وخراف البحر تلك - غمغم كارمو متذمّراً - لقد كان رأس ميت، أيها الزنجي الأعمى.

في تلك الأثناء، صدر صوت من السفينة، وتردّد صداه في البحر.

- مَن أنتم، يا رجال القارب؟

- القرصان الأسود! -... صرخ كارمو.

- اقتربوا!

كانت الفولغورا تتقدّم بسرعة كطير سنونو، تشقّ المياه اللامعة. كانت تبدو من شدة سوادها كسفينة الأشباح الهولندية الملعونة، أو السفينة التابوت التي تبحر في البحر المتوهّج. يطلّ بحّارة السفينة كأنهم تماثيل، جميعهم يحملون البنادق، بينما يقف جنود المدفعية خلف المدفعين المنصوبين على مقدّمة السفينة، وهما يحملان بأيديهم الفتائل المشتعلة، في حين يرفرف على قمة الشراع علم القرصان الأسود، وقد خُطّ عليه حرفان باللون الأصفر، تتقاطع معهما زخرفة غريبة وغير مفهومة.

توقّف القارب على الجهة اليسرى من السفينة التي كانت تقف بمواجهة الرياح، وقد ألقى البحّارة المرساة.

- أنزلوا الرافعات - صاح صوت مبحوح.

أُنزل حبلان، ينتهي كل منهما بكلاب حديدي، ربط كارمو وستيلر القارب، صفّر رئيس الطاقم، فرُفع القارب بمَن فيه إلى متن السفينة. وما إن سمع القرصان اصطدام مقدّمة القارب ببدن السفينة حتّى خرج من دوامة أفكاره الحزينة، نظر حوله، كأنه مندهش أن وجد نفسه على متن سفينته، انحنى على الجثة، وحملها بين ذراعيه، ثم وضعها تحت الصارية. ما إن رأى أفراد الطاقم الجثة حتّى رفعوا قبّعاتهم احتراماً. نزل مورغان، نائب القبطان، من على دفّة القيادة، وتوجّه نحو القرصان الأسود .

- أنا تحت أمرك، يا سيدي.

- قم بما يجب عليك فعله - قال القرصان، وقد هز رأسه بحزن.

صعد ببطء نحو دفّة القيادة، ثم توقّف في الأعلى صامتاً كتمثال، وقد شبك ذراعيه على صدره. صارت تلوح أول خيوط الفجر من جهة الشرق؛ حيث السماء تحاذي البحر، واصطبغ الماء بضياء شاحب، فبدا كالحديد الصلب. حتّى ذلك الضياء كان يبدو كئيباً، لافتقاره إلى الصبغة الوردية المعتادة، كان ذا لون رمادي قاتم، يميل إلى لون الحديد. في تلك الأثناء؛ أُنزل علم القرصان حداداً حتّى منتصف السارية، بينما وضعت الساريات الخالية من الأشرعة بشكل متقاطع مشكلة علامة الصليب، في حين اصطفّ طاقم السفينة على طول جدار السفينة. أولئك الرجال الذين اسمرّت سحنتهم بفعل الرياح ودخان آلاف المرافئ، كانوا حزانى، ينظرون برهبة إلى جثمان القرصان الأحمر الذي وضعه نائب القبطان مع قذيفتي مدفع في مضجع من الشباك. صار الضياء يملأ الأفق، وازداد ألق الأمواج حول السفينة، وهي تصدر ضجيجاً بفعل اصطدامها بجوانب السفينة السوداء، وبمقدّمتها. كان لتلك الأمواج، في تلك اللحظة، همسات غريبة، تبدو كأنها أنين أرواح، أو حسرات كئيبة، أو عويل خافت. فجأة دقّت النواقيس على متن السفينة، ركع كل أفراد الطاقم، بينما رفع نائب القبطان بمساعدة ثلاثة رجال، جثمان القرصان الأحمر، وأسندوه على جدار السفينة. ساد صمت جنائزي على

متن السفينة الساكنة فوق المياه المتألّقة، حتّى البحر سكن، ولم يعد يصدر منه أيّ ضجيج. تعلّقت أنظار أفراد الطاقم بالقرصان الأسود الذي كان شاخصاً أمام خط الأفق الرمادي. بدا جواب الخليج، في تلك اللحظة، كعملاق ينتصب أمام دفّة القيادة، بينما تتراقص الريشة السوداء الطويلة على نسمات الصباح، وقد مدّ ذراعه نحو جثة القرصان الأحمر، كما لو أنه يلوح بتهديد عظيم. كسر صوته المعدني القوي زجاج الصمت الجنائزي الذي كان يسود السفينة:

- يا رجال البحر - صرخ - أنصتوا إلي! ... أقسم بالله، وبهذا البحر، رفيقنا الأمين، وبنفسي أنني لن أنعم بالراحة على الأرض حتّى أنتقم لأخوي اللذين قتلهما فان غولد. لتحرق الصواعق سفينتي، لتبتلعني وإياكم الأمواج، ليلعنني هذان القرصانان اللذان يستقران في أعماق هذه المياه، لعنة أبدية، إن لم أقتل فان غولد وأبيد كل أهله، كما أباد كل أهلي. أسمعتموني، يا رجال البحر؟ ...

- أجل - أجاب البحّارة، بينما كانت الرهبة تملأ وجوههم.

انحنى القرصان الأسود على المنصة، وحدق في الأمواج اللامعة.

- لتُرمى الجثة في الماء - صاح صوت حزين.

رفع رئيس الطاقم والرجال الثلاثة المضجع الذي يحتوي على جثة القرصان المسكين، ورموه في الماء. هوت الجثة بين الأمواج، وقد تناثر من حولها الماء الذي بدا، وكأنه شرر يتطاير. انحنى كل البحّارة على جدار السفينة، شاهدوا الجثة عبر المياه الفسفورية، وهي تنزل ببطء في أعماق البحر الخفية، محدثة دوائر مائية، ثم اختفت فجأة في الأعماق. في تلك اللحظة، تردد في البحر ذات الصوت الذي أرعب كارمو وستيلر. وبينما كانا تحت دفّة القيادة، نظر كل منها إلى الآخر بوجه شاحب كقطعة قماش أبيض.

- إنها صرخة القرصان الأخضر الذي شعر بمجيء القرصان الأحمر - غمغم كارمو.

- أجل - أجاب ستيلر بصوت مختنق - لقد التقى الأخوان في أعماق البحر.

قاطع صفير ما كلامهما فجأة.

- تجهّزوا للانطلاق - صرخ رئيس الطاقم - اضبطوا الأشرعة باتجاه الريح.

غيّرت السفينة اتجاهها بمناورات بين الجزر، ثم اتّجهت نحو الخليج الذي اصطبغت مياهه باللون الذهبي بفعل أشعة الشمس، وقد خفتت الأضواء الفسفورية فجأة.

-١٠-
على متن الفولغورا

ما إن خرجت الفولغورا من الجزر، واجتازت اللسان البحري المكوّن من حصون سيرا دي سانتا مارتا، حتّى انطلقت في مياه البحر الكاريبي متّجهة نحو الجنوب؛ أي نحو جزر الأنتيل الكبرى. كان البحر هادئاً إلا من بعض النسمات الصباحية التي تهبّ من الجنوب والجنوب الشرقي مخلّفة هنا وهناك بعض الأمواج التي تتكسّر على جانبي السفينة السريعة. تحلّق الكثير من الطيور القادمة من السواحل فوق البحر، كغربان البحر، وهي طيور كاسرة كبيرة الحجم مثل ديكة، تحلّق قرب السواحل دائمة التأهّب للانقضاض على أصغر الفرائس، وتقطيعها، وهي ما تزال حية. بينما تحلّق أسراب طيور الرنكوبي بمحاذاة الأمواج، وهي طيور ذات ذيل كالشوكة، ريش أسود على الظهر وناصع البياض على البطن، لها منقار قصير، يجعلها تعاني الجوع لفترات طويلة، ذلك أن فكّها الأسفل أطول بكثير من الأعلى، فإن لم تقفز السمكة في فم هذا الطير بشكل عفوي، فإنه يبقى يقاسي الجوع طويلاً. ولا تنقص حتّى الطيور الاستوائية الكثيرة الانتشار في الخليج المكسيكي؛ حيث يمكن رؤية أسرابها، وهي تلامس الأمواج، بينما تتدلّى ريشتا الذيل الطويلتين، وهي تحرّك أجنحتها السوداء بشكل غريب جداً. ثم كانت هناك الأسماك التي تقفز في الهواء حتّى خمسين أو ستين ذراعاً، ثم تهوي في الماء؛ لتعود - من جديد - لممارسة ذات اللعبة. ما كان ينقص - تماماً - هي السفن، كان رجال المراقبة في الأعلى يداومون على المراقبة، ولكنْ؛ لم يلمحوا أيّ سفينة في الأفق، في أيّ اتجاه كان.

إن الخوف من مصادفة سفن القراصنة يجبر السفن الإسبانية على البقاء

في موانئ كاراكا، يوكتانا وفنزويلا وفي جزر الأنتيل الكبرى، حتّى يتجمّعون بأعداد كبيرة. فقط السفن المسلّحة بشكل جيد، والتي تحتوي على طاقم بأعداد كبرى هي مَن تجرأ على الإبحار في البحر الكاريبي، أو خليج المكسيك وحدها، ذلك أنهم يعرفون - عن تجربة - مدى إقدام القراصنة الذين يرفرف علمهم فوق جزيرة الترتو.

في ذلك اليوم، بعد مواراة القرصان الأحمر في البحر، لم تستجد أيّ أحداث على متن الفولغورا. لم يظهر القبطان على متن السفينة، ولا على دفّة القيادة، بل إنه ترك القيادة والمناورة إلى نائبه. لقد أغلق كابينته عليه، ولم يره أحد، ولا حتّى كارمو وستيلر. توقّع البحّارة أن الزنجي كان معه، ذلك أن أحداً لم يره في أي زاوية من زوايا السفينة، أو حتّى في عنبر الشحن. ماذا يفعلان في الكابينة المقفلة، لا أحد باستطاعته معرفة ذلك. ربما حتّى نائب القبطان لا يعرف شيئاً عن ذلك، لأن كارمو حينما حاول أن يسأله عن ذلك، جوبه بردّ أشبه بالتهديد، وكأنه يقول له:

- إذا كنت تخشى على حياتك، فلا تسأل عمّا لا يعنيك!

هبط الظلام، بينما كان البحّارة يطوون أشرعة الفولغورا خشية الرياح المفاجئة التي عادة ما تهبّ في تلك المناطق، والتي دائماً ما تسبّب كوارث على السفن، فجأة، وإذا بكارمو وستيلر، اللذان كانا يجولان على السفينة، لمحا رأس الزنجي.

- ها هو رفيقي! ... - هتف كارمو - أرجو أن يخبرنا فيما إذا كان القرصان لا يزال في السفينة أم أنه خرج ليتجاذب أطراف الحديث مع أخوته في أعماق البحر. أحسب هذا الرجل الحزين لقادر على فعل ذلك.

- أظنك محقّاً، يا صديقي - قال ستيلر الذي كان يعرف اعتقادات كارمو الخرافية - أنا أعدّه روح بحر أكثر ممّا هو رجل بلحم ودم مثلنا.

- مرحباً، يا رفيقي - صاح كارمو - مرّ وقت طويل، ولم تأت؛ لتحيي رفيقك الأبيض.

- لقد منعني عن ذلك انشغالي مع القبطان - أجاب الأفريقي.

- لا بد أن تكون هناك أخبار جديدة، إذنْ! ماذا يفعل القبطان؟

- إنه شديد الحزن.

- لم أره مبتهجاً مطلقاً، ولا حتّى في الترتو، ولم أره يبتسم.

- لم يتحدّث سوى عن أخويه، وعن الانتقام المريع الذي يفكّر به.

- والذي سوف ينفّذه بلا شك، يا رفيقي. سيقوم القرصان الأسود بتنفيذ قَسَمه بالحرف الواحد، وأنا شخصياً، لا أتمنى أن أكون في مكان حاكم ماراكايبو، ولا في مكان أقاربه. إن فان غولد يكنّ كرهاً لا يوصف للقرصان الأسود، لكن كرهه هذا سيكون سبب هلاكه.

- وهل تعرف سبب هذا الكره، يا رفيقي الأبيض؟

- أجل، يقال إنه قديم جداً، وإن فان غولد قد أقسم على الانتقام من القراصنة الثلاثة قبل أن يأتي إلى أمريكا الجنوبية، وقبل أن يرتقي أي منصب.

- أي حينما كان في أوربا؟

- أجل.

- لعلّه يعرفهم مسبقاً؟

- هذا ما يقال. في الوقت الذي عُيّن فيه فان غولد حاكماً على ماراكايبو، ظهرت أمام التورتو سفن ثلاث، يقودها كل من القرصان الأسود، والقرصان الأحمر، والقرصان الأخضر. كانوا ثلاثة رجال وساماً، وبواسل كالأسود، ولا يخشون مواجهة الصعاب. كان القرصان الأخضر أصغرهم عمراً، بينما كان

الأسود أكبرهم، على أنهم متساوون في القدر، ولا مثيل لهم في الطعان بين كل قراصنة الترتو. وفي وقت قصير، صار الإسبان في كل خليج المكسيك يرتجفون خوفاً منهم. نهبوا ما لا يُحصى من السفن، ونفّذوا هجمات على الكثير من المدن، ولم يكن بوسع أحد مجابهة سفنهم الثلاث التي كانت أجمل السفن، أسرعها وأشدّها تسليحاً بين كل سفن القراصنة.

- لا شك في ذلك - أجاب الأفريقي - يكفي أن تنظر إلى هذه السفينة.

- ولكنْ؛ مرت عليهم أيضاً الأيام العصيبة - قال كارمو مستمراً في حكايته - بعد أن أبحر القرصان الأخضر وحده من التورتو، متّجهاً إلى حيث لا يعلم أحد، وقع بين فرقة من السفن الإسبانية، وبعد قتال عنيف، انتصروا عليه، وأسّروه، ثم اقتادوه إلى ماراكايبو؛ حيث قام فان غولد بشنقه.

- أذكر ذلك - قال الزنجي - ولكنْ؛ لم يتم رمي جثته إلى الوحوش.

- لا، ذلك أن القرصان الأسود تمكّن - بصحبة بعض رفاقه - من دخول ماراكايبو ليلاً، وسرقة الجثة، ثم مواراتها في البحر.

- أجل، لقد سمعنا ذلك فيما بعد، ويقال إن فان غولد قام بإعدام الحرّاس الأربعة الذين كانوا مسؤولين عن حراسة المشنوقين في ساحة غرناطة؛ لأنهم لم ينجحوا بالقبض على القرصان الأسود.

- هذه المرة جاء دور القرصان الأحمر، والذي واريناه في أعماق البحر الكاريبي. ولكن الأخ الثالث هو الأكثر بسالة، وسوف يقوم بإبادة كل مَن ينتمي إلى عائلة فان غولد على وجه الأرض.

- قريباً جداً سيهجم على ماراكايبو، يا رفيقي، لقد سألني عن كل المعلومات اللازمة؛ لكي يقوم بالهجوم على المدينة بأسطول كبير.

- إن بيترو ناو، الأولونيزي المرعب، لا يزال في التورتو، وهو صديق مقرّب للقرصان الأسود. مَن بمقدوره أن يواجه هذين الرجلين؟ ثم ...

توقّف كارمو عن الحديث فجأة، ونبّه الزنجي وستيلر اللذين كانا قريباً منه، ثم قال لهما:

- انظرا إليه! ... ألا يبعث هذا الرجل الخوف فيكم؟ يبدو كأنه إله البحر!

رفع ستيلر والزنجي أنظارهما نحو دفّة القيادة، وإذا بالقرصان منتصباً هناك، يرتدي الثياب السوداء كعادته، وقبّعته نازلة على جبينه، بينما ترفرف الريشة السوداء في الهواء. كان يتمشّى على مهل، وقد أحنى رأسه، وشبك يديه على صدره، دون أن يحدث أي ضوضاء. كان مورغان على مقربة منه، على دفّة القيادة، لكنه لم يجرؤ أن يتفوّه بكلمة مع القبطان.

- يبدو وكأنه شبح - تمتم ستيلر بصوت خافت.

- ومورغان يتوافق معه تماماً - قال كارمو - إذا كان الأول أسود كالليل، فإن الآخر لا يعرف طريقاً للبهجة. إنهما متوافقان تماماً.

تردّدت صرخة في الظلام، آتية من أعلى برج المراقبة؛ حيث يمكن بالكاد تمييز هيئة إنسانية. ردّد الصوت، ولمرتين:

- هناك سفينة تأتي من الجهة المقابلة للريح.

توقّف القرصان، وراح يحدق في الجهة المقابلة للريح، لكنْ: لم يكن بوسعه أن يرى سفينة تبحر على بعد ستة سبعة أميال، وذلك لانخفاض موقعه. التفت إلى مورغان الذي كان هو الآخر يحدّق في الأفق، وقال له:

- أطفئوا الأنوار.

ما إن سمع البحّارة الأمر حتّى سارعوا في إطفاء الفنارين، الأول في الجهة اليسرى من السفينة، والآخر في الجهة اليمنى.

- أيها البحّار - صرخ القرصان بعد أن ساد الظلام تماماً على متن الفولغورا
- في أي اتجاه تبحر السفينة؟

- تبحر نحو الجنوب، يا قبطان.

- باتجاه سواحل فنزويلا؟

- أعتقد ذلك.

- كم تبعد عنا؟

- خمسة أو ستة أميال.

- أمتأكد من ذلك؟

- أجل، يا سيدي، إني أرى فنارها بشكل واضح.

انحنى القرصان متّكئاً على المنصة، ثم صرخ عالياً:

- يا رجال السفينة!

في أقل من نصف دقيقة، كان المائة والعشرين بحّاراً الذين يشكّلون طاقم الفولغورا قد توزّعوا على مواقع القتال الخاصة بهم. كان رجال المناورة يمسكون بحبال الأشرعة، ارتقى رجال المراقبة إلى مواقعهم، بينما انتشر الرجال الذين يجيدون الرمي بالبنادق على الأعمدة، وفي الأماكن المرتفعة من السفينة، وتوزّع الآخرون على طول جدار السفينة، في حين كان رجال المدفعية خلف مدافعهم، وكل في يده فتيل مشتعل.

كان النظام والانضباط على متن سفن القراصنة عالياً جداً حتّى إن الرجال، في أي ساعة من الليل، وفي أي مكان، يتوزّعون على الأماكن المخصّصة لهم بسرعة عجيبة، وشيء كهذا لا تتمتّع به حتّى سفن حرب البلدان ذات الأساطيل البحرية الرهيبة.

كان رجال البحر أولئك قد جاؤوا إلى بحر المكسيك من مختلف أنحاء أوربا، وتجنّدوا تحت أسوأ قباطنة السفن الفرنسية، والإيطالية، والهولندية،

والألمانية، والإنكليزية، وكانت لديهم عادات سيئة، ولكنهم لا يرهبون الموت، وكانوا يقدّمون دون وجل على أروع الأعمال البطولية وأكثرها مغامرة وجرأة، ورغم ذلك كله، فقد كانوا يتحوّلون إلى أغنام مطيعة وسهلة القيادة في سفن القراصنة، متأهّبين؛ ليتحولوا إلى نمور عندما يحين القتال.

كانوا يعرفون جيداً أن قباطنتهم ما كانوا ليغفروا لهم أيّ زلة، وإن الجبن أو عدم الانضباط قد يكلّفانهم رصاصة في الرأس، أو تركهم على جزيرة نائية. حينما رأى القبطان أن رجاله قد توزّعوا على أماكنهم المحددة، وبعد أن تفحّصهم واحداً تلو الآخر، التفت إلى مورغان الذي كان ينتظر أوامره، وقال له:

- أتظن أن تلك السفينة قد تكون ...؟ - سأل القرصان.

- إسبانية، يا سيدي - أجابه نائبه.

- إذنْ؛ هم إسبان - هتف القرصان بصوت كئيب - ستكون هذه ليلتهم الأخيرة، لن يرى الكثير منهم شمس الغد.

- سنهجم على هذه السفينة الليلة، يا سيدي؟

- أجل، وسوف نُغرقها. إن اخويّ يرقدان في أعماق البحر، ولن يبقيا وحدهما.

- إذا كنت ترغب في ذلك، يا سيدي، فليكن.

وثب مورغان على حائط السفينة ممسكاً بأحد الحبال، وصار ينظر نحو الجهة المقابلة للريح. فشاهد وسط الظلام الذي كان يسود البحر الهائج نقطتي نور، يمكن تمييزهما عن النجوم المتألقة في الأفق، تتحركان قرب سطح الماء.

- إنهم على مسافة أربعة أميال منا - قال.

- ألا يزالون متّجهين نحو الجنوب؟ - سأل القرصان.

- يبحرون باتجاه ماراكايبو.

- يا لسوء حظّهم. أعط الأمر بتغيير اتجاه السفينة لقطع الطريق عليهم. جهّز مئة قنبلة يدوية على ظهر السفينة، وتأكّد من أن كل شيء على ما يرام في العنابر، وفي الكابينات.

- هل سنستولي على السفينة الإسبانية؟

- أجل، إذا كان بوسعنا ذلك.

- وسنحتجز بعض السجناء، يا سيدي؟.

- لا يهمّني هذا الأمر.

- ربما في هذه السفينة الكثير من الأموال.

- لديّ في بلدي الكثير من القصور والأراضي.

- إنما أقصد بكلامي إلى رجال الطاقم، يا سيدي.

- لديّ الكثير من الذهب لهؤلاء الرجال. غيّر اتجاه السفينة، يا عزيزي.

على ضوء هذا الأمر، تردّد صدى صفير رئيس الطاقم على متن السفينة، أسرع رجال المناورة، وقاموا بفتح الأشرعة باتساق تام، بينما قام البحّار المسؤول عن الدفّة بوضع السفينة باتجاه مهب الريح.

استدارت الفولغورا بمكانها تقريباً، ثم اندفعت باتجاه السفينة الإسبانية بفضل النسمات التي تهبّ من جهة الجنوب الشرقي، مخلّفة وراءها هدير الماء. كانت تتقدّم في الظلام، خفيفة كطائر دون أن تُحدث أيّ جلبة، كالسفينة الشبح الأسطورية. كان رماة البنادق يقفون صامتين على طول جدار السفينة، كأنهم تماثيل، يراقبون سفينة العدو، وهم يمسكون ببنادقهم الطويلة التي لا تخطئ الهدف، في حين انحنى رجال المدفعية على مدافعهم، وهم

ينفخون الفتيل للاحتفاظ بها متّقدة استعداداً لإمطار الأعداء بالقذائف. لم يترك القرصان الأسود ولا مورغان دفّة القيادة، وكانا متّكئين على المنصة جنب بعضهما، يحدّقان في النقطتين المضيئتين، وهما تشقّان الظلام على مسافة ثلاثة أميال من الفولغورا. كان كارمو، ستيلر والزنجي يجلسون في مقدّمة السفينة، يتجاذبون أطراف الحديث بصوت خافت، وهم ينظرون إلى السفينة الإسبانية تارة، وهي تستمر في مسارها بطمأنينة، وإلى القرصان الأسود تارة أخرى.

- يا لها من ليلة سيئة لهؤلاء المساكين - قال كارمو - أظن أن القرصان سيبيدهم جميعاً لما يحمل في قلبه من غيظ.

- يبدو لي أن هذه السفينة أعلى بكثير من سفينتنا - أجاب ستيلر الذي كان يقيس ارتفاع الفنارين عن الماء - أرجو أن لا تكون سفينة حرب متّجهة للالتحاق بفرقة الأميرال توليدو.

- هذا لا يخيف القرصان، فلم تستطع أي سفينة أن تقاوم الفولغورا من قبل، ثم إني سمعتُ القرصان يتكلّم على همز السفينة.

- اللعنة ...! إذا استمر في همزها، فلا بد أن مقدّمة الفولغورا ستتحطّم أيضاً.

- إنها كالصخر، يا عزيزي.

- ولكنْ؛ حتّى الصخر يتحطم أحياناً.

- اصمت!...

فجأة كسر صوت القرصان الصمت الذي كان يسود السفينة.

- يا رجال المناورة ... جهّزوا الأشرعة الإضافية، وافتحوها؛ كي نبحر بسرعة أقوى.

فتح رجال المناورة الأشرعة الإضافية على عجل، والتي توضع في نهاية الصواري للانتفاع حتّى من النسمات الخفيفة.

- اللعنة..! - هتف كارمو - يبدو أن السفينة الإسبانية تسير بسرعة كبيرة حتّى أُجبرنا على فتح الأشرعة الإضافية.

- لقد قلتُ لك إننا بصدد مواجهة سفينة حربية - قال ستيلر - انظر كم هي عالية صواريها.

- هذا أفضل ...! ستكون مواجهة حامية من الطرفين كليهما.

تردّد في تلك الأثناء صدى صوت جهوري في أرجاء البحر، حملته الريح من جهة سفينة العدو إلى أسماع بحّارة الفولغورا:

- آه ... هناك سفينة ما على الجانب الأيسر.

كان القرصان لا يزال على منصة القيادة، مال نحو مورغان، كأنه يهمس في أذنه بضع كلمات، ثم نزل إلى ظهر السفينة صارخاً:

- تأهّبوا للهجوم، يا رجال البحر!!

كان يفصل بين السفينتين ميل واحد، ولكنْ؛ يبدو أن السفينتين كلتيهما سريعتان للغاية، ذلك أن المسافة بينهما بقيت، كما هي. بعد مرور نصف ساعة، أضاء نور مفاجئ منصة القيادة والصواري في السفينة الإسبانية، ثم تردّد دويّ قويّ في الظلمات، وتبدّد في الآفاق البعيدة مخلّفاً صدى طويلاً ومرعباً. بعد لحظات، سمع البحّارة صريراً مألوفاً في الهواء، ثم شاهدوا انفجاراً في الماء، وارتفاعه إلى ما يقارب العشرين ذراعاً فوق مقدّمة السفينة. لم ينبس أي أحد من أفراد الطاقم ببنت شفة، لم يكن هناك سوى ابتسامة ازدراء قد ارتسمت فوق شفتي القرصان الأسود، كأنها تحية استقبال لأول رسل الموت. بعد قذيفة المدفع تلك، والتي كانت بمثابة تهديد لمنعهم من ملاحقتها، غيّرت السفينة الإسبانية اتجاهها، فوجّهت مقدّمة السفينة

نحو الجنوب محاولة بذلك أن تلجأ إلى خليج ماراكايبو. ما إن أدرك القرصان اتجاه السفينة الجديد حتّى التفت إلى مورغان، الذي كان يسند ظهره إلى جدار السفينة محشوراً بين الأسلاك الحديدة التي تثبت الصواري بمقدّمة السفينة، وقال له:

- توجّه إلى مقدّمة السفينة.

- هل سنفتح النار؟

- لا، لم يحن الوقت بعد، فالظلام لا يزال حالكاً. ولكنْ؛ عليك أن ترتّب كل شيء لصفّ سفينتنا قرب سفينتهم.

- هل سنهجم عليهم على متن سفينتهم، يا سيدي؟

- سنرى ذلك في ما بعد.

طلب مورغان رئيس أفراد الطاقم، ثم اتّجها إلى مقدّمة السفينة؛ حيث ينبطح أربعون رجلاً، أمامهم الحراب وبين أيديهم البنادق.

- انهضوا - أمرهم - اذهبوا، وجهّزوا المخاطيف.

ثم التفت إلى الرجال الذي كانوا يستترون خلف جدار السفينة، وأضاف:

- جهّزوا عارضات خشبية، ثم ضعوا الأسرّة القابلة للطيّ على أطراف جدار السفينة.

بدأ الأربعون رجلاً يعملون بصمت تحت أنظار نائب القبطان، ودون أن يصدروا أي ضوضاء. كان هؤلاء الرجال يهابون مورغان، كما يهابون القرصان الأسود، فهو رجل صارم وجريء مثل قبطانه، شجاع ومقدام كالأسد. كان من أصول إنكليزية، لم يمرّ وقت طويل على وصوله إلى أمريكا حتّى تميّز بفطنته، وبنشاطه، وإقدامه. لقد أثبت بسالته تحت إمرة قرصان شهير، القرصان مانسفيلد، ولكنه - بعد ذلك - أثبت أنه أكثر إقداماً وشجاعة من

أشجع قراصنة التورتو، بفعل هجمته العسكرية على بانما، والتي كانت مغامرة مستحيلة حتّى ذلك الوقت على تلك المدينة. كان رجلاً عظيم الجثة، هائل القوة، جميل الملامح، وسخي النفس. كانت له عينان غامضتا السحر، كالقرصان الأسود، يعرف كيف يفرض سلطته على أولئك الرجال الخشنين، ويجبرهم على طاعته، بإشارة من يده.

في أقل من عشرين دقيقة، نصبت عارضتان تحت إدارته، تمتدان من الجهة اليسرى من مقدّمة السفينة حتّى الجهة اليمنى منها، الأولى أمام الصارية الأمامية، والأخرى أمام الصارية المركزية. كانت العوارض مكوّنة من ألواح خشبية وبراميل مليئة بالحديد، الهدف منها حماية مقدّمة السفينة، إذا ما هاجمها الأعداء بمدافعهم. احتمى الرجال خلف ألواح الخشب، وأمامهم خمسين قنبلة يدوية، ثم وضعت الخطافات على جدار السفينة، وفي الأسرّة القابلة للطي، والتي لُفَّت؛ لكي يحتمي الرماة خلفها.

حالما أنهى الرجال كل شيء، أمرهم مورغان بالعودة إلى أماكنهم، في أعلى مقدّمة السفينة، ثم وقف جنب الصارية، يراقب الأوضاع، واضعا يداً على مقبض حربته، والأخرى على مقبض المسدّس الذي كان معلّقاً في حزامه. كانت سفينة الأعداء في ذلك الحين على بعد ستمائة، أو سبعمائة متر منهم. سفينة الفولغورا، والتي يعني لقبها البرق، أعطت دليلاً على استحقاقها ذلك اللقب؛ حيث تقدّمت بسرعة هائلة متأهّبة للانقضاض على السفينة الإسبانية، وصدمها بقوة رهيبة، لا تُقاوم. رغم حلكة الظلام بفعل غياب القمر، كان بالإمكان تمييز كل تفاصيل السفينة الإسبانية. كانت تلك السفينة، كما ظنّها ستيلر، سفينة حربية بهيئة عظيمة، متنها عالٍ جداً، ومقدّمتها مرتفعة، وكانت الأشرعة تمتدّ على صواريها الثلاث حتّى آخر الصارية. كانت سفينة حرب، بحق، ربما كانت مسلّحة بشكل هائل، وطاقمها كبيراً، متأهباً للحرب، ومستعداً للقتال ببسالة.

ربما لم يكن ليهجم عليها أيّ قرصان من قراصنة التورتو؛ لأنه، حتّى وإن

انتصر، لم يكن ليجد ما ينهبه، ولأن القراصنة المغامرين، لصوص البحر أولئك، كانوا عادة ما يهاجمون السفن التجارية، أو السفن التي تنقل الذهب القادم من مناجم المكسيك، اليوكاتان وفنزويلا. ولكن القرصان الأسود، وهو رجل لا يأبه للثروة، لم تكن لديه حسابات مماثلة. ربما كان يرى في تلك السفينة حليفاً قوياً لفان غولد، ولعلّها كانت ستعيق مخطّطاته، لذلك فهو يسعى للهجوم عليها قبل أن تصل وتعزّز قوة فرقة الأميرال توليدو، أو تعزز قوة الدفاع عن ماراكايبو.

ما إن تحقّق الإسبان، وكانوا على مسافة خمسمائة متر من الفولغورا، أن القرصان مصمّم على تعقّبهم، وأنه ناو على شر، لا محالة، حتّى أطلقوا قنبلة أخرى من أحد أكبر مدافعهم. لم تسقط القنبلة في البحر هذه المرة، بل مرّت من بين ألواح شراع المقدّمة، وارتطمت بقمة الشراع الذي تعتليه راية القرصان، وكسرته، ممّا أدى إلى سقوط الراية. التفت جنديا المدفعين المنصوبين أعلى مقدّمة السفينة نحو القرصان الأسود الذي كان لا يزال يدير مقود السفينة ممسكاً بيده الأخرى مكبّر الصوت، وسألاه:

- أنهجم، يا قبطان؟

- ليس بعد - أجاب القرصان.

سقطت قنبلة أخرى في البحر، وكانت أقوى من الأخريات، ثم هوت أخرى بين أدوات السفينة على بعد ثلاثة أمتار من دفّة القيادة، وقد هشّمت شيئاً من جدار مقدّمة السفينة. اعتلت شفتا القرصان المقدام ابتسامة استهزاء أخرى، ولكنه لم يصدر أيّ أمر. كانت الفولغورا تسرع في التقدّم، مبرزة مهمازها العالي لسفينة العدو، والذي كان يشقّ البحر، ويصدر هديراً مرعباً، مجهّزاً لخرق بدن السفينة الإسبانية. كانت السفينة تنطلق كطير أسود مسلّح بمنقار هائل.

لا بد أن رؤية تلك السفينة التي تبدو كأنها انبثقت فجأة من البحر، والتي

تتقدّم دون أن تَرُدّ على تلك الهجمات، ودون أي مؤشّر يدلّ على أن طاقماً ما يعتليها، قد ولّدت الرعب في نفوس البحّارة الإسبان المتطيّرين. تردّد فجأة ضجيج في الظلام، وصارت تُسمع صرخات رعب وأوامر متلاحقة، ثم علا صوت آمر على تلك الفوضى، لا بد أنه كان صوت القبطان.

- وجّهوا السفينة نحو اليسار! ... اكبس ذراع المقود حتّى النهاية.

أطلقوا النار!-

دوى صوت هائل على متن السفينة الحربية، وأضاءت النيران الظلام الحالك. أطلقت المدافع السبع على اليسار، والمدفعان في المقدّمة نيرانها على سفينة القراصنة، فصارت القنابل تصدر أزيزها بين البحّارة، وقد أصابت الأشرعة، وقطعت بعض الحبال، وهوى بعضها في قعر السفينة، وأصاب البعض الآخر جدار السفينة. على أن كل هذا لم يكبح تقدّم الفولغورا التي كانت تقودها ذراع القرصان الشديدة، والتي كان تتوجّه بكل قوتها نحو السفينة الإسبانية. لحسن حظّ الإسبان، فإن كبس ذراع المقود في الوقت المناسب قد أنقذ سفينتهم من كارثة رهيبة. فبعد أن ابتعدت عن خطّ مسارها فجأة، متّجهة نحو اليسار، أفلتت بأعجوبة من ضربة المهماز التي كادت تخرق جانب السفينة، وتغرقها. مرت الفولغورا حيث لحظات مضت كانت تتواجد مقدّمة السفينة الإسبانية، فصدمتها بضربة قوية من الجانب، أحدثت دوياً رهيباً، تردّد في عمق عنبر السفينة، وقد سبب كسر سارية أحد الأشرعة الجانبية، وشيئاً من مقدّمة السفينة الإسبانية. ولكن كان هذا كل شيء. استمرت سفينة القرصان بالمضي قدماً، بعد أن أخفقت في ضربتها، حتّى اختفت في الظلام، دون أن تظهر أيّ مؤشّر بأن طاقم كبير يعتليها، وأنها مدجّجة بالسلاح.

- يا للهول - هتف ستيلر الذي حبس أنفاسه بانتظار الاصطدام الرهيب
- هذا دليل على الحظّ قد حالف الإسبان.

- ما كنتُ لأراهن على حياة هؤلاء الرجال حتّى بمقدار تبغ غليون - أجاب كارمو - كنت أتمثّلهم أمامي، وهم يغرقون في أعماق الخليج.

- أتظنّ أن القبطان سيعيد الكرة؟

- أظن أن الإسبان سيتهيّؤون لنا هذه المرة، وسيبرزون لنا المقدّمة.

- ولعلّهم سيمطروننا بالقنابل، بشكل أفضل أيضاً. اللعنة، لو كان قصفهم ذلك في النهار؛ لأجهزوا علينا.

- في حين أنه الآن لم يصب السفينة إلا بخسائر طفيفة.

- اصمت، يا كارمو!...

- ماذا هناك؟

تناول القرصان مكبّر الصوت في تلك الأثناء، وصرخ قائلاً:

- أمستعدون لتغيير اتجاه السفينة؟!

- هل سنعاود الهجوم مجددًا؟ - تساءل ستيلر.

- كيف لا بربك؟! ... لن يترك السفينة الإسبانية وشأنها حتماً - أجاب كارمو.

- ويبدو لي أن السفينة الإسبانية - أيضاً - لا تنوي الفرار.

لقد كان محقاً، فقد توقّفت السفينة الإسبانية بمواجهة الريح بدلاً من الاستمرار في إبحارها، وكأنها عزمت على خوض المعركة. كانت في مناورة بطيئة، ساعية لإبراز مهمازها؛ كي تتجنّب صدمة الفولغورا من الجانب. غيّرت الفولغورا مسارها على مسافة ميلين، على أنها لم تعاود مهاجمة الخصم، بل جعلت تدور حول السفينة الإسبانية بدائرة كبيرة، بحيث كانت خارج مرمى قنابل المدفعية.

- الآن فهمت - قال كارمو - إن قبطاننا ينتظر بزوغ الفجر قبل بدء المعركة ومحاولة الاستيلاء على السفينة.

- ويحاول - أيضاً - إعاقة تقدّم السفينة الإسبانية نحو ماراكايبو - أضاف ستيلر.

- أجل، هكذا تماماً. فلنتجهّز لمعركة حاميَة، يا عزيزي. وكما هو معهود بيننا نحن البحّارة، فإذا ما حصل، ومتُّ بقنبلة ما، أو قُتلت على متن السفينة المعادية، فاعلم أني جعلتك وريث ثروتي المتواضعة.

- وماذا سيكون إرثي؟ - سأل ستيلر ضاحكاً.

زمردتان، تبلغ قيمة إحداهما خمسمائة قرش، على أقل تقدير، أحتفظ بهما في بطانة سترتي.

- إن ثمنهما يكفيني للتمتّع لأسبوع كامل في الترتو. وأنا - أيضاً - جعلتك وريثي، ولكنْ؛ اعلم أن كل ما أملك هو ثلاث دبلونات فقط مخبأة في حزامي.

- ستكون كافية لاحتساء قنينة خمر إسباني على نخبك صديقي.

- شكراً، يا كارمو، أشعر أني أكثر طمأنينة الآن، وبوسعي استقبال الموت بسكينة.

كانت الفولغورا لا تزال مستمرة في دورانها حول السفينة الإسبانية التي كانت ثابتة في مكانها، ولكنها تسعى دائماً لإبراز مقدّمتها للفولغورا. كانت تستدير بخفّة، كطير عجيب، مهدّدة الفولغورا باستمرار، لكنْ؛ دون أن تطلق قنابلها. لم يترك القرصان الأسود مقود السفينة مطلقاً، وعيناه اللتيان كانتا تتّقدان بريقاً كعيني حيوان ليلي، لم تغفلان، ولا حتّى لحظة واحدة عن مراقبة السفينة الحربية الإسبانية. كأنه يحاول تخمين ما يجري على متن السفينة، أو ربما كان ينتظر زلّة ما في مناورتها؛ لكي ينقض عليها ويصدمها الصدمة القاضية. كان الطاقم ينظر إليه بتطيّر مرعب. فذلك الرجل الذي

يقود السفينة ببراعة، كما لو أنها جزء منه، يجعلها تدور حول فريستها دون أن تتغيّر ملامحه الكئيبة، أو يرتبك ثباته، كان يبعث الفزع في قلوب جوالي البحر البواسل. استمرت سفينة القراصنة طوال تلك الليلة في دورانها حول السفينة الإسبانية، دون أن تجيب على قنابل المدفعية التي تطلقها تلك السفينة بين الفينة والأخرى، والتي لم تنجح مطلقاً في إصابة الهدف. ولكنْ؛ ما إن بدأت النجوم بفقدان بريقها، وصبغت أول خيوط الفجر مياه الخليج، حتّى عاد القرصان في إصدار أوامره:

- يا رجال البحر - صرخ القرصان - فلتتخذوا مواقع القتال، ولترفعوا رايتي عالياً.

لم تعد الفولغورا تدور حول السفينة الحربية، بل اتّجهت نحوها مباشرة، وقد حزم القرصان أمره بالهجوم. ثُبّتت راية القرصان السوداء الكبيرة بالمسامير على طرف الصارية، لكي يتعذّر إنزالها على أيّ أحد، وهذا يعني إما الانتصار في المعركة بأي ثمن، أو الموت، ولكنْ؛ دون استسلام. وجّه جنديا مدفعية المقدّمة مدفعيهما نحو السفينة المعادية، بينما مدّ البحّارة بنادقهم من فوق الجدار، بين الفراغات التي تتوسّط الأسرّة القابلة للطيّ، جاهزون لصبّ نارهم على سفينة العدو. تأكد القرصان من أن الجميع كانوا في أماكن القتال، ثم نظر فيما إذا كان البحّارة قد اتخذوا مواقعهم في برج المراقبة، وعلى الصواري، ثم صرخ:

- يا رجال البحر! ... حان وقت الهجوم ... يحيا القراصنة!

تردّد على متن سفينة القراصنة ثلاث صرخات «يحيا» اصطحبها دوي إطلاق المدافع. انطلقت السفينة الحربية الإسبانية التي أصبحت باتجاه مهب الريح نحو سفينة القراصنة. لا بد أن مَن كان على متنها هم رجال بواسل، ذلك أن الإسبان عادة ما يهربون أمام هجوم قراصنة الترتو؛ لأنهم يعرفون، عن تجربة، مدى شجاعتهم وإقدامهم. بدأت السفينة الحربية

هجمات مدفعية عنيفة جداً من على مسافة ألف خطوة ، تطلق قنابلها من مدافع جهة اليسار تارة، ومن مدافع جهة اليمين تارة أخرى، فيغشاها الدخان واللهب. كانت سفينة كبيرة الحجم، تحتوي على ثلاث طوابق من العنابر، متنها عال جداً ومزوّدة بأربع عشرة فوهة مدفع: كانت سفينة حرب حقيقية، ربما انفصلت عن فرقة الأميرال توليدي لضرورة ما. كان الضابط قبطان السفينة يقف بزيه العسكري في مقدّمة السفينة شاهراً سيفه، وقد التفّ حوله مساعدوه، بينما تجمّع عدد كبير من البحّارة على متن السفينة. كانت تلك السفينة العظيمة، بعلمها الإسباني الذي ثُبّت فوق الصارية الرئيسية، تنطلق بحزم نحو الفولغورا، ومدافعها تدوّي بشكل مرعب. ورغم أن سفينة القراصنة كانت أصغر حجماً إلا أنهم لم يفزعوا من مطر القنابل تلك، بل كانوا ماضين في انطلاقهم، ويردّون على الهجوم بقنابل مدفعا المقدّمة، ربما لأنهم كانوا ينتظرون الفرصة السانحة؛ ليمطروا السفينة المعادية بقنابل الاثني عشر مدفع الجانبية. كانت القنابل تصيب متن سفينة القراصنة، تحطّم جدار السفينة، وتقع في العنابر وبين آليات السفينة، مخترقة صفوف بحّارة مقدّمة السفينة. إلا أن الفولغورا لا تزال تتقدّم بإقدام وحزم، وطاقمها عازم على الهجوم والاستيلاء على السفينة الإسبانية. على مسافة أربعمائة متر، بدأ رماة البنادق بإسناد مدفعا المقدّمة في الرمي، وهم يرشقون السفينة المعادية. بعد مرور وقت قصير، صار هذا الرمي وبالاً على الإسبان، ذلك أن البحّارة، كما قيل مسبقاً، لا يخطئون، ولا حتّى رمية واحدة، كونهم كانوا بوكانير مسبقاً، أي صيادي ثيران برية. وفي الحقيقة، فقد سبّب رصاص تلك البنادق الضخمة مجازر أكثر من قنابل المدافع. صار رجال السفينة الإسبانية يسقطون بأعداد كبيرة على امتداد جدار السفينة، وسقط قتلى أيضاً جنود مدافع المقدّمة، وكذلك الضباط الذين كانوا في مقدّمة السفينة. كانت عشر دقائق كافية لأن تقضي عليهم جميعاً، حتّى قبطان السفينة سقط بين مساعديه قبل أن تلتقي السفينتان. ولكنْ؛ لا يزال هناك جنود المدفعية، وكان عددهم أكثر بكثير من الذين كانوا على ظهر السفينة ، لذلك لم يكن

النصر قد تحقّق بعد. وحين لم يبق بين السفينتين سوى عشرين متر، غيّرت كل منهما اتجاهها فجأة. صدح صوت القرصان بسرعة بين دوي المدافع:

- اطووا الشراع الأول والثاني في الصارية الوسطى، غيّر اتجاه الشراع الأمامي، ووتر الشراع المثلث بأكبر قدر ممكن.

غيّرت الفولغورا، التي كانت جنب السفينة الإسبانية، اتجاهها بفعل دورة المقود، فتوغّلت مقدّمتها بين الأسلاك التي تسند الصارية الوسطى في السفينة الإسبانية، ممّا أدّى إلى شبك السفينتين ببعض. وثب القرصان من أعلى مقدّمة السفينة، وقد استل السيف في يده اليمنى، وقبض في يده اليسرى على مسدّس صارخاً:

- هيا؛ لنستولي على السفينة، يا رجال البحر!

-١١-
الدوقة الفيامينغية

ما إن رأى البحّارة قبطانهم ومورغان قد هجما للاستيلاء على السفينة، والتي لم يعد بوسعها أن تتحرّر من الفولغورا، حتّى انطلقوا يتبعونهم كرجل واحد. ألقوا البنادق، والتي لا تعود بأيّ نفع في القتال بالسلاح الأبيض، واستلّوا الحراب والمسدّسات، ثم هجموا كأنهم سيل عارم، وهم يصرخون بأعلى أصواتهم؛ لكي يثيروا رعباً أكبر في نفوس الإسبان. قاموا برمي الخطافات؛ لكي يدنوا السفينتين من بعضهما أكثر، ثم هجم أول البحّارة، حال وصولهم إلى صارية المقدّمة، وقد نزلوا على عجل متزحلقين على الأسلاك، أو على الأعمدة الخشبية، وهبطوا على مقدّمة السفينة الإسبانية. ولكنْ؛ حال نزولهم هناك، واجهوا مقاومة غير متوقعة: كان جنود المدفعية الإسبان يصعدون باندفاع من ظهر السفينة إلى المقدّمة، وهم شاهرون أسلحتهم. كان عددهم يقارب المائة، يقودهم بعض ضباط المدفعية ورؤساء الطاقم، فانتشروا بلمح البصر فوق ظهر السفينة، فوق المقدّمة، وهم يهجمون على أول مَن وصل من البحّارة، بينما صعد آخرون إلى سطح المقدّمة، وحشوا المدفعين بسرعة، وصاروا يرشقون سفينة القراصنة بالقنابل. لم يتردد القرصان الأسود مطلقاً. كانت السفينتان حينئذٍ قد التصقتا تماماً بعد أن شُدّت حبال الخطافات. تجاوز القرصان بقفزة واحدة جدار سفينته، وهبط فوق السفينة الإسبانية، وهو يصرخ:

- إليّ، أيها البحّارة.

تبعه مورغان، يلحقه رماة البنادق، بينما كان بحّارة إدارة الأشرعة الذين يعتلون أبراج المراقبة والصواري والسلالم يمطرون الإسبان بالقنابل اليدوية وبرصاص البنادق والمسدّسات. صار القتال عنيفاً ورهيباً. قاد القرصان الأسود رجاله ثلاث مرات نحو مقدّمة السفينة التي يعتليها ستون أو سبعون إسبانياً، وهم يمطرون ظهر السفينة بقنابل المدفعية، لكنه يواجهه مقاومة، تُجبره على التقهقر في كل مرة، بينما مورغان يحاول - دون جدوى - الصعود إلى المقدّمة. كان الجانبان كلاهما يقاومان بضراوة، وكان الإسبان، الذين تكبّدوا خسائر جسيمة بفعل نيران البنادق أصبحوا أقل عدداً من القراصنة، لكنهم يقاومون بشجاعة، ويفضّلون الموت على الاستسلام. كانت القنابل اليدوية التي يرميها البحّارة من أعلى سفينة القراصنة توقع خسائر كبيرة بين صفوف الإسبان، رغم ذلك، فهم لا يتراجعون. كان القتلى والجرحى يتكدّسون حول المقاتلين الإسبان، لكن العلم الإسباني لا يزال يرفرف فوق الصارية الوسطى للسفينة، بصليبه الذي يتوهّج تحت أشعّة الشمس الأولى. ولكنْ؛ بدا أن تلك المقاومة ما كانت لتستمرّ طويلاً، فالبحّارة الذين أصبحوا أشدّ ضراوة بفعل عناد أعداهم، هجموا - للمرة الأخيرة - على مقدّمة السفينة، يقودوهم قبطانهم الذي يقاتل في الصفوف الأولى. كانوا يتسلّقون فوق الحبال؛ ليهبطوا باستخدام الأسلاك التي تنزل من الصارية الوسطى، أو من الصارية الأمامية. يركضون فوق الطاولات وجدران السفينة، ويثبون من كل جانب على آخر مَن تبقّى من الإسبان المساكين الذين يدافعون عن السفينة. اقتحم القرصان الأسود ذلك الجدار البشري، وهجم على مجموعة المقاتلين الأخيرة تلك. ألقى بالخنجر، واستلّ سيفه الذي كان فحيحه كفحيح أفعى، يقارع السيوف التي تحاول أن تخترق صدره، يضرب أمامه، وعلى يمينه وشماله. لا أحد يستطيع أن يقاوم تلك الذراع، ولا أحد يصدّ هجماته، فصنع حوله دائرة، تملؤها الجثث، وقد غاصت قدماه بالدماء التي تسيل على السطح المائل لمقدّمة السفينة. ركض مورغان في تلك اللحظة مع مجموعة

من البحّارة، وقد سيطر على المقدّمة، وكاد ينقض لقتل آخر مَن تبقى، والذين كانوا يدافعون بضراوة اليائسين عن علم السفينة الذي كان يرفرف فوق الصارية.

- عليكم بمَن تبقّى - صرخ مورغان.

استوقفه القرصان الأسود صارخاً:

- يا رجال البحر! حين ينتصر القرصان الأسود، فإنه لا يبطش.

توقّف البحّارة عن الهجوم، وخفضوا أسلحتهم التي كانت بارزة للطعان.

- استسلموا - صاح القرصان، وهو يتقدّم نحو الإسبان الذين كانوا يجتمعون حول مقود السفينة - لكم الأمان، أيها البواسل.

تقدّم أحد نواب رئيس الطاقم، وكان الناجي الوحيد من القيادة، وألقى بفأسه الملطّخة بالدماء على الأرض.

- لقد خسرنا المعركة - قال بصوت حزين - اصنعوا بنا ما شئتم.

- لك أن تستعيد فأسك، يا نائب رئيس الطاقم - أجابه القرصان بنبرة نبيلة - إن رجالاً شجعان مثلكم، يدافعون بضراوة عن راية وطنهم، رغم البُعد، يستحقّون مني كل التبجيل.

التفت بعد ذلك إلى الناجين دون أن يعير اهتماماً لدهشة نائب رئيس الطاقم، وكان من الطبيعي أن يندهش، ذلك أن القراصنة نادراً ما يتركون المهزومين أحياء، أو يحرّرونهم دون مقابل. كان قد بقي - فقط ثمانية عشر - من الجنود الإسبان، وأغلبهم جرحى. كانوا ينتظرون مصيرهم بإذعان بعد أن ألقوا أسلحتهم.

- مورغان - صاح القرصان - أنزل القارب الكبير في الماء، وجهّزه بالمؤن الغذائية ما يكفي لأسبوع.

- وهل ستطلق سراح كل الرجال؟ - سأل مورغان بأسف.

- أجل، يا سيدي. يسعدني أن أكافئ الشجعان رغم سوء حظّهم.

بعد أن سمع نائب رئيس الطاقم هذه الكلمات، تقدّم نحو القرصان قائلاً:

- شكراً، يا قبطان. لن ننسى أبداً كرم الرجل الباسل الذي يلقّب بالقرصان الأسود.

- اصمت، وأجبني.

- تفضل، يا قبطان.

- من أين مقدمكم؟

- من مدينة فيركروز.

- وأين كنتم متّجهين؟

- إلى ماراكايبو.

- وهل كان الحاكم بانتظاركم؟ - سأل القرصان مقطباً حاجبيه.

- لا علم لي بذلك، يا سيدي. فقط القبطان كان بوسعه أن يجيب على هذا السؤال.

- أظنك صادقاً. لأيّ فرقة كانت تنتمي سفينتكم؟

- لفرقة الأميرال توليدو.

- وهل لديكم شحنة ما في عنبر السفينة؟

- أجل، يا سيدي: قنابل وبارود.

- اذهبوا، أنتم أحرار.

ولكن نائب رئيس الطاقم بدل من أن ينفّذ أمر القرصان، صار ينظر إليه بشيء من الحرج، فلاحظ القرصان ذلك.

- ألديك ما تقوله؟ - سأل القرصان.

- أود إخبارك أن هناك أشخاصاً آخرين على متن السفينة، يا سيدي.

- لعلّهم سجناء؟

- لا، بل هنّ نساء ووصيفات.

- وأين هنّ الآن؟

- في عنبر مقدّمة السفينة.

- ومَن يكنّ، هؤلاء النسوة؟

- لم يخبرنا القبطان بذلك، ولكنْ؛ يبدو أن بينهنّ سيدة نبيلة.

- ومَن قد تكون؟

- أظنها دوقة.

- على السفينة الحربية هذه؟ ... - سأل القرصان بدهشة - ومن أين ركبت السفينة؟

- من فيركروز.

- حسناً. ستأتي معنا إلى الترتو، وإذا أرادت أن نطلق سراحها، فعليها أن تشتري حريتها بما يقرّره رجال الطاقم. ارحلوا - الآن - أيها البواسل، يا مَن دافعتم بشجاعة عن راية وطنكم، وأرجو أن تصلوا إلى السواحل بسلام.

- شكراً، يا سيدي.

أنزل القارب الكبير في البحر، وزوّد بمؤن غذائية لثمانية أيام، وببعض

البنادق وبعض الذخيرة. ركب نائب رئيس الطاقم ورجاله الثمانية عشر في المركب، بينما كان العلم الإسباني قد أنزل من على الصارية الوسطى، وكذلك راية السفينة التي كانت ترفرف فوق الصارية، وثبتت راية القراصنة السوداء، وقد حيّتها قذيفتا مدفع.

صعد القرصان الأسود على مقدّمة السفينة، يراقب المركب الذي كان يبتعد بسرعة بإتجاه الجنوب؛ أي إلى حيث الفتحة البحرية التي تقود إلى ماراكايبو. فلما ابتعد القارب، نزل القرصان وهو يتمتم:

- أهؤلاء هم رجال الخائن!

التفت إلى طاقمه الذي كان منشغلاً بنقل الجرحى إلى كابينة الطبابة على متن السفينة، أو وضع جثث القتلى في الأسرّة المخصّصة لرميهم فيما بعد في البحر. لوّح القرصان لمورغان؛ كي يقترب منه.

- أخبر رجالي أنني أتخلّى عن نصيبي لهم ممّا يعود من بيع هذه السفينة.

- سيدي - هتف نائبه مندهشاً - إن هذه السفينة تساوي آلاف البياسترا، أتعرف ذلك؟!

- المال لا يعنيني - أجاب القرصان بلهجة احتقار - أنا أحارب من أجل غايتي، وليس من أجل الطمع والثروة. من ثم؛ إنني قد استنفدتُ حصتي.

- هذا ليس صحيحاً، يا سيدي.

- بلا، إنهم السجناء الثمانية عشر الذين أطلقت سراحهم، ولو أننا أخذناهم إلى التورتو، لتوجب عليهم دفع المال لنيل حريتهم.

- إن أولئك لا يساوون إلا القليل، ربما ما كانوا ليدفعوا من أجلهم أكثر من ألف بياسترا.

- وهذا يكفيني. اطلب من رجالي أن يعيّنوا مقدار المال لتحرير الدوقة

الموجودة على متن السفينة، فإذا أراد حاكم فيركروز أو حاكم ماراكايبو أن يحرّراها، فيجب عليهم دفع المال.

- صحيح أن رجالنا يحبّون المال، ولكنهم يحبّون قبطانهم أكثر، وأظنهم سيمنحونك السجناء الموجودين في عنبر المقدّمة.

- سنرى ذلك لاحقاً - أجاب القرصان، وقد هزّ كتفيه.

وبينما كان يبادر بالتوجّه نحو مقدّمة السفينة، وإذا بباب عنبر المقدّمة يُفتح فجأة، فخرجت منه فتاة، يتبعها امرأتان ووصيفتان، ترتديان ملابس فاخرة. كانت فتاة جميلة، ممشوقة القوام، بانحناءات تثير الرغبة، بشرتها ناعمة، يميل بياضها إلى الحمرة، تلك الحمرة التي يمكن ملاحظتها - فقط - في فتيات البلدان الشمالية، على الخصوص أولئك اللاتي ينتمين إلى العنصر الأنجلوساسوني والأيسكوتو - دانيماركي. كان شعرها الطويل أشقراً بانعكاسات فضية أكثر ممّا هي ذهبية، ينسدل بضفائره الكبيرة على كتفيها، وقد ربطته بشريط أزرق كبير مزيّن باللؤلؤ. كانت عيناها على قدر من الجمال، لا يمكن تحديد لونهما، ولكنْ؛ لهما بريق بني، فوقهما حاجبان دقيقان، وبدلاً من أن يكونا أشقرين مثل الشعر، فقد كانا - ويا للغرابة - أسودين. كانت تلك الفتاة، والتي لم تكتسب بعد هيئة المرأة الناضجة، ترتدي فستاناً من الحرير الأزرق، وطوق من النسيج اليدوي، كما هو معتاد في ذلك الزمن، لكنه كان طوقاً بسيطاً دون تطريز ذهبي، أو فضي، وتزيّن جيدها قلادة لؤلؤ رمادي من القطع الكبيرة، تلتفّ حول عنقها عدّة مرات، لا بد أنها تساوي آلاف البياسترا. بينما ترتدي في أذنيها قرطين من الزمرد، حجر كريم باهظ الثمن، ومرغوب فيه جداً في تلك الأزمنة. أما المرأتان اللتان تتبعانها، وكانتا - بلا شك - خادمتين، فكانتا هجينتين، شديدتي الجمال أيضاً، وكانت بشرتهما مائلة للسمرة. وكانت وصيفتاها هجينتين كذلك. حالما رأت الفتاة مقدّمة السفينة مليئة بالجثث والجرحى، بالأسلحة وبالأدوات المحطّمة، بقنابل المدافع وبرك الدماء المنتشرة في كل مكان، حتّى بدرت منها حركة تشير

إلى القلق، وتقهقرت، كما لو أنها تود العودة إلى عنبر المقدّمة، لكي تهرب من ذلك المشهد المروع، ولكنها لما رأت القرصان الأسود واقفاً أمامها على بعد أربع خطوات، سألته بنبرة حنق، وهي مقطبة حاجبيها:

- ماذا حصل هنا، يا سيدي؟

- بوسعك أن تتخيّلي ذلك، يا سيدتي - أجاب القرصان، وهو يحييها بانحناءة - لقد دارت حرب طاحنة هنا، وقد انتهت بهزيمة الإسبان.

- ومَن تكون أنت؟

ألقى القرصان سيفه الملطّخ بالدماء، والذي لم يعده - بعد - إلى غمده، ثم رفع قبّعته العريضة باحترام، وأجابها بلطف كبير:

- أنا، يا سيدتي، رجل نبيل قادم من ما وراء البحار.

- هذا لا يبينّ لي مَن أنت - قالت الفتاة، وقد طمأنها لطف القرصان.

- إذنْ؛ سأضيف قائلاً إني الفارس أميليو روكانيرا، سيد فالبينتا وفينتيميليا، على أني ألقّب باسم مختلف هنا.

- وما هو، أيها الفارس؟

- القرصان الأسود .

ما إن سمعت هذا الاسم حتّى بدا على وجهها الرعب، وقد حالت صبغة بشرتها الحمراء إلى بياض كالمرمر.

- القرصان الأسود - تمتمت، وهي تنظر إليه بعينين شاردتين - قرصان الترتو الرهيب، عدوّ الإسبان اللدود.

- ليس كما تظنين، يا سيدتي، قد أحارب الإسبان، ولكن هذا لا يعني أنهم أعدائي، وقد أثبتّ ذلك للتوّ للناجين فوق هذه السفينة. ألا ترين هناك

تلك النقطة السوداء العائمة في الفضاء؟ إنه مركب، يبحر فيه تسعة عشر بحّارٍ إسباني، قمتُ بإطلاق سراحهم، في حين كان بوسعي أن أقتلهم، أو أسجنهم حسب ضوابط الحرب.

- أتعني أن الذين يصفونك على أنك أشدّ قراصنة الترتو رعباً إنما هم كاذبون؟

- ربما - أجاب القرصان.

- وماذا ستصنع بي، أيها الفارس؟

- أريدك أن تجيبيني عن سؤال قبل كل شيء.

- سل، يا سيدي.

- من تكونين، حضرتك؟

- أنا فيامينغية.

- حسب ما قيل لي، فإنك دوقة.

- هذا صحيح، أيها الفارس - أجابت، وقد قامت بحركة عفوية، تدل على الجزع، كما لو أن معرفة القرصان بأصولها النبيلة قد أزعجها.

- ما أسمك الكامل، لو سمحت؟

- وهل هذا ضروري؟

- يجب أن أعرف مَن أنت، إذا كنت تودّين أن تنالي حريتك.

- حريتي؟ ... آه، هذا صحيح، لقد نسيتُ أنني سجينتك.

- لست سجينتي، يا سيدتي، لكنْ؛ سجينة القراصنة. لو كان الأمر بيدي؛

لوضعت تحت تصرفك أفضل مراكبي وأفضل رجالي، ولجعلتهم يصطحبوك إلى أقرب ميناء من هنا، ولكنْ؛ للأسف، ليس بوسعي التملّص من قوانين أخوة الشاطئ.

- شكراً - أجابت الفتاة بابتسامة ساحرة - كان يبدو لي غريباً أن رجلاً نبيلاً من دوقات سافويا يصبح لصّ بِحار.

- إنها كلمة قاسية بحقّ القراصنة - قال القرصان مقطباً حاجبيه - لصوص بحار! آه ... كم من أصحاب ثأر بينهم! ... ألم يكن مونتبارس السفاح يحارب انتقاماً للهنود المساكين الذين دمّرهم جشع المغامرين الإسبان اللا محدود؟! مَن يدري، ربما يوماً ما ستعرفين السبب الذي حدا برجلٍ نبيلٍ من دوقات سافويا أن يجوب مياه الخليج الأمريكي. اسمك الكامل، يا سيدتي.

- هونوراتا ويليرمان، دوقة ويلترندرم.

- حسناً، أيتها السيدة. بوسعك الآن أن تعودي إلى عنبر المقدّمة، يجب علينا القيام بمهمّتنا الحزينة في رمي أبطالنا الذين سقطوا خلال المعركة في البحر. ولكني أنتظرك على وجبة العشاء اليوم مساءً فوق سفينتي.

- شكراً، أيها الفارس - أجابت، وهي تمدّ يدها الصغيرة الناصعة البياض كأنها يد طفلة بأصابعها الدقيقة تلك. حيّته بانحناءة خفيفة، وانسحبت بلطف، ولكنْ؛ قبل دخولها مقصورة المقدّمة، التفتت نحو القرصان، فرأته، وكان لا يزال واقفاً في مكانه والقبّعة بيده، فحيّته بابتسامة أخيرة. بقي القرصان ثابتاً في مكانه، أصبحت عيناه أكثر عتمة، وهما تحدّقان في باب المقصورة، في حين تعكس ناصيته أفكاره الكئيبة. ظل هناك للحظات، ساهم في أفكاره السوداوية، وكأن عينيه يتبعان مشهداً خاطفاً، ثم سرعان ما انتبه، وهز رأسه متمتماً:

- يا للجنون!

-١٢-

الجذوة الأولى

خلّف القتال الرهيب بين السفينتين خسائر فادحة للطاقمين كليهما، فكان هناك أكثر من مائتي جثة تتكدّس فوق ظهر السفينة الإسبانية ومقدّمتها. بعضهم قُتل بفعل القنابل اليدوية التي كان يلقيها البحّارة من فوق أبراج المراقبة والصواري، بينما صُرِع آخرين بفعل رشقات البنادق وقنابل المدافع، في حين قُتل آخر الجنود في الهجوم الأخير بالسلاح الأبيض. كان عدد قتلى السفينة الإسبانية مئة وستين قتيلاً، بينما فقدت سفينة القراصنة ثمانية وأربعين قتيلاً، سوى الجرحى الذين نُقلوا إلى كابينة الطبابة على متن الفولغورا. طال السفينتين أيضاً أضرار كبيرة، بفعل القصف بقنابل المدافع، ولكنْ؛ لم تكن خسائر الفولغورا كبيرة، ذلك بفضل سرعة الهجوم الذي قامت به، ومناوراتها الفاعلة، فقد تحطّمت فيها بعض أجزاء أشرعة، لا يصعُب إصلاحها، كونها مجهّزة بالآليات اللازمة، وتهشّمت أجزاء من جدار السفينة في أماكن مختلفة، وتقطّعت بعض الحبال. بينما كانت خسائر السفينة الإسبانية جسيمة، وقد يصعب الإبحار بها على تلك الحالة. فقد تحطّمت دفّة القيادة بفعل قنبلة مدفعية، بينما تكاد الصارية الرئيسية أن تسقط في أي لحظة، وبفعل أبسط جهد شرعي، وذلك نتيجة انفجار قنبلة عند قاعدتها، في حين تقطّعت حبال صارية مؤخّرة السفينة، فضلاً عن ذلك كله، فقد أصاب جدار السفينة الكثير من الأضرار. رغم ذلك كله، فإنها لا تزال سفينة رائعة، وإذا ما قاموا بإصلاحها، فإنها قد تُباع بسعر باهظ في الترتو، ذلك لمدافعها الكثيرة، وما تحتويه من مؤن، وهي أشياء، يكثر إقبال القراصنة عليها، كونهم يفتقدونها. لمّا لاحظ القرصان الأسود

الخسائر التي تعرّضت لها السفينتان كلتاهما، أمر بإخلائهما من الجثث، وبالمباشرة بالإصلاحات الضرورية العاجلة، ذلك لما تجتاحه من رغبة في الابتعاد عن ذلك المكان خوفاً من أن تهجم عليهم فرقة الأميرال توليدو، والتي تتواجد هناك، في مكان ما بالقرب من ماراكايبو. تمّت عملية إخلاء الجثث على عجل؛ إذ وضعت كل جثتين في شبكة واحد، وعُلقت في الأقدام قذيفة مدفع، ثم أُلقوا في أعماق الخليج، بعد أن نُزعت عنهم كل الأغراض الثمينة التي كانت عليهم، ذلك أن لا حاجة لأسماك القرش بتلك الأغراض، كما كان يقول كارمو لصديقه ستيلر، وقد نجيا من الموت بأعجوبة. بعد أن انتهت تلك العملية الجنائزية، قام الطاقم، تحت إمرة رؤساء الطاقم ونوّابهم، بإخلاء ظهري السفينتين من الحطام، ثم نظّفوا الدماء بتيارات ماء قوية، بعد ذلك، قاموا بإبدال وتصليح الآليات المحطّمة والحبال المقطّعة وكل ما حطّمته المدافع. على أنه توجّب عليهم إسقاط الصارية الرئيسية، ووضع الدعامات للصارية الخلفية، في السفينة الإسبانية، ثم وضعوا مجذافاً كبير الحجم بدل دفّة القيادة، ذلك لأنهم لم يعثروا في مخازن السفينة على دفّة لإبدالها. توجّب على الفولغورا أن تجرّ السفينة الإسبانية؛ إذ إن ما أُنجز من إصلاحات، لم يهيئها للإبحار، وكان القرصان غير راغب في قسم طاقمه بين السفينتين، وقد أصبح قليلاً بعد الحرب. قاموا بمدّ حبلٍ عظيمٍ بين مؤخّرة الفولغورا ومقدّمة السفينة الإسبانية، وما إن حلّ الغروب حتّى أبحروا ببطء نحو الشمال، سعياً للوصول بأمان إلى جزيرتهم الآمنة. أعطى القرصان تعليماته بما يخصّ مواقع الرجال لتلك الليلة، وأوصاهم بمضاعفة رجال المراقبة، ذلك لعدم شعوره بالسكينة لقربه من الشواطئ الفنزويلية. ثم أمر الزنجي وكارمو بالذهاب إلى السفينة الإسبانية، واصطحاب الدوقة الفيامينغية إلى الفولغورا. بعد أن نزل الرجلان في القارب اتّجها إلى السفينة التي كانت تجرّها الفولغورا، فصار القرصان يتمشّى على متن سفينته، ويقوم بحركات تدلّ على القلق وعدم الاطمئنان. كان - على غير عادته - مضطرباً وعصبياً، يتوقّف عن المشي فجأة، يقترب من مورغان، كما لو أنه ينوي

إخباره بشيء ما، لكنه يدير ظهره فجأة، ويتّجه نحو مؤخّرة السفينة. كان حزيناً كعادته، بل ربما أشدّ حزناً هذه المرة. شُوهد، وهو يصعد ثلاث مرات على مرتفع مؤخّرة السفينة، ينظر إلى السفينة الإسبانية، ثم يقوم بحركة، تدلّ على الجزع، يبتعد فجأة حتّى يتوقّف على مرتفع مقدّمة السفينة، وعيناه تحدّقان في القمر الذي صار يلوح في الأفق، ويبعث بأضوائه الفضية فوق البحر. لكنه ما إن سمع هدير الماء الناجم عن اقتراب المركب القادم من السفينة الإسبانية حتّى نزل على عجل من أعلى مقدّمة السفينة، وتوقّف عند قمّة السلم الذي أُنزل من الجهة اليسرى للسفينة. كانت هونوراتا تصعد السلّم بخفّة طائر دون أن تتّكئ على الحبل الجانبي للسلم.

كانت لا تزال ترتدي ذات الفستان، ولكنْ؛ يغطي رأسها وشاح كبير من الحرير الملوّن، مطرّز بالذهب، ومزيّن بالأشرطة المعقودة، كالسيرابه المكسيكي. كان القرصان الأسود ينتظرها رافعاً قبّعته، ومسنداً يده اليسرى على مقبض حسامه الطويل.

- شكراً، يا سيدتي على قدومك إلى سفينتي - قال لها.

- بل أنا مَن يجب أن أشكرك على استقبالك لي فوق سفينتك، أيها الفارس - أجابت هي، وقد أحنت رأسها بلطف - لا تنسَ أنني سجينتك.

- ليس بغريب على لصوص البحر تبجيل المرأة - أجاب القرصان بشيء من المزاح.

- لا تزال ساخطاً عليّ، بسبب الجملة التي أفلتت مني صباح اليوم؟

لم يجبها القرصان، بل دعاها لاتباعه بإشارة من يده.

- اسمح لي بسؤالٍ أولاً، أيها الفارس - قالت، وقد استوقفته.

- تفضلي.

- أيضايقك أن صاحبتني إحدى وصيفتيّ؟

- لا، يا سيدتي، بل كنتُ أظن أن كليهما ستأتيان.

مدّ لها ذراعه بلطف، واصطحبها حتّى أدخلها في صالة في مؤخّرة السفينة. كان ذلك المكان الصغير، الواقع تحت علية المؤخّرة بمستوى ظهر السفينة، أنيقاً في أثاثه حتّى إنه أدهش الدوقة الشابة، رغم اعتيادها على حياة الرخاء والترف. كان واضحاً أن ذلك القرصان، رغم أنه كان يجوب البحار، فإنه لم يستغن عن كل متع الحياة وعن الأناقة التي تزيّن قصوره. كانت جدران تلك الصالة مغطّاة بالحرير الأزرق المطرّز بالذهب، وتنتشر عليها المرايا الفينيسية الكبيرة. يغطّي السجّاد الشرقي اللطيف أرضية المكان، بينما انسدلت الستائر الموصلية الخفيفة أمام النوافذ الواسعة التي تطلّ على البحر، والتي كانت مقسّمة بأعمدة أنيقة ومزخرفة. وُضعت في زوايا الصالة أربعة رفوف، نُشرت عليها تحفٌ فضية، بينما تتوسّط الصالة مائدة، تغطّيها قطعة قماش من فلاندرا ناصعة البياض، فوقها طعام وفير، تحيطها كراس مريحة مَكسوّة بقماش مخمليّ أزرق اللون، ولها مساند حديدية كبيرة. دعا القرصان الشابة ووصيفتها للجلوس، ثم جلس قبالتهما، بينما كان موكو، الزنجي العظيم، يقدّم الطعام في أطباق فضية، نُقش عليها شعار غريب، لا بد أنه شعار القبطان؛ لأنه كان يمثل صخرة، يعتليها عقابان، وشكل يصعب تحديده. كان الطعام يتشكّل - على الأغلب - من أسماك طازجة، طُهيت بطرق رائعة ومختلفة من قِبل طبّاخ السفينة، ومن اللحوم المحفوظة والحلوى والفواكه المدارية التي رُشّ عليها أفضل خمور إيطاليا وإسبانيا. أتمّوا العشاء بصمت؛ إذ لم يتفوّه القرصان، ولا حتّى بكلمة واحدة، ولم تجرؤ الفتاة أن تكسر الصمت. بعد أن قُدّمت الشوكولاتة في أكواب من البورسلان، حسب التقاليد الإسبانية، بدا أن القرصان كان عازماً على كسر حاجز الصمت الكئيب الذي كان يسود الصالة.

- أرجو المعذرة، يا سيدتي - قال وهو ينظر إلى الشابة الفيامينغية -

سامحيني إذا كانت صحبتي سيئة، وقد كنتُ أبدو قلقاً هكذا طوال فترة العشاء، ولكنْ؛ ما إن يحلّ المساء حتّى يهبط الحزن عليّ، وتغوص بي أفكاري في غياهب الخليج الكبير، أو تطير بي في البلدان الضبابية على سواحل البحر الشمالي. ليس بوسعي فعل شيء، فلديّ الكثير من الذكريات الحزينة التي تعذّب قلبي وعقلي.

- أنت؟ القرصان الأكثر إقداماً بين القراصنة! - هتفت الشابة بدهشة - أنت الذي تجوب البحار، بسفينتك التي تحطّم أعظم السفن، وبرجالك البواسل الذين يضحّون بأنفسهم، بإشارة منك، أنت الذي لديك أموال وخزائن، أنت أشجع قادة قراصنة الترتو، أنت حزين؟!

- انظري إلى اللباس الذي أرتدي، والاسم الذي أحمل، ألا ترين فيه ما يشي بالحزن، يا سيدتي؟!

- هذا صحيح - أجابت الدوقة الشابة، وقد أثّرت فيها كلماته - ولكنْ؛ كيف، وأنت الذي تجوب البحار بسفينتك التي تقهر أكبر السفن، ولقبك الذي يثير الرعب في القلوب، وقد سمعت عنك في فيركروز؛ حيث قضيتُ بعض الوقت عند الماركيز هيردياز، حكايات غريبة جداً، يرتجف سامعها؟!.

- وما هي تلك الحكايات، يا سيدتي؟ - سأل القرصان بابتسامة ساخرة، بينما كانت عيناه التي يتوقّد فيها بريق حزين تحدّقان في عيني الشابة، كما لو أنه يود أن يسبر غور نفسها.

- سمعتهم يقولون إن القرصان الأسود عبر المحيط الأطلسي سوية مع أخويه اللذين يرتدي أحدهما لباساً أخضر، والآخر لباساً أحمر، للأخذ بثأرهم.

- آه - قال القرصان، وقد اسودّ جبينه.

- قالوا إنك رجل دائم الغمّ، وصموت، وإنه حينما يهيج المحيط الأطلسي بالعواصف، فإنك تبحر رغم الأمواج، متحدّياً ثورة الطبيعة؛ لأنك محمي من أرواح العالم السفلي.

- ثم ماذا؟

- ثم إن القرصانين الأحمر والأخضر قد شُنقا من قِبل عدوكم اللدود، وأن ...

- أكملي - قال القرصان بصوت أشدّ كدراً.

ولكن الدوقة توقّفت عن الكلام بدل أن تكمل حديثها، وهي تنظر إليه بتوجّس، وبشيء من الرهبة.

- لماذا توقّفت عن الكلام؟

- لا أملك الجرأة على الاستمرار - أجابت متردّدة.

- لعلّي أخيفك، يا سيدتي؟

- كلا، ولك ...

ثم نهضت، وسألته فجأة:

- أصحيح أنك تخاطر الأموات؟ - ارتطمت في تلك اللحظة موجة كبيرة على الجانب الأيسر من السفينة، ممّا سبّب ارتجاجاً في عمق عنبر السفينة، بينما تطايرت بعض الرغوة حتّى نوافذ الصالة، وقد بلّلت الستارات. وثب القرصان فجأة، وقد شحب كأنه جثة، نظر إلى الشابة بعينين، يتطاير منها الشرر، ولكنهما تشيان بشعور عاطفي. اقترب من إحدى النوافذ، فتحها، وأطل برأسه إلى الخارج. كان البحر هادئاً، تلمع مياهه تحت أشعة القمر، ونسائم الهواء التي تنفخ أشرعة الفولغورا، لم تُحدث سوى بعض الأمواج الخفيفة على سطح الخليج الشاسع. ولكنْ؛ لا تزال تُرى آثار المياه ورغوتها، كما لو أن موجة كبيرة قد هاجت، وضربت جانب السفينة، ربما بفعل قوة خفية، أو بفعل ظاهرة يصعب تفسيرها. كان القرصان واقفاً أمام النافذة، وقد شبك ذراعيه على صدره، كما هي عادته، يتأمل البحر دون أن يتحرك،

أو أن ينبس ببنت شفة. قد يخطر في الذهن أنه كان يحاول سبر غور أعماق البحر الكاريبي بعينيه اللامعتين. اقتربت منه الدوقة بصمت، كانت هي الأخرى شاحبة أيضاً، وقد اعتراها الخوف والتشاؤم.

- ماذا تتأمل، أيها الفارس؟ - سألته بلطف.

يبدو أن القرصان لم يسمعها، فقد بقي صامتاً كما هو.

- بماذا تفكر؟ - سألته مجدداً.

- كنتُ أسأل نفسي - أجاب بصوت شجي - فيما إذا كان ممكناً أن يخرج الأموات الهاجعين في أعماق البحر إلى سطح الماء.

ارتجفت الشابة.

- عن أي أموات تتحدث؟ - سألته بعد هنيهات صمت.

- عن أولئك الذين ماتوا ... ولم يأخذ أحد بثأرهم.

- لعلّك تتحدّث عن أخويك؟

- ربما - أجاب القرصان بصوت خافت.

ثم عاد إلى الطاولة بسرعة، وملأ كأسين من النبيذ الأبيض، وقال، بابتسامة مصطنعة، لا تنسجم وشحوب وجهه:

- في صحتك، يا سيدتي. لقد حلّ الليل، وبعد ساعات قليلة، يتوجّب عليك العودة إلى سفينتك.

- إن الليل هادئ، أيها الفارس، وليس هناك من خطر يهدّد القارب الذي سيُعيدني إلى السفينة - أجابت هي.

القرصان الذي كان كئيباً أصبح فجأة منشرحاً.

- أتودّين البقاء معي للمزيد من الوقت، يا سيدتي؟ - سألها.

- إذا كان ذلك لا يزعجك.

- بل على العكس، يا سيدتي، إن حياة البحر قاسية، ومن النادر نيل متعة كهذه. ولكنْ؛ إذا لم أخطئ، فان لديك أسباباً خفية تحدوك إلى البقاء معي.

- ربما.

- تكلمي، لقد زال الحزن الذي كان يعتريني قبل قليل.

- قل لي - إذنْ - أيها الفارس، أحقاً أنك تركت أرضك، وجئت للأخذ بثأرك؟ ...

- أجل، يا سيدتي، وأضيف - أيضاً - أني لن أهنأ لا على الأرض، ولا في البحر حتّى أحقّق ثأري.

- أبهذا القدر تكره هذا الرجل؟

- أجل، حتّى إني مستعد لاستنزاف آخر قطرة من دمي من أجل قتله.

- ولكنْ؛ ما الذي فعله بك؟

- لقد دمّر عائلتي، يا سيدتي، ولكنني، منذ ليلتين فقط، أخذتُ على نفسي يميناً غليظة، ولن أحنث بيميني حتّى لو توجّب علي أن أجوب العالم كله، وأن أبحث عن عدوي اللدود، وعن كل مَن ينتمي إليه حتّى في باطن الأرض.

- وهل هذا الرجل هنا، في أمريكا؟ ...

- إنه في مدينة من مدن الخليج الكبير.

- وما اسمه؟ - سألت الشابة بقلق كبير - ألي أن أعرفه؟

حدّق القرصان في عينيها بدل أن يجيبها.

- أمن الضروري أن تعرفيه؟ - سألها القرصان بعد لحظات صمت - فأنت لست من القراصنة، وقد يكون في معرفته خطر عليك.

- آه ...! - هتفت شاحبة.

هزّ القرصان رأسه، كما لو أنه يطرد أفكاراً تضايقه، ثم نهض فجأة، وجعل يتمشّى بقلق، ثم قال لها:

- لقد تأخّر الوقت، يا سيدتي، يجب أن تعودي إلى سفينتك.

التفت إلى الزنجي الذي كان واقفاً أمام الباب كأنه تمثال من الصخر البركاني الأسود، وسأله:

- أجاهز القارب؟

- أجل، يا سيدي - أجاب الأفريقي.

- مَن سيقوده؟

- رفيقي الأبيض وصاحبه.

- هيا، يا سيدتي.

وضعت الفيامينغية وشاحها الحريري على رأسها، ونهضت. مدّ القرصان ذراعه دون أن ينبس بكلمة، واصطحبها إلى ظهر السفينة. خلال هذه المسافة الصغيرة كان القرصان قد توقّف مرتين ينظر في وجهها، وبدا كأنه يكتم زفرة.

- وداعاً، يا سيدتي - قال لها حينما وصلا إلى السلّم. مدّت يدها الصغيرة، ثم جذبتها ما إن أحسّت بها ترتجف:

- شكراً على حسن ضِيافتك، أيها الفارس - همست الشابة.

حيّاها صامتاً بانحناءة، ثم أشار إلى كارمو وستيلر اللذين كانا ينتظراها عند أسفل السلّم. نزلت الشابة، تتبعها وصيفتها، وما إن وصلت إلى الأسفل حتّى رفعت رأسها، فرأت القرصان الأسود في الأعلى، منحنياً على جدار السفينة، يتبعها بنظراته. وثبت إلى القارب، وجلست في المؤخّرة جنب وصيفتها، بينما تناول كارمو وستيلر المجاديف، وجعلا يجدّان في التجديف. وصل القارب، بعد القليل من التجديف، إلى السفينة الحربية التي كانت تسير ببطء خلف الفولغورا التي تجرّها. ما إن وصلت الشابة على متن السفينة حتّى صعدت إلى المقدّمة بدلاً من الذهاب إلى مهجعها، ثم جعلت تتأمّل سفينة القرصان. لاحت لها، عند دفّة القيادة في مؤخّرة السفينة، هيئة القرصان السوداءَ واضحة تحت ضوء القمر، بينما كانت ريشته تتراقص على نسمات المساء. كان واقفاً هناك دون حركة، وقد أسند إحدى قدميه على جدار السفينة، يده اليسرى على مقبض السيف، بينما اليمنى على خاصرته، وقد تعلّقت أنظاره بمؤخّرة السفينة الإسبانية.

- انظري، إنه هو! - قالت الشابة، وقد مالت نحو وصيفتها التي تتبعها - إنه الرجل النبيل الحزين القادم من ما وراء البحار! يا له من رجل غريب الأطوار!...

-١٣-
سحرٌ غامض

كانت الفولغورا تبحر ببطء نحو الشمال، متّجهة إلى سواحل سان دومينيكو، ومن هناك كانت ستبحر عبر القناة التي تمرّ ما بين جزيرتي سان دومينيكو وكوبا. كانت تعيقها تيارات المياه الكبيرة الناجمة عن أيام الاعتدال، أو الغولف ستريم، والتي كانت ستدفعها بقوة، بعد أن تجتاز المحيط الأطلسي؛ لتدخل في البحر الكاريبي، متّجهة نحو شواطئ أمريكا الوسطى، وبعد جولة واسعة، كانت ستخرج من خليج المكسيك قرب جزر البهاماس وشواطئ فلوريدا الجنوبية. كانت تعيقها - أيضاً - السفينة الحربية التي كانت مضطرة لجرّها، فضلاً عن نسمات الهواء الضعيفة التي تجعل من سيرها بطيئاً جداً. ولكنْ؛ لحسن الحظّ، فقد كان الطقس جيداً، وكان هذا حظاً وافراً حقاً، وإلا لكانوا قد اضطُروا لترك السفينة الكبيرة، التي استحوذوا عليها، فريسة للأمواج، ذلك أن الأعاصير التي عادة ما تضرب البحر الكاريبي تكون قوية لحدّ، لا يمكن تصوّره. تلك المناطق التي يبدو أنها مباركة من الطبيعة، تلك الجزر الكثيرة النعم والخصبة بشكل عجيب، ذات مناخ لا مثيل له، وسماء لا تمتّ بأي صلة لسماء إيطاليا الشهيرة، ذلك بفعل هبوب الرياح الشرقية المستمرّ، وتيارات المياه في أيام الاعتدال، والتي عادة ما تسبّب ظواهر طبيعة مخيفة، تغيّر حال الجزر في سويعات قليلة. كانت تجتاحها أعاصير رهيبة بين الحين والآخر، تدمّر محاصيلها الوفيرة، وتحطّم غابات بأكملها، وتدمّر مدناً وقرى، أو تسونامي، ترتفع بفعلها أمواج البحر، وتضرب السواحل بعنف، فتدفع السفن الراسية في الميناء حتّى الأرياف التي تجتاحها المياه. وقد تحدث انكسارات فجائية في طبقات الأرض، فتؤدّي

إلى دفن آلاف الأشخاص تحت الأنقاض. لكن الحظّ حالف القرصان الأسود ورفاقه، ذلك أن الطقس بقي جيداً، وكانت الفولغورا تبحر بهدوء فوق تلك المياه الزمردية الصافية كأنها البلّور، وكانت شفافة حتّى إن بالإمكان رؤية قاع البحر الأبيض وما ينتشر فيه من المرجان بعمق مئة ذراع. كانت الأضواء التي تتكسّر فوق الرمال البيضاء في العمق تجعل من المياه أكثر صفاء، حتّى إنها قد تسبّب الدوار لمَنْ لم يكن معتاداً على النظر إلى قاع البحر. يسمح صفاء الماء ذلك برؤية أنواع غريبة من الأسماك، وهي تسبح بأسراب كبيرة في الاتجاهات كلها، تلعب سوياً، أو يتبع بعضها البعض، أو حتّى يأكل بعضها البعض. ثم تخرج - أحياناً - أسماك القرش المسمّاة زيغايني من أعماق المياه حتّى السطح ، وتضرب الماء بذيلها بقوة. كانت أكلة الرجال تلك، والتي تشبه أسماك القرش الأكثر ضراوة، طويلة حتّى عشرين قدماً، يشبه رأسها المطرقة، ولها عيون واسعة ومدوّرة، كأنها قطع زجاج على أطراف رأسها، فمها كبير جداً، وأسنانها طويلة، مثلثة الشكل. بعد يومين من الاستحواذ على السفينة الإسبانية، هبّت رياح خلفية قوية، وكانت الفولغورا في ذلك الحين تقطع الجزء البحري ما بين جامايكا والطرف الشمالي لهايتي، ممّا جعلها تسير بسرعة تجاه الشواطئ الجنوبية لكوبا. كان القرصان الأسود يقضي معظم الوقت في كابينته، لكنه خرج إلى ظهر السفينة حالما علم باقتراب السفينة من جبال جامايكا. كان لا يزال يعتريه هَمّ يصعب تفسيره، كذلك الهمّ الذي اعتراه خلال الأمسية التي دعا فيها الشابة الفيامينغية إلى سفينته. لم يثبت - قط - في مكانه، كان دائم السير على مقدّمة السفينة، دائم الانشغال، ولم يكلّم أحداً، ولا حتّى نائبه مورغان. توقّف ما يقارب النصف ساعة فوق مقدّمة السفينة، كان ينظر ساهماً، بين تارة وأخرى، إلى جبال جامايكا التي تظهر واضحة في الأفق المضيء، بينما تبدو قواعدها، كأنها مغمورة في البحر. نزل بعد ذلك على ظهر السفينة، وجعل يتمشى بين الصارية الخلفية والرئيسية، بينما تغطّي أطراف قبّعته الواسعة جبهتَه. صعد فجأة إلى مقدّمة السفينة، كما لو أن خاطراً ما قد مرّ بذهنه، فاستجاب له، ثم توقّف عند جدار مؤخّرة السفينة.

كان يحدق في مقدّمة السفينة الإسبانية التي تبعد ما يقارب الستين خطوة، وهو طول الحبل الذي يجرّها. جفل فجأة، ثم همّ بالنزول، ولكنه سرعان ما توقّف، فانشرح وجهه الذي كان عبوساً، وتحوّل شحوبه إلى لون مائل للحمرة. لقد رأى هيئة بيضاء على مقدّمة السفينة الإسبانية متّكئة على الرافعة. لم تكن تلك الهيئة سوى الشابة الفيامينغية، كانت تلتحف بروب أبيض، بينما ينساب شعرها الأشقر المبعثر بشكل مثير على كتفها، تبدّده - أحياناً - البحرية النسائم. كان وجهتها صوب سفينة القرصان، وعيناها تحدّقان في مؤخّرة السفينة، أو ربما تحدّقان في القرصان الأسود. كانت ثابتة تماماً، وقد أسندت رأسها على يديها بوضعية تأمّل. لم يقم القرصان الأسود بأي حركة، ولم يحيّها حتّى، بل تمسك بالجدار بيديه كلتيهما، كما لو أنه يخشى أن أحداً ما قد يبعده عن ذلك المكان، وجعل يحدّق في عيني الشابة. يبدو أنه كان مأخوذاً بتلك النظرات ذات اللمعان الفضي، فيبدو وكأنه كتم أنفاسه. استمر ذلك السحر الذين كان غريباً بالنسبة لرجل مثل القرصان لدقيقة واحدة، ثم اختفى فجأة. رفع القرصان يديه فجأة، ثم تراجع إلى الخلف، كما لو أنه ندم على استسلامه لنظرات الشابة. نظر إلى الرجل الواقف على دفّة القيادة، ثم إلى البحر، ثم إلى أشرعة سفينته، تقهقر بعدها خطوات أخرى، كأنه لا يعرف كيف يرفع نظره عنها، ثم عاد يحدّق في الشابة الفيامينغية. أما هي؛ فلم تتحرك مطلقاً، كانت متّكئة، كما هي، على الرافعة، مسندة رأسها البارز إلى الأمام على يمينها، تحدّق في القرصان بعينيها الواسعتين.

عيناها اللتان تبدوان ثابتتين كقطعتي زجاج، كانتا تبعثان بريقاً لامعاً، لا يُقاوَم. كان قبطان الفولغورا يتراجع باستمرار، ولكنْ؛ ببطء، كأنه لا يستطيع أن يتحرّر من ذلك السّرّ، وقد أصبح شاحباً أكثر من أيّ مرة أخرى. وصل إلى آخر مقدّمة السفينة، وصعد، ماشياً إلى الخلف، على منصة القيادة؛ حيث توقّف للحظات، ثم استمر بالتقهقر حتّى اصطدم بمورغان الذي كان يُنهي واجبه في المراقبة.

- آه ... أنا آسف - قال له مضطرباً، وقد احمرّت وجنتاه.

- أنت أيضاً كنت تنظر إلى حمرة الشمس في الأفق، يا سيدي؟ - سأله نائبه.

- ما بها الشمس؟

رفع القرصان رأسه، ولاحظ أن قرص الشمس الذي كان متوهّجاً قبل قليل قد أصبح أحمر، وقد بدا وكأنه صفيحة حديد ملتهبة. توجّه بنظره نحو جبال جامايكا، فشاهد قمم الجبال بارزة في الأفق بوضوح أكبر، وكأن ضوءاً أقوى من الأول قد سلّط عليها. فبدا على وجه القرصان شيء من الغمّ، فالتفت ينظر إلى السفينة الإسبانية، وبالتحديد إلى وجه الفتاة الفيامينغية التي لم تبتعد عن الرافعة بعد.

- سنواجه إعصاراً - قال بصوت خافت.

- كل شيء يوحي بذلك، يا سيدي - أجاب مورغان - ألا تشمّ هذه الرائحة المقرفة التي تنبعث من البحر؟

- أجل، وأرى - أيضاً - أن الجو أصبح يتضبّب - ما هذه إلا علامات الأعاصير التي تضرب جزر الأنتيل.

- إنك محق، يا قبطان.

- أيفترض أن نتخلّى عن فريستنا؟

- أتسمح لي أن أقدّم النصيحة، يا سيدي؟

- تكلّم، يا مورعان.

- أظن أن من الأفضل أن نبعث نصف الطاقم على متن السفينة الإسبانية.

- أظنك محقاً في هذا. يحزنني أن يفقد طاقمي هذه السفينة الرائعة في البحر.

- وهل ستترك الدوقة هناك؟

- الشابة الفيامينغية .. - قال القرصان مقطباً حاجبيه - ربما ستكون بمأمن على الفولغورا أكثر ممّا على السفينة الأخرى. أيحزنك أن تغرق؟ - سأل القرصان ملتفتاً بحدّة إلى مورغان، وهو يحدّق فيه.

- أعتقد أننا قد نحصل منها على آلاف من البياسترات.

- آه! ... أنت محق ... يجب عليها أن تفتدي نفسها.

- أتودّ أن آمر بجلبها إلى هنا قبل أن تمنعنا الأمواج ذلك؟

لم يجب القرصان على السؤال، بل جعل يتمشّى على منصة القيادة، كما لو أن هماً ما يشغله. استمر هكذا لعدّة دقائق، ثم توقّف فجأة أمام مورغان، وسأله عن قرب:

- أتعتقد أن بعض النساء مهلكة كالأقدار؟

- ماذا تقصد؟ - سأل النائب بدهشة.

- بوسعك أن تعشق امرأة دون خوف؟

- ولمَ لا؟

- ألا تعتقد أن فتاة جميلة قد تكون أشدّ خطراً من هجوم دموي؟

- أجل، بعض الأحيان، ولكنْ؛ أتعلم، يا قبطان، ماذا يقول قراصنة التورتو والمغامرون للمرأة قبل أن يختاروها رفيقة حياتهم من بين النساء التي تبعث بها حكومتي فرنسا وبريطانيا هنا؛ كي يحصلن على الأزواج؟

- لم يشغلني مطلقاً زواج قراصنتنا، أو المغامرين.

- هذا ما يقولونه بالضبط: اسمعي، أيتها المرأة، لن أسألك عما فعلته

في السابق حتّى يومنا هذا، بل أنت في حلّ من ذلك، ولكني سأحاسبك عمّا ستفعلينه من الآن فصاعداً»، ثم يضربون على البندقية، ويضيفون «هذه مَن ستنتقم لي، فإن فشلت أنت لن تفشل هي».

هزّ القرصان كتفيه قائلاً:

- أنا أقصد في كلامي نساء مختلفة عن أولئك اللواتي تبعثنهم جبراً حكومات ما وراء البحار.

توقّف عن الحديث لحظة، ثم أشار إلى الدوقة الشابة التي لا تزال في مكانها، وأضاف:

- ما رأيك بتلك الفتاة، أيها النائب؟

- رأيي أنها من أروع النساء التي قد تلتقي في جزر الأنتيل.

- ألا تخيفك؟

- هذه الفتاة! ... بالتأكيد لا.

- أما أنا؛ فتخيفني.

- تخيفك أنت؟ تخيف الرجل الملقّب بالقرصان الأسود؟ أتمزح، يا قبطان؟

- لا - أجاب القرصان - لقد قرأت طالعي غجرية من بلدي، وأخبرتني أن أول امرأة أعشقها ستكون سبب هلاكي.

- إنها ترّهات، يا قبطان.

- وما قولك إن قلت لك أن تلك الغجرية قد تنبّأت لأخوتي الثلاثة أن أحدهم سيُقتل غدراً في هجوم ما، وأن الآخرين سيُشنقان؟ وأنت تعلم أن هذه النبوءات الحزينة قد تحقّقت.

- وماذا قالت بعد؟

- أني سأموت في البحر بعيداً عن وطني، وعلى يد حبيبتي.

- يا إلهي!... - تمتم مورغان مرعوباً - ولكنْ؛ قد تخطئ تلك الغجرية في نبوءتها عن الأخ الرابع.

- لا - أجاب القرصان بنبرة كئيبة.

ثم هزّ رأسه. وبعد لحظة تفكير أضاف:

- ليكنْ إذنْ ...!

- نزل من على منصة القيادة، وتوجّه إلى حيث رأى الأفريقي يتحدث إلى كارمو وستيلر، وصرخ بهم:

- أنزلوا القارب الكبير في الماء، ثم اذهبوا، واجلبوا دوقة ولتندريم ومرافقتيها إلى سفينتي.

وبينما كان البحّاران والأفريقي يسرعان في تنفيذ أمر القرصان، اختار مورغان ثلاثين بحّاراً؛ ليرسلهم لتعزيز القوة الموجودة فوق السفينة الإسبانية، وقد علم أنه يجب عليهم قطع الحبل الذي يجرّ السفينة قريباً. عاد كارمو ورفاقه بعد ربع ساعة، فصعدت الدوقة ومرافقتيها إلى السفينة؛ حيث كان القرصان ينتظرهن عند قمة السلم.

- أهناك أمر مستعجل، تود أن تطلعني عليه، أيها الفارس؟ - سألته الشابة، وهي تنظر في عينيه مباشرة.

- أجل، يا سيدتي - أجاب القرصان، وهو ينحني محيياً إياها.

- وما ذلك الأمر، لو سمحت؟

- سيتوجّب علينا ترك السفينة الإسبانية لقدرها.

- ولمَ ذلك، هل هناك مَن يلاحقنا؟

- لا، بل إن هناك إعصاراً يهدّدنا، وسيجبرنا ذلك حتماً على قطع الحبل الذي يجر السفينة. لا بد أنك تعرفين مدى عنف الأعاصير هنا في الخليج الكبير، حينما تهيّجها الرياح.

- لعلك لا تود أن تفقد سجينتك، أليس كذلك، أيها الفارس؟ - قالت الفيامينغية باسمة.

- إن سفينتي الفولغورا آمن بكثير من السفينة الإسبانية.

- شكراً على كرمك، أيها الفارس.

- لا تشكريني، يا سيدتي - أجاب القرصان وهو ساهم - ربما سيسبّب هذا الإعصار موت أحد ما.

- موت أحد ما! - هتفت الدوقة بدهشة - ومَن قد يكون؟!.

- سنرى ذلك فيما بعد.

- ولكنْ؛ لماذا؟

- كل شيء بيد الأقدار.

- لعلك تخشى على سفينتك إذنْ؟

ارتسمت ابتسامة على شفتي القرصان.

- إن سفينتي الفولغورا، كما هو اسمها، قادرة على تحدّي برق السماء وغضب البحر، وأنا الرجل الذي بوسعه أن يقودها وسط الأمواج والرياح.

- أعرف ذلك، ولكنْ ...

- لا فائدة من الإصرار للحصول على إيضاحات أخرى، يا سيدتي. ستكون مهمة الأقدار إيضاح ما تبقّى.

أشار لها نحو كابينة المقدّمة، ثم رفع قبّعته وأضاف:

- أرجو أن تروق لك ضيافتي، يا سيدتي، أما أنا؛ فسأذهب لأجابه الموت والأقدار.

ثم أعاد قبّعته على رأسه، وصعد إلى منصة القيادة، بينما هاج البحر الساكن فجأة، فكأن مئات الزوابع كانت تهبّ من جزر الأنتيل الصغرى. عادت القوارب التي نقلت الثلاثين بحّاراً إلى السفينة الإسبانية، وكان البحّارة يرفعونها برافعة الفولغورا. صعد القرصان إلى منصة القيادة؛ حيث سبقه مورغان، فصار يراقب السماء من جهة الشرق. كانت هناك غيمة سوداء عظيمة، اصطبغت أطرافها باللون الأحمر الناري، تصعد الأفق بسرعة كبيرة، لا شك تدفعها ريح قوية، بينما حجبت الشمس التي كانت تشارف على الغروب كتلاً كثيفة من الضباب.

- لقد تفجّر الإعصار في هايتي - قال القرصان لمورغان.

- ولعله اجتاح جزر الأنتيل الصغرى - أضاف نائب القرصان - خلال ساعة من الزمن سيصبح هذا البحر مرعباً.

- ماذا ستفعل لو كنت مكاني؟

- كنت سأبحث عن ملجأ ما في جامايكا.

- أتهرب سفينتي الفولغورا أمام الإعصار! ... - هتف القرصان بزهو - أوه، أبداً! ...

- ولكنك تعرف كم هي عنيفة أعاصير الأنتيل، يا سيدي!.

- أجل، أعرف ذلك، وسأجابهها. سيكون على السفينة الحربية أن تبحث عن ملجأ لها في تلك السواحل، أما سفينتي الفولغورا؛ فلا. مَنْ على رأس رجالنا الموجودين على متن السفينة الإسبانية؟

- فان هورن.

- إنه رجل باسل، يوماً ما سيصبح قرصاناً شهيراً. لا بد أنه يعرف كيف يخرج من هذا المأزق دون أن يفقد الطريدة.

تناول مكبّر الصوت، وصعد على جدار مؤخّرة السفينة، ثم صرخ بصوت قوي:

- اقطعوا الحبل الذي يجرّ السفينة! ... الجؤوا إلى جامايكا، يا فان هورن ... أما نحن؛ فسننتظركم في التورتو.

- حسناً، يا قبطان - أجاب فان هورن الذي كان على مقدّمة السفينة الحربية بانتظار الأوامر. تناول فأساً، وقطع الحبل بضربة واحدة، ثم التفت إلى رجاله، وقد رفع قبّعته، وصرخ بهم:

- فلنتوكل على الآلهة.

فُتحت الأشرعة الوسطى والخلفية في السفينة الإسبانية ، بما أن ليس بوسعها الاعتماد على الأشرعة الرئيسية، ثم غيّرت مسارها متّجهة نحو جامايكا، بينما كانت الفولغورا تبحر ما بين السواحل الشمالية لهايتي والسواحل الجنوبية لكوبا، أي في ما يسمّى بقناة سوبرافينتو. كان الإعصار يقترب بسرعة، تيارات الهواء الآتية من جزر الأنتيل الصغرى هيّجت البحر الساكن، بينما كانت الأمواج ترتفع مشكّلة منظراً مرعباً. يبدو وكأن البحر يغلي في الأعماق، فكانت الرغوة تعتلي المياه ، ثم يتطاير الماء بعنف، فترتفع أعمدة مائية، وتسقط مسبّبة ضوضاء عنيفة. كانت الغيمة السوداء تتسلّق الأفق بسرعة، وقد احتلّت السماء، وغيبت ضوء الغروب تماماً، فهبط الظلام على البحر الهائج، وصبّ لونه الأسود على الأمواج، كما لو أن الماء قد مُزج بسيل من الزفت. كان لا يبدو على القرصان أنه منشغل بالإعصار، فقد كان هادئاً ومطمئناً، ولكنه يتبع بنظره السفينة الحربية التي يراها من

بعيد تصارع الأمواج، وكانت ستختفي قريباً خلف خط الأفق مبحرة باتجاه جامايكا. ربما كان قلقاً على تلك السفينة التي يعرف أنها لم تكن بوضع، يسمح لها بمواجهة تيارات الرياح القوية، ولكنْ؛ بالتأكيد لم يكن قلقاً على سفينته الفولغورا. ما إن رأى السفينة الحربية قد اختفت حتّى نزل إلى منصة القيادة، وأبعد المسؤول عن المقود قائلاً:

- اترك المقود لي ... أنا مَن سيقود سفينتي الفولغورا!..

-١٤-
أعاصير الأنتيل

اجتاح الإعصار جزر الأنتيل الصغرى، والتي كانت أول مَن تعرض إلى ضرباته، وكانت بمثابة مصدّات لأمواج المحيط الأطلسي التي تخلّفها الرياح الشرقية العنيفة التي تهبّ على القارة الأمريكية، وعلى بورتوريكو وهايتي. بعد ذلك تحوّل إلى قناة سوبرافينتو بذلك العنف الذي خبره ملاحو الخليج المكسيكي. بعد نهار مشمس في المناطق الإكوادورية، هبط ظلام داج، لم يتخلّله أي برق، كانت واحدة من تلك الليالي التي تزرع الخوف في قلوب أكثر الملاحين إقداماً. لا شيء يُرى سوى رغوة الأمواج التي تبدو فسفورية. اجتاحت البحر تيارات من الماء والهواء بقوة لا تُقاوَم، كانت رشقات متتالية من التيارات بأزيز وهدير مخيفين، جعلت الأشرعة تخفق بقوة، بل ثنت حتّى الصواري. يتعالى دوي الرعد في الهواء بين حين وآخر، وكأن ألف عربة محملة بالحديد تجول في السماء بسرعة هائلة، أو كأن قطارات ثقيلة تسير بكل سرعتها فوق جسور حديدية. أصبح البحر مرعباً، الأمواج عالية كالجبال، تجري من الشرق إلى الغرب، يصطدم بعضها ببعضٍ مسبّبة جلبة مروعة، وضجيجاً لا مثيل له، فتتطاير الرغوة الفسفورية عالياً، فتبدو الأمواج، وكأن شيئاً يدفعها من الأسفل باتجاه الأعلى، ثم تهبط مُحدِثة هوة كبيرة في الماء، فكأنها تلامس قعر الخليج. كانت أشرعة الفولغورا قد طُويت، على أن ما تبقى فيها بعد المعركة لم تكن سوى أشرعة صارية المقدّمة والصارية الرئيسية، وقد قام ثلاثة رجال بواسل بإدارة الأشرعة في ذلك الصراع مع الريح. كانت السفينة تبدو كطير عجيب، يحلّق فوق الأمواج، تتمايل بخطر، فتلامس قمة صارية المقدّمة رغوة الأمواج، لكن جوانبها المنيعة لا تستسلم

لضربات تلك الأمواج الكبيرة. تترامى من حول السفينة، بل وحتّى على ظهرها، بعض أغصان الأشجار، مختلف الفواكه، قصب السكر، وأكوام من أوراق الأشجار التي تتطاير مع الزوابع، وقد خلعتها الريح من المزارع القريبة على هايتي، فضلاً عن المياه التي تنسكب بعنف من تلك الزوابع، وتسيل بقوة على ظهر السفينة. بعد تلك الليلة المظلمة، حلت ليلة نارية، يضيء فيها البرق الظلمة الحالكة، ينير البحر والسفينة بنور بنفسجي، بينما تدوي بين السحب رعود رهيبة. أصبح الهواء مليئاً بالطاقة حتّى صار الشرر يتطاير من أسلاك السفينة، بينما تتوهّج أطراف الصواري بشرر القديس ألمو. كان الإعصار - عندئذٍ - في أوج عنفه، واشتدت سرعة الهواء، حتّى إنها قد تصل إلى أربعين متراً في الثانية، فتصدر دوياً رهيباً، وتنتج عنها زوابع وحواجز مائية سرعان ما تتبدّد. اقتلعت هذه الرياح الأشرعة المثلثة في المقدّمة، ورمتها بعيداً، ثم مزّقت أشرعة الصارية الأمامية، إلا أن الصارية الرئيسية ما تزال تقاوم بصلابة. كانت السفينة التي تهجم عليها الأمواج، والرياح من كل جانب تنطلق بسرعة مخيفة، متحدية البروق والزوابع المائية. فتبدو وكأنها قد تتحطم وتغرق بين لحظة وأخرى، ولكن في كل مرة تخرج سالمة من بين الأمواج التي تتكسر على جوانبها، تغطّيها الرغوة. كان القرصان الأسود منتصباً في المقدّمة، والمقود بين يديه، يقود السفينة بثقة عالية، لا تهزّه الريح العاتية، ولا تثيره الأمواج التي تداهمه، بل كان يتحدّى هيجان الطبيعة ببسالة، يلوح في عينيه بريق، وترتسم على شفتيه ابتسامة. تبرز هيئته السوداء في ضياء البرق، وتبدو أحيانا كأنها هيئة عظيمة. تتلاعب البروق من حوله، وهي ترسم خيوطها النارية في السماء، وتجتاحه الرياح ممزّقة الريشة السوداء الطويلة قطعة بعد أخرى، تغطّيه الرغوة بين لحظة وأخرى، ويعلو دويّ الرعد أكثر، فيصكّ سمعه، إلا أنه يبقى شامخاً في مكانه. كان يبدو كعفريت بحر، بزغ من أعماق الخليج الكبير؛ ليتحدّى بقوته عنف الطبيعة الثائرة. كان رجاله، كما في الليلة التي قاد فيها الفولغورا ضد السفينة الإسبانية، ينظرون إليه بتطيّر وخوف، ويتساءلون فيما إذا كان هذا الرجل إنساناً فانياً مثلهم أم إنه

مخلوق خارق، لا تنال منه لا البندقية، ولا السيف، ولا الأعاصير. وفي لحظة، ضربت فيها الأمواج العالية جوانب السفينة، شوهد القرصان، وهو يترك المقود، ويتّجه باندفاع نحو سلّم الجانب الأيسر من المقدّمة، ثم قام. بانت عليه علامات الدهشة، وربما الرعب. فجأة خرجت امرأة من كابينة المقدّمة، وصعدت إلى منصة القيادة مستندة بقوة على جوانب السلّم؛ لكيلا ترتمي من عليه بفعل تمايل السفينة العنيف. كانت تلتحف بثوب ثخين من أقمشة كتلونيا، على أن رأسها كان مكشوفاً، ويتلاعب الهواء بشعرها الأشقر.

- سيدتي - هتف القرصان وقد تعرّف بسرعة على الشابة الفيامينغية - ألا تعلمين أنك تعرّضين نفسك للموت هنا؟

لم تجب الدوقة، ولكنْ؛ أشارت بيدها، وكأنها تقول:

- أنا لستُ خائفة.

- ارجعي، يا سيدتي - قال لها القرصان الذي شحبت سحنته فوق العادة. لكن الفيامينغية الشجاعة، وبدل أن تجيبه، فقد صعدت إلى منصّة القيادة، تجاورتها مستندة على المقود، ثم حشرت نفسها بين جدار السفينة ومقدّمة قارب الإنقاذ الكبير الذي أُنزل عن الرافعة؛ لكيلا تأخذه الأمواج بعيداً. أومأ إليها القرصان؛ لكي ترجع، ولكنها أجابت برفض قاطع.

- ولكنك تعرّضين نفسك للموت هنا! - قال لها القرصان - عودي إلى الكابينة، يا سيدتي.

- لا - أجابت الفيامينغية.

- ولكنْ؛ ماذا تفعلين هنا؟

- أنا هنا؛ لأتفرّج على القرصان الأسود.

- ومن أجل أن ترميك الأمواج بعيداً، أليس كذلك؟

- وهل يحزنك موتي؟!

- لا أريد أن تموتي، يا سيدتي، أتفهمين؟! - صرخ القرصان بنبرة، يبدو فيها، ولأول مرة، لهفة العاشق.

ابتسمت الشابة، لكنها لم تتحرك من مكانها، بقيت مختبئة في تلك الزاوية، تشد ثوبها الثخين بكلتي يديها، يلاعب شعرها الريح، وتبلّلها مياه الأمواج التي تجتاح منصة القيادة، لكنها لم تكفّ عن التحديق في القرصان. ولما أدرك القرصان أن أي محاولة لإرجاعها ستبوء بالفشل، وربما كان سعيداً؛ لأنه يرى بقربه تلك المرأة الشجاعة التي صعدت إلى منصة القيادة متحدية الموت؛ لكي تشاهد بسالته، كفّ عن الإلحاح عليها في مغادرة المكان. وعندما تمرّ لحظات تخفّ فيها قوة الإعصار، فإن القرصان يلتفت إلى الدوقة، وربما يبتسم لها دون قصد منه. لا بد أن كلاً منهما كان ينظر للآخر بإعجاب، وفي كل مرة ينظر إليها، تلتقي عيناه عينيها اللتين كانتا ثابتتين كقطعتي زجاج، كصباح اليوم الذي كانت فيه على مقدّمة السفينة الإسبانية. تلكما العينان اللتان تشعّان سحراً غامضاً، كانتا تولّدان في قلب القرصان الباسل هاجساً، لا يستطيع تفسيره. حتّى حينما لا ينظر إليها كان يعرف أنها لا تكفّ عن النظر إليه، فكانت تجتاحه رغبة لا تُقاوَم في أن يلتفت نحو زاوية السفينة تلك. وفي لحظة ما؛ حيث ضربت الأمواج السفينة بعنف كبير، ملأ قلبه الخوف من تلك النظرات، فصرخ بها:

- لا تنظري إليّ هكذا، يا سيدتي ... إنها مسألة حياة، أو موت.

كفّ ذلك السحر فجأة، لقد أغمضت الشابة عينيها، وخفضت رأسها، ثم غطّت وجهها بيديها. كانت الفولغورا - آنذاك - قرب سواحل هايتي، فدوّى صوت القرصان بين تلاطم الأمواج وعواء الريح:

- بدلوا شراع الصارية الأمامية ... أخرجوا الأشرعة المثلثة!

ورغم أن الريح تدفع الأمواج باتجاه السواحل الجنوبية لكوبا، فقد كان البحر مرعباً عند سواحل هايتي أيضاً. كانت هناك أمواج بارتفاع خمسة عشر، أو ستة عشر متراً، ترتطم بالصخور الساحلية العالية، وترتدّ إلى الخليج. على أن الفولغورا كانت تقاوم بشدة، فُتحت الأشرعة الجديدة التي بُدلت في الصارية الأمامية، وكذلك الأشرعة المثلثة التي بُدلت في صواري مقدّمة السفينة. كانت الأمواج تقلب السفينة يميناً وشمالاً، رغم ذلك، فقد كان القرصان يعيدها بالمناورة إلى حيث كانت. وبعد أن بلغ الإعصار ذروته، بدأت قوته تخف شيئاً فشيئاً، ذلك أن تلك الأعاصير - ولحسن الحظ - لا تستمر إلا سويعات قليلة. بدأت السحب بالانقشاع هنا وهناك، فبزغت بعض النجوم في السماء، وخفتت قوة الريح. على أن البحر لا يزال هائجاً، وقد تمرّ ساعات طوال قبل أن تسكن تلك الأمواج الكبيرة الآتية من المحيط الأطلسي إلى الخليج الكبير. صارعت سفينة القرصان طوال الليل تلك الأمواج التي كانت تضربها من كل الجهات، وقد تمكّنت من اجتياز قناة سوبرافينتو، ودخلت في المنطقة البحرية ما بين جزر الأنتيل الكبرى وجزر الباهاماس. وعند الفجر، حينما تغيّر اتجاه الريح من الشرق إلى الشمال، كانت الفولغورا تبحر مقابل شواطئ الرأس الهايتي بسكينة. وحينما لاح فنار مدينة الرأس الهايتي كان القرصان - آنذاك - منهكاً ومبلّل الملابس، فترك دفّة القيادة لمورغان، ثم توجّه نحو مقدّمة قارب النجاة الكبير؛ حيث كانت الدوقة الفيامينغية لا تزال محشورة عند مقدّمته، وقال لها:

- تعالي، يا سيدتي، لقد أبهرني ما قمت به، ولا أظن أن امرأة - قط - تجابه الموت، كما فعلت أنت، من أجل رؤية سفينتي الفولغورا، وهي تصارع الإعصار.

نهضت الشابة، ونفضت الماء الذي بلّل ملابسها وشعرها، نظرت في عيني القرصان، ثم ابتسمت، وقالت:

- ربما ما كانت أي امرأة لتجرؤ على الصعود إلى منصة القيادة، ولكنْ:

أنا - فقط - مَنْ حَظِي برؤية القرصان الأسود، وهو يقود سفينته وسط أحد الأعاصير الرهيبة، وتأمّلت شجاعته وأقدامه.

لم يجب القرصان بشيء، بل بقي يتأمّلها بنظرات مثيرة.

- إنك باسلة حقاً - همس القرصان بصوت خفيف حتّى لم يسمعه سواها، ثم أضاف بحسرة:

- ولكنْ؛ ويا للأسف، إن تكهّنات الغجرية تجعل منك امرأة قاضية بالنسبة لي.

- عن أي تكهّنات تتحدّث؟! - سألته الشابة بدهشة.

ولكن القرصان بدل أن يجيبها، هزّ رأسه بحزن قائلاً:

- كله جنون.

- لعلّك متطيّر، أيها الفارس؟

- ربما.

- أنت؟

- قد تَصْدُق بعض التكهّنات، يا سيدتي.

نظر إلى الأمواج التي كانت ترتطم بجانبي السفينة، وتصدر خواراً كئيباً، ثم أشار بيده إليها قائلاً للشابة:

- اسألي هذه الأمواج، إن استطعت ... كان كلاهما جميلين، شابان شجاعان وباسلان، وهما - الآن - يرقدان في أعماق البحر تحت هذه الأمواج. لقد تحقّقت فيهما التكهّنات، وقد تتحقّق فيّ أيضاً؛ لأنني أشعر بنار، تتّقد هنا في صدري، وليس بوسعي أن أطفئها. ليكن هكذا إذنْ! ... فليحدث ما هو مكتوب عليّ: البحر لا يخيفني، وحيث يرقد أخواي، فإني حتماً سأجد

مكاناً لي أيضاً، ولكنْ بعد أن يسبقني الخائن إلى الموت.

رفع كتفيه، وحرك كلتي يديه متوعّداً، ثم نزل من على منصة القيادة تاركاً الشابة الفيامينغية مندهشة لما سمعته من الكلام الذي لم تستوعبه بعد.

بعد مرور ثلاثة أيام، وبعد أن أصبح البحر هادئاً، دفعت الرياح الفولغورا، وإذا بها على مشارف التورتو، العشّ الحصين لقراصنة الخليج الكبير.

-١٥-
القرصنة

في العام ١٦٢٥، وبينما كانت فرنسا وبريطانيا تحاولان الحدّ من سطوة إسبانيا بحروب مستمرة، توجّهت إلى جزر الأنتيل سفينتان، على متنهما قراصنة بواسل، إحداهما فرنسية، والأخرى بريطانية، الهدف منهما تعطيل التجارة التي ازدهرت آنذاك في المستعمرات الإسبانية. رست السفينتان في الوقت ذاته في جزيرة، تسمّى سان كريستوفورو، والتي كان يقطنها بعض قبائل الكاريبي. كان قبطان السفينة الفرنسية رجل نورماني نبيل، اسمه إينانبو، بينما كان قبطان السفينة البريطانية الفارس توماس وارنر. حين وجد القراصنة أن أرض الجزيرة خصبة، وناسها سهلو القياد، قرّروا أن يقطنوها بسلام، فتقاسموا بودّ تلك الأرض، وأسّسوا مستعمرةٍ صغيرة. مرّت خمس سنين، وحفنة الرجال أولئك يعيشون بهدوء، وقد اعتمدوا على الزراعة بعد أن تركوا التجوال في البحر. وفي يوم من الأيام، باغتت تلك الجزيرة فرقة إسبانية، ودمّرت معظم تلك المستعمرة الصغيرة، ذلك أن الإسبان يعدّون كل جزر الخليج المكسيكي تحت ملكهم. نجح بعض أولئك الرجال في الهرب من الوحشية الإسبانية، والتجؤوا إلى جزيرة صغيرة، تسمّى التورتو (السلحفاة)، وسُمّيت كذلك؛ لأن مَن ينظر إليها من بعيد تبدو له كأنها سلحفاة. تقع تلك الجزيرة إلى الشمال من سان دومينيكو، قبالة شبه جزيرة سومانا تقريباً، لها مرفأ جيد سهل الحماية. قام أولئك القراصنة القلائل بتشكيل مجموعة من القراصنة الشجعان الذين استطاعوا - في وقت قصير جداً - أن يبهروا العالم بما أنجزوا من المآثر العجيبة. في الوقت نفسه، كان بعضهم يعمل في زراعة التبغ، والذي نجحت زراعته بشكل رائع في تلك الأرض الخصبة،

في حين كان آخرون يجولون البحر بقوارب متواضعة، ويدمرون المستعمرات الإسبانية سعياً للانتقام. لم يمرّ وقت طويل حتّى أصبحت الترتو مركزاً مهماً للقرصنة، ذلك أن أغلب المغامرين الفرنسيين والإنكليز جاءوا إليها من سان دومينيكو، ومن أوربا، وقد أرسلهم النورمان، وزوّدوهم بالسفن والأسلحة. كان بين أولئك المغامرين منبوذين، جنوداً وبحّارين طامحين في الغنائم، وقد تملّكم هوس جمع الثروة والسيطرة على المناجم الغنية التي يستخرج منها الإسبان كميات هائلة من الذهب. ولكنْ؛ لم يجدوا ما كانوا يطمحون إليه في تلك الجزيرة، لذلك صاروا يجوبون البحار حتّى أصبحوا سبباً في دخول بلدانهم في حروب مستمرة مع القوات الإسبانية. وحين رأت المستعمرات الإسبانية في سان دومينيكو أن تجارتهم تُدمّر وتُنهَب، قرّروا التخلص من أولئك القراصنة، فاختاروا توقيتاً، كانت فيه جزيرة التورتو خالية من قواتها، وأرسلوا قوات كبيرة للهجوم عليها. دخل الإسبان إلى الجزيرة بسهولة، وقاموا بقتل وشنق كل مَن وقع بين أيديهم من القراصنة. حين علم القراصنة الذي كانوا يجوبون البحر بالمجزرة، أقسموا على الانتقام، وقد نجحوا بقيادة ويليس في استرجاع جزيرتهم بعد قتال عنيف، ثم قاموا بقتل كل مَن كان فيها من الإسبان. نشبت بعد ذلك خلافات بين القراصنة في الترتو، ذلك أن الفرنسيين كانوا أكثر عدداً من الإنكليز، فاستغل الإسبان هذه الخلافات، وهجموا على الجزيرة، وطردوا القراصنة الذين أُجبروا على الفرار إلى غابات سان دومينيكو. وكما كان المستعمرون الأوائل في سان كريستوفورو هم أول مَن أسّس القرصنة، فقد كان الهاربون من جزيرة الترتو هم أول مَنْ أسّس البوكانيرية. كانت قبائل الكاريبي تطلق على العمل على تجفيف جلود حيوانات الصيد والاشتغال فيها مصطلح «بوكان»، ومن هذا جاءت تسمية مَنْ يقوم بهذا العمل «بوكانير». هؤلاء الرجال الذين أصبحوا - فيما بعد - حلفاء أشداء للقراصنة، كانوا يعيشون حياة برية، ويسكنون في أكواخ، صُنعت من أغصان الأشجار. يرتدون قمصاناً من القماش الخشن الملطّخة بالدماء دائماً، وبناطيل خشنة أيضاً، ويتحزّمون بأحزمة عريضة،

يعلقون فيها حربات قصيرة، وسكينين في كلّ حزام، وينتعلون حذاء من جلد الخنزير، تغطّي رؤوسهم قبّعات رديئة. كل ما كان يرومونه هو امتلاك بندقية جيدة ومجموعة من كلاب الصيد الضخمة. ولأنهم كانوا بدون أزواج، فقد كانوا يخرجون إلى الصيد فجراً، كل اثنين معاً؛ لكي يساعد أحدهما الآخر، يواجهون - ببسالة - الثيران البرية الكثيرة الانتشار في غابات سان دومينيكو، ثم يعودون عند المساء محمّلين بالجلود وبعض اللحم لتوفير الطعام. وبعد أن اتّحدوا في مجموعات كبيرة، أصبحوا يشكّلون مصدر إزعاج للإسبان، فصاروا يتعقّبونهم كأنهم وحوش برية، وحينما لم يتمكّنوا من القضاء عليهم، قاموا بتنظيم حملات لإبادة الثيران البرية، ممّا أدى إلى جعل حياة هؤلاء الصيادين المساكين صعبة جداً. نتج عن ذلك اتحاد القراصنة والبوكانير، وأطلقوا على أنفسهم «أخوة الشاطئ»، ثم عادوا إلى التورتو، تتملّكهم الرغبة في الانتقام من الإسبان. لم يعص هؤلاء الصيادين البواسل أوامر قادتهم، كانوا قنّاصين بارعين، وقد قدّموا يد العون للقراصنة الذين اشتدّت قوتهم بهم. ازدهرت التورتو في وقت قصير، بالأخصّ تحت إدارة بيلتراند دورجيرون، الذي أرسلته فرنسا كحاكم على الجزيرة التي أصبحت وكراً لكل المغامرين الفرنسيين، والهولنديين، والإنكليز، ولكل الأقوام الأخرى. ولما اشتعلت الحرب مع إسبانيا، بدأت مآثر القراصنة ومغامراتهم الأولى؛ إذ جعلوا يهجمون بشجاعة فريدة على كل السفن الإسبانية التي يتمكّنون من الوصول إليها. في بداية الأمر، لم يكن لديهم سوى مراكب متواضعة، يصعب عليهم التحرك داخلها، ولكنْ؛ مع مرور الوقت، أصبحت في حورتهم سفن عظيمة، استطاعوا سلبها من أعدائهم. ولأنهم لا يملكون المدافع، فقد كان البوكانير هم مَنْ يسدّ هذا الفراغ، كونهم - كما قيل سابقاً - قنّاصة بارعين، فقد كانت تكفي بعض الرشقات من بنادقهم لإبادة الطاقم الإسباني بأكمله. كان إقدام هؤلاء القراصنة لا مثيل له، فقد كانوا يجابهون أكبر السفن الحربية، ويهجمون عليها بحماس شديد. كانت لا توقفهم المدافع، ولا البنادق، ولا مقاومة أعدائهم، فهم لا يأبهون بالأخطار، ولا يهابون الموت، لقد كانوا شياطين بحق، وهكذا

كان يعدّهم الإسبان أيضاً؛ لأنهم يظنوهم أرواحاً من العالم السفلي. نادراً ما يتركون أسراهم أحياء، كما أن الإسبان يفعلون الشيء ذاته معهم. كانوا يُبقون - فقط - على الشخصيات المهمّة؛ لأن بوسعهم أن يطلبوا فدية كبيرة لإطلاق سراحهم. أما الآخرون؛ فيرمونهم في البحر. كانت تلك حروب إبادة من الطرفين كليهما، لا مكان للتسامح فيها، إلا أن لصوص البحر أولئك كانت لديهم قوانين لا يخالفونها مطلقاً، وكانت لهم ذات الحقوق إلا في اقتسام الغنائم، فإن لرؤسائهم الجزء الأكبر منها. حالما يُباع ما يغنمونه خلال هجماتهم، يقومون بتوزيع المكافآت على الأكثر بسالة، وعلى الجرحى أولاً، وهكذا يقومون بإعطاء قدر من المال إلى أول مَنْ هجم على السفينة التي نهبوها، وإلى مَنْ أنزل الراية منها، ويكافئون - أيضاً - مَنْ يتمكّن - رغم المخاطر - من جلب معلومات عن تحرّكات القوات الإسبانية. ويمنحون ما قدره ستمائة بياسترا لمَنْ يفقد ذراعه اليمنى في الهجوم، وخمسمائة لم يفقد ذراعه اليسرى، بينما مَنْ يفقد ساقه، فيُمنح أربعمائة، في حين يمنحون الجريح بياسترا كل يوم، ولمدة شهرين.

ثم كانت هناك قوانين صارمة على متن سفن القراصنة للسيطرة على البحّارة. مَنْ يترك المكان المعهود إليه خلال القتال يُعاقَب بالموت، يمُنع شرب النبيذ بعد الساعة الثامنة مساءً، وهو التوقيت المحدد لمنع التجوال أيضاً. تمُنع المبارزات، القذف بالكلمات النابية، وكل أنواع الألعاب، ويكون القتل جزاء مَنْ يصحب امرأة على متن السفينة، حتّى لو كانت زوجته. أما الخونة؛ فيتم نبذهم في جزر نائية، وكذلك - أيضاً - مَنْ يستحوذ - دون إذنْ - على أي غرض من الغنائم. ولكنْ؛ حسب ما يقال، فقد حصلت حالات نادرة جداً من هذه التجاوزات، ذلك أن القراصنة غاية في الشرف والنزاهة. بعد أن صار بحوزتهم الكثير من السفن، أصبح القراصنة أكثر إقداماً، ولكنهم ما عادوا يجدون سفناً إسبانية، لينهبوها، ذلك أن الإسبان أوقفوا كل تجارتهم ما بين الجزر التي يسيطرون عليها، فبدأت - عندئذ - مآثر القراصنة الكبرى. كان مونتبارس أول القادة الذين حازوا على شهرة واسعة، وهو رجل نبيل من

لانغيدوك، جاء لأمريكا من أجل الأخذ بثأر الهنود المساكين الذين أبادهم الغزاة الإسبان الأوائل. وكان - كالكثيرين من أمثاله - شديد الكره للإسبان، بفعل ما قام به كورتز في المكسيك وبيتزارو والماغرو في البيرو، فأصبح مرعباً حتّى أُطلق عليه «المبيد». كان يقود القراصنة حيناً، والبوكانير حيناً آخر، نفّذ المجازر حتّى عند شواطئ سان دومينيكو وكوبا، وقتل عدداً كبيراً من الإسبان. نال الشهرة بعده بير – لي - غراند، فرنسي من دييب. التقى هذا البحّار الشجاع سفينة إسبانية، كانت تبحر عند كابو تيبورون، ورغم أن ليس معه غير ثمانية وعشرين رجلاً، إلا أنه هجم عليها بعد أن خرق سفينته، وأغرقها في أعماق البحر؛ لكي يقطع على رجاله أيّ سبيل للهرب. كانت مفاجأة كبيرة للإسبان حين رأوا أولئك الرجال يصعدون من البحر حتّى إنهم استسلموا بعد مقاومة قصيرة ظناً أن مَنْ هاجمهم إنما هي أشباح بحرية. بينما قام لويس سكوت مع فِرَق قليلة من القراصنة بالهجوم على سان فرانسيسكو دي كامبيك، وقد كانت مدينة شديدة التحصين، فاستولى عليها، ونهبها. واستطاع جون دافيس أن يغزوا نيكاراجوا بتسعين رجلاً، ثم غزا سانت أغوسطين ديلا فلوريدا. في حين فقد «الذراع الحديدي» النورماني سفينته «سانتا باربارا» عند مدخل المحيط بفعل صاعقة، أشعلت النيران فيها، وصمد بزهو أمام هجمات القبائل الهمجية، ثم حصل أن رأى سفينة إسبانية ترسو؛ حيث كان هو ورجاله، فباغتها بالهجوم رغم قلّة عدد رجاله. ثم جاء - في وقت لاحق - قراصنة آخرين أكثر إقداماً وشهرة، مثل بير ناو، الملقّب بالأولونيزي، والذي أصبح مرعب الإسبان، وبعد أكثر من مئة انتصار، انتهى به الأمر أن أكلته قبائل دارين، من أكلة لحوم البشر، بعد أن قاموا بشويه. جاء بعده بالشهرة غراموت، نبيل فرنسي قام بالهجوم على ماراكايبو بعدد قليل من البحّارة والبوكانير، ثم هجم على بورتو كافالو، وقد جابه ثلاثمائة إسباني مع خمسين من أصحابه فقط، ثم غزا فيرا - كروز مع فان هورن ولاورنت، وهما قرصانان شهيران. على أن مَنْ أصبح الأكثر شهرة بين الجميع كان مورغان، نائب القرصان الأسود ، والذي بدأ مسيرة بطولاته بعد

أن ترأس عدداً من البحّارين الإنكليز، واحتلّ بهم بويرتو ديل برينسه في جزيرة كوبا، ثم قاد تسع سفن، وهجم على بورتوبيلو، ونهبها، رغم مقاومة الإسبان ونيران مدافعهم الجهنمية. بعد ذلك، هجم على ماراكايبو، وآخر ما قام به، بعد أن عبر برزخ بنما، وبعد مغامرات كثر وصراعات دموية، هو أن احتلّ بنما، ثم أحرقها بعد أن حصل على غنائم، تُقدّر بـ ٤٤٤ ألف رطل من الفضة.

ثم كان هناك شارو، هاريس وساموكينس، ثلاث قراصنة شجعان، اتّحدوا، وقاموا بنهب سانتا ماريا، وبعد أن تذاكروا إنجازات مورغان، عبروا - هم أيضاً - عبر برزخ بنما، وضربوا أمثلة في الشجاعة والإقدام، وبعد هزيمتهم للقوات الإسبانية في كل مكان، رغم أنها كانت تفوقهم بالعدد والعدّة، توجّهوا إلى المحيط الهادي؛ حيث قاموا بتدمير الفرقة الإسبانية التي دافعت بشجاعة، وهزموها بعد تسع ساعات من القتال الشرس. صارت بنما ترتجف خوفاً منهم، وكانوا يجوبون شواطئ المكسيك والبيرو، ويهجمون على يلو وسيرينا، ثم يعودون إلى جزر الإنتيل عبر مضيق ماجيلان.

وقد عقب هؤلاء آخرون، يوازونهم بالشجاعة والإقدام، ولكنهم - ربما - كانوا أقل حظاً، مثل مونتابون، الباسكي، جونكو، ميكل، دروناج، غرونير، دافيس، توسلي، ويلمنت، والذين أكملوا مسيرة إنجازات القراصنة الأوائل، وهم ينهبون السفن في شواطئ الإنتيل والمحيط الهادي. ثم حصل أن فقدت التورتو أهمّيّتها، فأفل نجمها ونجم القرصنة أيضاً.

-١٦-
في الترتو

ألقت الفولغورا مرساتها في ميناء التورتو الأمن، والذي يحميه مضيق القناة من أي هجوم مفاجئ من قِبل الإسبان، وكان أغلب قراصنة التورتو - عندئذٍ - يقيمون احتفالات بهيجة بعد عودتهم من عمليات النهب التي قاموا بها على شواطئ سان دومينيكو وكوبا؛ حيث حصلوا على غنائم كثيرة بقيادة الأولونيزي ومايكل الباسكو. كان هؤلاء الغازين الرهيبين قد أقاموا مأدبة في خيام، نصبوها تحت ظلال النخيل على الشاطئ المقابل للمرفأ؛ حيث كانوا يستهلكون بينهم الباشاوات ما حصلوا عليه من الغنائم. كان ذئاب البحر أولئك ما إن يصلون اليابسة حتّى يصبحوا أكثر سكان جزل الإنتيل بهجة وسعادة، وربما يصيرون - ويا للغرابة - الأكثر سماحة، فكانوا يدعون حتّى الإسبان المساكين إلى مآدبهم، والذين أسروهم بغية الحصول على الأموال من الفدية، ويدعون السجينات أيضاً، ويتصرفون معهن كنبلاء حقيقيين، بل كانوا ينبغون في التصرفات النبيلة؛ لكي ينسوهنّ ظرفهم الحزين. ونقول حزين؛ لأن القراصنة إذا لم يحصلوا على الفدية، فإنهم يعمدون عادة إلى وسائل قاسية للحصول على الفدى، كإرسال رأس أحد السجناء إلى الحكّام؛ ليجبروهم على الإسراع في دفع الفدى. ما إن رست الفولغورا حتّى أوقف القراصنة احتفالاتهم ورقصهم وألعابهم، لكي يحيّوا القرصان الأسود على عودته سالماً، لما له من مكانة وشعبية بينهم، ربما مساوية لما للأولونيزي من مكانة في أنفسهم. فلم ينس أحد مجازفته الكبرى حين ذهب لإنقاذ أخيه المسكين القرصان الأحمر، حياً أو ميتاً، من بين أيدي حاكم ماراكايبو. كانوا يعرفون مدى شجاعته وإقدامه، وكانوا كانوا يأملون أن يروهما عائدان معاً. ولكنْ؛ ما إن رأوا الراية تنزل حتّى

منتصف السارية، وهي إشارة للحداد، حتّى أوقفوا كل مظاهر الاحتفال، كما لو أن ذلك قد حصل بفعل عصا سحرية، ثم اجتمعوا صامتين أمام المرفأ لمعرفة أخبار المهمّة، وماذا جرى للقرصانين. كان القرصان الأسود على منصة القيادة، وقد رأى كل شيء من هناك، فطلب مورغان الذي كان ينزل بعض القوارب في الماء، وقال له مشيراً إلى جمع القراصنة على الشاطئ:

- اذهب، وقل لهؤلاء إن القرصان الأحمر ووري - بكل إجلال - في أعماق الخليج الكبير، وقل لهم إن أخاه عاد سالماً؛ ليجهز للانتقام الذي ...

توقّف عن الكلام للحظات، ثم أضاف:

- أخبر الأولونيزي أني سأزوره هذا المساء، ثم اذهب إلى الحاكم، واحمل له تحياتي، سأزوره - هو أيضاً - في وقت لاحق.

قال ذلك، ثم بقي ينتظر حتّى تُطوى الأشرعة، وتُشدّ الحبال إلى الأوتاد لتثبيت السفينة، وبعد مرور نصف ساعة، نزل إلى كابينة المقدّمة؛ حيث كانت الشابة الفيامينغية مستعدّة للنزول من السفينة.

- أيتها السيدة - قال لها - هناك قارب ينتظرك؛ لينقلك إلى اليابسة.

- أنا جاهزة لتنفيذ كل أوامرك، أيها الفارس - أجابت - فما أنا إلا سجينتك، ولن أعصي لك أمراً.

- لا، يا سيدتي، أنت لم تعودي - بعد - سجينة.

- ولماذا، يا سيدي؟ ... أنا لم أدفع الفدية بعد.

- لقد دُفعت عنك الفدية، ووُضعت في صندوق مالية الطاقم.

- ومَن فعل ذلك؟! - سألت الدوقة بدهشة - لم أُبلغ بخطفي لا الماركيز هيريدياس، ولا حاكم ماراكايبو.

- هذا صحيح، ولكنّ أحداً ما تكفّل بدفع فديتك - أجاب القرصان باسماً.

- لعلّك أنت مَنْ فعل ذلك؟ ...

- وإن كنتُ أنا مَنْ فعل ذلك؟ - سألها القرصان، وهو يحدّق في عينيها.

صمتت الشابة الفيامينغية لحظة، ثم أجابت بصوت شجي:

- ها هو موقف سخي، ما كنتُ لأتوقّعه أن يصدر من قراصنة التورتو، ولكنه لا يُدهشني إذا كان مَنْ قام به يلقب بالقرصان الأسود .

- ولماذا، يا سيدتي؟

- لأنك مختلف عن الآخرين، لقد توفّر لي الوقت، خلال الأيام القليلة التي قضيتها على متن سفينتك؛ لكي أعرف مدى نبل وكرم وبسالة فارس روكانيرا وسيد فينتيميلا وفالبينتا. ولكنْ؛ أرجوك أن تخبرني كم كان مبلغ الفدية.

- أنت مستعجلة لدفع دينك؟ لعلّك ترغبين بمغادرة التورتو على عجل؟

- لا، ليس هكذا. وعندما سيحين الوقت لمغادرة هذه الجزيرة، فسيكون الأمر مؤسفاً لي أكثر ممّا تتصوّر، أيها الفارس، وكن واثقاً بأني سأكون ممتنّة للقرصان الأسود، ولن أنساه ما حييتُ.

- سيدتي - هتف القرصان، وقد لاح بريق في عينيه، فتقدّم خطوة نحو الشابة، لكنه توقّف، وقال بنبرة حزينة:

- ربما سأكون - عندئذٍ - العدو اللدود لأحد أقاربك، لذلك سيتولّد في قلبك نفور مني.

جال في الصالة بخطوات مضطربة، ثم توقّف حازماً، وسألها، وهو يحدّق في عينيها:

- أتعرفين حاكم ماراكايبو؟ ...

جفلت الدوقة عند سماعها لهذه الكلمات، وكانت نظراتها تشي بقلق فادح.

- أجل - أجابت بصوت راجف - لماذا تسألني هذا السؤال؟

- أتعتقدين أني سألتُ ذلك لمجرد الفضول؟

- يا إلهي! ...

- ماذا هناك، يا سيدتي؟ - سألها القرصان مندهشاً - أراك شاحبة ومضطربة.

وبدل أن تجيبه، فقد سألته الشابة بإصرار:

- لمَ سألتني هذا السؤال؟

كاد القرصان ليجيبها، ولكنْ؛ وصلت إلى مسامعهم ضوضاء خطوات على السلّم. كان ذلك مورغان، نزل إلى كابينة المقدّمة راجعاً ممّا كلّفه به القرصان.

- يا قبطان - قال، وهو يدخل - بيترو ناو ينتظرك في مسكنه، يودّ أن يبلغك بقرارات مستعجلة. أظنّهم ناقشوا مخطّطاتك في الانتقام خلال فترة غيابك، وقد جهّزوا كل شيء لذلك.

- حسناً - هتف القرصان، بينما لاح في عينيه بريق قاتم، - هكذا إذنْ؟ ... ما كنتُ أظن أن الانتقام سيكون قريباً هكذا.

التفت إلى الشابة الفيامينغية التي لا تزال مضطربة، وقال لها:

- اسمحي لي، يا سيدتي، أن أستضيفك في بيتي الذي سأضعه تحت تصرّفك. سيصطحبك موكو، كارمو وستيلر إلى هناك، وسيبقون تحت إمرتك.

- ولكنْ؛ أيها الفارس ... اسمح لي بالكلام ... تأتأت الدوقة.

- نعم، أفهم ما تريدين، ولكنْ؛ سنتحدث لاحقاً عن الفدية.

ثم خرج بسرعة، يتبعه مورغان، دون أن يستمع لشيء آخر، اجتاز ظهر السفينة، ونزل في أحد القوارب الذي كان على الجانب الأيسر من السفينة، وكان في القارب ستة رجال. جلس في مؤخّرة القارب، وأخذ المقود بيده، ولكنْ؛ بدل أن يتّجه إلى المرفأ؛ حيث القراصنة، وقد عادوا إلى احتفالهم، فقد توجّه نحو لسان بحري صغير، يقع شرق الميناء، ثم توقّف عند غابة نخيل ذات أوراق عظيمة وجذع طويل. نزل على الشاطئ، وأمر رجاله بالعودة إلى السفينة، ثم سار وحده تحت الأشجار في طريق، يصعب تمييزه. كان ساهماً، كما هي عادته حينما يكون وحده، ولكنْ؛ يبدو أن أفكاره تعذّبه، فكان يتوقّف فجأة، أو يقوم بحركات بيده اليمنى، تدل على نفاد الصبر تارة، وعلى التهديد تارة أخرى، وتتحرك شفاهه، كما لو كان يكلّم نفسه. وبينما كان يتوغّل في الغابة، وإذا به يسمع صوتاً فرحاً وساخراً، وقد أخرجه من دوّامة أفكاره.

- لتأكلني قبائل الكاريبي إن أنا لم أكن واثقاً من لقائك، أيها الفارس. لعلّ البهجة والأفراح التي تعمّ الترتو تخيفك حتّى جعلتك تأتي إلى بيتي عن طريق الغابة؟ يا لك من قرصان كئيب ... تبدو كأنك في مأتم جنائزي.

رفع القرصان رأسه، ووضع يده على مقبض السيف كعادته. خرج رجل، وسد عليه الطريق، كان قصير القامة، نشيطاً وخشن الملامح، نظراته ثاقبة، يرتدي ملابس كأي بحّار بسيط، وقد تسلّح بمسدّسين، وخنجر.

- آه! هذا أنت، يا بيتر؟ - سأل القرصان.

- نعم، أنا الأولونيزي، بلحمه ودمه.

كان هذا الرجل - في الحقيقة - هو القرصان الشهير، جوال البحر الباسل،

وعدو الإسبان اللدود. انتهى به المطاف، بعد مسيرة الطويلة وأمجاد كثيرة، بين أسنان أكلة لحوم البشر من قبائل الدارين، كما أشرنا سابقاً، ولكنْ؛ بعد أن ألحق بالإسبان خسائر فادحة. كان عمره - آنذاك - خمس وثلاثين سنة، ولكنه كان مشهورا جداً. وُلد في أولونا، في بواتو، وكان تاجراً على الشواطئ الإسبانية. وذات ليلة باغتته قوات الجمارك، ففقد قاربه، وقُتل أخوه رمياً بالرصاص، وجُرح هو - أيضاً - بجرح كبير حتّى إنه بقي لوقت طويل بين الحياة والموت. كان غاية في البؤس عندما شُفي، فاضطُر لبيع نفسه كعبد لمونتبارس الماحي مقابل أربعين سكود؛ لكي يقدّم المساعدة لوالدته العجوز.

كان - في بداية الأمر - بوكانير بوظيفة خادم، ثم أصبح - بعد ذلك - بحّاراً، وقد حصل على سفينة صغيرة من حاكم الترتو، لما أثبت من شجاعة ورباطة جأش لا مثيل لهما. قام بتلك السفينة الصغيرة بإنجازات، سبّبت الكثير من الأذى للمستعمرات الإسبانية، وكان جنبه - عندئذ - القراصنة الثلاثة: الأسود والأحمر والأخضر. ولكنْ؛ في يوم سيئ الطالع أجبره الإعصار أن يلوذ بشواطئ كامبيتشي، فقام الإسبان بإغراق سفينته، وقتل جميع رفاقه، إلا أنه نجا من المجزرة بعد أن غاص في الوحل حتّى رقبته، ولطخ وجه بالوحل أيضاً؛ لكي لا يراه الإسبان. لم يلذ بالفرار بعد أن خرج حياً من تلك البركة لكنه توجّه إلى كامبيتشي بكل بسالة، وقد تنكّر بزي جندي إسباني، ودخل إلى المدينة؛ ليعرفها عن كثب، ثم تمكّن من جمع بعض العبيد، وهرب معهم بقارب، كان قد سرقه، وعاد إلى الترتو، في حين كان الجميع يظنّه ميتاً. ربما شخص آخر ما كان ليجرّب حظّه في البحر، إلا أن الأولونيزي عاود الإبحار بسرعة بسفينتين صغيرتين وثمانية وعشرين رجلاً، وتوجّه إلى لوس كايوس في كوبا. وحين لمحه بعض الصيادين الإسبان أبلغوا الحاكم، فقام الأخير بإرسال سفينة حربية، يعتليها تسعون رجل، وأربع سفن صغيرة يعتليها بحّارة بواسل، فضلاً عن زنجي، مهمّته شنق القراصنة. لم يجفل الأولونيزي أمام هذه القوة، بل كان يترقّب بهم، وما إن حلّ الفجر حتّى هجم على السفينة

الحربية من الجانبين كليهما، واستطاع رجاله الثمانية والعشرون - رغم مقاومة الإسبان المستميتة - من أن يصعدوا السفينة، وأن يقتلوا الجميع، حتّى الزنجي. بعد أن انتهى من هذه، توجّه إلى السفن الصغيرة الأربع، واستولى عليها، ورمى رجال الطاقم في البحر. كان هذا مقدار شجاعة هذا الرجل الذي تمكّن - فيما بعد - من القيام بمآثر أخرى أكثر غرابة من هذه، وكان يودّ التحدث عنها مع القرصان الأسود.

- هيا معي إلى بيتي - قال الأولونيزي بعد أن صافح قبطان الفولغورا - كنتُ أنتظر مجيئك بفارغ الصبر.

- وأنا كنتُ أنتظر رؤيتك على أحرّ من الجمر - قال القرصان - أتعرف أنني دخلتُ إلى ماراكايبو؟

- أنت! - هتف الأولونيزي، بدهشة.

- وكيف كنتُ سأفعل لسرقة جثة أخي؟

- ظننتُك استعنتَ بواسطة ما.

- لا، أنت تعلم أني أفضّل تنفيذ المهامّ بنفسي.

- كن حذراً، وإلا فإن إقدامك سيكلّفكَ حياتك يوماً ما. أرأيتَ ما حصل لأخويك؟

- اصمت، يا بيترو.

- آه! ولكنْ؛ سننتقم لهما، أيها الفارس، وقريباً جداً.

- استقر رأيك على هذا الأمر أخيراً؟ - سأله القرصان، بحماس.

- بل قمتُ بأكثر من ذلك، لقد أتممتُ تجهيزات الحملة الحربية.

- آه! أحقاً ما تقول؟

- أقسم بشرفي كلصّ بحّار، كما يلقّبني الإسبان - قال الأولونيزي ضاحكاً.

- وكم من سفينة جهّزتَ؟

- ثماني سفن، من ضمنها سفينتك الفولغورا، وستمائة رجل، بين بحّارين وبوكانير. سنقود نحن البحّارين، ومايكل الباسكي سيقود البوكانير.

- وهل سيأتي الباسكي أيضاً؟

- لقد طلب مني أن يشارك في الحملة الحربية، وأنا سارعتُ في الموافقة. إنه جندي، كما تعرف، وقد حارب بين صفوف الجيوش الأوربية، وسينفعنا كثيراً، فضلاً عن كونه غنياً.

- وهل أنت بحاجة للنقود؟

- لقد صرفتُ كل ما حصلت عليه من بيع السفينة الأخيرة التي سلبناها بالقرب من ماراكايبو حين عودتي من حملة لوس كايوس.

- بوسعك أن تعتمد عليّ بما مقداره عشرة آلاف بياسترا.

- برمال أولونا! يبدو أن لديك كنزاً، لا ينفد في بلدك ما وراء البحار.

- كنتُ سأعطيك أكثر من هذا، لولا أنْ توجّب علي دفع مبلغ كبير كفدية هذا الصباح.

- فدية! ... أنت! ... وعن مَن؟

- عن سيدة نبيلة وقعت أسيرة بين يدي. وكانت الفدية من حقّ طاقمي، فقمتُ بدفعها لهم.

- ومَنْ قد تكون هذه؟ لعلّها إسبانيةَ؟

- لا، إنها دوقة فيامينغية، إلا أنها قريبة حاكم فيرا - كروز، بكل تأكيد.

- فيامينغية! - هتف الأولونيزي شارد الذهن - وعدوّك اللدود فيامينغي أيضاً.

- وما تقصد بهذا؟ - سأل القرصان، وقد شحبت سحنته.

- كنتُ أفكر في أنها قد تكون قريبة فان غولد أيضاً.

- كفاني الله شرّ ذلك - همس القرصان بصوت غير مفهوم - لا، هذا غير ممكن.

بقي الأولونيزي يحدّق في وجه رفيقه.

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟ - سأل القرصان.

- كنتُ أفكّر بالدوقة الفيامينغية، وأتساءل عن سبب اضطرابك المفاجئ. أتعرف أنك شاحب الوجه؟

- لقد أوقف هذا الشكّ جريان الدم في عروقي.

- أيّ شك؟

- الشكّ في أن تكون قريبة فان عولد.

- وما شأنك أنت، لو صح ذلك؟

- لقد أقسمتُ أن أمحو كل عائلة فان غولد وكل أقاربه عن وجه الأرض.

- لنقتلها إذنْ، وينتهي كل شيء.

- نقتلها! ... كلا، وألف كلا - هتف القرصان برعب.

- إذنْ؛ هذا يعني ... - قال الأولونيزي بتردد.

- ماذا يعني؟

- برمال أولونا! ... يعني أنك تعشق رهينتك.

- اصمت، يا بيترو.

- ولماذا أصمتُ؟ أعار علينا نحن القراصنة أن نعشق النساء؟

- لا، ولكني أشعر أن هذه الفتاة ستكون سبب هلاكي.

- اتركها وشأنها، إذنْ.

- لقد فات الأوان.

- أنت تعشقها، إذنْ؟

- حدّ الجنون.

- وهل تعشقك هي أيضاً؟

- أظنّ ذلك.

- قسماً إنكما لزوج رائع! ... ليس لسيد روكانيرا إلا أن يقترن بامرأة نبيلة ذات حسب ونسب! ... إنها فرصة نادرة الحصول في أمريكا، وأكثر من ذلك ندرة أن تحصل مع قرصان. هيا، إذنْ؛ لنحتسي نخب دوقتك، يا صديقي.

-١٧-
ڤيلا القرصان الأسود

كان منزل القرصان الشهير الأولونيزي عبارة عن بيت متواضع من الخشب، بُني بشكل حسن، وصُنع سقفه من الأوراق اليابسة، كما يفعل عادة هنود جزر الأنتيل الكبرى، إلا أنه مريح ومؤثّث بشيء من الترف. يقع على أطراف الغابة في مكان لطيف وهادئ تحت ظلال النخيل الباسق، على مسافة ما يقارب النصف ميل من المدينة. أدخل الأولونيزي القرصان الأسود في حجرة في الطابق الأرضي، والتي كانت شبابيكها مستورة بحصائر من النيبا، وأجلسه على كرسي من البامبو، ثم أمر أحد رجاله بجلب الكثير من قناني النبيذ الإسباني، لا بد أنه حصل عليه من بعض سفن العدوّ التي سلبها، وملأ قدحين كبيرين.

- بصحتك، أيها الفارس، وبصحة حبيبتك - قال.

- أفضّل أن يكون نخب حملتنا العسكرية الميمونة - أجاب القرصان الأسود.

- ستنجح - بلا شك - يا صديقي، وأعدك أني سأسلّمك قاتل أخويك بين يديك.

- قاتل أخوتي الثلاثة، يا بيترو.

- يا إلهي - هتف الأولونيزي - أنا وكل القراصنة نعلم أن ڤان غولد قتل أخويك القرصانين الأخضر والأحمر، ولكنْ؛ لا نعلم بالأخ الثالث.

- أجل، ثلاثة - ردّد القرصان بصوت شجي.

- برمال أولونا! ... ولا يزال هذا الرجل على قيد الحياة؟

- سيموت قريباً، يا بيترو.

- آمل ذلك، وسأساعدك أنا بكل ما أوتيتُ من قوة. ولكنْ؛ أخبرني قبل كل شيء: أتعرف فان غولد هذا؟

- أعرفه أفضل حتّى من الإسبان الذين يخدمهم.

- وأيّ رجل هو؟

- إنه جندي قديم، وقد حارب طويلاً في فلاندر، وعائلته من أعرق العائلات الفيامينغية. كان - فيما مضى - محارباً باسلاً، وربما كان بوسعه أن يحصل على ألقاب أخرى إضافة لألقابه، لو لم يجعل منه الذهب الإسباني خائناً.

- وهل هو كبير في السن؟

- بلغ الخمسين سنة من العمر، على ما أظن.

- ولكنْ؛ يبدو أنه لا يزال مفعماً بالنشاط. يقال إنه الحاكم الأكثر بسالة بين حكّام المستعمرات الإسبانية.

- إنه ماكر كالثعلب، ونشيط وباسل مثل مونتبارس.

- إذنْ؛ سنواجه مقاومة مستميتة في ماراكايبو.

- بالتأكيد، يا بيترو، ولكنْ؛ مَن له أن يقاوم هجوم ستمائة بحّار؟ فأنت تعلم مقدار شجاعة رجالنا.

- برمال أولونا! - هتف القرصان - أجل، أعرف ذلك، أعلم كيف قاتل الثمانية والعشرون رجلاً الذين جابهوا معي فرقة لوس كايوس. ثم إنك تعرف ماراكايبو، وتعرف نقاط ضعفها.

- سأكون أنا الدليل، يا بيترو.

- أهناك ما يؤخّر خروجك؟

- لا، لا شيء.

- ولا حتّى الفيامينغية الجميلة؟

- أنا واثق أنها ستنتظرني - قال القرصان باسماً.

- وأين استضفتَها؟

- في فيلتي.

- وأين ستذهب أنت إذنْ، وقد أسكنتَها دارك؟

- سأبقى هنا عندك.

- ها هي فرصة رائعة، لم تكن في حسابي، هكذا سيكون بوسعنا تنظيم الحملة بشكل أفضل معاً مع الباسكو الذي سيأتي إلى هنا؛ ليتعشّى معي.

- شكراً، يا بيترو، سنرحل إذنْ؟

- عند فجر الغد. هل طاقمك متكامل؟

- بل ينقصني ستين رجلاً، فقد توجّب علي أن أبعث ثلاثين رجلاً على السفينة الإسبانية التي سلبناها قرب ماراكايبو، ثم إنني خسرتُ ثلاثين آخرين خلال القتال.

- حسناً، ليس من الصعب أن نجد ثلاثين رجلاً، فالجميع يرغبون في الإبحار معك على الفولغورا.

- أجل، رغم شهرتي بأني من أشباح البحر.

- برمال أولونا! إن مظهرك جنائزي دائماً، تبدو كأنك شبح! ولكنك لست هكذا مع دوقتك.

- ربما - أجاب القرصان، ثم نهض، وتوجّه نحو الباب.

- أتذهب؟ - سأله الأولونيزي.

- أجل، يجب علي أن أنهي بعض الأمور، ولكني سأعود إلى هنا عند المساء، في وقت متأخّر بعض الشيء. إلى اللقاء، يا بيترو.

- إلى اللقاء، واحترس ألا تسحركَ الفيامينغية بعينيها!.

كان القرصان - عندئذ - قد ابتعد. سلك طريقاً آخر في الغابة التي تمتد خلف المدينة، والتي تشغل جزءاً كبيراً من الجزيرة. تنتشر فيها غابات النخيل الباسق، والمسمّى ماسيميليان، وهو نخل عظيم من نوع الماوريتيا ذات الأوراق الكبيرة المشقّقة على شكل المروحة، وتتشابك تلك الأوراق مع أوراق الجوبتاي والبوسو الصلبة كالزنك. بينما تنتشر تحت أشجار النخيل تلك نباتات الأغاف، والتي تحتوي على ذلك السائل الحلو اللاذع الذي يطلق عليه أهالي المناطق الواقعة على ضفاف الخليج المكسيكي اسم أكواميلي، أو ميزكال، إذا ما كان مغلياً. وتنتشر تحت النخيل - أيضاً - مختلف الحشائش البرية والفلفل الطويل والفلفل الإفرنجي. إلا أن القرصان الأسود كان غارقاً في أفكاره، ولم يتوقّف لتأمل تلك الغابة الزائعة. كان يحثّ السير، كما لو أنه يستعجل الوصول إلى مكان ما. بعد نصف ساعة، توقّف فجأة على أطراف مزرعة من القصب الطويل، تتدرّج ألوانه بين الأصفر والأحمر، وكانت تعكس لمعاناً كالعقيق تحت أشعّة الشمس المائلة للغروب. أوراقها طويلة ومحنية نحو الأرض، يبسق ساقها الطويل، وينتهي بكوز أبيض جميل ذي شعيرات ناعمة تتدرّج ألوانه ما بين الأزرق الفاتح والأشقر. كانت تلك مزرعة قصب السّكّر، وقد حان وقت حصادها. توقّف القرصان لحظة هناك، ثم توغّل في تلك المزرعة، وما إن تجاوزها حتّى توقّف مرة أخرى أمام منزل جميل، بُني بين بعض مجاميع من النخيل، تظلّل المنزل، بأكمله. كان بيتاً مثل تلك البيوت التي تُبنى حتّى اليوم في المكسيك، صُبغت جدرانها

باللون الأحمر، وزُينت بمربّعات من البورسلان مكوّنة أشكالاً مختلفة، وتبرز أمام السطح شرفة كبيرة مليئة بالأزهار. كان موكو، الأفريقي العظيم، جالساً أمام الباب يدخّن غليوناً قديماً، أهداه إياه رفيقه الأبيض. وقف القرصان للحظات، يراقب النوافذ، ثم الشرفة، هزّ رأسه بما يدلّ على نفاد الصبر، ثم تقدّم نحو الأفريقي الذي نهض مباشرة.

- أين كارمو وستيلر؟ - سأله.

- لقد ذهبا إلى الميناء؛ لينظرا فيما إذا كانت هناك أوامر ما.

- وماذا تصنع الدوقة؟

- إنها في الحديقة.

- وحدها؟

- مع نسائها، ووصيفتيها.

- وماذا تصنع هناك؟

- إنها تجهّز لك الطعام.

- لي أنا؟! - سأل القرصان، وقد صفت جبهته كما لو أن كل الأفكار قد تبدّدت.

- كانت متأكدة أنك ستأتي للعشاء معها.

- في الحقيقة، هناك مَن ينتظرني في مكان آخر، إلا أني أفضل البقاء في بيتي، وأفضّل صحبة الدوقة على صحبة القراصنة - تمتم القرصان.

دخل البيت، وسار في ممرّ، تمتد على جانبيه أصص أزهار، يفوح منها عبير طيب، وخرج من الجانب الآخر من البيت، ثم دخل في حديقة واسعة، يحميها جدار عال، يصعب تسلّقه. كان البيت واسعاً، والحديقة

غنية بالألوان، تتخلّلها دروب، تحيط بجانبها أشجار الموز بأوراقها العريضة الخضراء التي تحتفظ ببرودة المكان تحتها، تتكتّل حولها أعذاق الموز اللامعة، وكانت تلك الأشجار قد قسمت الحديقة إلى عدّة بقع، نمت فيها مختلف أجمل أنواع الأزهار المدارية. سلك القرصان أحد تلك الدروب، واقترب من ما يشبه الكوخ دون أن يصدر أيّ ضوضاء، ثم توقّف على مسافة قريبة من ذلك المكان، وصار ينظر من خلال الأوراق الكثيفة، فشاهد طاولة تغطّيها قطعة قماش فلاندرية ناصعة البياض قد جهّزت في ذلك المكان. كان فوق الطاولة باقات من الأزهار التي تفوح منها عطور زكية، وضعت بطريقة فنية حول شمعدانين وأكوام من الفواكه اللذيذة كالأناناس، الموز، جوز الهند الأخضر والأفونا، وهي من أنواع الخوخ الكبير الحجم، والتي تُؤكَل بعد طهيها في الماء والسّكّر. كانت الشابة تنظّم الأزهار والثمار على الطاولة، بمساعدة رفيقاتها، وكانت ترتدي ثوباً طويلاً أزرق كزرقة السماء بثلاث طيّات، فبدا بياض بشرتها ناصعاً، وكذلك شعرها الأشقر الذي يتدلّى على كتفيها بضفيرة كبيرة. تحيط رقبتها الناصعة البياض قلادة من طوقي جواهر، تربط أطرافها زمردة. وقف القرصان الأسود ينظر إليها، تلتهب عيناه، وهو يلاحق بانتباه كل حركة، تقوم بها الشابة. يبدو أن هذا الجمال الشمالي قد سحره، ذلك أنه بالكاد يتنفّس؛ لكيلا يُبطل مفعول هذا السحر. وفي لحظة ما تحرّك، فاصطدم بأوراق إحدى تلك النخلات قرب الكوخ، ولما سمعت الشابة الفيامينغية خشخشة الأوراق، التفتت، فرأت القرصان الأسود، فاحمرّت وجنتاها، وأشرقت شفتاها بابتسامة، برزت عنها أسنانها الصغيرة اللامعة.

- آه، هذا أنت، أيها الفارس! ... هتفت بسرور.

وبينما رفع القرصان قبّعته محيياً إياها بانحناءة لطيفة، أضافت هي:

- كنتُ بانتظارك، انظر: إن العشاء جاهز.

- كنتِ تنتظريني، يا هونوراتا؟ - سأل القرصان، وهو يقبّل يدها.

- ألا ترى، أيها الفارس، هذه قطعة من خروف البحر، وهذه الطيور والأسماك المشوية. أتعرف؟! لقد أشرفتُ بنفسي على الطبخ!

- أنت، يا دوقة؟

- أفي هذا ما يدهشك؟! ... إن النساء الفيامنغيات معتادات على تحضير الطعام لضيوفهنّ ولأزواجهنّ بأيديهنّ.

- وكنتِ تنتظرينني؟

- أجل، أيها الفارس.

- رغم أني لم أخبرك، سأحظى بشرف العشاء معك.

- هذا صحيح، ولكن قلب المرأة يستشعر - أحياناً - نوايا الرجال، وقد أنبأني قلبي أنك ستأتي على العشاء هذا المساء - قالت، وقد احمرّت وجنتاها.

- سيدتي - قال القرصان - لقد وعدتُ أحد أصدقائي أن أتعشّى عنده هذا المساء، ولكنْ أقسم أنني لن أتنازل عن مسرة صحبتك في هذه الأمسية، ولينتظرني صديقي قدر ما شاء. مَن يدري؟! قد تكون المرة الأخيرة التي أراك فيها.

- ما هذا الذي تقول، أيها الفارس؟ - سألت الشابة، وقد جفلت - لعلّ القرصان الأسود مستعجل لركوب البحر؟! ... لقد عاد تواً من مهمّة جسيمة، وها هو يبحث عن مغامرات أخرى؟ .... ألا يدري أن ليس في البحر سوى الموت؟!

- أعلم ذلك، يا سيدتي، ولكن الأقدار تحدو بي إلى الرحيل من جديد، وسأذهب حيث تشاء الأقدار.

- ليس هناك ما يبقيك؟ - سألت بصوت راجف.

- لا شيء - أجاب بحسرة.

- ولا أيّ حبيب؟

- لا.

- ولا أصدقاء؟ - سألت الشابة، وقلقها في ازدياد.

كاد القرصان أن يتلفّظ برفض آخر، وقد عاد حزيناً كعادته، لكنه أحجم عن ذلك، ثم قدّم كرسياً للشابة، وقال لها:

- استريحي، يا سيدتي، سيبرد العشاء، ويحزنني جداً أن لا آكل من هذا الطعام الذي أعدّته يداك الجميلتان.

جلسا على المائدة، بينما بدأت الهجينتان بتقديم الطعام لهما. صار القرصان لطيفاً جداً، ورغم أنه كان يأكل إلا أنه لم يكفّ عن الكلام بكل لطف وأريحية. كان يعامل الدوقة باحترام كبير، يحكي لها عن عادات وتقاليد القراصنة والبوكانير، عن عجيب مآثرهم وغريب مغامراتهم. كان يحكي لها عن المعارك، عن نهب السفن، عن غرق السفن، وعن أكلي لحوم البشر، ولكنْ؛ دون التلميح إلى الحملة الحربية الجديدة التي كان يرتّب لها مع الأولونيزي والباسكو. كانت الشابة الفيامينغية تستمع إليه باسمة، وقد اشتدّ إعجابها بطرافة أحاديثه ولباقته غير المعهودتين، دون أن تكفّ عن التحديق في وجهه. ولكنْ؛ كان يبدو عليها القلق، بفعل فكرة تدور في رأسها وفضول لا يُطاق، إذا ما استجابت لهما، فيتوجّب عليها استعادة الحديث عن الحملة الحربية. هبط الظلام منذ ساعتين، وظهر القمر من خلف الغابات، عندها نهض القرصان، وقد تذكّر - حينها فقط - أن الأولونيزي والباسكي كانا ينتظرانه، وأنه يجب عليه إكمال طاقمه قبل حلول الفجر.

- لقد مرّ الوقت سريعاً بصحبتك - قال القرصان - لا أعرف أيّ سحر خفيّ فيك هذا الذي يجعلني أنسى أموراً غاية في الأهمّيّة، يجب عليّ القيام بها؟ ... كنتُ أظن أنها الساعة الثامنة مساءً، ولكنها العاشرة.

- أظن أنها الطمأنينة التي وجدتَها في بيتك بعد الكثير من المغامرات البحرية، أيها الفارس - أجابت الدوقة.

- أو لعلّها عينينك الجميلتان، وصحبتك الطيبة؟

- بل هي صحبتك الجميلة التي جعلتني أقضي ساعات هائئة ... ومَن يدري إذا ما سيكون بوسعنا أن نقضي أوقات أخرى معاً، بعيداً عن البحر والرجال، في هذه الحديقة الساحرة - أضافت بحسرة ومرارة.

- أحياناً تقتلنا الحروب، وأحياناً أخرى يوفّرنا الحظ.

- الحرب! ... والبحر ألا تحسب له حساباً؟ ليس للفولغورا أن تنجو - دائماً - من أمواج الخليج.

- إن سفينتي لا تأبه بالعواصف، إذا ما كنتُ أنا مَنْ يقودها.

- وهل ستبحر قريباً؟

- فجر الغد، يا سيدتي.

- حالما تصل اليابسة، تفكّر بالهرب منها، كما لو أن الأرض تخيفك.

- أنا أحبّ البحر، يا دوقة، ثم لن يكون بوسعي أن أواجه عدوّي اللدود، إذا ما بقيت هنا.

- إنك تفكر فيه دائماً!

- أجل، دائماً، ولن يتركني هذا الهاجس ما دمتُ حياً.

- إذنْ؛ أنت ترحل لحربه؟

- ربما.

- وهل ستحاربه؟

- ليس بوسعي أن الإجابة على هذا، لا أقدر أن أفشي أسرار القراصنة. يجب أن لا ننسى أنك - منذ أيام قليلة خلت - كنتِ ضيفة الإسبان في فيرا - كروز، وأن لديك معارف في ماراكايبو أيضاً.

قطبت الشابة الفيامينغية حاجبيها، وهي تنظر إلى القرصان بعينين حزينتين.

- ألا تثق بي؟ - سألت بنبرة عذبة لائمة.

- لا، يا سيدتي، معاذ الله، إن كنتُ أشك بك، ولكنْ؛ يجب عليّ أن لا أعصي قوانين القرصنة.

- كان سيحزنني جداً، لو أن القرصان الأسود لا يثق بي، لقد عرفتُه رجلاً نبيلاً وأميناً جداً.

- شكراً لرأيك الحسن فيّ، يا سيدتي.

وضع قبّعته على رأسه، وأسند معطفه إلى ذراعه، إلا أنه لم يحسم - بعد - أمره في الخروج. كان لا يزال واقفاً أمام الشابة، يحدّق فيها بوجه حزين.

- يبدو أن لديك ما تودّ قوله، أيها الفارس، أليس كذلك؟ - سألت الدوقة.

- أجل، يا سيدتي.

- أهو أمر بهذا القدر من الأهمّيّة؛ ليربكك هكذا؟

- ربما.

- تكلّم، أيها الفارس.

- أريد أن أعرف فيما إذا كنت تنوين مغادرة الجزيرة في غيابي.

- وإذا فعلت ذلك؟ - سألت الشابة.

- يحزنني أن أعود، ولا أجدك، يا سيدتي.

- آه! ... ولماذا، يا سيدي؟ - سألت، وقد ابتسمت، واحمرّت وجنتاها، في آن واحد.

- لا أعرف لماذا، ولكنْ؛ أشعر أنني سأكون غاية في السعادة إذا ما قضيتُ معك أمسية أخرى كهذه. سيعوّضني وجودك عن معاناة كثيرة، تُثقلني منذ أتيتُ من بلاد ما وراء البحار إلى هنا، في مياه أمريكا هذه.

- حسناً، أيها الفارس، إذا كان رحيلي يحزنك، فسأعترف لك بأني لن أكون سعيدة إذا ما حدث، ولم أر مجدداً القرصان الأسود - قالت الشابة ذلك، ثم طأطأت رأسها، وأغمضت عينيها.

- ستنتظرينني، إذنْ؟ - سأل القرصان باندفاع.

- سأقوم بأكثر من ذلك، إذا ما سمحتَ لي.

- قولي، يا سيدتي.

- أطلب منك استضافتي - مرة أخرى - على متن الفولغورا.

أفلتت من القرصان حركة، تدلّ على الجزع، ثم أصبح كئيباً فجأة.

- لا ... هذا مستحيل - أجاب بحزم.

- هل سيعيقك وجودي في شيء؟

- لا، ولكنْ؛ لا يسمح للبحّارة أن يجلبوا معهم النساء حينما يتوجّهون إلى حملة حربية. صحيح أن الفولغورا سفينتي، وأنني الآمر الناهي على متن سفينتي وعلى طاقمي، ولكنْ؛ ...

- أكمل - قالت الدوقة.

- لا أعرف لماذا، يا سيدتي، ولكني أخشى أن أحملك معي مجدداً على متن سفينتي. لعلّه شعوري بحدوث مصيبة ما، لا أستطيع مواجهتها، أو

بشيء أسوأ من ذلك؟ لمّا طلبتي مني أن ترافقيني لم ينبض قلبي فرحاً، بل تملّكه ألم قاس، ثم انظري إلي: ألا أبدو أكثر شحوباً من المعتاد؟

- هذا صحيح - هتفت الدوقة بفزع - يا إلهي! لعلّ في هذه الحملة هلاكك؟

- مَنْ يعلم بما قد يحدث؟ ... اسمحي لي بالرحيل، يا سيدتي. إني أعاني - الآن - دون معرفة سبب ذلك. وداعاً، يا سيدتي، ولكنْ؛ إذا ما غرقت في أعماق الخليج الكبير، أو إذا ما متّ بقذيفة مدفع، أو بسيف يُغرَس في صدري، فلا تتعجّلي في نسيان القرصان الأسود!

قال ذلك، ثم خرج بخطى سريعة دون أن يلتفت، تجاوز الحديقة، وتوغّل في الغابة متوجّهاً صوب مسكن الأولونيزي.

-١٨-
حقد القرصان الأسود

ما إن بزغت شمس اليوم التالي، ومع الجزر، حتّى خرجت سفن الحملة الحربية على أصوات الأبواق ودقّ الطبول وطلقات بوكانير الترتو وصراخ البحّارة اللا متناهي. كان الأولونيزي، والقرصان الأسود، ومايكل الباسكي هم مَنْ يقودون الحملة. يتكوّن الأسطول من ثماني سفن، ما بين كبيرة وصغيرة، مسلّحة بستة وثمانين مدفعاً، ستة عشر منها على متن سفينة الأولونيزي، واثني عشر على متن الفولغورا، وكان عدد المحاربين ستمائة وخمسين رجلاً، ما بين بحّارين وبوكانير. انطلقت الفولغورا على رأس الفرقة، كونها السفينة الأسرع، ولأن من مهامّها أيضاً الاستطلاع. يرفرف العلم الأسود على أحد أطراف الصارية الرئيسية، بينما وضع الشريط الحمراء على قمة الصارية، وهي إشارة لسفن الحرب. تأتي بعد الفولغورا السفن الأخرى في صفّين، ولكنْ؛ تفصل بينها مسافة كافية؛ لكي تتيح لكل منها المناورة، ولكيلا تصطدم بعضها ببعض، ولا تقطع أحدها المسار على الأخرى. ما إن خرجت الفرقة إلى البحر حتّى توجّهت صوب الشمال، للوصول إلى قناة سوبرافينتو، ثم الدخول إلى البحر الكاريبي. كان الطقس رائعاً، والبحر ساكناً، والريح مؤاتية، تهبّ من الشمال الشرقي، كل ذلك جعلهم يأملون في إبحار سريع حتّى ماراكايبو. وقد علم القراصنة أن فرقة الأميرال توليدي كانت - حينذاك - تتواجد على شواطئ اليوكاتان، متّجهة صوب موانئ المكسيك. لم تصادف الفرقة أيّ سفينة معادية، ولكنْ؛ بعد يومين من الإبحار، وبينما كانوا يجتازون شواطئ كابو انغانو، وإذا بالفولغورا، والتي لا تزال تتقدّم السفن الأخرى، قد أعطت إشارة، تشير فيها إلى وجود سفينة معادية، تُبحر صوب شواطئ

سان دومينيكو. أمر الأولونيزي، والذي نُصب قائداً عاماً للحملة، أن تلحق كل السفن بالفولغورا التي كانت تتجهّز للهجوم، وأن يصطفّوا هناك دون أيّ حركة. كانت هناك سفينة، يرفرف على صاريتها العلم الإسباني، ووضع على طرف احد أشرعتها شريط السفن الحربية الطويل، وكانت تُبحر على طول الشواطئ، كما لو أنها تبحث عن مخبأ؛ إذ لا بد أنها رأت فرقة القراصنة الكبيرة. كان بوسع الأولونيزي أن يطوّق السفينة بسفنه الثمانية، وأن يُجبرهم على الاستسلام، أو أن يُغرقها بهجمة واحدة، ولكن هؤلاء القراصنة الأشاوس كانوا كرماء ونبلاء، بشكل عجيب، يصعب تفسيره، كونه نابعاً من لصوص بحر أولئك. إن الهجوم على العدو بقوة أكبر من طاقته، تُعدّ جبناً، بالنسبة لهم، ولا يليق بالرجال البواسل من أمثالهم، لذلك فهم يأنفون من استخدام كامل قوتهم. أوعز الأولونيزي إلى القرصان الأسود أن يصطفّ إلى جانب السفن الأخرى دون القيام بشيء، ثم توجّه هو نحو السفينة الإسبانية، وقد طلب من طاقمها الاستسلام، أو المواجهة. وقد أُبلغت السفينة الإسبانية أن فرقة الأولونيزي لن تتدخّل في المعركة مهما كانت نتيجة القتال. علم طاقم السفينة الإسبانية أن لا أمل لهم في الانتصار، وقد عدّوا أنفسهم مفنين، لما كانوا يرون من قوة قاهرة أمامهم، فلم يكن منهم إلا أن سمّروا العلم الإسباني بدل أن ينزلوه، وأجابوا نداء الأولونيزي برشقة قنابل من مدافع الجهة اليمنى الثمانية، إيعازاً منهم أنهم لن يستسلموا إلا بعد مقاومة مستميتة. بدأت المعركة بهجمات شرسة من الطرفين كليهما. كان على السفينة الإسبانية ستة عشر مدفعاً، وكان عدد أفراد طاقمها ستين رجلاً لا غير، أما سفينة الأولونيزي؛ فكان لها ذات العدد من المدافع، وضعف العدد من الرجال، بينهم الكثير من قناصة البوكانير، والذين سيحدّدون مسار المعركة ببنادقهم الضخمة تلك. أما فرقة الأولونيزي؛ فقد كانت تقف جانباً دون أن تتدخّل، حسب أوامر القرصان الشجاع. وكانت الطواقم تراقب المعركة كمشاهدين، وهم يتوقّعون هزيمة السفينة الإسبانية في وقت قصير، ذلك لفارق القوة بينها وبين سفينة الاولنيزي. كان الإسبان يدافعون ببسالة رغم قلّة عددهم، وكانت

مدافعهم تدوي بغضب، بغية تحطيم صواري سفينة القرصان، وتحويلها إلى قطع خشبية طافية، بينما كانت الأخيرة تحاول الاقتراب من السفينة الإسبانية للاستيلاء عليها. كان الطاقم الإسباني يناور برشقات البنادق والمدافع، ويغيّرون اتجاه السفينة، سعياً في إبراز مقدّمتها؛ لكي يتجنّبوا الاصطدام، ويؤخّرون المواجهة، لما علموا من تفوّق عدد أعدائهم. أصبح الأولونيزي أكثر حنقاً بفعل تلك المقاومة، ورغبة منه في إنهاء المسألة بأسرع وقت ممكن، لذلك فقد كان يحاول - بكل الطرق - أن يصفَّ سفينته جنب السفينة الإسبانية؛ ليهجم عليها، إلا أنه لم يفلح في ذلك، وكان يُجبر على الابتعاد عن السفينة؛ لكيلا يفنى رجاله بفعل رصاص السفينة الإسبانية. استمر صراع قنابل المدافع ذلك لثلاث ساعات طويلة، مخلّفاً دماراً في صواري وأشرعة السفينتين، ولكنْ؛ دون أن ينزل العلم الإسباني. حاول الأولونيزي الاستيلاء على السفينة الإسبانية ست مرات، ولكنه - وفي كل مرة - يتراجع لما أبداه هؤلاء الستون إسبانياً من شجاعة، ولكنْ؛ في المرة السابعة، استطاع ورجاله أن يهبطوا على متن السفينة الإسبانية، وأن يُنزلوا العلم الإسباني، ويلحقوا بهم الهزيمة. كان ذلك النصر الذي عُدّ فألاً حسناً للحملة الحربية، قد قوبل بصرخات «يحيا» من قِبل طواقم الفرقة، وقد علا صراخهم أكثر حينما علموا أن الفولغورا قد تمكّنت من الاستيلاء على سفينة إسبانية أخرى بعد مقاومة ضعيفة، بينما كان الأولونيزي منشغلاً في قتال السفينة الحربية. تفحّص البحّارة السفينتين اللتين استولوا عليهما، فوجدوا أن الأكبر بينهما تحمل سلعاً ثمينة، وسبائك فضية، بينما تحمل الأخرى باروداً وبنادق، كانوا يحاولون نقلها إلى الفرقة الإسبانية في سان دومينيكو. قام القراصنة بتحرير طاقمي السفينتين على الشواطئ؛ لأنهم لا يرغبون في الاحتفاظ بالسجناء على متن سفنهم، وأصلحوا ما تحطّم من صواري السفينة، ثم أبحروا عند الغروب صوب جامايكا. اتخذت الفولغورا موقعها في مقدّمة الفرقة. كان القرصان الأسود شديد الرغبة في استكشاف البحر لأكبر مسافة ممكنة؛ لأنه كان يخشى أن تلمح إحدى السفن الإسبانية فرقتهم الكبيرة، وأن تُبلغ حاكم

ماراكايبو، أو الأميرال توليدو. ولكي يكون متأكداً من تلك المهمّة، فإنه لم يبارح منصة القيادة مطلقاً، وكان ينام هناك، على كنبة من البامبو، ملتحفاً بعباءته. بعد ثلاثة أيام من الاستيلاء على السفينتين الإسبانيتين، التقى طاقم الفولغورا، بعد وصولهم إلى شواطئ جامايكا، بالسفينة الخطية الإسبانية التي استولوا عليها قرب ماراكايبو، والتي اختبأت في تلك الجزيرة في أثناء الإعصار. كانت لا تزال تنقصها الصارية الرئيسية، ولكنْ؛ قام طاقمها بتقوية الصارية الوسطى والخلفية، بما وجدوا من غيار الأشرعة بغية الإبحار نحو التورتو خشية أن تهجم عليهم القوات الإسبانية. بعد أن اطمأنّ القرصان على صحة الجرحى الذين كانوا على متن السفينة الخطية، ركب البحر على عجلٍ، باتجاه الجنوب عازماً على الوصول إلى مدخل ماراكايبو. قطعوا الرحلة دون أيّ حوادث، كون البحر كان ساكناً طوال الوقت. وفي الليلة الرابعة عشرة على انطلاق رحلتهم من التورتو، كان القرصان قد لمح شواطئ باراغوانا، والتي يشير إليها فنار صغير، ينبّه البحّارة إلى مدخل الخليج الصغير.

- أخيراً - هتف القرصان وقد لاح بريق في عينيه - ربما غداً سيكون قاتل أخوتي بين الأموات.

نادى مورغان الذي كان على قد صعد إلى متن السفينة؛ ليستبدل دوره في المراقبة، وقال له:

- لا يُسمح بأيّ ضوء على متن السفينة هذا المساء، هذه أوامر الأولونيزي. يجب أن لا يعلم الإسبان بوجود فرقتنا، وإلا فإننا لن نجد غداً ولا حتّى بياسترا واحدة!

- أعلينا أن نتوقّف هنا على مدخل الخليج؟

- لا، ستتقدّم كل الفرقة صوب مدخل الخليج، وغداً عند الفجر سنباغت المدينة.

- هل سينزل رجالنا على اليابسة؟

- أجل، معاً مع البوكانير المتواجدين مع الأولونيزي. وبينما ستقوم السفن بقصف الأبراج من جهة البحر، سنقوم نحن بالهجوم عليهم من جهة البر؛ لكي نمنع الحاكم من الهرب إلى جبل طارق. لتكن كل القوارب جاهزة عند الفجر، ومسلّحة بالبنادق.

- حاضر، يا سيدي.

- على أي حال - أضاف القرصان - سأكون موجوداً أنا أيضاً، والآن سأنزل لألبس لأمة الحرب.

غادر منصة القيادة، ونزل إلى كابينته، كاد يفتح الباب حينما شم فجأة عطراً مألوفاً.

- يا للغرابة - هتف، وقد توقّف مندهشاً - لو لم أكن متأكداً من أنني تركتُ الفيامينغية في الترتو؛ لأقسمتُ أنها هنا.

نظر حوله، إلا أن الظلام كان حالكاً، بما أن كل الأنوار كانت قد أُطفئت، إلا أنه استطاع أن يلمح هيئة بيضاء في إحدى زوايا الكابينة، وهي تتكئ على إحدى النوافذ الواسعة، وتنظر صوب البحر. رغم شجاعته إلا أن القرصان، وككل رجال زمانه، كان متطيّراً، ولما رأى هذا الشبح الساكن في تلك الزاوية، شعر بقطرات من العرق البارد تبلّل جبهته.

- لعلّه شبح القرصان الأحمر؟ - تمتم، وهو يتراجع إلى الجهة المعاكسة - ربما أتى؛ ليذكّرني بالعهد الذي أخذتُه على نفسي فوق هذه المياه في تلك الليلة؟ ... لعل روحه غادرت ظلمات أعماق الخليج؛ حيث كانت مستقرة؟

إلا أنه سرعان ما استحى من نفسه، هو الشجاع الباسل، أن شعر بلحظات خوف وتطير، فاستل سيفه، وتقدّم قائلاً:

- مَنْ أنت؟ تكلّم، وإلا قتلتك.

- هذه أنا، أيها الفارس - أجاب صوت عذب، جفل قلب القرصان عند سماعه.

- أنت! ... هتف القرصان ما بين الدهشة والفرح - أنت، يا سيدتي؟ أنت هنا، على سفينتي الفولغورا، بينما كنتُ أظنّك في الترتو؟

- أجل، أيها الفارس - أجابت الشابة الفيامينغية.

تقدّم القرصان، وقد رمى السيف من يده، وفتح ذراعيه للدوقة، بينما كانت شفتاه تلامسان أعلى طوق العنق.

- أنت هنا؟ - ردّد بصوت راجف - من أين أتيت؟ ... كيف لك أن تكوني على سفينتي؟

- لا أعرف - أجابت الدوقة بنبرة خجولة.

- هيا، تكلّمي، يا سيدتي.

- حسناً ... لقد أحببتُ أن أكون معك.

- إذنْ؛ أنت تحبيني؟ قولي، يا سيدتي، أهو كذلك؟

- أجل - همستْ هي بصوت خافت.

- شكراً لك ... الآن بوسعي أن أجابه الموت دون وجل.

أخرج القداحة والفتيل، وأشعل شمعداناً بشمعتين، ووضعه في زاوية من الكابينة، لا تسمح للضوء بأن ينعكس على مياه البحر. لم تغادر الشابة الفيامينغية الشبّاك بعد، وكانت ملتحفة بعباءة بيضاء، وقد شبكت ذراعيها على صدرها، كما لو أنها تحاول كبت دقات قلبها المتسارعة، وكان رأسها مائلاً صوب أحد كتفيها، تنظر بعينيها الكبيرتين اللامعتين إلى القرصان

الأسود الذي كان واقفاً أمامها، ولم يكن هذه المرة لا شاحباً، ولا حزيناً، ولا ساهماً، ذلك أن ابتسامة سعادة كانت ترتسم فوق شفتيه. نظر كل منهما للآخر بصمت لبضع لحظات، كأنهما لا يزالان مندهشين من البوح بحبهما لبعض، والذي ربما قاساه كلاهما، لوقت طويل، إلا أنهما لم يتوقّعا حدوث الأمر بتلك السرعة، ثم تناول القرصان يد الشابة، وأجلسها على الكرسي قرب الشمعدان، وقال لها:

- أخبريني الآن، يا سيدتي، أيّ معجزة تلك التي جلبتك هنا، وقد تركتُك في الترتو، في بيتي؟! يصعب علي - حتّى الآن - أن أحتمل هذا القدر من السعادة.

- سأخبرك بذلك أيها الفارس حينما تعدني أنك ستعفو عن كل مَنْ تواطأ معي.

- وهل هناك مَنْ تواطأ معك؟!

- إنك تعرف أني ما كنتُ لأستطيع الصعود إلى سفينتك بالخفية وحدي، وأن أبقى مختبئة في الكابينة لمدة أربعة عشر يوماً.

- ليس بوسعي أن أرفض لك طلباً، يا سيدتي، وقد عفوتُ عن مَن عصوا أوامري، وهيؤوا لي بذات الوقت هذه المفاجأة السارة. أسماءهم، يا سيدتي؟

- ستيلر، كارمو، والزنجي.

- آه! ... هؤلاء! - هتف القرصان - كان يجب عليّ أن أتوقعهم. ولكنْ؛ كيف تمكّنت من توريطهم في هذا الأمر؟ ... إن البحّارة الذين يعصون أوامر قادتهم يكون عقابهم القتل رمياً بالرصاص، يا سيدتي.

- كانوا متأكدين أنهم لن يفعلوا ما يسيء لقائدهم؛ لأنهم أدركوا أنك تحبني في سرك، أيها الفارس.

- وكيف قاموا باصطحابك حتّى هنا؟

- لقد اصطحبوني ليلاً معهم، وقد ألبسوني ملابس البحّارة، لكيلا يشكّ أحد بوجودي.

- وهل خبؤوك في إحدى هذه الكابينات؟ - سأل القرصان الأسود باسماً.

- في الكابينة المجاورة لكابينتك.

- وأين ولّى هؤلاء الأوغاد؟

- إنهم مختبئون في العنبر، ولكنْ؛ يأتونني باستمرار؛ ليجلبوا لي الطعام الذي كانوا يأخذونه من مخزن المطبخ.

- يا لهم من أوغاد! ... كم من الرقّة في هؤلاء الرجال الخشنين! ... إنهم يتحدّون الموت، من أجل أن يسعدوا قادتهم، ولكنْ؛ مَنْ يعلم كم ستدوم هذه السعادة!! - أضاف بصوت حزين.

- ولماذا، أيها الفارس؟ ... - سالت الشابة بقلق.

- لأني سأغادر بعد ساعتين، حالما يبزغ الفجر.

- هكذا بسرعة؟ ... لقد التقينا للتو، وها أنت تفكر بالابتعاد عني! - هتفت الفيامينغية بدهشة وألم.

- حالما تشرق الشمس في الأفق، ستدور في هذا الخليج معركة، لم يشهد مثلها قراصنة التروتو من قبل. ستفتح ثمانون مدفعاً نيرانها دون هوادة على الحصون التي يحتمي خلفها عدوّي اللدود، وسيهجم ستمائة رجل، ينشدون النصر، أو الموت، أما أنا، وكما تعلمين؛ فسأكون على رأسهم؛ لأقودهم إلى النصر.

- وإلى مواجهة الموت! - هتفت الدوقة برعب - وإذا ما أصابتك قذيفة مدفع؟

- الأعمار بيد الرب، يا سيدتي.

- إذنْ؛ أقسم لي أنك ستتوخّى الحذر.

- ليس بوسعي ذلك، اعلمي أنني أنتظر هذه اللحظة منذ سنتين؛ لكي أصفي حسابي مع هذا الحقير.

- وماذا فعل بك هذا الرجل؛ لتكنّ له كل هذا الكره؟

- لقد قتل أخوتي الثلاثة، وقد أخبرتك بذلك، فضلاً عن خيانته الفاحشة.

- وأيّ خيانة تلك؟

أحجم القرصان عن الجواب، وجعل يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، وقد قطب حاجبيه، وزمّ شفتيه، وأصبحت نظراته أشدّ قسوة. توقّف فجأة، ورجع إلى الشابة التي كانت تراقبه وقد بان على وجهها الحزن، فجلس جنبها، وقال لها:

- استمعي إليّ إذنْ؛ واحكمي، إذا ما كان يستحقّ كل هذا الكره مني.

«لقد مرّ على هذه الحادثة عشر سنين، لكني لا أزال أذكرها، كما لو حدثت البارحة.

لقد اندلعت حرب عام ١٦٨٦ ما بين فرنسا وإسبانيا، من أجل السيطرة على فلاندر. كان لويس الرابع عشر متعطّشاً للمجد، وكان في عنفوان قوته وسلطته، وقد أراد أن يسحق عدوّه القوي الذي أحرز الكثير من الانتصارات على الجيوش الفرنسية. لذلك قام بالإغارة على الأقاليم التي احتلّها، وسيطر عليها دوق الألبا بالحديد والنار.

كان للويس الرابع عشر نفوذ في البيمونتي، لذلك طلب الإسناد من الدوق فيكتور أميديو الثاني، والذي لم يكن بوسعه إلا تلبية طلب الملك، فأرسل إليه أفواجه الثلاثة الأكثر شراسة بين الأفواج الأخرى، وهي فوج أوستا، وفوج نيتسا، وفوج مارينا.

كنتُ وأخوتي الثلاثة نخدم - برتب ضباط - في الفوج الأخير، كان الأكبر بين أخوتي حينئذٍ لا يبلغ من العمر سوى اثنين وثلاثين عاماً، أما الأصغر بينهم، والذي أصبح فيما بعد القرصان الأخضر؛ فكان عمره عشرين عاماً. توجّه فوجنا إلى فلاندرا، وحاربنا أكثر من مرة، بينما كنا نمرّ في سخيلده، في غنت، في تورناي، وكنا نحقّق الانتصارات في كل مكان. استطاعت قوات حلفائنا أن تنتصر على القوات الإسبانية في كل مكان حتّى أجبرتها على التراجع إلى أنتويرب. وذات يوم، بل ذات يوم سيئ الطالع، توجّه جزء من فوجنا صوب قلعة غادرتها قوات العدو في سخيلده بغية السيطرة عليها، وإذا بالقوات الإسبانية تباغتنا بأعدادها الكبيرة، حتّى أجبرتنا على اللجوء إلى القلعة على عجل، وقد أنقذنا بصعوبة بالغة جزءاً من قواتنا. كنتُ وأخوتي الثلاثة بين تلك القوات، وقد انقطع اتصالنا بالجيش الفرنسي، وحوصرنا من قِبل عدوّ، يكثرنا بعشرة أضعاف، حزم أمره في استعادة القلعة التي كانت ذات أهمّيّة كبيرة، كونها المدخل الرئيسي لأحد أهم الأذرع البحرية لسخيلده. لم يكن لدينا أيّ حلّ سوى الاستسلام، أو الموت، ولكنْ؛ لم يخطر لأي منا الاستسلام، بل أقسمنا على الموت تحت أنقاض القلعة بدل أن ننكس الراية المجيدة لدوقات سافويا البواسل. لا أعرف لماذا قام لويس الرابع عشر بتنصيب دوق فيامينغي متقدّم في السن لقيادة فوجنا، وأن يقال إنه كان مقاتلاً باسلاً. وبما أنه كان في رفقتنا يوم باغتنا العدو، فقد كانت قواتنا تحت إمرته. بدأ قتال عنيف بين الطرفين، وكانت مدفعية الأعداء تهدم يومياً معاقلنا، ولكنْ؛ كنا مستعدين كل صباح للدفاع عن القلعة، ذلك أننا كنا نصلح المعاقل بسرعة خلال الليل. توالت الهجمات طوال خمسة عشر يوماً وخمس عشرة ليلة، فقد فيها الطرفان خسائر كبيرة، وكنا كلّما طلبوا منا الاستسلام نجيبهم بدوي المدافع. أصبح أخي الكبير القلب النابض للمقاومة، وكان شجاعاً ومقداماً وبارعاً في استخدام كل أنواع الأسلحة، وكان هو قائد المدفعية والمشاة. كان دائماً أول من يهجم، وآخر مَنْ ينسحب. كانت شجاعة ذلك المقاتل الفذّ قد أوقدت نار الغيرة في قلب القائد

الفيامينغي، والتي صارت فيما بعد سبباً في هزيمتنا. نسي هذا الخسيس أنه أقسم الولاء للدوق، وأنه كان سيلطخ اسم إحدى أبرز العائلات الفيامينغية بالعار. اتفق هذا الخائن مع الإسبان في السرّ بأن يتيح لهم فرصة الدخول إلى القلعة غدراً. كان ثمن خيانته تلك على ما يبدو هو إعطاءه مبلغاً كبيراً من المال، وتنصيبه حاكماً لإحدى المستعمرات الإسبانية في أمريكا. وذات ليلة، تسلّل هو وبعض الفيامينغيين من أقاربه، وفتح أحد الأبواب الصغيرة، وأدخل منها الأعداء الذين اقتربوا خلسة من القلعة. كان أخي الكبير في دورية حراسة على مقربة من المكان مع عدد من الجنود، فلما شعر بدخول الإسبان، هبّ لقتالهم بعد أن أنذر الجميع، إلا أن الخائن كان ينتظره خلف إحدى زوايا الحصن، وقد تسلّح بمسدّسين. قام بقتل أخي، فدخل الأعداء بعنف إلى القلعة، فصرنا نقاتلهم في الطرقات، وفي البيوت، ولكنْ؛ دون جدوى. وقعت القلعة بين أيديهم، وتمكّنّا أنا وأخوتي من الفرار بجلودنا مع القليل من أصحابنا الأمناء، وقد انسحبنا على عجل إلى كورتراي.

أخبريني، يا سيدتي، أبوسعك أن تغفري لرجل كهذا؟

- لا - أجابت الدوقة.

- ونحن - أيضاً - لم نغفر له. لقد أقسمنا على قتل هذا الخائن، وأن ننتقم لأخينا، وما إن وضعت الحرب أوزارها حتّى صرنا نبحث عنه في كل مكان، في فلاندرا في بادئ الأمر، ثم في إسبانيا. ولما علمنا أنه أصبح حاكماً على إحدى أهم المدن في المستعمرات الأمريكية، أبحرتُ أنا وأخواي الأصغر مني سناً، في ثلاث سفن مسلّحة نحو الخليج الكبير، وفي أنفسنا رغبة جامحة لإنزال العقاب بذلك الخائن، فأصبحنا قراصنة. أراد القرصان الأخضر، وكان الأكثر اندفاعاً والأقل خبرة بيننا، أن يجرّب حظّه، إلا أنه سقط بين أيدي عدوّنا اللدود، فقام بشنقه، بطريقة مهينة، كما لو كان لصاً. ثم قام القرصان الأحمر بمحاولة باءت بالفشل، ولم يكن نصيبه أفضل من الأخضر. والآن فإن أخوي اللذين حرمني منهما هذا الخائن الذي قام بشنقهما، يستقران في أعماق

البحر؛ حيث ينتظران مني أن آخذ بثأرهما، وإذا ما أعانني الرب، فإن هذا الخائن بعد ساعتين من الآن سيكون بين يدي.

- وماذا ستفعل به؟

- سأشنقه، يا سيدتي - أجاب القرصان بكل برود - ثم سأمحو كل عاثر حظ يحمل اسم عائلته. لقد دمّر عائلتي، وأنا سأدمّر عائلته، لقد أقسمتُ على ذلك في الليلة التي كان فيها جسد القرصان الأحمر ينزل في أعماق الخليج، وسأفي بهذا القسم.

- وأين نحن الآن؟ أي مدينة تلك التي يحكمها هذا الرجل؟

- ستعرفين هذا عاجلاً.

- وما اسمه؟ - سألت الدوقة بقلق شديد.

- أيحزّ في نفسك أن تعرفيه؟

مسحت الشابة الفيامينغية جبهتها بمنديل من الحرير، ربما في تلك اللحظة غطت تلك الجبهة الجميلة قطرات من العرق البارد.

- لا أعرف - قالت بصوت متقطّع - يبدو لي أني سمعت في صباي قصة كهذه التي حكيتها لي، من رجال كانوا يعملون عند أبي.

- هذا مستحيل - أجاب القرصان - لا أظن أنك ذهبت إلى البيومنتي.

- قطعاً، لكنْ؛ أرجوك، أفصح عن اسم هذا الرجل.

- حسناً، سأخبرك: إنه الدوق فان غولد ...

في اللحظة نفسها، سُمع دوي قذيفة مدفع يتردد في البحر. ركض القرصان الأسود إلى خارج الكابينة صارخاً:

- الفجر، لقد حلّ الفجر!...

لم تفعل الشابة الفيامينغية أي شيء؛ لكي تمنعه من الخروج، بل وضعت رأسها بين يديها، يملؤها اليأس، ثم هوت بسكون فوق السجّادة، كأنْ قد أُصيبت بصاعقة.

-١٩-
الهجوم على ماراكايبو

كانت سفينة الأولونيزي هي مَن أطلقت قذيفة المدفع تلك، بعد أن تقدّمت إلى الأمام، ووقفت على مسافة ميلين من ماراكايبو، مقابل الحصن المنتصب على تلّ مرتفع. كان ذلك الحصن - بالإضافة إلى جزيرتين صغيرتين - يحمي المدينة من الاعتداءات الخارجية. ارتأى بعض البحّارة الذين مرّوا مسبقاً في خليج ماراكايبو، أن يقوم الأولونيزي بإنزال البوكانير لتشكيل خط نار، وأن يستولي على الحصن الذي يحكم المدخل إلى البحيرة، فأسرع القرصان بإعطاء الأوامر لتنفيذ العملية. وبسرعة عجيبة، أنزلت كل السفن قواربها فوق الماء، ونزل فيها البوكانير والبحّارة الذين كان يجب عليهم التوجّه إلى اليابسة، حاملين معهم بنادقهم وحرابهم. حينما وصل القرصان إلى منصة القيادة، كان مورغان قد أنزل إلى ستين رجلاً في القوارب، وقد اختار الأكثر شجاعة وقوة.

- يا قبطان - قال مورغان موجّهاً كلامه للقرصان الأسود - يجب أن لا نضيع لحظة واحدة. بعد دقائق قليلة، سيبدأ الرجال الذين أنزلناهم بالهجوم على الحصن، ويجب أن يكون رجالنا هم أول مَنْ يبدأ الهجوم.

- وهل أعطى الأولونيزي أوامر أخرى؟

- أجل، يا سيدي، أمر البحّارة أن لا يعرّضوا سفنهم لنيزان الحصن.

- حسناً، سأسلّمك قيادة سفينتي الفولغورا.

ارتدى القرصان - على عجل - لأمة حربه التي جلبها له أحد رجاله، ثم

نزل في القارب الكبير الذي كان ينتظره تحت سلم السفينة، وكان على متنه ثلاثون رجلاً، وقد وضع فيه منجنيقاً صغيراً. بانت خيوط الصباح الأولى، فتوجب عليهم أن يعجّلوا في النزول على الشواطئ قبل أن يتمكّن الإسبان من جمع قوة كبيرة. كانت القوارب - وعلى متنها الرجال - تخترق المياه بسرعة، متّجهة صوب ساحل، تمتد منه غابة كثيفة، تصعد باتجاه تل صغير، ينتصب فوقه حصن متين، نُصب فوقه ستة عشر مدفعاً من العيار الكبير، فضلاً عن الجنود الشجعان الذين يحمون هذا الحصن. بعد أن أُنذر الإسبان بقذيفة المدفع التي صوّبها الأولونيزي نحوهم، قاموا بنشر جنودهم على منحنيات التل؛ لكي يعيقوا مسير البحّارة، ويهجموا عليهم بمدافعهم الكبيرة. كانت القنابل تهطل كالمطر بين القوارب، فتتناثر المياه في كل الاتجاهات. على أن البحّارة كانوا بارعين جداً لذلك فكان من النادر أن تصيبهم قنابل العدو. كانوا يقومون بمناورات سريعة جداً، يغيّرون اتجاه القوارب بسرعة، لذلك يصعب على الأعداء أن يصوّبوا قنابلهم عليهم. كانت القوارب الثلاثة التي يتواجد على متنها كل من القرصان الأسود، الأولونيزي والباسكي تتقدّم في الخط الأول، وكان مجدفوها الأقوياء يجعلونها تبحر بسرعة كبيرة من أجل الوصول إلى اليابسة؛ لكي يمنعوا الإسبان، الذين كانوا ينزلون عبر الغابات، من أن يأخذوا مواقعهم في القتال على السواحل. بقيت السفن في الخلف لكيلا تتعرّض لنيران مدافع الحصن، ما عدا الفولغورا التي كان يقودها مورغان، والتي تقدّمت حتّى مسافة ألف خطوة من الشاطئ، لكي تؤمّن وصول القوارب إلى الساحل، وكانت ترمي القنابل من مدفعيها.

رغم أمطار القنابل تلك إلا أن القوارب الأولى قد وصلت إلى الشاطئ خلال خمس عشرة دقيقة، ولم ينتظر البوكانير والبحّارة الذين كانوا على متنها رفاقهم الآخرين، بل توغّلوا في الغابة، يتقدّمهم رؤساؤهم؛ لكي يعيقوا تقدّم الفرق الإسبانية التي اتخذت مواقعها في منحدر التل.

- لنهجم، أيها البواسل! - صرخ الأولونيزي.

- هيا، يا رجال البحر! - هتف القرصان الأسود الذي كان يتقدّم، السيف بيمينه والمسدّس بشماله. بدأ الإسبان بإمطار البحّارة بالقنابل والرصاص، ولكنْ؛ دون إصابات بالغة بفعل كثافة الأشجار والنباتات التي تغطي منحدرات التل. حتّى مدافع الحصن كانت تطلق قنابلها في كل الاتجاهات، فكانت الأشجار تتساقط على الأرض، وتتناثر الأغصان يميناً وشمالاً، أما رصاص البنادق؛ فكان يسبّب تساقط كميات كبيرة من الأوراق والثمار على البحّارة. إلا أن لا شيء من هذا كله يمكن أن يوقف بوكانير وبحّارة التورتو عن تقدّمهم، بل إنهم هجموا بخناجرهم على الفرق الإسبانية كإعصار جارف، ومزّقوهم رغم مقاومتهم الشرسة. لم يهرب منهم إلا القليل، ذلك أنهم كانوا يفضّلون الموت وأسلحتهم بأيديهم، على أن يستسلموا، ويفسحوا الطريق للمهاجمين.

- لنهجم على الحصن - صاح الأولونيزي.

ارتفعت هممهم، بفعل نجاحهم في الهجمة الأولى، فصعدوا التل محاولين البقاء مختبئين وسط الأشجار. كانوا أكثر من خمسمائة رجل، وقد التحق بهم الآخرون، إلا أن المهمة لم تكن سهلة، لعدم امتلاكهم السلالم، فضلاً عن أن عدد جنود الحامية الإسبانية يناهز المائتين وخمسين جندياً، يدافعون بحماس عال دون أي نية للاستسلام. وكان الحصن فوق مرتفع، فكانت للمدافع دور فاعل في المعركة، وكانت تمطر الغابة بالقنابل مهددة بإبادة البحّارة. ولما رأى الأولونيزي والقرصان الأسود هذه المقاومة الشرسة، قرّروا التوقّف والتشاور فيما بينهما.

- سنفقد الكثير من الرجال - قال الأولونيزي - يجب أن نجد طريقة ما لنفتح مدخلاً في الحصن، وإلا فإنهم سيبيدوننا.

- ليس هناك سوى طريقة واحدة - أجاب القرصان الأسود.

- تكلم، هيا أسرع.

- أن نحاول تفجير قنبلة في قاعدة الحصن.

- أعتقد أنه الحل الأفضل، ولكنْ؛ مَن يقدم على هذه المهمة الخطيرة؟

- أنا - أجاب صوت من خلفهم.

التفتا، فوجدا كارمو، يتبعه رفاقه الذين لا ينفصلون عنه: ستيلر والزنجي.

- آه! هذا أنت، أيها المخادع؟ - سأل القرصان - ماذا تفعل هنا؟

- أرافقك، يا قبطاني. لقد عفوتَ عني، ولا أظنك ستقتلني.

- لا، لن أقتلك، ولكنْ؛ ستكون أنت مَنْ سيفجر القنبلة.

- تحت أمرك، يا قبطان. سنفتح مدخلاً في الحصن خلال ربع ساعة.

ثم التفت نحو صاحبيه، وقال لهم:

- تعال، يا ستيلر - قال كارمو - وأنت، يا موكو، اذهب، واجلب ثلاثين رطلاً من البارود وفتيلاً جيداً.

- آمل أن أراك مجدداً - قال القرصان بصوت شجي.

- شكراً، يا قبطان - أجاب كارمو، وهو يبتعد بسرعة. كان البوكانير في تلك الأثناء يتقدّمون وسط الأشجار، ويسددون ضرباتهم نحو الإسبان، في محاولة لإبعادهم عن الحصن، وقتل جنود المدفعية. على أن الحامية كانت تقاوم بكل بسالة، وهي تسدّد نيرانها الجهنمية صوب البحّارة. كانت القلعة تبدو كأنها فوهة بركان تتفجر عنها الحمم، وتصعد سحب الدخان فوق كل الحصن، تخترقها الكتل النارية التي تطلقها المدافعة الستة عشر الضخمة. كانت تلك القنابل، تصاحبها سحب الدخان، تمطر فوق الشجيرات التي يختبئ البحّارة بينها، وهم ينتظرون الفرصة السانحة للهجوم. فجأة سُمع انفجار فوق قمة التل، ووصل دويه حتّى الغابة والبحر، ثم ارتفعت نيران

على أحد جوانب الحصن، وهطل حطام الحصن كالمطر على الأشجار، وقد حطّم مئات الأغصان، وقتل العديد من البحّارة. فجأة وبين صراخ الإسبان ودوي المدافع والبنادق تردّد صوت القرصان المعدني عاليا:

- هيا، إلى الهجوم، يا رجال البحر! ...

وما إن رأى البحّارة والبوكانير القرصان الأسود، وهو يتقدّم في الأرض الجرداء حتّى تبعوه جميعهم، ومعهم الأولونيزي. استطاعوا أن يتجاوزا المرتفعات الأخيرة التي تفصلهم عن الحصن، ثم هجموا بحزم على الإسبان هناك. فتحت القنبلة التي فجّرها كارمو ورفاقه مدخلاً في أهم نقاط الحصن، فوثب القرصان الأسود منه متجاوزاً الأنقاض والمدافع المقلوبة بفعل الانفجار، وكان يقارع بسيفه أول مَن تقدّم من الإسبان الذين يحاولون منع البحّارة من اختراق الحصن. هجم البحّارة معه وبين أيديهم حرابهم، وهم يصرخون بأعلى أصواتهم بغية نشر الرعب بين الأعداء، وقد تمكّنوا باندفاعهم ذلك من كسر خطوط الإسبان الأولى، ودخلوا كالسيل إلى الحصن. لم يتمكّن المائتان وخمسون جندياً من صدّ كل تلك الثورة، فحاولوا اللجوء إلى الحصن، إلا أن البحّارة أبعدوهم، فحاولوا التجمّع في الساحة؛ ليمنعوا إنزال العلم الإسباني، إلا أنهم هُزموا هناك أيضاً، ولحق بهم البحّارة في كل أنحاء الحصن، فسقطوا كلهم قتلى دون أن يستسلموا. ما إن رأى القرصان الأسود نزول العلم الإسباني حتّى أسرع بالهجوم على المدينة التي أصبحت - عندئذٍ - بدون حماية. جمع مئة جندي، وهبط من التل إلى شوارع ماراكايبو الخالية.

لقد هرب الجميع، رجال ونساء وأطفال، وتوجّهوا صوب الغابة؛ ليحتموا بها، ويصونوا الأغراض الثمينة، ولكنْ؛ ما شأن القرصان، وذلك؟ لم يرتّب القرصان هذه الحملة؛ لينهب المدينة، بل لكي يقبض على الخائن. فأخذ رجاله معه، وركضوا لاهثين للوصول إلى قصر فان غولد. كانت ساحة غرناطة خالية تماماً، وباب القصر مفتوحاً، وبلا حراسة.

- هل أفلت مني؟ تساءل القرصان، وهو يصرّ على أسنانه - ولكنني سألاحقه في كل القارة، ولن أتركه أبداً.

لما رأى البحّارة الذي تبعوا القرصان أن الباب كان مشرعاً، توقّفوا خشية كمين ما، إلا أن القرصان استمر في تقدّمه، ولكنْ؛ بحذر، لأنه هو أيضاً كان يشكّ في كمين ما. كاد القرصان أن يجتاز عتبة البوابة حينما أوقفه أحدهم، وقد وضع يده على كتفه، وقال له:

- لن تتقدّم أنت، يا قبطاني، سأدخل أنا أولاً، إن سمحت لي.

التفت القرصان مقطباً حاجبيه، وإذا به يجد كارمو أمامه وقد استحال لون بشرته أسوداً بفعل التراب، وتمزّقت ثيابه، وأُدمي وجهه بفعل الانفجار، إلا انه لا يزال قوياً صلداً كما هو.

- هذا أنت مجدداً - هتف القرصان - كنتُ أظن أن القنبلة قد أودت بحياتك.

- يبدو أني عصيّ على الموت، يا قبطاني، ومثلي أيضاً ستيلر والأفريقي، بما أنهما لا يزالان معي.

- تقدّموا، إذنْ!...

تقدّم كارمو ورفيقاه اللذان لحقا به، وكانا هما أيضاً أسودين بفعل التراب، وقد تمزّقت ثيابهم، فدخل الثلاثة إلى فناء القصر، وبين أيديهم الحراب والمسدّسات، يتبعهم القرصان والبحّارة الآخرون. إلا أنهم لم يجدوا احداً مطلقاً، لا الجنود، ولا الخدم، ولا العبيد، كان الجميع قد هرب وراء أهل المدينة؛ ليحتموا في تلك الغابات الكثيفة الممتدة على السواحل. لم يجدوا سوى حصان مكسور الساق، مُدّد على الأرض.

- لقد أخلوا القصر - قال كارمو - يجب أن نعلّق لافتة، نكتب عليها أن القصر للإيجار.

- لنصعد إلى الطابق العلوي - قال القرصان بنبرة حادة.

اندفع البحّارة نحو السلم، وصعدوا إلى الطابق العلوي، ولكنْ؛ كانت كل الأبواب مشرعة والغرف والصالات خالية، وكان الأثاث متناثراً بعضه فوق بعض، والخزائن مفتوحة وفارغة. كل ذلك كان يدلّ على فرارهم على عجل.

وفي لحظة ما وصل إلى الأسماع صدى صراخ قادم من إحدى الغرف، فتوجّه القرصان، وقد اجتاز الصالات الخالية نحو مكان الصراخ، وإذا به يجد كارمو وستيلر يجرّون بالقوة جندياً إسبانياً طويلاً وهزيلاً كقصبة.

- أعرفتَهُ، يا قبطان؟ - صرخ كارمو، وقد دفع الأسير بعنف. لما وجد الجندي نفسه أمام القرصان الأسود، رفع خوذته الحديدية المزيّنة بريشة جرداء متهالكة، وأحنى جسده الطويل قائلاً بهدوء:

- لقد كنتُ بانتظارك، يا سيدي، وأنا سعيد برؤيتك مجدداً.

- ماذا - هتف القرصان - هذا أنت مرة أخرى؟...

- أجل، يا سيدي، أنا الإسباني الذي كنتُ أسيركم في الغابة - أجاب الرجل الهزيل باسماً - لم تقم بشنقي لذلك، فأنا لا أزال حياً.

- سأجعلك تدفع الثمن عن كل رفاقك، أيها المخادع - صرخ القرصان.

- لعلّي أخطأت؛ إذ انتظرتك، يا سيدي؟ لعلّه كان من الأفضل لي أن أهرب مع الآخرين.

- إذنْ؛ فقد كنتَ تنتظرني؟

- وما كان يمنعني من الهرب؟

- أنت محقّ، ولماذا لم تفعل ذلك؟

- لأني كنتُ أريد أن أرى الشخص الذي وهب لي الحياة حينما وقعتُ أسيراً بين يديه.

- قل ما عندك.

- ثم إني أريد أن أقدّم خدمة صغيرة للقرصان الأسود.

- أنت؟

- أجل - قال الإسباني باسماً - أيدهشك هذا؟

- أجل ... يدهشني حقاً.

- اعلم - إذنْ - يا سيدي أن الحاكم حينما علم أنني وقعتُ أسيراً بين يديك، وأنك لم تشنقني، فقد كافأني بخمس وعشرين ضربة بالعصا. أتفهم ذلك، يا سيدي؟! ... يضربني بالعصا، أنا دون بارتولوميو دي باربوزا دي كارمارغوا، سليل إحدى أعرق العائلات النبيلة في كاتالونيا! ... اللعنة!

- كفّ عن ذلك.

- لقد أقسمتُ على الانتقام من ذلك الفيامينغي الذي يعامل الجنود، كما لو كانوا كلاباً، والنبلاء كالعبيد الهنود، لذلك انتظرتُك. لقد أتيتَ هنا؛ لتقتله، لكنه هرب حينما رأى أنكم اقتحمتم الحصن.

- آه! .. لقد هرب، إذنْ؟

- أجل، لكنني أعرف أين هرب، وسوف أقودك إليه.

- لعلّك تريد خداعي؟ إن كنتَ تكذب عليّ، فإني سأقتلك.

- أولستُ بين يديك، يا سيدي؟! - قال الجندي.

- أجل.

- إذنْ؛ بوسعك قتلي متى شئتَ.

- تكلم، إذنْ، أين هرب فان غولد؟

-هرب إلى الغابة.

- وأين ينوي الذهاب؟

- إلى جبل طارق.

- وسيسلك طريق الساحل؟

- أجل، يا قبطان.

- أتعرف الطريق جيداً؟

- أعرفها أفضل من الرجال الذين اصطحبهم معه.

- وكم اصطحب معه من الرجال؟

- ضابطاً وسبعة من جنوده المقرّبين. يجب أن يكونوا قليلين؛ لكي يتسنّى لهم المرور عبر الغابة الكثيفة الممتدة على الساحل.

- وأين ذهب الجنود الآخرون؟

- لقد تفرّقوا، يا سيدي.

- حسناً - قال القرصان - نحن سنلحق فان غولد اللعين، ولن نمهّله الوقت للاستراحة لا ليلاً ولا نهاراً. وهل هربوا على الخيل؟

- أجل، يا سيدي، ولكنهم سيسرّحونها؛ إذ لن تنفعهم في شيء.

- انتظرني هنا.

اقترب القرصان من مكتبة، كان عليها أوراق وبضعة أقلام ومحبرة من البرونز. تناول ورقة، وكتب على عجل هذه الأسطر:

«عزيز بيترو، كارموْ وستيلر والأفريقي وأنا سنلاحق فان غولد عبر الغابات. أضع تحت تصرفك سفينتي ورجالي، ما إن تنتهي من نهب المدينة، فالحق بي إلى جبل طارق، ستجد هناك كنوزاً أكثر بكثير ممّا ستجده في ماراكايبو.

القرصان الأسود «

أغلق الرسالة، وسلّمها إلى أحد أفراد طاقمه، ثم حيا البحّارة الذين تبعوه قائلاً لهم:

- أراكم في جبل طارق، أيها البواسل - التفت إلى كارمو، ستيلر، الأفريقي والأسير الإسباني، وقال لهم:

- هيا بنا؛ لنلاحق عدوّنا اللدود.

- لقد جلبتُ معي حبلاً جديداً؛ لكي نشنقه، أيها القبطان - قال كارمو - لقد جرّبتُه مساء الأمس، أؤكد لك أنه سيفي بالغرض تماماً، ولن ينقطع.

-٢٠-
مطاردة حاكم ماراكايبو

دخل بحّارو وبوكانير كل من الأولونيزي والباسكو إلى ماراكايبو دون أدنى مقاومة وجعلوا ينهبون ما فيها بنهم، بعد ذلك، قرّروا اللحاق بالسكان الذين فرّوا إلى الغابة لنهب ما حملوه معهم. في الأثناء، كان القرصان الأسود ورفاقه الأربعة يلاحقون الحاكم مقتفين آثاره، وقد تسلّحوا بالبنادق، وأخذوا معهم بعض المؤن. حال خروجهم من المدينة توغّلوا في الغابات الممتدة على طول سواحل خليج ماراكايبو، وقد سلكوا طريقاً بالكاد سالكة، وكانت ستنتهي قريباً، كما قال لهم الإسباني الحانق. وجدوا الآثار الأولى بسهولة، وكانت الآثار التي خلّفتها ثمانية أحصنة على أرض الغابة الرطبة، بالإضافة إلى آثار قدمين، وهذا يشير إلى ثمان خيالة، وراجل واحد، وهو عدد يطابق - تماماً - ما أخبر به الأسير الإسباني.

- أرأيتُم؟! - هتف الكتلوني متبجّحاً - من هنا مرّ الحاكم وضابطه والجنود السبعة، وكان أحد هؤلاء الجنود راجلاً، بما أن حصانه سقط مكسور الساق في لحظة الفرار.

- لقد رأينا ذلك - أجاب القرصان - أتظنّ أنهم يسبقونا كثيراً؟

- ربما خمس ساعات فقط.

- وهذا ليس بالقليل، إلا أننا كلنا مشّاءون جيدون.

- لا شك في ذلك، ولكنْ: لا أمل في اللحاق بهم لا اليوم ولا غداً. ربما أنتم لا تعرفون جيداً غابات الفنزويلا، سترون كم من المفاجآت سنواجه في رحلتنا.

- ومَنْ سيُهيّئ لنا هذه المفاجآت؟

- الحيوانات المفترسة وسكان الغابة المتوحشين.

- لا يخيفنا لا هؤلاء، ولا أولئك.

- إن الكاريبين متوحشون.

- لن يكونون أقل وحشية مع الحاكم.

- لكنهم حلفاؤه، وليسوا حلفاءكم.

- أتظن انه سيحتمي بهؤلاء المتوحشين؟

- هذا محتمل يا قبطان.

- وهذا لا يقلقني، لم يخفني هؤلاء المتوحشين قط.

- هذا أفضل. هيا بنا، أيها الفارس، ها هي الغابة الكبرى.

انتهت الطريق عند بداية الغابة، كان هناك جدار حقيقي من الأشجار العملاقة، ويبدو أن ليس فيها أيّ مجال للدخول بالنسبة للخيالة. ليس من السهل تصوّر كيف هي تلك الغابات العملاقة التي تتكوّن في المناطق الحارة والرطبة في أقاليم أمريكا الجنوبية، بالأخصّ عند دلتا الأنهار الكبيرة. في تلك الأراضي التي تخصبها الأوراق والثمار المتساقطة منذ قرون طويلة، تنمو تلك الأشجار الكثيفة، والتي ليس لها مثيل في أي مكان في العالم، ذلك أن أبسط الأشجار في تلك الأماكن تكون عملاقة الحجم. توقّف القرصان الأسود والإسباني أمام تلك الغابة العظيمة، وهم ينصتون بانتباه، بينما كان البحّاران والزنجي يبحثون بين أكوام الأوراق وبين الشجيرات تحسباً لمفاجأة ما.

- من أين مرّوا، يا ترى؟ - سأل القرصان الإسباني - لا أرى أيّ ممرّ بين هذه الأشجار والنباتات المتسلّقة.

- اممم - تمتم الإسباني - أرجو أن لا يكون الشيطان قد أخذهم إلى

الجحيم، يحزنني ذلك من أجل الخمسة والعشرين ضربة عصا التي لا تزال جراحها تحرق ظهري.

- ولا أظن أن أجنحة نبتت لأحصنتهم - قال القرصان.

- إن الحاكم ماكر جداً، ولعلّه وجد طريقة ما لإخفاء آثارهم. هل تسمعون شيئاً ما آت من الغابة؟

- أجل - أجاب كارمو - يبدو لي أني أسمع هدير ماء.

- لقد وجدتُ حل اللغز، إذنْ - قال الكتلوني.

- وما هو؟ - سأل القرصان.

- اتبعني، أيها الفارس.

عاد الجندي إلى الخلف، بحث في الأرض، فوجد آثار الخيل، وتبعها متوغلاً بين مجموعة من الكاري، وهي نوع من النخيل، تبرز من جذعها الأشواك، وتعطي ثمراً يشبه الكستناء، يجتمع في عذوق كبيرة. سار بحذر؛ كي لا تمزق ثيابه تلك الأشواك الطويلة والحادة، حتّى وصل سريعاً إلى حيث سمع كارمو هدير الماء. أنعم النظر في الأرض باحثاً عن آثار الخيل بين الأوراق والحشائش، ثم حثّ السير، ولم يتوقّف إلا عند ضفة نهر صغير، عرضه متران، أو ثلاثة، وماؤه أسود.

- آه! ... آه !.. - هتف فرحاً - لقد قلتُ لكم إن العجوز ماكر.

- ماذا تعني بهذا؟ سأل القرصان الذي بدأ يفقد صبره - تعني أنه سلك هذا النهر من أجل أن يتوغّل في الغابة، ويضيع آثاره.

- وهل النهر عميق؟

غرس الكتلوني؛ ليتفحص عمق النهر.

- لا يتعدّى عمق النهر خمسة وثلاثين أو أربعين سنتيمتراً.

- وهل هناك أفاع؟

- لا، أنا واثق من ذلك.

- إذنْ؛ لنسلك النهر نحن أيضاً، ولنرى أين أوصلتهم الخيل.

نزل الجميع في النهر، وكان الإسباني أولهم، والزنجي آخرهم، كون واجبه هو حماية أظهرهم، ثم جعلوا يسيرون في تلك المياه الغامقة اللون التي يشوبها الطين والأوراق اليابسة، والتي تبعث روائح قاتلة، تنتجها النباتات المتفسّخة. كان مجرى الماء ذلك غزيراً بأنواع الحشائش المائية التي سحقتها الأقدام في أماكن مختلفة من النهر. ثم كانت هناك أيضاً شجيرات الموكوموكو الخفيفة السهلة القطع، ذلك أن أغصانها تتكوّن - في الغالب - من مادة طرية. ثم كانت هناك - أيضاً - شجيرات ذات أغصان ملساء وانعكاسات فضية، تستخدم - عادة - لصنع الطوف الخفيف، وتنتشر - أيضاً - الروبينيا بساقها الطويل، وهي من أنواع النباتات المتسلّقة التي تحتوي على سائل حليبي، له خاصية عجيبة إذا ما خُلط بمياه الأنهار والمستنقعات، وهي تدويخ الأسماك. يسود الصمت المطلق تحت تلك النباتات التي تنحني أغصانها على مجرى الماء. ولكنْ؛ بين الحين والآخر، وبتردّد منتظم، يكسر حاجز الصمت صوت يشبه الجرس، فيرفع عندها كارمو وستيلر رأسيهما عند سماعه. ينتشر ذلك الصوت بوضوح عال، فتستيقظ عندها كل الأصوات في الغابة، لكنه لا ينتج عن جرس، بل كان صوت طير، يختبئ بين أغصان الأشجار الكثيفة، ويطلق عليه الإسبان اسم «الجرس»، وهو طائر بحجم حمامة صغيرة، أبيض اللون، ويصل صوته الأسماع من مسافة ثلاثة أميال.

كانت المجموعة تستمرّ في سيرها الحثيث صامتة بحثاً عن المكان الذي ترك فيه الحاكم ورفاقه خيولهم. كانوا يمرّون تحت هذه النباتات المتشابكة بشدة حتّى إنها تمنع توغّل أشعة الشمس. فجأة وصل إلى أسماعهم انفجاراً

عنيفاً من الجانب الأيسر للنهر، ثم هطل مطر من الرصاص في النهر، وقد أحدث ضجيجاً، يشبه ضجيج تساقط البرد.

- اللعنة - هتف ستيلر الذي انحنى دون وعي - مَن يطلق علينا الرصاص؟

انحنى القرصان أيضاً، وحشا البندقية بسرعة، بينما تراجع رفاقه البحّارة. الكتلوني - فقط - لم يتحرك، بل كان ينظر بهدوء إلى الشجيرات المنتشرة على ضفتي النهر.

- هل هجموا علينا؟ - سأل القرصان.

- ولكنْ؛ ليس هناك من أحد - أجاب الكتلوني ضاحكاً.

- وما هذا الانفجار، إذنْ؟ ألم تسمعه؟

- أجل، يا قبطان.

- أولا يقلقك؟

- ألا ترى أني أضحك؟!.

حدث انفجار آخر أقوى من الأول هذه المرة، ثم هطل مطر من الرصاص في الماء.

- إنها قنبلة - هتف كارمو، وقد تراجع.

- أجل، ولكنها قنبلة نباتية - أجاب الكتلوني - أنا أعرف ما هذا.

مال نحو الجانب الأيمن من النهر، ثم أشار إلى شجرة، يبدو أنها تنتمي إلى الفصيلة الفربيونية، يبلغ ارتفاعها خمسة وعشرين أو ثلاثين متراً، يغطّي الشوك أغصانها، يبلغ عرض الورقة فيها عشرون، أو ثلاثون سنتيمتراً. تتدلّى في نهاية الغصن ثمرة، بشكل كروي، تغطّيها قشرة خشبية.

- احترسوا - قال الإسباني - أرى إحدى ثمارها ذاوية.

لم يتمّ الإسباني - بعد - كلامه حتّى تفجّرت إحدى تلك الكرات محدثة دوياً عالياً، وتناثرت منها البذور يميناً وشمالاً.

- إنها غير مؤذية - قال الكتلوني، وقد رأى كارمو وستيلر يثبان إلى الوراء - إنها مجرد بذور، لا غير.

حينما تذبل تلك الثمار، فإن قشرتها الخشبية تصبح شديدة الصلابة، وحين تسخن تتفجر، وتنثر بذورها التي تحويها أجزاؤها الستة عشر لمسافة طويلة.

- وهل هذه الثمرة صالحة للأكل؟

- إنها تحتوي على سائل حليبي، تأكله القردة فقط - أجاب الكتلوني.

- اللعنة على هذه الشجرة القنبلة! - هتف كارمو - كنتُ أظن أن رفاق الحاكم هم مَنْ يطلقوا علينا النار.

- تقدّموا - قال القرصان - لا تنسوا أننا نلاحق الحاكم.

استمروا في سيرهم في مياه النهر الصغير، وبعد مسير مائتين، أو ثلاثمائة خطوة لمحوا كتلاً سوداء شبه غاطسة في الماء، كانت تعيق مجرى النهر.

- هل رأيت شجرة قذيفة هذه المرة؟ - سأل كارمو.

- بل رأيتُ ما هو أفضل من ذلك، إن لم أخطئ، فإن هذه الكتل ليست إلا خيل الحاكم ورفاقه.

- تمهّلوا - قال القرصان - ربما خيّموا على مقربة من المكان.

- لا أظنّ ذلك - أجاب الكتلوني - إن الحاكم يعلم أنك ستتعقّبه، وهو يتوقّع منك مطاردة شرسة.

- لعلّه كما قلتَ، ولكنْ؛ لنكن حذرين.

حشوا بنادقهم، ثم صاروا يسيرون واحداً تلو الآخر؛ لكيلا يقضي عليهم رفاق الحاكم برشقة واحدة، ثم تقدّموا بهدوء، وهم محنو القامة في محاولة للاختباء تحت أغصان الأشجار التي تتشابك فوق النهر. كان الكتلوني يتوقّف كل عشر خطوات؛ لينصت بانتباه كبير، ويتفحّص الأغصان والشجيرات التي تنتشر بكثافة على ضفّتي النهر؛ ليتجنّب المفاجآت. كانوا يسيرون على هذا المنوال، بحيطة وحذر، حتّى وصلوا إلى حيث كانت جاثمة تلك الكتل السوداء. لم يخطئوا الظنّ، كانت جثث ثمانية أحصنة جاثمة جنب بعضها، وشبه غاطسة في المياه الغامقة.

حرّك الكتلوني بمساعدة الأفريقي أحد الأحصنة، فوجده مذبوحاً بسكين النافاجا.

- أنا أعرفها جيداً - قال الكتلوني - إنها خيل الحاكم.

- وأين تظنّهم قد هربوا؟ - سأل القرصان الأسود .

- أظنهم توغّلوا في الغابة.

- وهل ترى فتحة ما قد توغّلوا منها؟

- لا، ولكنْ؛ ... آه! أيها المكَرَة!

- ماذا هناك؟

- أترى هذا الغصن المقطوع الذي لا يزال يسيل منه بعض اللمف؟

- أجل، وماذا يغني ذلك؟

- انظر إلى الأعلى، هناك اثنان آخران قد قُطعا.

- أرى ذلك.

- لقد تسلّقوا على هذه الأغصان، ونزلوا في وسط الغابة. لم يبقَ لنا إلا أن نحذو حذوهم.

- هذا أمر سهل بالنسبة لنا نحن البحّارة - قال كارمو - هيا تسلّقوا.

مدّ الكتلوني ذراعيه الطوليتين والدقيقتين كأطراف عنكبوت، وصعد فوق غصن ضخم، فتبعه الآخرون باتساق كبير. مرّ من ذلك الغصن إلى آخر يمتد بصورة أفقية، ثم إلى غصن ثالث، تابع لشجرة أخرى، واستمر هكذا حتّى ثلاثين، أو أربعين متراً، وهو يتفحّص الأغصان والأوراق بحذر كبير، حتّى وصل إلى شبكة كثيفة من النباتات المتسلّقة، فقفز إلى الأرض، وصرخ فرحاً.

- أنت، أيها الكتلوني! - هتف كارمو - أوجدتَ علبة من الذهب؟ يقال إنه كثير الانتشار في هذا البلد.

- بل هو خنجر الميسيريكورديا، وقد تكون له قيمة مماثلة لعلبة ذهب، بالنسبة لنا، إن لم يكن أكثر من ذلك.

- قد يكون كذلك، إذا ما اخترقت صدر الحاكم.

قفز القرصان الأسود أيضاً، فوجد خنجراً قصير النصل، وعليه نقوش غريبة، ذؤابته دقيقة مثل إبرة.

- يبدو أن الضابط الذي يرافق الحاكم قد فقد هذا الخنجر - قال الكتلوني - لقد رأيتُه مسبقاً في حزامه.

- إذنْ؛ لقد نزلوا هنا - قال القرصان.

- ها هو الطريق الذي فتحوه بفؤوسهم، أعلم أن كلاً منهم كان يحمل معه واحدة شدّها إلى سرجه.

- هذا جيد - قال كارمو - وفّروا علينا الكثير من الوقت والعناء، وسنسير بسرعة.

- اصمتوا، واستمعوا - هتف القرصان - أتسمعون شيئاً؟

- لا شيء إطلاقاً - أجاب الكتلاني بعد أن أنصت للحظات.

- هذا يعني أنهم بعيدون جداً، لو كانوا قريبين، لسمعنا ضرب الفؤوس.

- يبدو أنهم يتقدّمونا بأربع، أو خمس ساعات.

- هذا كثير جداً، يجب أن نقلّل المسافة بيننا على الأقل.

توغّلوا في تلك الطريق التي فتحها الهاربون وسط تلك الغابة. لم يخطئوا في توقّعاتهم؛ إذ لم تذبل - بعد - تلك الأغصان التي قُطعت بكثرة. جعلت المجموعة تركض بغية تقليل المسافة بينهم وبين الهاربين، إلا أن مسيرهم الحثيث قد قُطع بفعل عائق في الطريق، والذي يصعب تجاوزه من قِبل الزنجي، الذي كان حافي القدمين، وكارمو وستيلر، اللذان لا يرتديان أحذية طويلة. كان ذلك العائق عبارة عن بقعة واسعة، تنتشر فيها أشواك الانسارا، والتي تنتشر بكثرة على جذوع الأشجار الضخمة في الغابة. كانت تلك النباتات الشائكة تنمو بكثافة وسط غابات فنزويلا وغويانا، وتعيق مسير الرجال، إذا لم يق سيقانهم الجلد الصلد، أو الأحذية الطويلة المتينة، ذلك أن رؤوس الأشواك حادّة جداً تخترق أيّ قماش، بل وحتّى ضبان الأحذية.

- يا إلهي - هتف ستيلر الذي كان أول مَن حاول تجاوز الأشواك - أهذه هي الطريق إلى جهنم؟ ... سنخرج من هنا مسلوخي الجلد مثل القدّيس بارثولماوس.

- اللعنة - صرخ كارمو الذي تراجع بسرعة - سنصبح كلنا عرجاً، إذا ما توجّب علينا عبور هذه المسامير. كان يجب على سحرة هذه الغابة أن يعلّقوا لافتة، يُكتب عليها التحذير التالي: يمنع المرور من هنا.

- سنجد طريقاً آخر - قال الكتلوني - لقد تأخر الوقت الآن لسوء الحظ.

- أيجب علينا أن نتوقّف عن السير؟ - سأل القرصان.

- انظر، يا سيدي!

اختفى الضوء فجأة، وهبط على الغابة ظلام دامس، اجتاح كل زواياها.

- هم أيضاً سيتوقّفون عن السير، أليس كذلك؟

- أجل، حتّى يطلع القمر.

- ومتى سيطلع؟

- عند منصف الليل.

- لنخيّم، إذنْ.

-٢١-
الغابة العذراء

اختارت المجموعة مكاناً لتستريح فيه حتّى طلوع القمر، كانت تشغل المكان جذور شجرة سوماميرا العظيمة، وكان أطول أشجار الغابة. هذه الأشجار التي يصل طولها حتّى ستين، أو سبعين متراً كانت مدعّمة بمهماز طبيعي، من جذور ضخمة جداً، مليئة بالعقد ومتناسقة للغاية، وإذا ما قد حرّكت عن قاعدتها، فإنها ستشكّل أقواساً عجيبة قد يختبئ تحتها عشرون شخصاً، أو أكثر. كانت أشبه بمخبأ محصّن، يجعل القرصان ورفاقه في مأمن من أي مباغتة، سواء من الحيوانات المفترسة أم من البشر. استراحوا تحت عملاق الغابة، وجعلوا يأكلون قطعاً من الخبز اليابس وشرائح اللحم، ثم اتفقوا على النوم حتّى طلوع القمر، وقد قسّموا أدوار الحراسة بينهم، فليس من الحذر أن ينام الجميع وسط تلك الغابة. تفحّصوا الأعشاب خشية أن تكون هناك أفاع خطرة، ثم تمدّدوا على أوراق الأشجار المتساقطة من تلك الشجرة العظيمة، بينما كان كارمو والأفريقي هما أول مَن بدأ الحراسة. الغروب الذي يستمر لدقائق قليلة في المناطق الاستوائية كان قد اختفى تماماً، وحل ظلام حالك على الغابة، وقد صمتت الطيور والحيوانات الأخرى فجأة. ساد صمت مطبق ومخيف لبضع لحظات، كما لو أن كل الحيوانات قد اختفت، أو ماتت فجأة، ولكنْ؛ في لحظة ما تردّد صدى أصوات رهيبة في الظلام، جعلت كارمو، الذي لم يكن معتاداً على قضاء الليالي وسط الغابات، يرتجف خوفاً. يبدو وكأن مجموعة من الكلاب حلّت فوق تلك الأغصان، ذلك أن نباحاً وعواءً ولعلعة بدأت تأتي من الأعلى، يصاحبها صرير غريب جداً، يبدو كأنه صادر عن دوران آلاف البكرات.

- اللعنة - هتف كارمو، وهو ينظر عالياً - ماذا يحدث هناك؟ كأن كلاب هذا البلد لها أجنحة مثل الطيور، أو مخالب مثل مخالب القطط. كيف لها أن تصعد فوق الأشجار؟ ... ألك أن تجيبني، يا صديقي الأسود؟

ولكن الزنجي وبدل أن يجيبه، صار يضحك منه في الخفاء.

- ما تكون هذه؟ - أضاف كارمو - لعلّها قردة، يا رفيقي؟

- لا، يا رفيقي الأبيض - أجاب الزنجي - إنها ضفادع، كلها ضفادع.

- ضفادع تنقّ بهذه الطريقة؟

- أجل، يا رفيقي.

- وما قد يكون هذا؟ أتسمع؟ وكأن ألف حدّاد يدقّون على آلاف القدور.

- إنها ضفادع.

- اللعنة! لو أخبرني أحد غيرك بذلك، لقلت إنه يسخر مني، أو إنه جُنّ. وهل هي أصناف جديدة من الضفادع؟

صدر ما يشبه المواء، ثم تبعه ما يشبه العواء، أخرس كل الأصوات في الغابة، وقطع فجأة أصوات الضفادع. رفع الزنجي رأسه، وتناول البندقية التي كانت بجانبه، لكنها لم تكن حركة سريعة تدلّ على القلق.

- يبدو أن هذا السيد الذي عوى بقوة هكذا لم يكن ضفدعاً، أليس كذلك، يا رفيقي الأسود؟

- بلى - هتف الأفريقي بصوت مرتجف.

- وما هو إذنْ؟

- إنه جاكوار.

- اللعنة، أهو ذلك الحيوان المفترس؟

- أجل، يا رفيقي.

- أفضل أن أواجه ثلاثة رجال عازمين على تمزيقي بدلاً من مواجهة هذا الوحش المفترس. يقال إنه يوازي نمور الهند قوة.

- وأسود أفريقيا، يا رفيقي.

- يا إلهي، اللعنة.

- ما بك؟

- أظن أنه إذا هاجمنا، فليس بوسعنا أن نستخدم البنادق.

- ولماذا؟

- إذا ما سمع الحاكم ورفاقه إطلاق النار، فإنهم سيدركون أننا نتبعهم، وسيحثون السير؛ لكي يبحروا بأسرع وقت.

- أتريد أن تواجه الجاكوار بالسكاكين؟

- سنواجهه بحرابنا.

- أودّ رؤيتك، وأنت تقوم بذلك.

- لا تتطيّر، يا رفيقي الأسود.

تردّد صدى عواء آخر في الغابة المظلمة، لكنه كان أقرب هذه المرة، فأرتجف الزنجي لذلك.

- اللعنة - تمتم كارمو الذي أصبح قلقه أشدّ - يبدو أن الأمر أصبح جدياً.

- رأى في تلك الأثناء القرصان الأسود، وهو يبعد عباءته عنه، وينهض.

- أهو جاكوار؟ - سأل بصوت هادئ.

- أجل، يا قبطان.

- ألا زال بعيداً من هنا؟

- لا، والأسوأ من ذلك أنه يتوجّه نحونا.

- لا تستخدموا البنادق، مهما جرى .

- سوف يلتهمنا هذا الحيوان المفترس.

- آه! أتظن ذلك، يا كارمو؟ سنرى، إذنْ.

تناول عباءته، طواها بعناية، ولفها حول ذراعه الأيسر، ثم نهض، واستلّ سيفه.

- من أيّ اتجاه تظنّه آت ؟ - سأل القرصان.

- من هذا الاتجاه، يا قبطان.

- سوف ننتظره.

- هل أوقظ الكتلوني وستيلر؟

- لا، لا حاجة لذلك، نحن نكفي. اصمتوا، وأشعلوا النار.

ما إن أنصتوا حتّى سمعوا وسط الغابة «رون رون»، وهو الصوت الذي تصدره القطط والجاكوار، ثم خشخشة الأوراق اليابسة بين الحين والآخر. يبدو أن الحيوان المفترس قد أدرك وجود الرجال، فكان يتقدّم بحذر؛ لكي يباغت أحدهم. كان القرصان واقفاً قرب النار، والسيف بقبضته، وكان يستمع بانتباه، ويحدق في بقعة الغابة أمامه، مستعداً لرد هجوم الوحش المفاجئ. كان كارمو والزنجي خلفه، تسلّح الأول بخنجره، أما الآخر؛ فكان يمسك بالبندقية

من ماسورتها؛ ليستعملها كهراوة. استمرت خشخشة الأوراق، وال «رون رون» أيضاً، وكان يقترب، ولكنْ؛ ببطء. كان واضحاً أن الجاكوار يقترب بحذر. ساد الصمت فجأة، انحنى القرصان إلى الأمام، وأنصت، ولكنْ؛ لا شيء، وما إن نهض حتّى التقت عيناه بنقطتي ضوء تلمعان تحت شجيرة. كانتا ثابتتين، ولهما بريق اخضر لامع.

- ها هو، يا قبطان - همس كارمو.

- أجل، إنني أراه - أجاب القرصان.

- إنه يستعدّ للهجوم علينا.

- وأنا أنتظره.

- أيّ رجل شيطاني هذا!! - تمتم كارمو - لو كان أمير الشياطين مكانه؛ لارتجف خوفاً!.

توقّف الجاكوار على مسافة ثلاثين خطوة من مخيّمهم، وهي مسافة قليلة، بالنسبة لحيوانات مفترسة مثله، والتي تتميّز بوثبة سريعة، موازية لوثبة النمر، أو ربما أسرع، ولكنْ؛ يبدو أن الوحش لم يحزم أمره بعد. ربما كانت تقلقه النار المتوهّجة عند جذع الشجرة، أو ربما يقلقه حزم القرصان الأسود. بقي دقيقة تحت تلك الشجيرة، وهو يحدّق في غريمه، وكان ثبوته ذلك يشكّل تهديداً للمجموعة، ثم اختفت فجأة تلكما النقطتين المضيئتين. ظلوا يسمعون للحظات قليلة خشخشة الأوراق وحركة الأغصان حتّى ساد الصمت.

- لقد ولّى عنا - قال كارمو وهو يتنهّد - أرجو أن تأكله التماسيح بثلاث لقم.

- بل هو مَن سيأكل التماسيح، يا رفيقي - قال الزنجي.

بقي القرصان لعدّة دقائق ثابتاً في مكانه مشرعاً سيفه، وحين لم يعد يسمع شيئاً أعاد سيفه إلى غمده، فتح عباءته، التحف بها، وتمدّد تحت الشجرة قائلاً بهدوء:

- إذا عاد، فأيقظاني.

جلس كارمو والأفريقي أمام النار، وقد عادا إلى دورهما في الحراسة، لكنهما كانا حذرين جداً، وينظران في كل الجهات، كونهما لم يكونا على قناعة تامة أن الحيوان المفترس قد ابتعد تماماً. استيقظ ستيلر والكتلوني في الساعة العاشرة، فأخبراهما كارمو والزنجي بوجود الحيوان المفترس، ثم سارعا في النوم جنب القرصان الذي كان نائماً بعمق، كما لو كان في كابينته على متن الفولغورا. كانت نوبة الحراسة الثانية أكثر هدوءاً من سابقتها، رغم أن ستيلر والكتلوني كانا قد سمعا أكثر من مرة صدى عواء الجاكوار يتردّد في الغابة المظلمة. ما إن طلع القمر عند منتصف الليل حتّى نهض القرصان الأسود، وأعطى الأمر بالرحيل، وهو يأمل اللحاق بعدوّه اللدود في اليوم التالي. كان القمر ساطعاً في السماء الصافية يسكب نوره الشاحب على الغابة الكبيرة، إلا أن أشعة قليلة فقط، تتخلّل من بين تلك الأوراق العظيمة والكثيفة، رغم ذلك كانت تسمح بالرؤيا، وتمكّن البحّارة من المسير بخطى حثيثة وتمييز العوائق التي تواجههم في الطريق.

لقد أضاعوا الطريق الذي فتحه الحاكم وأتباعه، إلا أن ذلك لم يعد يشغلهم، فهم يعلمون أنه كان متوجّهاً نحو الجنوب، للوصول إلى جبل طارق، وكانوا هم يسيرون في ذلك الاتجاه باستخدام البوصلة، وكانوا متأكدين أنهم سيلحقون به بين لحظة وأخرى. كانوا يسيرون منذ ربع ساعة، يفتحون طريقهم بصعوبة بين الأغصان والنباتات المتسلّقة والجذور الضخمة التي تسدّ الطرقات، حينما توقّف الكتلوني الذي كان يسير على رأس المجموعة فجأة.

- ماذا هناك؟ - سأله القرصان الذي كان يسير خلفه.

- إنها المرة الثالثة التي يصل فيها إلى سمعي، خلال هذه العشرين خطوة، ضوضاء تثير الشك.

- ماذا قد يكون برأيك؟

- كأن أحداً ما يسير بشكل موازياً لنا ما وراء هذه الكتلة النباتية.

- وماذا سمعت؟

- تكسّر أغصان وخشخشة أوراق.

- لعلّ أحداً ما يتبعنا؟ - سأل القرصان.

- ومَن يتبعنا؟ ... لا أحد يجرؤ على المسير ليلاً وسط هذه الغابة، بالذات في وقت كهذا - أجاب الكتلوني.

- لعلّه أحد أتباع الحاكم؟

- اممم .. أعتقد أنهم بعيدون من هنا.

- إذنْ؛ قد يكونون هنوداً.

- ربما، ولكني لا أظن أنهم الهنود، آه .. أسمعتم؟

- أجل - أجاب البحّاران والأفريقي.

- أحدهم كسر غصناً على مسافة خطوات منا - قال الكتلوني.

- لو لم تكن هذه البقعة كثيفة هكذا، لكان بوسعنا أن نتوغّل فيها، ونرى مَن يتبعنا - قال القرصان وقد شهر سيفه.

- أتريد أن نحاول، يا سيدي؟

- إن حاولنا، فإن ثيابنا ستبقى دون شك على أشواك أشجار الانسارا هذه، إلا أني أقدّر شجاعتك.

- شكراً، يا سيدي - أجاب الإسباني - إنه لشرف لي أن أسمع منك هذا. ماذا علينا أن نفعل اذن؟

- نستمر في السير، وسيوفنا مشرعة، ولكنْ؛ لا أريد أن تُستخدَم البنادق.

- فلنتقدّم، إذنْ.

عاودت المجموعة تقدّمها بحذر وروية. وصلوا إلى ممرّ ضيق بين أشجار نخيل عالية، ربط بعضها ببعض بنسيج شبكة من النباتات المتسلّقة. هوت فجأة كتلة ما على الإسباني الذي كان يمشي على رأس المجموعة، فطرحته أرضاً. كان الهجوم مفاجئاً حتّى إن البحّارة ظنوا أن غصناً ضخماً قد انكسر، وسقط على أسيرهم المسكين، إلا أن تلك الكتلة أطلقت هديراً أجش، فأدركوا حينها أنه حيوان مفترس. حينما وقع الكتلوني أرضاً، صرخ خوفاً، ثم استدار بسرعة محاولاً التخلص من تلك الكتلة التي سمّرته إلى الأرض مانعة إياه من النهوض.

- النجدة - صرخ - سيفترسني الجاكوار.

ما إن مرت اللحظات الأولى حتّى استلّ القرصان سيفه لنجدة الرجل المسكين. وبسرعة كالبرق مدّ ذراعه، وغرس السيف في جسد الوحش، ما إن أحسّ الوحش بالطعنة حتّى ترك الكتلوني، والتفت إلى غريمه الجديد. تراجع القرصان بسرعة شاهراً سيفه اللامع، ثم لف عباءته بحركة سريعة حول ذراعه اليسرى. كان الوحش متردّداً في بداية الأمر، إلا أنه وثب إلى الأمام، ولما كان ستيلر في طريقه، فقد طرحه أرضاً، ثم استدار نحو كارمو الذي كان جنب رفيقه، وحاول ضربه بمخالبه. لحسن الحظ، لم يبق القرصان مكتوف اليدين، وما إن رأى الخطر يداهم رجاله حتّى انقض مرة أخرى على

الوحش، وطعنه بالسيف عدّة مرات دون أن يقترب منه خشية أن يفترسه. تراجع الوحش، وهو يهدر، باحثاً عن فرصة سانحة؛ لينقض على القرصان، إلا أن القرصان لم يمهله الوقت لذلك. تراجع الوحش فجأة، ربما من شدة خوفه وثقل جراحه، ثم وثب إلى أغصان شجرة قريبة، وفر بين أوراق الأشجار، وهو يعوي بصوت حادّ وطويل.

- تراجعوا - صرخ القرصان خشية أن يهجم عليهم من جديد.

- اللعنة - صرخ ستيلر، وقد نهض على عجل دون أن يصاب بأذى - يجب أن نطلق عليه النار؛ لكي نشبع جوعه.

- لا، لا تطلقوا النار - أمر القرصان.

- كدتُ أن أثقب رأسه - قال صوت من خلف القرصان.

- لا زلتَ حياً؟! - هتف القرصان.

- أجل، وهذا بفضل الدرع المصنوع من جلد الجاموس، والذي ارتدي تحت لباسي، يا سيدي - قال الكتلوني - لولا هذا الدرع؛ لشقّ الوحش صدري بضربة واحدة من مخالبه.

- احترسوا - صرخ كارمو في تلك الأثناء - هذا الوحش الملعون سيهجم علينا مجدداً.

ما إن أتم كارمو جملته حتّى انقض الوحش عليهم، وقد قفز لستة، أو سبعة أمتار، وسقط قرب القرصان، ولكنْ؛ لم تتاح له الفرصة أن يثب من مكانه، ذلك أن سيف جوال البحّار قد اخترق صدره، وسمّره إلى الأرض، بينما كان الزنجي يهشم رأسه، بأخمص البندقية.

- اذهب إلى الجحيم - صرخ كارمو مسدّداً إليه ركلة قوية؛ ليتيقن أنه قد مات فعلاً - أيّ حيوان هذا؟

- الآن سنعرفه - قال الكتلوني، ثم سحبه من ذيله الطويل نحو بقعة صغيرة، ينيرها ضوء القمر - ليس ثقيلا جداً، رغم جرأته ومخالبه القوية. حينما سنصل إلى جبل طارق فإني سأوقد شمعة للسيدة غوادالوبي؛ لأنها حمتني من هذا الوحش .

-٢٢-

السفانا المتحركة

كان الحيوان الذي هاجمهم بإقدام يشبه بشكله لبوات أفريقيا، إلا أن حجمه كان أصغر بكثير، فلم يتجاوز طوله متراً، وخمسة عشر، أو عشرين سنتمتراً، ولم يكن ارتفاعه أكثر من سبعين سنتمتراً، إذا ما قيس عند الكتف. كان مدوّر الرأس طويل الجسد، لكنه متين، يبلغ طول ذنبه أكثر من نصف متر، له مخالب طويلة وحادّة، فروته كثيفة، ولكنْ؛ قصيرة، يميل لونه إلى الأحمر المصفرّ، ويكون غامقاً عند الظهر وفاتحاً، بل حتّى أبيض، عند البطن ورمادياً عند الرأس. من أول نظرة، أدرك القرصان الأسود والكتلوني أنه الحيوان الذي يطلق عليه الإسبان الأمريكيين ميزلي أو أسد الجبال وأسد أفريقيا أيضاً. هذه الحيوانات التي لا تزال منتشرة حتّى اليوم في أمريكا الجنوبية والشمالية تكون جريئة ومفترسة رغم صغر حجمها. تعيش في الغابات، وتقتات على القردة، وتقتل الكثير منها؛ لأن بوسعها تسلّق أعلى الأشجار بسهولة، وتقترب - أحياناً - من الأماكن السكنية، فتسبّب للسكان خسائر فادحة؛ إذ تقوم بافتراس الخرفان والعجول، بل وحتّى الخيل. بوسعها أن تقتل خمسين من الماشية في ليلة واحدة، لمجرد أن تشرب الدم الحار الذي يتدفّق من أعناق المواشي. إذا لم تكن جائعة، فإنها تهرب من الإنسان، لكنها تهاجمه بشراسة عند الضرورة، وتهاجم حتّى عندما تكون جريحة، دون خوف. تعيش أحياناً على شكل قطعان؛ ليسهل عليها اصطياد فرائسها، إلا أنها غالباً ما تكون وحيدة، ذلك أن الإناث لا تثق برفاقها، كونهم يأكلون صغارها. على أن الإناث نفسها تأكل أول صغارها، ولكن ذلك لا يمنع من أن تكون، مع مرور الوقت، أمّ رؤوم تدافع بضراوة عن صغارها.

- يا إلهي - هتف كارمو - إنه حيوان صغير، لكنه متوحّش أكثر من بعض الأسود.

- لا أعرف كيف لم يمزّق رقبتي - أجاب الكتلوني - يقال إنها بارعة في قطع الشريان السباتي؛ لتشرب دم ضحاياها.

- ماهرة كانت أم لا، فهذا لا يعنينا، هيا؛ لنرحل - قال القرصان - لقد خسرنا وقتاً ثميناً، بسبب أسد الجبال هذا.

- إننا سريعون في المشي، يا قبطان.

- أعرف ذلك، يا كارمو، ولكنْ؛ لا تنس أنهم يسبقوننا كثيراً، هيا بنا، يا أصدقاء.

تركوا جثة أسد الجبال، وجعلوا يسيرون عبر الغابة الكبيرة، ويجهدون أنفسهم في قطع النباتات المتسلّقة والجذور التي تعيق مسيرهم. كانوا يسيرون في أرض طينية؛ حيث أصغر أشجارها هائلة الحجم. يبدو أنهم يمشون في أرض طينية؛ لأنهم وبمجرد وضع أقدامهم يتدفّق الماء من ألف ثقب غير مرئي. ربما توجد وسط تلك الغابة سافانا مخفية، ومَن يدري؟! قد يكون هناك أحد تلك الأحواض المسمّاة السفانا المتحركة، والتي يتكوّن قاعها من الرمال المتحركة، وتبتلع كل مَن يقع فيها. أصبح الكتلوني أشد حذراً، كونه على معرفة بتلك المنطقة، فكان يجسّ الأرض دائماً بغصن شجرة، وينظر إلى الأمام؛ ليرى فيما إذا انتهت الغابة أم لا، وبين الحين والآخر، يجسّ الأرض يميناً وشمالاً. كان يخشى الرمال المتحرّكة، ولكنه يخشى الزواحف أيضاً، والتي تنتشر بكثرة في أراضي الغابات الرطبة. توقّف الكتلوني فجأة.

- لعلك رأيت جاكوار آخر؟ - سأله كارمو الذي كان خلفه.

- لن أتقدّم أكثر قبل طلوع الشمس - أجاب.

- وممّ تخاف؟ - سأل القرصان.

- أصبحت الأرض رخوة تحت قدمي، يا سيدي، وهذا يعني أننا نقترب من إحدى السافانات.

- قد تكون سافانا متحرّكة؟

- أخشى ذلك.

- سنضيع وقتاً ثميناً.

- سيطلع الفجر بعد نصف ساعة، ثم ألا تظن أنهم هم أيضاً يواجهون العراقيل؟

- لا أنفي ذلك. لننتظر شروق الشمس، إذنْ.

تمدّدوا تحت جذع شجرة، وانتظروا بفارغ الصبر انجلاء الظلام. تلك الغابة الكبيرة التي كانت ساكنة قبل قليل، صار يتردد فيها آلاف الأصوات الغريبة. آلاف الضفادع المختلفة الأنواع صارت تنقّ، وتصدر ضجيجاً عالياً. يتفجّر بين الحين والآخر صفير حادّ فوق الأشجار، جعل البحّارة يجفلون، ويرفعون رؤوسهم. كانت تصدر ذلك الصفير نوع من السحالي الصغيرة الحجم، ولكنْ؛ لها رئتان قويتان جداً، تجعلها توازي في قوة صوتها صفير القطار. بدأت النجوم تختفي من السماء، وصار الفجر يبدد الظلام. فجأة تردّد صدى دوي، يسهل تمييزه عن أصوات الضفادع. نهض القرصان الأسود بسرعة.

- أهو صوت إطلاق نار؟ - سأل الكتلوني.

- يبدو ذلك، يا سيدي - أجاب الأخير.

- وهل أطلقه الرجال الذين نتبعهم؟

- أظن ذلك.

- إذنْ، قد لا يكونون بعيدين من هنا.

- قد لا يكون، كما تظن، يا سيدي، فتحت هذه القبة النباتية يتردّد الصدى على مسافات بعيدة.

- لقد انقشع الظلام، وبوسعنا أن ننطلق، إن لم تكونوا متعبين.

- بوسعنا أن نستريح لاحقاً - قال كارمو.

بدأ ضياء الصباح يتخلّل الأوراق الضخمة، ويبدد الظلام بسرعة، واستيقظ سكان الغابة. بدأت تخرج بعض القردة من مخابئها الليلية، وصارت تمدّ أطرافها، وتتثاءب موجّهة أبوازها نحو الشمس. كان أغلبها من صنف الباريغودو، وهي قردة، يبلغ طولها سبعين، أو ثمانين سنتيمتراً، ولها ذيل أطول من جسدها، وتكون فروتها ناعمة، سوداء غامقة عند الظهر، ورمادية عند البطن، ولها لبدة على كتفيها. ظهرت بين سعف النخيل مجاميع لبعض أنواع القردة الصغيرة التي تسمّى ميكو، وهي القردة الألطف بين جميع الأصناف، كونها صغيرة جداً حتّى إن بالإمكان وضعها في جيب الجاكيت. كانت تصعد وتنزل على الأغصان بحيوية، وهي تبحث عن الحشرات التي تشكّل مصدر غذائها الرئيسي. إلا أنها ما إن تلمح الإنسان حتّى تفرّ هاربة فوق الأغصان العالية، ثم تراقبه من هناك بعيونها الذكية والمعبّرة. كلّما تقدّم البحّارة أكثر، أصبحت الغابة أقل كثافة، كما لو أن الأشجار لا تنمو في تلك الأراضي المتشبّعة بالمياه، والتي كانت طينية بطبيعتها. اختفت أشجار النخيل الرائعة، وحلّت محلّها مجاميع من أشجار امباودا، وهي من أنواع الصفصاف الصغير الذي تتساقط أوراقه في المواسم الممطرة، ثم تورق في موسم الجفاف. ولكنْ؛ سرعان ما اختفت حتّى هذه الأشجار، وحلّ محلّها مجاميع من الكالوبو، وهي نباتات، إذا ما قُطعت ثمارها، وفُوّرَت، يخرج منها مشروب منعش. ثم كان هناك أيضاً البامبو العملاق الذي يبلغ ارتفاعه حتّى خمسة عشر، أو عشرين متراً، وهي ضخمة جداً؛ بحيث لا

تسعها الذراعان. كاد الكتلوني أن يتوغّل في غابات البامبو، إلا انه التفت إلى البحّارة، وقال لهم:

- لعلّكم ترغبون بكوب من الحليب قبل أن نغادر الغابة.

- آه - هتف كارمو فرحاً - هل رأيتَ قطيع ما هنا؟ إذنْ؛ بوسعنا أن نأكل شرائح لحم أيضاً.

- لا توجد شرائح لحم الآن.

- ومن أين لنا بالحليب، إذنْ؟

- من شجرة الحليب.

- إذنْ؛ هيا لنحلب شجرة الحليب.

أخذ الكتلاني قنّينة من كارمو، واقترب من شجرة عريضة الأوراق، جذعها ضخم وأملس، يبلغ ارتفاعه أكثر من عشرين متراً، جذورها عظيمة وبارزة فوق الأرض، كما لو أن باطن الأرض لم يكن كافياً لاحتوائها. أحدث فتحة بالسيف في جذعها، وبعد لحظات، صار يتدفّق من تلك الفتحة سائل كثيف، يشبه الحليب تماماً، بل إن طعمه أيضاً يشبه طعم الحليب. شرب الجميع منه بكثرة، ثم عاودوا السير متوغّلين في غابات البامبو، وصفير السحالي الحادّ يصكّ إسماعهم. كانت كثافة الأرض تقلّ أكثر، بينما يتدفّق الماء من كل الجهات تحت أقدام البحّارة، حتّى صارت تتكوّن مستنقعات صغيرة، تتوسّع بسرعة. كانت هناك طيور مائية، ممّا يدل على اقترابهم من مستنقع كبير، أو من سافانا. كانوا يرون أسراباً من الشنقب الشائع ومن الانهينغا، وهو طير، له عنق طويل ودقيق حتّى أطلق عليه الطير الأفعى، وله رأس دقيق أيضاً، ومنقار مستقيم وحادّ، وريش غليظ وفضيّ اللون. بدأ الإسباني يُبطئ في سيره خشية أن تغوص قدماه في الرمال المتحركة. فجأة سمعوا صراخاً أجشاً أمامهم، تبعته جلجلة وغرغرة.

- الماء - هتف.

- يبدو أن هناك حيواناً ما فضلاً عن الماء - قال كارمو - ألم تسمع ذلك؟

- بلى، إنه صراخ الجاكوار.

- يا له من لقاء سيئ - تمتم كارمو.

توقّفوا، وأسندوا أقدامهم على بعض سيقان البامبو؛ لكيلا يغطسوا في الطين، ثم استلّوا حرابهم وسيوفهم. لم يتكرّر بعد عواء الحيوان، إلا أنهم كانوا يسمعون جلبة، تدل على أن الحيوان كان منشغلاً، بشيء ما.

- لعلّه يصطاد السمك - قال الكتلوني.

- السمك؟ - سأل كارمو غير مصدّق.

- أيدهشك هذا؟

- على حدّ علمي، فالجاكوار ليس لديه صنارة.

- ولكنْ؛ لديه مخالب وذيل.

- ذيل؟ وبماذا ينفعه؟

- ينفعه في جذب السمك.

- بودي أن أعرف كيف يقوم بذلك. لعلّه يضع في مؤخّرة ذيله بعض الدود؟

- لا شيء من ذلك. يكفي أن يدلي ذيله، فتمسّ أطراف شعره الماء بلطف.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، تأتي الأسماك، كأبو مهماز مثلاً، فتظن أنها وجدت فريسة

جيدة، حينها يقوم الجاكوار بضربة خاطفة من مخالبه بالإمساك بها، ومن النادر ما يخطئ في ضربته.

- ها أنا أراه - قال الأفريقي في تلك اللحظة، ولأنه كان أطولهم، فكان بوسعه أن يرى أفضل منهم.

- ترى ماذا؟ - سأل القرصان.

- الجاكوار - أجاب الزنجي.

- وماذا يفعل؟

- إنه على حافة السافانا.

- وحده؟

- يبدو أنه يراقب شيئاً ما.

- أهو بعيد من هنا؟

- يبعد خمسين، أو ستين متراً.

- هيا، لنرى ماذا يفعل - قال القرصان.

- كن حذراً، يا سيدي - قال الكتلوني.

- إذا لم يقف في طريقنا، فلن نهاجمه. لنقترب بهدوء.

نزلوا من على سيقان البامبو، ثم تقدّموا بصمت متخفّين خلف النباتات وحرابهم وسيوفهم مشرعة بأيديهم. بعد عشرين خطوة، وصلوا على حافة مستنقع، يبدو أنه يمتد لمسافة طويلة في الغابة. كانت سافانا، حوض طيني يتكون من تسرّب ماء الغابة. كانت مياهه سوداء بفعل آلاف النباتات المتفسّخة فيه، تنبعث منه روائح مؤذية وخطرة على الإنسان؛ لأنها تنقل

أنواع رهيبة من الحمى. كانت هناك نباتات مائية منتشرة في كل مكان، وكانت تنتشر شجيرات الموكوموكو ذات الأوراق العريضة الطافية فوق الماء، ومجاميع من الاروم التي تكون أوراقها أشبه بشكل القلب، وتنبت عند طرف الساق، والموريس التي تنمو على سطح الماء. كانت هناك أيضاً فيتوريا ريجي، وهي من أكبر النباتات المائية، ويصل قطر أوراقها حتّى المتر والنصف. تبدو كأنها دوائر عظيمة معقوفة الأطراف، وتحتمي بدرع من الأشواك الطويلة والحادة. تنبع وسط تلك الأوراق العظيمة أزهار تلك النبتة المائية، وتبدو كأنها من المخمل الأبيض بأشرطة أرجوانية مائلة إلى الأحمر، وهي أزهار نادرة الجمال. ألقى البحّارة للتوّ نظرة على السافانا، وإذا بهم يسمعون بالقرب منهم ضجيجاً قوياً.

- إنه الجاكوار - هتف الكتلوني.

- أين هو؟ - سأل الجميع.

- إنه هناك، يكمن على الضفة.

-٢٣-
هجوم الجاكوار

كان هناك حيوان على مسافة خمسين خطوة منهم، يقف على حافة سافانا، يشبه النمر في شكله، ولكنه أصغر حجماً، يكمن قرب ضفة السافانا بوضعية تشبه تلك التي يتخذها القط حين يكمن للفأر. كان طوله يقارب المترين، ويبدو كبير الحجم نسبة لصنفه، له ذيل يبلغ طوله ثمانين سنتيمتراً ورقبة قصيرة وسمينة كرقبة عجل، وأطراف قوية وعضلية، تبرز منها مخالب رهيبة. كانت فروته غاية الجمال، كثيفة وناعمة ذات لون أصفر مائل للحمرة، تنتشر عليه بقع سوداء، تلوّنت أطرافها باللون الأحمر، صغيرة على الجوانب، ولكنها أكبر عند الظهر، مشكّلة ما يشبه الشريط. لم يصعب على البحّارة التعرّف على الجاكوار، الحيوان المفترس الأخطر في الأمريكيتين، أخطر من الكوغواري وحتّى من الدببة الرمادية في جبال الروكي. تتواجد هذه الحيوانات في كل مكان، من باتاغونيا حتّى الولايات المتحدة. تعيش - على الغالب - في الغابات عالية الرطوبة، وعلى ضفاف السافانا والأنهر الكبيرة، على الأخصّ نهر ريو دي لا بلاتا، نهر الأمازون ونهر اورينوكو، وهي تفضّل الماء رغم أنها صفة غريبة في السنوريات. أما عن المذابح التي تخلّفها هذه الحيوانات؛ فهي رهيبة، وبما أنها نهمة للغاية، فهي تهاجم كل ما تجده في طريقها، حتّى القردة، لا مهرب لها منها، كون الجاكوار يتسلّق الأشجار بخفة القط، وقد يكون بوسع الماشية في المزارع أن تدافع عن نفسها نطحاً بقرونها، أو ضرباً بحوافرها، لكنها لا تقاوم إلا قليلاً، ذلك أن تلك الحيوانات المفترسة تنقض عليها بوثبة خاطفة، وتحطم عمودها الفقري بضربة واحدة من مخالبها. ولا مهرب حتّى للسلحفاة رغم أنها تحتمي تحت درقة صلدة؛ لأن مخالب هذا

الوحش تحطّم تلك الدرقة، وتستخرج اللحم منها. وهي على عداء كبير مع الكلاب، ولأجل القضاء عليها، فإنها تتوغّل في قرى الهنود في وضح النهار. وهي لا تستثني حتّى الإنسان، وكان الهنود المساكين يخسرون ضحايا كثيرة كل عام بسبب هذه الحيوانات، حتّى وإن جرحتهم فقط، فإنهم لا ينجون، ذلك أن الجراح التي تخلّفها مخالب هذا الوحش عميقة جداً.

يبدو أن الجاكوار الذي كان يكمن على حافة النهر لم يشعر باقتراب البحّارة؛ لأنه كان ثابتاً، ولم يبد عليه الاضطراب. كان يحدّق في ماء المستنقع الأسود، كما لو أنه يراقب فريسة ما تختبئ تحت أوراق نبتة الفيتوريا ريجي الكبيرة. كان الجاكوار منتصباً بين القصب جاهزا للهجوم. يحرك بالكاد شواربه المنتصبة، ويلامس ذيله الطويل أوراق القصب دون أن تصدر أي ضجيج.

- ماذا ينتظر؟ - سأل القرصان الذي بدا، وكأنه نسي أمر فان غولد ورفاقه.

- إنه يترقب فريسة ما - أجاب الكتلوني.

- قد تكون سلحفاة؟

- لا - أجاب الأفريقي - بل يترقب غريما جديراً به. انظروا هناك تحت أوراق الفيتوريا، ألا ترون بوزاً بارزاً؟

- أظن أن رفيقي الزنجي محق - قال كارمو - إني أرى شيئاً ما يتحرك تحت الأوراق.

- إنه بوز الياكاري، يا رفيقي - أجاب الزنجي.

- تمساح؟ - سأل القرصان.

- أجل، يا سيدي.

- أيهاجم حتّى هذا النوع من الزواحف؟

- أجل، يا سيدي - أجاب الكتلوني - إذا ما بقينا صامتين، فإننا سنشهد صراعاً رهيباً بينهما.

- أرجو أن لا يستمر طويلاً.

- إنهما غريمان قليلا الصبر، وحينما يواجه أحدهما الآخر لا يفرّطان في العض. آه! ها هو الياكاري يظهر.

انفرج ما بين أوراق الفيتوريا فجأة، فبرز فكّان رهيبان بأسنان طويلة مثلثة الشكل، واتّجها نحو الضفة. عندما رأى الجكوار التمساح يقترب من الضفة، نهض، وتراجع، ليس خوفاً، ولكنْ؛ حيلة منه، لجذب خصمه؛ لكي يجرّده من وسيلة دفاعه الرئيسية: ألا وهي خفة الحركة، فالزواحف تفقد رشاقتها خارج الماء. خُدع التمساح بحركة الجاكوار، فظن أنه خاف منه، ضرب بذيله الماء بقوة، فقطع أوراق الفتوريا عن فروعها الشائكة، وأحدث موجة كبيرة، ثم تقدّم، وصعد على الضفة، وتوقّف هناك مكشراً عن أنيابه الرهيبة. كان ياكاري كبير الحجم، يبلغ طوله قرابة الخمسة أمتار، تغطي ظهره الحشائش المائية التي تنمو في الطين المتراكم على قشر ظهره الصلد. نفض الماء عن جسده، فتطاير الرذاذ، ثم صرخ صرخة تشبه بكاء الرضيع، ربما كانت صرخة تحدّ. تراجع الجاكوار بدل أن ينقض عليه، وتكور استعداد للهجوم. التقى ملك الغابة ملك السافانا، وحدّق كل منهما في الآخر بصمت لبضع لحظات، بأعينهم الصفراء تلك، والتي يشع منها بريق رهيب، أطلق الأول مواء جزعاً، ثم استعد للهجوم، وهو ينفخ مثل قطّ من شدة الغيظ. لم يبد على التمساح أي خوف، بل كان واثقاً من قوته وشدة أنيابه، فتقدّم، وهو يهز ذيله الكبير يميناً وشمالاً. كانت تلك هي اللحظة التي ينتظرها الجاكوار الماكر، وما إن رأى خصمه على اليابسة حتّى قفز في الهواء، وانقض على التمساح، إلا إن مخالبه الصلدة كالصلب اصطدمت بقشرة ظهر التمساح، تلك القشرة الصلبة التي لا تخترقها حتّى رصاصة بندقية. اشتد غيظ الجاكوار لفشله في هجمته تلك، فالتف بخفة، ووجّه ضربة بمخالبه إلى رأس الخصم،

فقلع إحدى عينيه، وبذات الخفة، قفز متراجعاً عشر خطوات إلى الوراء. صاح التمساح طويلاً بفعل الألم والغضب، ولما فقد عينه، فقد أصبح من الصعب عليه مواجهة عدوّه الخطر، فحاول الرجوع إلى السافانا، وهو يناور بضربات قوية من ذيله الذي يتناثر منه الوحل. كان الجاكوار يتهرّب من تلك الضربات، حتّى قفز فجأة على ظهر خصمه، إلا انه لم يحاول ضرب القشرة هذه المرة، بل مال جانباً وسدد ضربته إلى جانب التمساح الأيمن، فبعج بطنه، ومزّق بعض أعضاءه الداخلية. يبدو أن الجرح كان قاتلاً، إلا أن التمساح كان شديداً وقوياً، وما كان ليقبل بالهزيمة. انتفض التمساح بقوة، وهاجم الجاكور مدحرجاً إياه بين سيقان القصب، ثم انقض عليه بأسنانه الحادة؛ ليقصمه نصفين، ولكنْ؛ ولسوء حظّه، لم يستطع بعين واحدة أن يصيب الهدف، وبدل من أن يفرم خصمه، وكانت فكاه يتيحان له ذلك، لم ينل منه إلا الذيل. صاح الجاكوار بصوت مرعب، فأدرك البحّارة انه فقد ذيله.

- يا للحيوان المسكين! - هتف كارمو - سيكون قبيح المنظر دون ذيل.

- لكنه سينتقم الآن بشدة - قال الكتلوني.

وفي الحقيقة، فقد ثار الحيوان المفترس، وهجم على بوز التمساح، يمزقه بضربات مخالبه السريعة مجازفاً حتّى بفقدان أحد أطرافه. تدفق دم التمساح المسكين بكثرة، وقد ثقلت جراحه، وفقد بصره، وصار يتراجع أملاً بالوصول إلى السافانا، وفي الأثناء كان يسدد الضربات بذيله القوي، ويعمل بفكيه التي تصدر ضجيجاً عالياً، ولكنْ؛ دون جدوى، فقد كان الجاكوار يستمرّ بتمزيقه. هوى الاثنان في الماء فجأة، وبقيا يقتتلان للحظات وسط الرغوة التي اصطبغت بلون الدم، ثم صعد أحدهما، وكان الجاكوار، إلى ضفة النهر وهو في حالة مزرية، يتساقط من فروته الدم والماء في آن واحد، وقد كسرت إحدى سيقانه، وسُلخت فروة ظهره، بينما بقي ذيله بين فكيّ التمساح. صعد الضفة بعناء، يتوقّف بين حين وآخر، وينظر بعين شرسة إلى

مياه السافانا. وصل إلى بقعة كثيفة من القصب، فتوغّل فيها، واختفى عن أنظار البحّارة، وهو يبعث مواء تهديد أخيراً.

- أظنه قد صفّى حسابه مع غريمه - قال كارمو.

- أجل، على أن التمساح الميت سيطفو غداً على سطح الماء وسيكون إفطار الجاكوار الصباحي.

- لقد ناله بثمن باهظ.

- إنه حيوان عتيد، وسيُشفى قريباً.

- إلا أن ذيله لن ينمو.

- تكفيه الأنياب والمخالب.

سار القرصان الأسود ورفاقه بمحاذاة ضفة السافانا، مرّوا في المكان الذي دار فيه الصراع، فرأى كارمو عين التمساح ملقاة على الأرض.

- آه - هتف - كم هي قبيحة المنظر، لا يزال بريق الشراسة والكراهية فيها رغم جمودها.

حثّ البحّارة السير، فتجاوزوا غابات القصب والموكوموكو بخمس عشرة دقيقة. توقّف الكتلوني، وأصخّ سمعه؛ ليتبيّن فيما إذا كانت هناك حيوانات برية في الجوار لاصطيادها وتوفير الطعام، فلم يجد سوى الصمت المطبق يخيم على المكان.

- أخشى أننا سنُضطر لاستهلاك مخزوننا من الطعام - قال وهو يهزّ رأسه - أظن أننا في مملكة الجاكوار، وأن كل الحيوانات قد هربت من هذا المكان.

انفصل الكتلوني وكارمو عن رفاقهم، وذهبا بحثاً عن الطعام في تلك

السافانا، ولكنْ؛ يبدو من الصعب العثور على حيوانات برية في مملكة الجاكوار تلك.

- يبدو أنه من المستحيل العثور حتّى على قطّ في هذه الأحراش - قال كارمو.

- ألم ترَ أن القطط متوفّرة هنا، ولكنْ؛ أي قطط!

- إذا صادفنا الجاكوار، فسنصطاده.

- لا أظن أن لحمه سيئ، على الأخص إذا ما تُبّل بالكرنب الأحمر.

- إذنْ؛ سنصطاده حتماً.

- آه! آه! - هتف الكتلوني فجأة، وقد رفع رأسه نحو السماء - أظن أننا سنصطاد ما هو أفضل من الجاكوار.

- لعلّك لمحت يحموراً، أيها الكتلوني الحبيب؟

- انظروا هناك، ألا ترون هذا الطائر الضخم الذي يحلّق في السماء؟

رفع كارمو رأسه، فرأى طيراً أسود يحلّق بين أغصان الأشجار.

- أهذا هو اليحمور الذي وعدتنا به؟ ...

- هذا هو طائر الغولي غولي. انظروا، ها هو الآخر، بل هناك الكثير منها.

- حاول اصطيادها بالبندقية، إن كنت قادراً على ذلك - قال كارمو ساخراً - لا أمل لي في هذه الغولي غولي.

- لا أنوي اصطيادها مطلقاً، على العكس، بل إنها هي مَن ستقودنا إلى حيث توجد الحيوانات البرية الممتازة.

- وأيّ حيوانات برّيّة تلك؟

- الخنزير البرّيّ.

- يا للهول! كم يسرّني أن آكل لحم خنزير برّيّ. ولكنْ؛ أخبرني من فضلك، ما شأن الغولي غولي بالخنزير البرّيّ؟!

- إن لهذه الطيور بصراً حاداً جداً، وما إن ترى الخنزير البرّيّ حتّى تُسرع للوصول طلباً للطعام.

- وهل تتغذّى من لحم الخنزير البرّيّ؟

- لا، بل إنها تتغذّى على الدود والعقارب وأمّ أربعة وأربعين، والتي تخرج إلى سطح الأرض حينما تقلب الخنازير الأرض بخطومها بحثاً عن جذور النباتات.

- أتأكل حتّى أمّ أربعة وأربعين؟

- أجل، بالتأكيد.

- ولا تموت؟

- يقال إن سمّ الحشرات لا يؤثّر في الغولي غولي.

- فهمت. إذنْ؛ لنتبع الطيور قبل أن تختفي عن أنظارنا، ولنجهّز البنادق. ولكنْ؛ اللعنة، ألن يسمعنا الإسبان إذا ما أطلقنا النار؟!

- إذنْ؛ ليبقَ القرصان دون طعام.

- من الأفضل أن نملأ بطوننا، وإن سمعونا، على أن تخور قوانا، فلا نستطيع ملاحقتهم.

- اصمت!!

- أهي الخنازير؟

- لا أعرف، ولكنْ؛ هناك حيوان يقترب منا. ألا ترى كيف تتحرّك تلك الأوراق؟

- أجل.

- لننتظر، ونجهز، وقد نفتح النار، إذا تطلّب الأمر.

-٢٤-
رزية كارمو

شيئاً ما كان يتحرك خلف الأوراق بروية على مسافة أربعين متراً من الاثنين، فعاجلا بالاختباء خلف جذع شجرة السيماروبا العملاق. كانت الأغصان اليابسة تتكسّر هنا وهناك، كما لو أن ذلك الحيوان لم يحدّد - بعد - وجهته، لكنه كان يقترب أكثر. فجأة رأى كارمو شجيرة تنفرج، وقد قفز منها حيوان، يقارب طوله نصف متر، فروته سوداء، تميل للاحمرار، قصير الأطراف، وله ذيل كثير الوبر. كان كارمو يجهل صنف هذا الحيوان، أو إذا ما كان صالحاً للأكل أم لا، ولكنْ؛ لما رآه واقفاً على مسافة ثلاثين خطوة فقط صوب البندقية نحوه، وأطلق عليه النار. هوى الحيوان على الأرض، ولكنه سرعان ما نهض بحيوية، كما لو أن سوءاً لم يصبه، وهرب متوغّلاً بين الشجيرات.

- يا لسوء الحظّ - هتف البحّار - لم أصبه. لكنه لن يفلت مني.

حشا سلاحه على عجل، ثم ركض في إثر الحيوان دون أن يعير اهتماماً للكتلوني الذي صرخ به:

- انتبه لأنفك!

كان الحيوان يركض بأقصى سرعته، ربما لبلوغ جحره، إلا أن كارمو كان سريعاً أيضاً، فكان يركض على مسافة قريبة منه، وبيده حربته، مستعداً لتمزيق الحيوان.

- آه! أيها الوغد، سأمسك بك حتّى لو هربت إلى بيت الشيطان. لم

يبطئ الحيوان في ركضه، ولكنه بدأ يفقد قواه، وكانت بقع الدم المنتشرة على الأوراق والحشائش تنبئ عن أن البحّار كان قد أصابه. أجهده الركض الكثير والدم الذي فقده، فتوقّف عند جذع الشجرة، تيقّن كارمو عندها أن الحيوان سقط في قبضته. هجم عليه بحربته، ولكنه جوبه برائحة كريهة جداً، فسقط على الأرض كالمخنوق.

- اللعنة عليك، أيها الوغد - صرخ كارمو - اذهب إلى الجحيم، اهرب، لا شأن لي بك.

ثم أخذ يعطس باستمرار، ممّا منعه عن مواصلة لعن ذلك الحيوان. أسرع الكتلوني لمساعدته، لكنه كمّم أنفه بكلتي يديه ما إن وصل على مسافة عشر خطوات منه.

- يا للهول! - قال - لقد حذّرتكَ، يا صديقي، لن تتخلّص من هذه الرائحة قبل أسبوع، أما أنا؛ فلا أملك الشجاعة للوصول إليك.

- هل أصابني الطاعون، يا صديقي؟ - صرخ كارمو - أشعر بالغثيان، وكأني أُصبت بدوار البحر.

- غادر المكان الذي أنتَ فيه؛ لتستنشق هواء جديد.

- أشعر أني أشارف على الموت، ما الذي أصابني؟

- قلتُ لك تحرّك، ابتعد عن هذه الرائحة التي انتشرت في المكان.

نهض كارمو بصعوبة، وابتعد عن مكانه متّجهاً صوب الكتلوني. ما إن رآه الأخير يتّجه نحوه حتّى ولّى هارباً.

- اللعنة، ممّ تخاف؟ - سأله كارمو - لقد أصبتُ بالكوليرا؛ إذنْ.

- لا، أيها الفارس، لكني أخشى أن تنقل إليّ هذه الرائحة الكريهة.

- وكيف سأعود إلى المخيّم؟ سيهرب الجميع مني، حتّى القبطان.

- يجب أن تتطيّب بطيب ما - قال الكتلاني جاهداً في كتم ضحكه.

- وما الذي أصابني، يا صديقي؟ أكان الحيوان هو سبب هذه الرائحة الكريهة الشبيهة برائح ثوم متعفّن؟ أتعرف؟ أشعر وكأن رأسي سينفجر.

- أصدّقك، يا صديقي.

- أكان الحيوان هو السبب، إذنْ؟

- أجل، يا صديقي.

- وأيّ حيوان هذا؟!

- يسمّى هذا الحيوان الزوريلو، وهو لا شك الأشدّ قوة بين جنسه؛ إذ لا احد بإمكانه أن يقاوم الرائحة التي يبعثها، ولا حتّى الكلاب.

- ومن أين يُخرج هذه الرائحة اللعينة؟

- من بعض الغدد الكائنة تحت الجلد. هل أصابك السائل؟

- لا أظن ذلك، فقد كنتُ بعيداً عنه.

- لقد كنتَ محظوظاً، إذنْ، فلو أصابت ثيابك قطرة واحدة فقط من هذا السائل؛ لتحتّم عليك البقاء عارياً مثل أبينا آدم.

- رغم ذلك، فإني نتن مثل كوم من الروث.

- قلتُ لك يجب عليك أن تتطيّب بدخان طيّب الرائحة.

- ليذهب إلى الجحيم هذا الحيوان اللعين! بأيّ وجه سنعود إلى أصدقائنا، وهم ينتظرون منا اللحم البرّيّ، بينما نعود لهم برائحة جهنّمية.

لم يجب الإسباني، بل كان يضحك عالياً، وهو يسمع البحّار يتذمر، وكان

يحاول الابتعاد عنه أكثر، على أمل أن يزيل الهواء الجديد شيئاً من تلك الرائحة الكريهة. حين اقتربا من المخيم، توجّه نحوهم ستيلر، وكان يظن أنهما جلبا معهما صيداً ثقيلاً، ولكنْ؛ ما إن شمّ الرائحة التي يبعثها كارمو حتّى كمّم أنفه، وولّى عنه هارباً.

- الكل يبتعد عني، كما لو كنتُ مصاباً بالكوليرا - قال كارمو - ربما يجب عليّ أن أرمي نفسي في السافانا.

- لا تقلق، يا صاحبي - قال الكتلوني - قف هنا، وانتظر عودتي، وإلا فإنك ستنقل هذه الرائحة للجميع.

أومأ كارمو برأسه مذعناً، وجلس حزيناً تحت ظل شجرة، وهو يتحسّر على ما أصابه. أخبروا القرصان بما حصل لكارمو، ثم توجّه الكتلوني والأفريقي إلى الغابة، وجمعا بعض الأعشاب الخضراء، فوضعاها على مسافة عشرين خطوة من كارمو، وأضرما فيها النار.

- تدخَّنْ بدخان هذه الأعشاب - قال الكتلوني، وقد فرّ ضاحكاً - أنتظرك على الإفطار.

توغّل كارمو راضخاً في الدخان الكثيف الذي تبعثه تلك النباتات، وقد حزم أمره على أن لا يتحرّك من هناك حتّى تزول عنه تلك الرائحة الرهيبة. كانت تلك النباتات تبعث دخاناً لاذعاً جداً حتّى إن عيني البحّار المسكين صارتا تذرفان الدمع بغزارة، كما لو أن الكتلوني قد خلط معها شيء من الفلفل الحار. على أن كارمو كان يقاوم بصبر تاركاً الدخان يتخلّله، كما لو كان سمكة. بعد نصف ساعة، أحس كارمو أن الرائحة تضاءلت كثيراً، فقرر الابتعاد عن الدخان، واللحاق برفاقه الذين كانوا يقتسمون سلحفاة؛ اصطادوها على ضفة السافانا.

- أتسمحون لي، بالجلوس؟ - سأل كارمو - أرجو أن يكون الدخان قد أدّى مفعوله.

- تعال، يا كارمو - قال القرصان - أظن أنه ليس من الصعب علينا تحمّل

رائحتك، بما أننا معتادون على رائحة القطران اللاذعة، ولكنْ؛ أرجو أن تكون حذراً من الزوريلو في المرة القادمة.

- أقسم أني إذا ما رأيتُ الزوريلو، فسأبتعد عنه ثلاثة أميال، أعدك بذلك، يا قبطان. في المرة القادمة، سأهاجم الجاكوار بدلاً عنه.

- أرجو أن تكونوا قد أشعلتُم النار في مكان كثيف بالأشجار، فلم يلمح الحاكم ورفاقه ذلك.

- وأنا أرجو أن صوت الرصاصة لم يصل إلى مسامعهم - قال الكتلوني.

- لا أريد أن يشكّ الهاربون أننا نقتفي آثارهم.

- أظنّهم يعلمون علم اليقين أننا نلاحقهم.

- وكيف تستدلّ على ذلك؟

- من مسيرهم السريع. كان يجب أن نلحق بهم الآن.

- ربما هناك سبب ما يدعو فان غولد إلى حثّ السير.

- وأيّ سبب ذلك، يا سيدي؟

- إنه يخشى أن يهجم الأولونيزي على جبل طارق.

- وهل الهجوم على جبل طارق في حساباتك، يا سيدي؟

- ربما ... سنرى ذلك لاحقا - أجاب القرصان شارد الذهن.

- إذا ما حصل ذلك، يا سيدي، فإني لن أقاتل أبناء وطني مطلقاً - قال الكتلوني بصوت شجي - لا يمكن لجندي أن يرفع السلاح ضد مدينة يرفرف علم بلاده على أسوارها. ما دام الأمر يخصّ فان غولد - وهو فيامينغي - فأنا مستعدّ لمدّ يد العون، ولكنْ؛ لن أزيد على ذلك، بل أفضل أن تشنقني على أن أقاتل أبناء بلدي.

- إن إخلاصك لبلدك يثير إعجابي - أجاب القرصان الأسود - حالما نلقي القبض على فان غولد، ستكون طليقاً، ولك أن تدافع عن جبل طارق، إذا ما رغبتَ في ذلك.

- شكراً، أيها الفارس، وأنا تحت أمرك حتّى ذلك الوقت.

- إذاً، لننطلق، وإلا فلن نلحق بهم.

تناولوا أسلحتهم، وما بقي لهم من الطعام وساروا على ضفة السافانا التي تنتشر عليها بكثافة نباتات طويلة السيقان. كان الحر شديداً في تلك المنطقة الخالية من الظلال، ولكن البحّارة كانوا معتادين على أجواء خليج المكسيك وبحر الكارايبي، فلم يعانوا من شدة الحر، مع ذلك، فقد كانوا يعرقون بكثرة حتّى إن ملابسهم أصبحت مبلّلة بالكامل بعد خطوات قليلة. فضلاً عن الحر، فقد كانت مياه السافانا تعكس أشعة الشمس القوية، والتي كانت تصيب عيون البحّارة بشدة موجعة، بينما كانت الروائح الكريهة تتصاعد من الماء على شكل ضباب خفيف، وقد تكون هذه الروائح قاتلة في بعض الأحيان؛ لأنها تسبّب حمّى الغابات الرهيبة. لحسن الحظ، فقد وصلوا، عند الساعة الرابعة بعد الظهر، إلى الطرف الآخر من السافانا، والذي ينتهي عند مدخل غابة كبيرة، تشبه في شكلها رقبة القنينة الزجاجية. كان القرصان ورفاقه يحثّون السير رغم ما أصابهم من الإرهاق، وبينما كانوا ينعطفون للتوغّل في الغابة، وإذا بالزنجي، الذي كان يسير خلفهم، يشير إلى شيء أحمر اللون يطفو فوق مستنقع وحل أخضر اللون، يمتد نحو السافانا.

- قد يكون طيراً؟ - سأل كارمو.

- بل يبدو لي أنها قبّعة إسبانية - قال الكتلوني - ألا ترون أن عليها ريشة سوداء؟

- ومَن رماه في هذا المجرى، يا ترى؟ - سأل القرصان.

- أظن أن الأمر أسوأ بكثير ممّا نظن، يا سيدي - قال الكتلوني - إذا لم أخطئ الظن، فإن هذا الوحل هو عبارة عن رمال متحركة، تبتلع الأشياء، ولا تعيدها.

- ماذا تقصد؟

- أتقصد أن تحت هذه القبّعة هناك مسكين ما ابتلعه الوحل حياً؟

- لنقترب، ونرى.

اتّجهوا نحو المستنقع الذي يبلغ طوله ثلاثمائة، أو أربعمائة متر، ومثلها عرضاً، ويبدو أنه جزء منفصل من السافانا. أيقنوا حينها أن الشيء الأحمر كان قبّعة من الحرير الأحمر والأصفر، تزيّنه ريشة، اعتاد الإسبان على وضعها في قبّعاتهم. كانت طافية فوق الوحل وسط حفرة على شكل مخروط، وبالقرب منها تبدو على السطح أشبه ما تكون بخمسة أوتاد صغيرة، جفل البحّارة لرؤيتها.

- إنها أصابع يد بشرية! - هتف كارمو وستيلر.

- ألم أقل لكم إن تحت هذه القبّعة جثة؟! - قال الكتلوني بنبرة حزينة.

- ومَن قد يكون هذا المسكين الذي ابتلعته السافانا؟ - سأل القرصان.

- إنه أحد مرافقي الحاكم - أجاب الكتلوني - لقد رأيتُ هذه القبّعة على رأس جوان باريرو.

- لقد مرّ فان غولد من هنا إذنْ!

- وهذه الجثة دليل على ذلك، يا سيدي.

- أتظن أن سقوطه في الوحل كان حادثاً عرضياً؟

- أظن ذلك، سيدي.

- يا لها من ميتة شنيعة!.

- إنها أسوأ ميتة، يا سيدي، أن يبتلعك هذا الوحل الكريه الرائحة حياً. يا لها من نهاية رهيبة!.

- والآن هيا، لنترك الأموات، ولنلاحق الأحياء - قال القرصان متوجّهاً نحو الغابة - نحن الآن بلا شك نسلك الطريق ذاته الذي سلكه الهاربون.

وبينما كان يحثّ رفاقه على الإسراع في السير، وإذا بأنين غريب، يستوقفه، وقد تردّد صداه في بقعة كثيفة من الغابة.

- ما يكون هذا الأنين؟ - سأل القرصان الكتلوني.

- لا أعرف - أجاب الكتلوني، وهو يجول ببصره القلق بين الأشجار العظيمة.

- قد يكون طيراً ما يغرّد بهذه الطريقة؟

- لم أسمع من قبل صفيراً كهذا.

- وأنت، يا موكو؟ - سأل القرصان ملتفتاً نحو الأفريقي.

- ولا أنا، يا سيدي.

- قد تكون إشارة ما؟

- اخشى أن تكون كذلك، يا سيدي - أجاب الكتلوني.

- أهم أبناء بلدك الذين نلاحقهم؟

أخفض الكتلوني رأسه بهيئة المفكّر.

- ألا تظن ذلك؟ - كرّر القرصان.

- لا، يا سيدي، أخشى أن يكونوا الهنود، وأظن أننا ملاقوهم قريباً جداً.

- وهل يتحالف الهنود معكم؟ - سأل القرصان مقطباً حاجبيه.

- لا بد أن الحاكم جنّدهم ضدنا.

- إذنْ؛ فهو يعلم أننا نلاحقه.

- ربما كان يتوقّع ذلك.

- إذا كان الأمر يتعلّق بالهنود، فإننا سنتلافاهم بسهولة.

- إنهم خطرون جداً في الغابة، ربما أشدّ خطراً حتّى من البيض.

- لنتلافى عنصر المفاجأة إذنْ، احشوا بنادقكم، واستعدوا لفتح النار، لقد علم الحاكم أننا نقتفي أثره، فلا يهم إن سمع إطلاق النار.

- هيا بنا، لنرى هنود هذا البلد - قال كارمو - لا أظن أنهم أجمل من الآخرين، أو أسوأ منهم.

- كن حذراً، أيها الفارس - قال الكتلوني - إن هنود فنزويلا الحمر من أكلة لحوم البشر، وسيسعدهم أن يأكلوك مشوياً.

- يا للهول! ... لنستعد للدفاع عن أنفسنا، إذنْ، يا صديقي العزيز ستيلر.

-٢٥-
أكلة لحوم البشر في الغابة العذراء.

كانوا يتقدّمون بحيطة وحذر خشية أن يباغتهم الهنود، يصيخون السمع، ويراقبون بانتباه المناطق الكثيفة الأشجار في الغابة؛ حيث بوسع الهنود نصب الكمائن. لم يسمعوا تلك الإشارة مرة أخرى، ولكن كل شيء في الطريق يدلّل على مرور أحد ما من هناك: اختفاء الطيور والقردة التي لا بد أنها فرّت فزعاً من عدوّها اللدود؛ أي الهنود، الذين يصطادونها بكثرة، ذلك أنهم يأكلون لحومها بنهم. ثم الأغصان المترامية هنا وهناك، والتي قطعت حديثاً، فضلاً عن تناثر بعض الأوراق وقطع بعض النباتات المتسلّقة التي لا تزال تقطر سائلها اللمفاوي. منذ ساعتين، وهم يسيرون بحذر وقلق جاهدين في التزام الطريق المؤدّية نحو الجنوب، وإذا بهم يسمعون نغمات عذبة، يبعثها فلوت من البامبو، والذي يكثر استخدامه بين الهنود. استوقف القرصان رفاقه:

- إنها إشارة، أليس كذلك؟ - سأل الكتلوني.

- أجل، يا سيدي - أجاب الكتلوني - لا مجال للشك.

- إذنْ؛ فالهنود قريبون من هنا.

- ربما أكثر ممّا نتصوّر، يا سيدي، فالمناطق التي تحيط بنا كثيفة بالأشجار، وهذا يناسبهم في نصب كمائنهم.

- وبماذا تنصحنا؟ نتوقّف حتّى يظهروا؟ أم نستمرّ في سيرنا؟

- إذا ما توقّفنا، فسيظنون أننا نخافهم، لنتقدّم، يا سيدي، ولنقتل كل مَن يجرؤ على مواجهتنا.

أصبحت أنغام الفلوت أقرب إلى مسامعهم، وكان يبدو أنها تخرج من منطقة، يكتظ فيها نخل الكاري، وتشكّل هذه الأشجار عوائق، يصعب تجاوزها بفعل الأشواك الطويلة والحادّة المنتشرة على جذوعها.

- يا ستيلر - صاح القرصان - جِدْ هذا العازف الخفي، وأسكته.

ستيلر الذي كان قنّاصاً بارعاً؛ لأنه مارس مهنة البوكانير لسنين طويلة، صوّب بندقيته نحو تلك المنطقة بحثاً عن العازف، أو عن أي حركة أوراق ترشد إليه، ثم أطلق النار، ولكنْ؛ لا على التعيين.

ما إن دوت الطلقة حتّى تبعتها صرخة عالية، لكنها سرعان ما تحوّلت إلى ضحك صاخب.

- اللعنة - هتف القرصان - لا أظنّك أصبته.

- يا رعود هامبورغ - صرخ ستيلر بحنق - لو كنتُ رأيت جزءاً صغيراً من رأسه، لما كان بوسعه الضحك الآن.

- لا يهمّ - قال القرصان - لقد أيقنوا - الآن - أننا مسلّحون بالبنادق، وسيكونون أشدّ حذراً في اعتراض طريقنا. لنتقدّم، يا رجال البحر.

اشتدّت عتمة الغابة بفعل كثافة الأشجار والأوراق العظيمة والنباتات المتسلّقة والجذور الرهيبة. تمتدّ هذه الفوضوية النباتية التي لا تتخلّلها أشعة الشمس أمام أنظار البحّارة، تسودها حرارة ورطوبة عاليتين، كأنها دفيئة زراعية. كانت المجموعة تتقدّم بحيطة وحذر شديدين، يتبع أحدهم الآخر، واضعين أصابعهم على عقارب البنادق، يراقبون بانتباه شديد المناطق التي تكتظّ فيها الشجيرات، أوراق الأشجار الكبيرة، الجذور العملاقة والمخابئ التي تشكّلها النباتات المتسلّقة، متأهّبون لفتح النار على أول هندي، يعترض طريقهم. ساد الغابة العذراء - بعد تلك الإشارات - سكون عميق ومخيف، رغم ذلك، فلم يكن القرصان ورفاقه يشعرون بالطمأنينة، بل كانوا يخشون

مباغتة الأعداء. يشعرون غريزياً أن أولئك الأعداء الذين يجهدون أنفسهم في الاختباء كانوا على مقربة منهم. وصلوا إلى منطقة، اشتد فيها الظلام، وتشابكت فيها الأشجار أكثر، فجأة شاهدوا الكتلوني يخفض رأسه، ثم يرتمي خلف جذع شجرة. وصل إلى أسماعهم أزيز خفيف، ثم اخترقت قصبة دقيقة أغصان الأشجار حتّى انغرست في غصن، يرتفع عن الأرض مقدار قامة رجل.

- إنها سهام - صرخ الإسباني - احترسوا.

كان كارمو خلف الإسباني، وما إن سمع ذلك حتّى فتح النار. لم يخفت - بعد - صوت الطلقة حتّى تردّد صراخ حادّ وطويل.

- يا للهول! لقد أصبتك إذنْ! - صرخ كارمو.

- احترسوا - هتف الكتلوني في تلك الأثناء.

مرت أربعة أو خمسة سهام، يقارب طولها المتر، فوق رؤوس البحّارة الذين ارتموا على الأرض في الوقت المناسب.

- إنهم هناك، في تلك المنطقة الكثيفة - صرخ كارمو.

قام ستيلر، الزنجي والكتلوني بفتح النار معاً، فدوت رصاصاتهم كأنها ضربة واحدة، إلا أنهم لم يسمعوا أيّ صراخ هذه المرة، ولكنهم كانوا يسمعون تكسّر الأغصان وخشخشة الأوراق، ثم ساد الصمت فجأة.

- يبدو أننا أخفناهم - قال ستيلر.

- اصمت، واختبئ خلف الأشجار- أجاب الكتلوني.

- أتظنّ أنهم سيباغتوننا مجدداً؟ - سأل القرصان.

- لقد سمعتُ خشخشة أوراق على الجانب الأيمن أيضاً.

- لقد نصبوا لنا كميناً حقيقياً، إذنْ؟

- أظن ذلك، يا سيدي.

- إذا كان فان غولد يعتقد أن الهنود سيعيقون تقدّمنا، فهو مخطئ. سنتقدّم رغم كل العقبات.

- يجب أن لا نبتعد عن هذه الأشجار التي نحتمي خلفها، يا سيدي. ربما كانت سهام الكاراييين مسمومة.

- حقاً؟

- أيقومون بتسميمها، كما يفعل آكلي لحوم البشر في الأورينوكو والأمازون؟

- ولكنْ؛ لا يسعنا أن نبقى هنا إلى الأبد.

- أعرف ذلك، ولكنْ؛ يجب تلافي سهامهم تلك.

- سيدي - هتف الزنجي في تلك الأثناء - أتودّ أن أذهب؛ لأتفحّص تلك المنطقة؟

- لا، ستعرّض نفسك للهلاك حتماً.

- اصمتوا - قال كارمو - ألا تسمع هذا، يا قبطان؟

تردّد صدى أنغام الفلوت في المنطقة الأشدّ كثافة في الغابة، كانت موسيقى حزينة ورتيبة، لكنها حادّة جداً حتّى يمكن سماعها من مسافات بعيدة.

- ماذا تعني هذه الموسيقى؟ - سأل القرصان الذي بدا يفقد صبره - أهي إشارة للتجمّع؟ أم للهجوم؟

- أتسمح لي بأن أسدي نصيحة، يا قبطان؟ - قال كارمو.

- تكلّم.

- لنحرق الغابة، ونُجبر الهنود على الخروج من جحورهم.

- ولكنْ؛ سنحترق نحن أيضاً؛ إذ ليس بمقدور احد أن يطفئ النيران، إذا ما اشتعلت.

- لنتقدّم، ونطلق النار يميناً وشمالاً - اقترح ستيلر.

- أعتقد أنها فكرة جيدة - قال القرصان - لنتقدّم، هيا، افتحوا النيران على الجانبين، أيها الشجعان، وسأقوم أنا بفتح الطريق.

تقدّم القرصان ماسكاً السيف بيمينه، والمسدّس بيساره، يسير خلفه الباقون، وقد انقسموا إلى فرقتين. ما إن ابتعدوا عن جذوع الأشجار حتّى أطلق كارمو والزنجي النيران، أحدهما على جهة اليمين، والآخر على جهة اليسار، وبعد لحظات، تبعهما الكتلوني وستيلر. استمروا على هذا المنوال دون أن يعيروا اهتماماً للذخيرة. كان القرصان في الأثناء يقطع النباتات المتسلّقة والأوراق الكبيرة التي تعيق مسيرهم، لكنه على أتمّ الاستعداد لإطلاق النار، إذا ما وقع نظره على الهنود. كان دوي إطلاق النار قد أخاف الهنود؛ إذ لم يجرؤ أحد منهم على الظهور، رغم ذلك، فقد سقطت بضعة سهام على مقربة من المجموعة، أو مرت فوقهم، ولكنْ؛ دون أن تؤذي أحداً. تنفّست المجموعة بعمق ظناً منهم أنهم تخلّصوا من الكمين، فجأة، وإذا بشجرة عظيمة تسقط أمامهم مسبّبة ضوضاء كبيرة، فأغلقت الطريق.

- يا رعود هامبورغ - هتف ستيلر الذي كاد أن يتهشّم تحت الشجرة - لو أنها تأخّرت في السقوط قليلاً؛ لسحقتنا جميعاً.

لم يُنه ستيلر جملته بعد حتّى تعالى صراخ قوي، ثم اخترقت الهواء عدّة سهام، وانغرست في جذوع الأشجار. ارتمى القرصان ورجاله على الأرض بسرعة، واختبؤوا خلف الشجرة الممدّدة فوق الأرض، وقد اتخذوها كخندق.

- أرجو أن يظهر الهنود هذه المرة - قال كارمو - فلم يصادف أن رأيتُ وجوههم من قبل.

- تفرّقوا - قال القرصان - إذا رأونا مجتمعين هكذا، فسيمطروننا بالسهام.

كان الرجال يتفرّقون خلف الشجرة الكبيرة؛ لكيلا يكونوا هدفاً للهنود، وبينما هم كذلك، وإذا بهم يسمعون أنغام الفلوت على مسافة قريبة جداً.

- إن الهنود يقتربون - قال ستيلر.

- استعدوا لمواجهتهم بالرصاص - أمر القرصان.

- لا، انتظر، يا سيدي - قال الكتلوني الذي كان ينصت إلى تلك الأنغام الحزينة - هذا ليس إعلاناً للحرب.

- ماذا تعني؟! - سأله القرصان.

- انتظر، يا سيدي.

نهض الكتلوني، وجعل ينظر من خلف الشجرة.

- إنه رسول منهم - هتف الكتلوني - يا إلهي! إنه رئيس القبيلة، ها هو يتقدّم نحونا، يا سيدي.

- رئيس القبيلة!

نهض البحّارة والبنادق بين أيديهم؛ لأنهم لا يثقون بأكلة لحوم البشر، وإذا بهندي يظهر من بين الأشجار، ويتقدّم نحوهم، يتبعه عازفا فلوت. كان رجلاً متقدّماً بالسن متوسط القامة، كما هي حال كل هنود فنزويلا، عريض المنكبين، وبارز العضلات، يميل لون بشرته إلى صفرة، يشوبها الاحمرار، وكان لوناً داكناً ربما بفعل عاداتهم في دلك أجسامهم بدهن السمك، أو البندق، أو جوز الهند للاحتماء من لسعات البعوض الرهيبة. كان وجهه المدوّر حزين التعبير أكثر من كونه وحشياً، وكان ملتح رغم عادة الهنود في حلق لحاهم، وشعره الطويل أسود اللون، يميل سواده إلى الزرقة القاتمة. ولأنه كبير القبيلة، فقد كان يرتدي تنّورة قطنية قصيرة زرقاء اللون، ومزيّناً بمختلف أنواع الزينة:

قلادة من الصدف، خواتم من عظام الأسماك منحوتة بعناية كبيرة، أساور من عظام ومخالب وأسنان الجاكوار، مناقير طوقان، قطع من بلور الجبل، وأساور من الذهب. يعتلي رأسه إكليل من ريش ببغاء ناصع البياض وريش الارا وريش التدرّج المائي، بينما يخترق حاجز أنفه شوكة سمك، يبلغ طولها ثلاث، أو أربع بوصات. كان الآخران - أيضاً - يرتديان تنّورتين، وعليهما بعض الزينة، ولكنْ؛ بمقدار أقلّ نسبة إلى كبير القبيلة، إلا أنهما كانا يحملان أقواساً طويلة من الخشب والحديد، ومجموعة من النبال، تنتهي بنصل من العظام، أو من الحجر، ويحملان هراوتين، يبلغ طول إحداهما المتر ملونة بمختلف الألوان.

أصبح كبير القبيلة على مسافة خمسين خطوة من الشجرة، أوعز إلى العازفين، فصمتا، ثم صرخ بصوت جهوري، وبإسبانية سيئة:

- أنصتوا، أيها الرجال البيض!

- الرجال البيض يستمعون إليك - أجاب الكتلوني.

- هذه هي أراضي الأراواكي، فمَن أعطى الإذن للرجال البيض أن يمرّوا عبر غاباتنا؟

- ليست لدينا أيّ نية لاغتصاب هذه الأرض - أجاب الكتلوني - نحن نجتازها - فقط - للوصول إلى أراضي البيض التي تتواجد جنوب سواحل ماراكايبو، ولا نريد سوءاً بالهنود الحمر، على العكس، بل نحن نعدّهم أصدقاء.

- لا تربط الأراواكي أيّ علاقة صداقة مع الرجال البيض؛ لأنهم قاموا بقتل الهنود الحمر الذين يسكنون المناطق الساحلية. إن هذه الغابات هي موطننا، فعودوا من حيث أتيتُم، وإلا أكلناكم كلكم.

- اللعنة - هتف كارمو - إن لم أخطئ، فهم ينوون طهينا على المشواة.

- نحن لسنا من أولئك الرجال البيض الذين استعمروا السواحل،

واستعبدوا الكاريبيين، بل نحن أعداؤهم، ونمرّ عبر هذه الغابات لملاحقة بعض الفارّين منهم - أجاب القرصان الأسود، وقد ظهر أمامهم.

- هل أنت رئيسهم؟ - سأل رئيس القبيلة.

- أجل، أنا رئيس الرجال البيض الذي هم بصحبتي.

- وتطارد رجالاً بيض آخرين؟

- أجل؛ لكي أقتلهم. هل مرّوا من هنا؟

- أجل، لقد رأيناهم يمرّون، ولكنْ؛ تأكّد أنهم لن يمضوا بعيداً، فسوف نأكلهم.

- وأنا سأساعدك في قتلهم.

- إذنْ؛ أنت تكرههم؟

- أجل، إنهم أعدائي.

- فاذهب - إذنْ - لقتلهم على الساحل، ولكنْ؛ لن تفعل ذلك هنا على أراضي الأراواكي. عودوا أدراجكم، أيها الرجال البيض، وإلا أعلنّا الحرب ضدكم.

- لقد أخبرتك مسبقاً أننا لسنا أعداء للهنود الحمر، نحن نحترم قبيلتك وأراضيك.

- عودوا أدراجكم، أيها الرجال البيض - كرّر رئيس القبيلة بإصرار.

- دعني، نتحدّث إليك.

- لقد قلتُ: ارجعوا من حيث أتيتُم، وإلا أكلناكم.

- هذا يكفي، سنعبر هذه الغابة رغماً عنك، وعن قبيلتك.

- سنمنعكم من ذلك.

- لدينا أسلحة تُطلق رعوداً وصواعق.

- ونحن لدينا النبال.

- لدينا حراب تمزّقكم، وسيوف تقطع رؤوسكم.

- ونحن لدينا الهراوات التي ستهشّم رؤوسكم.

- هل أنت حليف للرجال الذين نطاردهم؟ - سأله القرصان.

- لا، بل سنأكلهم حتماً.

- إذنْ؛ أنت تبغي الحرب؟

- أجل، إذا لم تعودوا من حيث أتيتُم.

- يا رجال البحر - هتف القرصان، وقد وثب من فوق الشجرة شاهراً سيفه بيده - لنُري هؤلاء الهنود أننا لا نهابهم، هيا.

ما إن رآهم رئيس القبيلة، وهم يتقدّمون نحوه، والأسلحة بين أيديهم حتّى ولّى ورفاقه هاربين، وتوغّلوا في منطقة كثيفة الأشجار. منع القرصان رفاقه من إطلاق النار عليهم؛ لأنه لا يودّ أن يبدأ القتال، ولكنه كان يتقدّم بحزم عبر الغابة، وكان على أهبة الاستعداد لصدّ هجمة الأراواكي. لقد عاد كما هو، قرصان التورتو المرعب الذي أثبت بسالته وإقدامه في مواطن عدّة. كان يقود المجموعة شاهراً سيفه في يمينه، والمسدّس في شماله، يفتح لهم الطريق في الغابة، متأهّباً للنزال. لم يمرّ وقت طويل حتّى بدأت السهام تصفرّ بين الأغصان، فردّ عليها ستيلر وكارمو برصاصتين، أطلقاهما لا على التعيين، ذلك أن الهنود قد اختفوا رغم تبجّح رئيسهم. صاروا يطلقون النار يميناً وشمالاً، بين دقيقة وأخرى، حتّى تمكّنوا من اجتياز المنطقة الأشدّ كثافة في الغابة دون خسائر، رغم بعض النبال والرماح التي أُمطرت عليهم، ووصلوا

إلى منطقة جرداء، شكّلت الأخاديد في وسطها ما يشبه المستنقع. ولما رأوا الشمس تشارف على الغروب، والهنود قد اختفوا، ولم تعد سهامهم تطال المجموعة، أمر القرصان بالمكوث هناك.

- إذا قرّروا الهجوم علينا، فسننتظرهم هنا - قال القرصان لرفاقه - إن هذه المنطقة الجرداء واسعة، وسنتمكّن - حتماً - من رؤيتهم، إذا ما ظهروا.

- ليس هناك مكان أفضل من هذا - قال الكتلوني - إن الهنود خطرون في الغابة، ولكنهم لا يجرؤون على الهجوم في الأراضي المفتوحة، من ثم؛ إننا سنرتّب تخييمنا بشكل يمنعهم من الهجوم علينا.

- أتنوي أن تحفر خندقاً هنا؟ - سأل كارمو - سيتطلّب ذلك الكثير من الوقت، يا صديقي الكتلوني.

- بل سيكفينا شرّهم حاجز ناري بسيط.

ولكنهم سيجتازونه حتماً، فهم ليسوا كالجاكوار، أو الكوغوار حتّى يخافوا النيران.

- وما قولك في هذه؟ - قال الكتلوني وقد عرض حفنة من البذر المدوّر

- إنه فلفل إفرنجي، لا، بل أقوى أنواع الفلفل. لقد جمعتُ الكثير منه خلال مسيرنا حتّى ملأت جيوبي.

- رغم أنه يحرق الفم، إلا أنه لذيذ جداً مع اللحم.

- هذا ما سيجدي نفعاً مع الهنود.

- وكيف ذلك؟

- سنضعه في النار.

- وهل يخشى الهنود من فرقعة هذه الحبوب؟

- لا، بل هم يخشون من الدخان الذي ينبعث منها، فإذا ما أرادوا أن يعبروا الحاجز الناري، فسيحرق الدخان عيونهم، وسيسبّب لهم العمى بعد ساعتين فقط.

- يا للهول! إنك أمكر من الشيطان.

- لقد علمني الكاريبيون هذه الوسيلة للاحتماء من الأعداء، وسترى كيف سيكون فعالاً، إذا ما حاول الأراواكي الهجوم علينا. والآن هيا، لنجمع الحطب، وننتظرهم بكل طمأنينة.

-٢٦-
كمين الأراواكي

تناولوا عشاءهم ممّا تبقى لديهم من لحم السلاحف الذي احتفظوا به منذ الصباح مع قليل من قطع الخبز، ثم قاموا بالتفتيش في الجوار خشية أن يكون الهنود قد كمنوا لهم في مكان ما، بعد ذلك، داسوا العشب، بأرجلهم، للتخلّص من الأفاعي. أشعلوا النار حول المكان الذي ينامون فيه، وطرحوا فيها بعض الفلفل، وكان وسيلة فعّالة للتخلّص من البعوض والهنود. قرّروا التناوب على الخفارة خشية أن يباغتهم الهنود، فأسندت النوبة الأولى للبحّارَيْن والزنجي والنوبة الثانية للقرصان والكتلوني. بعد أن حشا الأخيران سلاحيهما، عجّلا بالنوم، في حين لزم كارمو ورفيقاه مواقعهم خلف دائرة النار، وقد أسندوا أسلحتهم إلى ركبهم. هبط الصمت على الغابة العملاقة، كان سكوناً يثير الرعب في قلوب الخفر الذي كانوا يعلمون - بحكم التجربة - أن الهنود يفضّلون الهجوم ليلاً؛ لأن ذلك يجعلهم في مأمن من رصاص الأسلحة، من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الظلام يساعدهم على الدنوّ من أهدافهم بسهولة، بالذات في الغابات. كان كارمو يفضّل سماع عواء الجاكوار وزئير أسد الجبال على الهنود، على الأقل، فإن تواجد تلك الحيوانات المفترسة هو دليل على عدم تواجد الهنود الحمر. مرّت ساعتان، وهم يحدّقون في المناطق القريبة الكثيفة الأشجار، ويطرحون فوق النار، بين الحين والآخر، حفنة من الفلفل. فجأة، وإذا بالأفريقي، والذي كان مرهف السمع، أحس بأزيز أوراق تتحرك.

- أسمعتَ، يا رفيقي الأبيض؟ - همس الزنجي، وقد مال برقبته نحو كارمو الذي كان منهمكاً بتدخين قطعة سيجار، عثر عليها في جيبه.

- ما سمعتُ شيئاً، يا رفيقي الأسود - أجاب البحّار - فليس هناك ضفادع تعوي مثل الكلاب هذا المساء.

- لقد تحرّك غصن ما هناك، لقد سمع رفيقك الزنجي ذلك.

- إذنْ؛ فرفيقك الأبيض أصمّ.

- اصمت، أما سمعتَ؟ لقد تهشّم غصن ما.

- لم أسمع شيئاً قط، ولكنْ؛ إذا كان حقاً كما تقول، فهذا يعني أن أحداً ما يقترب من مخيمنا.

- أجل، يا رفيقي.

- ومَن يكون؟ أليس لرفيقي الأسود عيون قط؛ ليراه؟ لكان أمراً رائعاً حقاً.

- لا أرى شيئاً، ولكنْ؛ أشعر أن أحداً ما يقترب منا.

- إن بندقيتي جاهزة، اصمت، ودعنا نصيخ السمع.

- تمدّد على الأرض، يا رفيقي الأبيض وإلا أصابتك السهام.

- سآخذ بنصيحتك، فلا أودّ أن أموت بسهم، يمزّق أحشائي.

تمدّد كلاهما بين العشب، وأشارا لستيلر الذي كان في الجهة الأخرى أن يفعل مثلهما، وبقوا ينتظرون، وأسلحتهم بين أيديهم. أحد ما، أو ربما عدّة رجال، كانوا يحاولون الاقتراب من المخيم. في عمق المنطقة الكثيفة بالأشجار، وعلى مسافة خمسين خطوة، كانت هناك أوراق ترقص، وأغصان تفرقع. يبدو أن الأعداء يحاولون الدنوّ بحذر دون أن يكشفهم أحد حتّى يصبح المخيم في مرمى سهامهم. كان الزنجي والبحّاران يتوارون كلياً بين الحشائش دون أن يتحرّكوا، وهم ينتظرون ظهور أحد ما؛ كي يفتحوا النار. وثب كارمو فجأة، وقد خطرت في ذهنه فكرة.

- أتظن، يا رفيقي، أنهم لا يزالون بعيدين؟

- الهنود؟

- أجل، أخبرني بسرعة.

- إنهم لا يزالون وسط المنطقة الكثيفة بالأشجار، ولكنْ؛ إذا ما استمروا في التقدّم، فسيصلون بعد دقائق على أطرافها.

- لديّ ما يكفي من الوقت. ارمِ إليّ بقبّعتك وجاكيتك، يا ستيلر.

أسرع ستيلر في تلبية طلبه، وهو يدرك أن كارمو إنما طلب ذلك منه؛ لأنه يخطّط لشيء ما. قام كارمو، وخلع هو الآخر جاكيته، تناول بضعة أغصان، وصنع منها صليبين، ثم ألبسهما الجاكيتين والقبّعتين.

- ها قد انتهيت - قال وهو يتمدّد بين الحشاش.

- إن رفيقي لماكر فعلاً - قال الزنجي ضاحكاً.

- لو لم أصنع هاتين اللعبتين؛ لأطلق الهنود سهامهم صوب القرصان والكتلوني، أما الآن؛ فهم في مأمن منها.

- اصمت، يا رفيقي، ها هم يتقدّمون.

- وأنا على أتمّ الاستعداد. ضع بعض الفلفل في النار، يا ستيلر.

همّ ستيلر بالنهوض، ولكنه سرعان ما عاد، وانطرح أرضاً. تناهى إلى مسامعهم أزيز ما، ثم انغرست ثلاثة، أو أربعة سهام في اللعبتين.

- لقد هدرتُم السمّ دون جدوى، يا أعزائي - تمتم كارمو - وها أنا أنتظر ظهوركم؛ لأذيقكم حلاوة الرصاص.

ولما لم يرَ الهنود أيّ حركة، قاموا بتسديد سهام أخرى نحو اللعبتين، ثم

تقدّم أحدهم، لا شك أنه الأكثر إقداماً بينهم، وخرج من بين الأشجار حاملاً بيده هراوته الرهيبة. وجّه كارمو بندقيته نحوه، وكاد يطلق النار عليه، ولكنْ؛ تردّد في الفضاء فجأة صدى طلقات نارية، تبعتها صرخات عالية على مسافة بضعة أميال وسط الغابة. تراجع الهندي بسرعة البرق قبل أن يضغط كارمو على الزناد، ثم توارى بين الأشجار. استيقظ القرصان والكتلوني على صدى تلك الطلقات النارية والصرخات العالية، ثم وثبا ظنّاً أن الهنود كانوا يحاصرون المكان.

- أين هم؟! - سأل القرصان.

- مَن، يا سيدي؟ سأله كارمو.

- الهنود.

- لقد اختفوا، يا قبطان، اختفوا قبل أن أُذيقهم حلاوة رصاص بندقيتي.

- وما كان ذلك الصراخ وتلك الطلقات النارية؟ .. أسمعتَ؟ إنها ثلاث طلقات نارية أخرى!

- أظن أن قتالاً يدور وسط الغابة - قال الكتلوني - لا بد أن الهنود قد هاجموا رجالاً بيض، يا سيدي.

- أيكونون الحاكم ورجاله؟

- أحسب ذلك، يا سيدي.

- يحزنني أن يقتلوه هم.

- ويحزنني أنا أيضاً؛ إذ لا يمكنني أن أضرب ميتاً بالعصا، ولكنْ؛ ...

- اصمت! ...

تردّد صدى طلقات أخرى على مسافة بعيدة، ثم تعالى بعدها الصراخ، لا بد أنه صراخ قبيلة هنود كبيرة. تردّد صدى طلقة أخيرة، ثم أطبق بعدها الصمت.

- لقد انتهى القتال - قال الكتلوني - لا يهمّني ما أصاب الحاكم، ولكنْ؛ يشغلني أبناء بلدي.

- يهمّك أن تعرف ما أصابهم، أليس كذلك؟ سأله القرصان.

- أجل، يا قبطان.

- أما أنا؛ فيهمّني أن أعرف فيما إذا كان عدوّي اللدود لا يزال حياً أم لا - أجاب القرصان بنبرة قاتمة - أبوسعك أن تقودنا الآن؟

- إن الظلام دامس، يا سيدي، ولكنْ؛ ...

- أكمل.

- بوسعنا أن نشعل بعض الأغصان الشمعية، ونسير بها.

- ولكن هذا يجذب انتباه الهنود إلينا.

- أنت محق، يا سيدي.

- ربما بوسع بوصلاتنا أن تقودنا.

- هذا مستحيل، يا سيدي، فلن نستطيع أن نتجنّب كل العقبات التي تُخبّئها لنا هذه الغابة، ولكنْ؛ ...

- قل ما في ذهنك.

- ... بوسعنا الانتفاع بالكوكويو. امنحني خمس دقائق، يا سيدي. تعال معي، يا موكو.

نزع قبّعته، وتوجّه مع موكو صوب مجموعة من الأشجار التي كانت تتوهّج بينها، في ذلك الظلام الدامس، نقاط ضوئية خضراء.

- ماذا ينوي أن يفعل هذا الشيطان الكتلوني؟! - تساءل كارمو الذي لم يفهم بعد مخطّط الكتلوني - كوكويو ... وما عساها تكون؟ كن مستعداً، يا ستيلر، قد يقعان في كمين ما.

- اطمئن، يا رفيقي، فأنا متأهّب لحمايتهما.

ما إن وصل الكتلوني عند الشجرة حتّى رآه الآخرون يقفز يميناً وشمالاً، كأنه يصطاد تلك النقاط المضيئة. رجع بعد دقيقتين، وقد أغلق على القبّعة بكلتي يديه.

- الآن بوسعنا المسير، يا سيدي - قال مخاطباً القرصان.

- وكيف ذلك؟ - سأله القرصان.

مدّ الكتلوني يده في القبّعة، وأخرج حشرة، تبعث نوراً أخضر، ينير لمسافة ليست بالقليلة.

- سنربط الكوكويو إلى سيقاننا، تماماً كما يفعل الهنود، وسيمنحنا ضوؤها القدرة على رؤية النباتات المتسلّقة والجذور التي تسدّ الطريق، بل وحتّى الأفاعي الخطرة التي تختبئ بين الأوراق. مَن منكم لديه بعض الحبال؟

- لا يخلو البحّار من الحبال - قال كارمو - سأقوم أنا بربط هذه الوكويو.

- احترس أن تشدّها بقوة.

- اطمئن أيها الكتلوني، ثم إن لديك الكثير منها على ما أرى، فقبّعتك مليئة منها.

قام كارمو، بمساعدة ستيلر، بربط كل اثنين من الكوكويو معاً، ثم ربطها

إلى أكعُب رفاقه، محاولاً ألا يخنقها. كانت عملية صعبة بعض الشيء، وقد تطلب إنجازها نصف ساعة تقريباً. أخيراً أصبح الجميع مزوّدين بتلك المصابيح الغريبة.

- يا لها من فكرة عبقرية - قال القرصان.

- إن الهنود هم مَن ابتكروا هذا - قال الكتلوني - بفضل هذه الخنافس المضيئة، سنتمكّن من تجاوز العقبات التي سنلاقيها في الغابة.

- أنتم مستعدون؟

- أجل، يا سيدي - أجاب كارمو.

- هيا بنا إذنْ، ولكنْ؛ حاولوا أن لا تثيروا الضجيج.

ساروا واحداً خلف الآخر بخطى سريعة، وهم ينظرون إلى الأرض، ليستبينوا مواضع أقدامهم. كانت الكوكويو تؤدي وظيفتها بشكل رائع، فما كانوا يرون - فقط - النباتات المتسلّقة والجذور الممتدة بين الأشجار، بل وحتّى الحشرات الليلية. كانت تلك الخنافس المضيئة من أروع أصنافها الكثيرة، وكانت الأكبر حجماً أيضاً. تبعث ضوءاً، يسمح بالقراءة من على مسافة ثلاثين سنتيمتراً، بل وحتّى خمس وثلاثين سنتيمتراً، فقد كانت أعضاء الإضاءة فيها قوية جداً. حينما لا تزال صغيرة، فإن هذه الخنافس تصدر ضوءاً أزرق، وما إن تكبر حتّى يتحوّل الضوء إلى اللون الأخضر، بمؤثّرات غاية في الجمال. وحتّى البيض الذي تضعه إناث هذه الحشرات مضيئة بعض الشيء.

لقد أنجزت دراسات حول هذه الحشرات لمعرفة الأعضاء التي تبعث الضوء، وقد توصّل العلماء إلى أن هناك ثلاث مناطق، تقع اثنان منها في مقدّمة الصدر، والأخرى عند البطن، وإنها تحتوي على مادة ألبومين قابلة للانحلال في الماء والتخثّر في الحرارة. واكتشفوا - أيضاً - أن هذه

الأعضاء تحتفظ بقابليتها على الإنارة لبعض الوقت حتّى وإن انتُزعت من الحشرة، وحتّى إن جفّفت، وطُحنت، فإنها تستعيد قابليتها على الإضاءة حال خلطها مع الماء.

استمر البحّارة في مسيرهم، وهم يتوغّلون دون تردّد بين الشجيرات، أو تحت قبب النباتات المتسلّقة، أو بين الجذور الضخمة التي تشكّل شبكة، لا يسهل الخلاص منها، أو يجتازون جذوع الأشجار الساقطة بفعل الصواعق، أو الهرم. ما عادوا يسمعون الطلقات النارية، ولكنْ؛ لا تزال تصل إلى مسامعهم صرخات بعض قبائل الهنود. كانت تصمت تارة، ثم يتردّد صداها حاداً تارةً أخرى، بعد ذلك تخمد تماماً. كانت تصل إلى أسماعهم - بين الحين والآخر - بعض نغمات الفلوت، وبعض الضجيج، ربما يصدر عن بعض الطبول. يبدو أن القتال قد انتهى تماماً، وأن قبيلة الهنود تجمّعت في إحدى زوايا تلك الغابة الشاسعة المظلمة، ربما للاحتفال بالنصر، أو من أجل مائدة وحشية، ذلك أنّ هنود فنزويلا، الكاريبي والأراواكي بشكل خاص، كانوا معتادين على أكل سجنائهم وأعدائهم الذين يسقطون خلال القتال.

كان الكتلوني يحثّ السير، تدفعه رغبته لمعرفة ما حلّ برفاقه في السلاح. ما كان يهمّه أمر الحاكم، بل كان يأمل في أعماق قلبه أن يكون قد قُتل، أو حصل له ما هو أسوأ من ذلك؛ أي أن يكون على مشواة الهنود. لكن ما يشغله هم أبناء بلده، فكان يسرع الخطى أملاً في اللحاق بهم، ومساعدتهم، فهو يخشى أن يكونوا قد وقعوا بين أيدي أكلة لحوم البشر. كان الصراخ لا يزال بعيداً، وبينما رفع كارمو رأسه؛ ليتجنب بعض النباتات المتسلّقة، وإذا به يعثُر بكتلة ما، ويسقط أرضاً وقد هرس الكوكويو التي كانت مربوطة إلى كعب قدمه.

- اللعنة - هتف، وهو ينهض ببطء - ما كان هذا؟ ... يا إلهي! ... إنه رجل ميت!

- رجل ميت! ... هتف الكتلوني والقرصان، وقد انحنيا نحو الأرض.

- انظروا! ...

كان هناك هندي طويل، تزيّن رأسه ريشة ببغاء، ويرتدي تنّورة زرقاء اللون، ممدّداً ما بين الأوراق والجذور. فلقت رأسه ضربة سيف، واخترقت صدره رصاصة. ولكنْ؛ يبدو أنه قُتل تواً؛ إذ كانت جراحه لا تزال تنزف دماً.

- ربما دار القتال هنا! - قال الكتلوني.

- أجل - قال ستيلر مؤكداً ذلك - أرى هناك بعض الهراوات وبعض السهام التي لا تزال مغروسة في جذوع الأشجار.

- لنبحث فيما إذا كان هناك أحد ما من رفاقي - قال الكتلوني بصوت شجي.

- إنها مضيعة للوقت - قال كارمو - إذا كانوا قد قُتلوا، فهم الآن ولا شك فوق المشواة.

- قد يكون هناك جريح مختبئ في مكان ما.

- فتشوا المكان - قال القرصان.

راح الكتلوني، الزنجي وستيلر يفتشون بين الأشجار، ويصيحون بأصوات خافتة، ولكنْ؛ دون جدوى. وجدوا في بحثهم هندياً آخر، اخترقت صدره رصاصتان، ثم بعض الهراوات وبعض الأقواس وحزمة من السهام. ولما لم يجدوا أحداً في ذلك المكان، عاودوا السير. أصبح صراخ الهنود أقرب إلى مسامعهم، وإذا ما استمروا في مشيهم الحثيث ذلك، فإنهم سيصلون إلى مكان تواجد الهنود في أقل من ربع ساعة. بدا أن الأراواكي يحتفلون بانتصارهم حقاً، فقد كانت نغمات الفلوت تعبّر عن بهجتهم. ما إن قطع البحّارة المنطقة الكثيفة الأشجار حتّى لمحوا من خلال الأوراق ضوءاً قوياً يصعد نحو السماء.

- أهم الهنود؟ - سأل القرصان، وقد توقّف عن المشي.

- أجل - قال الكتلوني.

- أهم يجتمعون حول النار؟

أجل. ما عساهم يطهون فوق هذه النار؟ - قال الكتلوني بصوت حزين.

- ربما أحد أسراهم.

- أخشى ذلك، يا سيدي.

- أيها الأوغاد - تمتم القرصان الذي اجتاحته رجفة لا إرادية - هيا، يا أصدقائي، لنقترب، ونرى إذا كان فان غولد لا يزال حياً أم أنه لاقى ما يستحقّ من عقوبة على جرائمه.

-٢٧-
ما بين سهام ومخالب

حينما وصل البحّارة قرب الأشجار التي تحيط بالمكان الذي اجتمع فيه الهنود، وقعت أعينهم على منظر رهيب. كان هناك ما يقارب العشرين أراواكياً يجتمعون حول نار مُوقدة، ينتظرون بفارغ الصبر أن يملؤوا بطونهم من الشواء الذي يكاد ينضج في سيخ كبير. لو كان الشواء حيواناً برّياً، كأن يكون تابيراً، أو جاكواراً، لما استاء البحّارة من ذلك، ولكنه لم يكن سوى جثتين بشريّتين، كانا رجلين أبيضين، وعلى أغلب الظن من رفاق فان غولد الإسبان. كان المسكينان اللذان تكاد أسنان أولئك الوحوش أن تنهشهما قد شُويا، وصارت جلودهما تفرقع تحت النار، فكانت تنبعث منهما رائحة، تثير الغثيان، إلا أن نفس الرائحة كانت تثير النشوة في أولئك الوحوش.

- بكل صواعق الجحيم - هتف كارمو مرتجفاً - كان يبدو لي مستحيلاً أن أرى أحدا ما يتغذّى على لحم آخر شبيه به ... يا لهم من حيوانات!

- أتستطيع أن تتبيّن هذين المسكينين؟ - سأل القرصان الكتلوني.

- أجل، يا سيدي - أجاب الكتلوني بصوت مخنوق.

- أكانا من رفاق فان غولد؟

- أجل، إنهما جنديان، أنا متأكد من ذلك رغم أن النيران قد أكلت لحومهما.

- وماذا ترى أن نفعل؟

- سيدي - تمتم الكتلوني، وهو ينظر إلى القرصان بعينين متوسلتين.

- تودّ أن نستعيدهما من هؤلاء الوحوش، وأن ندفنهما، كما يليق بهما، أليس كذلك؟

- ولكنْ؛ سأسبّب لكم المتاعب، يا سيدي. فقد يطاردنا الأراواكي.

- أنا لا أخشي هؤلاء الوحوش - قال القرصان بزهو - ثم إن عددهم قليل.

- ربما كان هناك آخرون، يا سيدي، فمن المستحيل أن يأكل هؤلاء - فقط - الرجلين.

- حسناً، سنحاول دفن رفيقيك قبل أن يصل الآخرون، إذنْ. يا كارمو ويا ستيلر، أنتما قناصان ماهران، فلا تخطآ الهدف.

- سأقوم أنا بقتل الرجل الضخم، ذاك الذي يطرح فوق النار أعشاب مطيّبة - قال كارمو.

- أما أنا - قال ستيلر -؛ فسأهشّم رأس الرجل الذي يمسك القضيب لتقليب الشواء.

- افتحوا النار - أمر القرصان.

انطلقت رصاصتان، وقد كسرتا الصمت المخيم على الغابة العذراء. سقط الهندي العظيم الجثة فوق الشواء، بينما انقلب الآخر إلى الخلف، وقد تهشّم رأسه. وثب رفاقهم وبأيديهم هراواتهم وأقواسهم، ولكنهم كانوا ذاهلين من الرصاصتين المفاجئتين حتّى إنهم لم يفكروا بعد بالرد على الهجوم. استغل الكتلوني وموكو ذلك الموقف، وأطلقا النار على المجموعة. لما رأى الهنود رجلين آخرين يسقطان، فروا مباشرة بين الشجيرات. وبينما كان البحّارة يتقدّمون، وصل إلى مسامعهم ضجيج بعيد.

- اللعنة - هتف كارمو - إن رفاقهم سيعودون قريباً.

- هيا، أسرعوا - صرخ القرصان - إذا لم نستطع دفنهما، فارموهما وسط الشجيرات، سنعود لدفنهما فيما بعد.

- ولكن رائحة اللحم المحترق ستكشف أمرهما، يا سيدي - قال ستيلر.

- نفعل ما بوسعنا فعله.

أسرع الكتلوني بإبعاد السيخ عن النار، بينما كان ستيلر يطفئها بقدميه، وفي الأثناء راح كارمو والزنجي يحفران حفرة في أرض الغابة الرطبة والهشّة، بينما كان القرصان يقوم بدور الحراسة على أطراف المكان.

كان صراخ الهنود يقترب أكثر، يبدو أن القبيلة التي لاحقت فان غولد عادت - الآن - لمدّ يد العون إلى رفاقهم الذين كانوا يهيّئون لهم الطعام، بعد أن سمعوا تلك الطلقات النارية. كان القرصان يراقب المكان خشية أن يباغتهم الهنود الذين هربوا، ولكنه سرعان ما عاد إلى رفاقه بعد أن سمع أغصاناً تفرقع على مسافة ليست ببعيدة، وقال لهم:

- هيا، لنهرب، وإلا فستهجم علينا القبيلة كلها خلال خمس دقائق.

- لقد انتهينا، يا قبطان - قال كارمو الذين كان يهيل التراب بقدميه فوق الجثتين.

- سيدي - قال الكتلوني ملتفتاً نحو القرصان - إذا فررنا، فإنهم حتماً سيلاحقوننا. لنختبئ هناك، أعلى هذه الشجرة - قال وهو يشير إلى شجرة عظيمة، تشكّل وحدها غابة صغيرة - لن يتمكّنوا من العثور علينا وسط هذا الكم الهائل من الأوراق.

- إنك ماكر، يا رفيقي - قال كارمو - هيا بنا، إذنْ.

توجّه الكتلوني والبحّارة، يسبقهم موكو، نحو تلك الشجرة الكبيرة، وساعد

أحدهم الآخر في تسلّقها. كانت شجرة سوماميرا عظيمة جداً، إحدى أكبر الأشجار التي تنمو في غابات غوينا والفنزويلا، ذات أغصان كثيرة وطويلة، متشابكة وكثيفة الأوراق، يكسوها لحاء أبيض. تحيط بهذه الأشجار نتوءات طبيعية، تمتد من الجذور نحو الأعلى، ممّا ساعد ذلك البحّارة على تسلّقها بسهولة، والوصول إلى الأغصان الأولى، ومنها إلى ارتفاع خمسين متراً عن الأرض. كان كارمو يحاول الاستقرار فوق غصنين متقاطعين، وإذا به يشعر باهتزاز الغصن، كما لو أن أحداً كان يختبئ على الطرف الآخر من الغصن.

- أهذا أنت، يا ستيلر؟ - سأل كارمو - أتريد أن توقعني من أعلى هذه الشجرة، فتتحطم عظامي؟

- ماذا دهاك، يا كارمو؟ - سأله القرصان - ها هو ستيلر أمامي.

- إذنْ مَن الذي يهزّ الغصن من الطرف الآخر؟ لعلّ أحد الأراواكي قد فرّ ها هنا؟

جال ببصره، وإذا به يرى نقطتين ضوئيتين خضراوي اللون بين الأوراق الكثيفة عند طرف الغصن، تبعدان عنه حوالي عشر خطوات.

- برمال أولون، كما يقول الأولونيزي - هتف كارمو - أيّ حيوان هذا الذي يرافقنا؟ يا كتلوني، انظر لهاتين العينين اللتين تحدّقان بي، وقل لي أيّ حيوان هو!.

- أهناك حيوان ما فوق الشجرة؟ - سأل الإسباني.

- أجل - قال القرصان - يبدو أننا بصحبة سيئة.

- وها هم الهنود قد وصلوا - قال ستيلر.

- لقد رأيتُ هاتين العينين - قال الكتلوني بعد أن نهض واقفاً - ولكنْ؛ لا أعرف إذا كان أسد الجبل أم جاكوار.

- جاكوار! ... هتف كارمو راجفاً - هذا ما كان ينقصني، أن ينقضّ عليّ، ويوقعني فوق رؤوس الأراواكي.

- اصمت - هتف القرصان - ها هم يصلون.

- وماذا عن هذا الحيوان الرابض بالقرب مني؟ - قال كارمو، وقد بدأ يسيطر عليه القلق.

- ربما لا يجرؤ على الهجوم علينا، ابق هادئاً، وإلاّ افتُضح أمرنا.

- حسناً، سأبقى في مكاني، وسأضحّي بنفسي من أجل إنقاذكم.

- لا تقلق، وسيفي بيدي، يا كارمو.

- اصمتوا! ... ها هم الهنود - قال الكتلوني.

وصل الهنود، وهم يصرخون كالمهووسين، يقارب عددهم الثمانين، أو ربما أكثر، يحملون الهراوات والأقواس والرماح. هجموا على المكان كقطيع من الحيوانات، وبدل أن يجدوا الرجلين الأبيضين، وقد نضجت لحومهم، وإذا بهم يجدون جثث رفاقهم، فانفجروا غضباً لِما رأوا. علا لغطهم كالمجانين، ثم راحوا يضربون جذوع الأشجار بهراواتهم، فتسبّب عن ذلك صخب عال. ولما لم يجدوا أحداً هناك، صاروا يسددون سهامهم في كل الاتجاهات، نحو الشجيرات والأشجار العالية، فكان البحّارة في خطر داهم لشدة قربهم من ثورة الهنود.

ما إن نفّس الهنود عن غضبهم حتّى انتشروا في المكان بحثاً عمّن قتل رفاقهم، وسعياً في الحصول على شوي جديد، يحل محل الشواء المختفي. في حين بقي البحّارة مختبئين بين الأوراق الكثيفة دون أن ينبسوا ببنت شفة، حتّى نفّس الهنود عن غيظهم. ولكن قلقهم الأكبر كان بسبب ذلك الحيوان اللعين الذي لاذ بالفرار فوق تلك الشجرة، وكان كارمو الأشدّ قلقاً لفرط قربه منه، وهو يرى عينيه تلمعان وسط الأوراق. ذلك الحيوان، إن كان أسد جبل أم

جاكوار، لم يتحرك قط، ولكنْ؛ لا يمكن الاطمئنان إليه، فقد ينقض بين لحظة وأخرى على البحّار المسكين، ممّا قد يثير انتباه الهنود.

- يا للحيوان اللعين! - تمتم كارمو الذي كان يرتجف فوق الغصن - لا يكفّ عن التطلّع إليّ أبداً! أيها الكتلوني، أخبرني بربك في أيّ معدة سينتهي بي المطاف، إذا ما هجم عليّ هذا الحيوان؟

- اصمت، وإلا سمعنا الهنود - أجاب الكتلوني الذي كان أسفل منه.

- ليذهب إلى الجحيم ذلك الشواء، كان من الأفضل أن نترك الهنود يأكلونه بسلام. حتّى وإن دفنّاهما، فماذا سيتغيّر من أمرهما، فلن يكون بوسعهما أن ...

قطع كارمو كلامه بعد أن سمع خشخشة عند طرف الغصن، نظر إلى الحيوان بعينين زائغتين، وإذا به يراه يتحرك وكأنه جزء من وضعيته تلك.

- يا قبطان - تمتم كارمو - أظنه يتهيّأ للانقضاض عليّ.

- لا تتحرك - أجابه القرصان - قلتُ لك لا تقلق، وسيفي بيدي.

- أنا واثق أنه لن يفلت من طعنتك، يا سيدي، ولكنْ؛ ...

- اصمت، أرى هنديين يفتّشان تحت الشجرة.

- كم بودّي أن أرمي فوقهما هذا الحيوان اللعين.

نظر إلى طرف الغصن، فرأى الحيوان منتصباً على أطرافه الأربعة، كما لو أنه يستعد للقفز.

- لعلّه سيبتعد من هنا؟ - فكر كارمو متنفّساً بعمق - أظن أن الوقت قد حان؛ ليتركني وشأني.

نظر إلى الأسفل، فرأى ظلّين يطوفان حول الشجرة، ثم وقفا يتأملان النتوءات.

- لقد ازداد وضعنا سوءاً - تمتم كارمو.

بقي الهنديان بضع دقائق تحت الشجرة العظيمة، ثم ابتعدا عنها، وتوغلا بين الشجيرات. كان صراخ رفاقهما قد خفت، ممّا يدل على أنهم ابتعدوا جداً عن المكان. انتظر القرصان بضع دقائق أخرى، فلما رأى الصمت يخيم على المكان، ظن أن الأراواكي قد ابتعدوا تماماً، عندها قال لكارمو:

- حاول أن تهزّ الغصن.

- ماذا تنوي أن تفعل، يا قبطان؟

- لنحاول التخلّص من هذا الحيوان. تأهّب، يا ستلير، وجهّز حربتك.

- سأكون معه أنا أيضاً، يا قبطان - قال موكو، وقد نهض واقفاً، وقبض على البندقية من ماسورتها - سأرميه من فوق الشجرة بضربة واحدة.

لما رأى كارمو رفاقه من حوله، اطمأن تماماً، وصار يهزّ الغصن بقوة. أدرك الحيوان أنهم يريدون التخلّص منه، فأخذ يموء وينفخ مثل قطٌ غاضب.

- هيا، يا كارمو - قال الكتلوني - إذا لم يتحرك، فهذا دليل على أنه خائف منك. هزّ الغصن بقوة، وتخلص منه.

تشبّث البحّار بالغصن الذي كان فوقه، وصار يقفز بقوة. بدأ الحيوان يتراقص يميناً وشمالاً، واشتد مواؤه ونفخه. كانت تصل إلى أسماعهم أيضاً صرير مخالبه، وهو يحاول التشبث بالغصن، وأصبحت عيناه تتسعان خوفاً. وفي لحظة ما، وقد تمكّن الخوف منه، جمع كل قواه، ووثب إلى غصن آخر، كان قريباً منه سعيا للوصول إلى الجذع؛ لكي يهبط منه إلى الأرض. ولكنْ قبل وصول الحيوان إلى الغصن الآخر، سدد الأفريقي ضربته، فأصابه بقوة، وأرداه على الأرض صريعاً.

- أقتلتَه؟ - سأله كارمو.

- لم يتسنّ له حتّى أن يموء - أجاب موكو ضاحكاً.

- وهل كان جاكواراً؟ أظنه أصغر بكثير من ذلك الحيوان المفترس.

- لقد كان خوفك في غير محلّه، يا رفيقي - قال الأفريقي - كانت تكفي ضربة واحدة لقتله.

- وما عساه يكون، إذنْ؟

- إنه ماراكايا.

- لا يزال الأمر أكثر إبهاماً من ذي قبل.

- إنه حيوان يشبه الجاكوار، ولكنه ليس إلاّ قط كبير - أجاب الكتلوني - إنه يصطاد القردة والطيور، ولكنه يخشى الإنسان.

- أه! ... أيها الملوّن - هتف كارمو - لو كنتُ أعرف ذلك منذ البداية؛ لأمسكته من ذيله، ورميته من أعلى الشجرة، ولكنني سأنتقم منه على ما أصابني من الفزع، فعلى أية حال، لا أظن أن القطط سيئة الطعم، إذا ما شُويت.

- وهل أصبحتَ آكل قطط!

- سأذيقك إياه، أيها الكتلوني العزيز، وسنرى إذا ما أعجبك أم لا.

- أظنه سيعجبني، من ثم؛ إننا نفتقر إلى الطعام، والغابة التي سنجتازها ستكون خالية من الحيوانات.

- لماذا؟ - سأل القرصان.

- إنها غابة المسطّحات المائية، يا سيدي، وعبورها صعبٌ جداً.

- أهي شاسعة؟

- أجل، إنها تمتد حتّى جبل طارق.

- وهل يتطلّب عبورها وقتاً طويلاً؟ لا أودّ أن يسبقني الأولونيزي إلى جبل طارق.

- أظنّ أننا سنجتازها بأربعة، أو خمسة أيام.

- سنصل في الوقت المناسب إذا - قال القرصان مكلّماً نفسه - أعتقد أننا سنواجه المخاطر، إذا ما عزمنا على المسير الآن.

- أنصح، يا سيدي، بأن نقضي ليلتنا هذه فوق الشجرة، فالهنود ليسوا بعيدين، بما فيه الكفاية.

- ولكن فان غولد سيواصل السير، وستتّسع المسافة بيننا.

- سنلحق به في غابة المسطحات المائية دون شك، يا سيدي، أنا واثق من ذلك.

- أخشى أن يسبقني إلى جبل طارق، فيفلت مني مرةً أخرى.

- سأكون أنا في جبل طارق، يا سيدي، ولن أدعه يفلت مني. لم أنسَ بعد ما صنعه بي.

- ماذا يعني أنك ستكون في جبل طارق؟

- يعني أنني سأدخلها قبلكم، وسوف أراقبه.

- ولماذا ستدخل قبلنا؟

لأنني إسباني، يا سيدي - قال الكتلوني بنبرة زهو.

- أكمل.

- أرجو، يا سيدي أن تأذن لي بالقتال إلى جانب أبناء بلدي، وأن لا تجبرني على القتال بصفوفك ضد راية وطني.

- آه ... فأنت - إذنْ - تنوي الدفاع عن جبل طارق؟

- أريد أن أشارك في الدفاع عنها، يا قبطان.

- إذنْ؛ فأنت تريد أن ترمي نفسك في التهلكة. أما تعلم أن إسبانيي جبل طارق سيُقتلون جميعهم؟

- ليكن ذلك، يا سيدي، ولكنهم سيموتون بشرف، وأسلحتهم في أيديهم، وهم يتحلّقون حول راية وطنهم البعيد - قال الكتلوني بصوت مؤثّر.

- أنت محق، يا كتلوني، أقسم أنك رجل باسل حقاً - أجاب القرصان - ستسبقنا إلى هناك إذنْ، وستقاتل جنباً إلى جنب مع أبناء بلدك، إذا كان فان غولد فيامينغي، فإن جبل طارق إسبانية، ومن حقك الدفاع عنها.

-٢٨-
مصاصو الدماء

مرت ليلة ساكنة جداً حتّى إن البحّارة غطّوا في نوم عميق لبضع ساعات فوق الأغصان المتشابكة لشجرة السوماميريا العملاقة. لم يشب تلك الليلة سوى مرور مجموعة من الأراواكي الذين لم يفطنوا لوجود البحّارة، فاستمروا في سيرهم نحو الشمال. ولما أشرقت الشمس، استيقظ القرصان، وأصخّ سمعه؛ ليستكشف المكان، ولما أطمأن للسكون الذي يسود الغابة، أمر رفاقه بالنزول والاستعداد للرحيل. أول ما شغل بال كارمو حال نزوله هو البحث عن الماراكايا الذي أرعبه بين أغصان الشجرة لربع ساعة من الزمن. وجده بين الشجيرات، وقد تهشّمت عظامه اثر الضربة القاضية التي سدّدها له موكو. كانت فروته وشكله تشبهان فروة وشكل الجاكوار، لكنه صغير الرأس، وقصير الذيل، يبلغ طوله حوالي ثمانين سنتيمتراً.

- أيها اللعين! - هتف كارمو، وقد تناوله من ذيله، ورماه على كتفه - لو كنتُ أعرف أنه صغير هكذا، لسدّدتُ له ركلة، ورميتُه من فوق الشجرة. ولكنني سأنتقم منه؛ إذ سأشويه، وآكله.

- لنحثّ السير، أيها الرفاق - قال القرصان - لقد أضعنا الكثير من الوقت مع هؤلاء المتوحّشين. بعد مسير ثلاث، أو أربع ساعات متواصلة، لم يعثر فيها البحّارة على أي أثرٍ، ولكنهم أدركوا أن الغابة صارت تتغيّر: انتقلوا من الغابة الجافة إلى غابة رطبة أكثر خطورة من الأولى، ذلك أن تحت تلك الأشجار تكثر الإصابة بحمّى الغابات. كان الصمت مطبقاً على المكان، كما لو أن الحيوانات والطيور قد فرّت من تلك الرطوبة، فلم يسمعوا صراخ القردة،

ولا تغريد الطيور، بل ولا حتّى مواء الجاكوار، أو هدير أسد الجبل. ولكنْ؛ كان في ذلك الصمت ما أرعب قلوب بحّارة الترتو الشجعان، فضلاً عن الحرّ الشديد تحت تلك الأشجار، والذي جعل البحّارة يعرقون بكثرة. أهلكهم السير حتّى منتصف النهار، ولكنْ؛ دون أن يقعوا على أثر لفان غولد ورفاقه.

عند المساء، وبينما كان الصمت يخيّم على المكان، اكتشفوا أمراً سبّب لهم الحزن والبهجة، في آن واحد، كون ذلك الشيء يدلّ على أنهم لا يزالون في الطريق الصحيحة خلف الهاربين. كانوا يهيّئون مكاناً للنوم، بينما ذهب موكو للبحث أملاً في العثور على بعض الثمار. فجأة، وإذا بهم يشاهدونه عائداً، وقد زاغت عيناه من الفزع.

- ماذا دهاك، يا رفيقي الأسود؟ - سأله كارمو، وقد حشا على عجل بندقيته - هل لاحقك الجاكوار؟

- لا ... هناك ... هناك يوجد رجل أبيض ميت - أجاب الزنجي.

- رجل أبيض؟ - هتف القرصان - تقصد إسباني؟

- أجل، يا سيدي. لقد عثرتُ به، وسقطتُ فوقه، كان بارداً مثل أفعى.

- قد يكون فان غولد اللعين؟ - قال كارمو.

- لنذهب، ونتقصّ الأمر - قال القرصان - سرْ بنا إليه، يا موكو.

توغّل الأفريقي بين الأشجار، يتبعه الآخرون، فإذا بهم يجدون رجلاً ممدداً على ظهره شابكاً ذراعيه فوق صدره، فأثار المشهد روع البحّارة. كان مكشوف الساقين، وقد نهشت قدميه أفعى ما، أو ربما الأرضة، وكان وجهه مصفراً، تكسوه دماءٌ، نزفت من جرح، يقع على الجانب الأيمن من جبهته. وكان طويل اللحية، وقد انفرجت شفتاه حتّى برزت أسنانه من بينها، وغارت عيناه، فبرز بدلاً عنهما ثقبان نازفان. رغم هذا كله، لم يكن التعرف على هويته صعباً، فقد كان يرتدي درعاً أصفر من جلد قرطبة، بنطالاً قصيراً مخططاً بالأصفر

والأسود، كما هو معتاد عند الإسبان، وكان بالقرب منه سيف طويل، وخوذة من الفولاذ، تزيّنها ريشة بيضاء. انحنى الكتلوني على الجثة، وقد بان عليه التأثر، ثم نهض بسرعة، وهتف:

- بيدر هيرارا!... بأيّ حالٍ، أراك، أيها المسكين!

- أكان أحد المرافقين لفان غولد؟ - سأله القرصان.

- أجل، يا سيدي، كان جندياً باسلاً، ورفيقاً طيباً.

- لعل الهنود هم مَن قتلوه؟

- لا شك أنهم جرحوه، فها هو جرح في جنبه الأيمن لا يزال يقطر دماً، إلا أن الخفّاش هو مَن تسبّب في قتله.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن مصّاص الدماء قد مصّ دم هذا الجندي المسكين. ألا ترى هذا الجرح الصغير على جبهته؟

- أجل، أراه.

- لعله تُرك ها هنا ذلك أن جراحه تعيقه عن اللحاق برفاقه الفارين، وقد استغل مصّاص الدماء لحظة إعياء، أو غيبوبة، فبادر إلى هذا الجرح، ومصّ دمه.

- إذنْ؛ هذا يعني أن فان غولد مرّ من هنا؟

- وهذه الجثة دليل على ذلك.

- متى مات هذا الجندي حسب ظنك؟

- ربما هذا الصباح، فلو كان ميتاً منذ البارحة، لنهشت الأرضة كل جسده.

- آه! إذنْ؛ نحن على مقربة منهم - هتف القرصان بنبرة حادّة - سنعاود مسيرنا

عند منتصف الليل، وعند الغد، ستردّ أنت على فان غولد ما لقيتَ منه، أما أنا؛ فسأطهّر الأرض من هذا الخسيس الخائن، وسأنتقم لأخوتي.

- أرجو ذلك، يا سيدي.

- اخلدوا إلى الراحة ما استطعتُم، فلن نتوقّف بعد ذلك قبل أن نلحق بفان غولد.

- اللعنة - تمتم كارمو - سنهرول مثل الخيل.

- إنه يستعجل ثأره، يا صديقي - قال ستيلر.

- أو يستعجل رؤية الفولغورا.

- وماذا عن الدوقة الفيامينغية؟

- ربما من أجلها - أيضاً - يا ستيلر.

- لنخلد إلى النوم، يا كارمو.

- نخلد إلى النوم! أما سمعتَ الكتلوني يتحدّث عن طيورٍ، تمصّ الدماء؟ ... وإذا ما وجدنا أنفسنا ننزف دماً عند منتصف الليل؟ لن أقدر على النوم، وهذا الوسواس يراودني.

- لا بد أن الكتلوني كان يسخر منا، يا كارمو.

- لا، يا ستيلر، فقد سمعتُ أنا - أيضاً - عن مصّاص الدماء.

- وكيف يكون؟

- يبدو أنها طيور قبيحة الشكل. أيها الكتلوني، أترى شيئاً ما في السماء؟

- أجل، أرى النجوم - أجاب الكتلوني.

- كنتُ أسألك عن مصّاصي الدماء.

- لا يزال الوقت مبكّراً، يا عزيزي، إنها لا تخرج من جحورها إلا بعد أن يغطّ البشر، أو الحيوانات، في نوم عميق.

- وأيّ نوع من الحيوانات هي؟ - سأله ستيلر.

- إنها خفافيش كبيرة الحجم، لها بوز طويل وبارز، وأذنان عريضتان، وجلدها الرقيق أحمر، يميل إلى البني عند الظهر، وأصفر يميل إلى البني عند البطن، ويصل طول أجنحتها حتّى أربعين سنتيمتراً، أو أكثر.

- أهي مصّاصة دماءٍ حقاً؟

- أجل، وتفعل ذلك بلطف شديد حتّى إنك قد لا تشعر بها؛ لأن لها خرطوماً دقيقاً جداً، يخترق الجلد، فلا يسبّب الألم.

- وهل يوجد الكثير منها هنا؟

- أحسب ذلك.

- فإذا ما هجم أحدها علينا؟

- لا أظنّها تمصّ الكثير من الدماء في ليلة واحدة، ففي أسوأ الأحوال، ستمصّ مقداراً من الدم، قد يكون نافعاً أكثر ممّا هو ضاراً في أجواءٍ كهذه، بالرغم من أن ما تسبّبه من الجراح، يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ؛ ليشفى.

- ولكنها سبّبت موت رفيقك الإسباني، بفعل ما امتصّت من دمائه - قال كارمو.

- لعلّه فقد بسبب جراحه الكثير من الدماء قبل ذلك. يجدر بك أن تنام، أيها الفارس، فسوف نطلق عند منتصف الليل.

انطرح كارمو فوق العشب، ولكنه تفحّص أغصان شجرة السيماروبا قبل أن يغمض عينيه، للتأكّد من عدم وجود مصّاص دماءٍ فوق أغصانها.

-٢٩-
فرار الخائن

كان القمر يبعثر نوره فوق الأشجار حينما نهض القرصان متأهّباً للانطلاق لملاحقة فان غولد ورفاقه. أيقظ الكتلوني، الزنجي والبحّارين، ثم جعل يسير دون أن ينبس ببنت شفة، لكنه كان يسير بخطى سريعة حتّى عجز رفاقه عن اللحاق به. يبدو أنه حزم أمره على ألاّ يتوقّف قبل أن يلحق بعدوّه اللدود، ولكنْ؛ ستكون هناك عقبات جديدة تُجبره على الإبطاء في سيره، بل وحتّى على التوقّف: كالأحواض المائية التي تصبّ فيها مياه الغابة، ومستنقعات الوحل، والقنوات المائية التي تنتشر في كل مكان. ستجبرهم هذه العقبات على تغيير مسارهم، وقطع مسافات أطول؛ لإيجاد جسر للعبور، أو قطع الأشجار؛ لصنع المعابر. كان رجاله يبذلون أقصى جهدهم لمساعدته، رغم ذلك، فقد بدؤوا يشعرون بالتعب من كثرة المشي الذي دام عشرة أيام فضلاً عن ليالي السهر، وسوء التغذية أيضاً. أدركوا عند الفجر أنهم لا يقوون على السير، بل لم يكن بمقدورهم الوقوف على أقدامهم، وقد اشتد بهم الجوع؛ إذ نفدت المؤن، ومضت أكثر من خمس عشرة ساعة مذ أكلوا قطّ كارمو، فطلبوا القرصان أن يمهلهم بعض الوقت لأخذ قسط من الراحة. جعلوا يبحثون عن الحيوانات البرية والثمار لسدّ جوعهم، إلا أن تلك الغابة كانت خالية من الحيوانات والثمار، فلم تصل إلى مسامعهم لا جلبة الببغاوات، ولا صراخ القردة، ولم يعثروا على أي شجرة مثمرة. إلا أن الكتلوني توجّه بصحبة موكو صوب حوض ماءٍ، وحالفه الحظّ فاستطاع أن يصطاد بيديه سمكة البرايرا، بعد أن نال نصيبه من العضّات. وتنتشر سمكة البرايرا، ذات الأسنان الحادة والظهر الأسود، في المياه الآسنة. واستطاع موكو - أيضاً - أن يصطاد

سمكة كاسكودو، وهي سمكة ذات قشور صلبة جداً. وعلى الرغم فقر وجبة الطعام تلك، والتي التهموها بنهم، إلا أنهم استعادوا قواهم بعد أن نالوا قسطاً من الراحة. استمروا في مسيرهم في تلك الغابة الشاسعة، وصوّبوا وجهتهم نحو الجنوب الشرقي بغية الوصول إلى أطراف بحيرة ماراكايبو؛ حيث ستكون حصون جبل طارق في الجهة المقابلة. استمرّ مسيرهم هذه المرة حتّى منتصف النهار، بعد أن اضطُروا عدّة مرات إلى الالتفاف حول المستنقعات وأحواض الوحل، إلا أنهم لم يعثروا - بعد - على أثر للهاربين، ولم تصل إلى أسماعهم أيّ طلقات نارية. عند الرابعة بعد الظهر، وبعد استراحة دامت ساعتين، عثروا عند ضفة نهر صغير على بقايا نار، لا يزال رمادها حاراً، ولكنهم لم يكونوا متأكّدين فيما إذا كان الفارون هم مَن أوقدها أم صياد ما. كان من الصعب معرفة ذلك، كونهم لم يعثروا على أي أثر آخر، فقد كانت الأرض يابسة، وتكسوها أوراق الأشجار. رغم ذلك، فقد بعث هذا الأثر الأمل في أنفسهم، كونهم رجّحوا أن فان غولد قد مرّ من هنا. هبط عليهم الليل، ولم يكتشفوا - بعد - أثراً للفارين، إلا أن شعورا غريزياً كان يُنبئهم أنهم ليسوا ببعيدين منهم. باتوا الليل دون عشاء.

- اللعنة - هتف كارمو الذي كانوا يلهي نفسه، وهو يلوك بعض أوراق الشجر الحلوة المذاق - إذا ما استمر الحال هكذا، فإننا سنصل إلى جبل طارق بحالة مزرية، حتّى إنهم قد ينقلوننا إلى المستشفى مباشرة.

كانت تلك أسوأ الليالي التي مرّت بهم، ففضلاً عن جوعهم، كانوا يعانون - أيضاً - من البعوض الذي لم يمنحهم فرصة لإغماض عيونهم، فلم يناموا، ولا حتّى لحظة واحدة، وفي اليوم التالي حينما جعلوا يسيرون أدركوا أنهم أشدّ تعباً من الليلة السابقة. أعلن كارمو أنه إن لم يجد قطاً برياً ليشويه ويسدّ جوعه فلن يقاوم أكثر من ساعتين، بينما كان ستيلر يفضّل القرد، أو الببغاء على القطّ، إلا أن تلك الغابة اللعينة لم تتوفّر على أي شيء من ذلك. كانوا

يسيرون منذ أربع ساعات، يسبقهم القرصان بخفة حينما سمعوا صدى طلقات نارية تردد في الفضاء، توقّف القرصان صارخاً:

- وأخيراً! - هتف وقد استل سيفه بحزم.

- برعود هامبورغ - صرخ ستيلر - يبدوا أننا قريبون منهم جداً هذه المرة.

- آمل أن لا يهربوا منها هذه المرة - قال كارمو - سنربطهم مثل الخراف؛ لكيلا نركض خلفهم أسبوعاً آخر.

- لقد أطلقت هذه الرصاصة على بعد نصف ميل من هنا - قال الكتلوني.

- أجل - أجاب القرصان - آمل أن أقبض على قاتل أخوتي في الدقائق القليلة القادمة.

- أتسمح لي أن أسدي لك نصيحة، يا سيدي؟

- ما هي نصيحتك؟

- أرى أن نكمن لهم في منطقة كثيفة الأشجار، ونجبرهم على الاستسلام دون قتال. قد يكون عددهم سبعة؛ أو ثمانية أشخاص، فيما نحن لسنا إلا خمسة، وقد أنهكنا التعب.

- لا أحسبهم أكثر نشاطاً منّا، مع ذلك، فسآخذ بنصيحتك. سنباغتهم على حين غرة حتّى لن يتسنّى لهم الدفاع عن أنفسهم، فجهّزوا أسلحتكم، واتبعوني دون أن تُحدثوا أيّ ضجيج.

حشوا بنادقهم ومسدّساتهم؛ ليكون على أتمّ الاستعداد إذا ما تحتّم عليهم القتال، ثم جعلوا يزحفون بين الشجيرات والجذور والنباتات المتسلّقة، جاهدين في تجنّب خشخشة الأوراق وفرقعة الأغصان. كانت غابة المسطحات المائية شاسعة جداً، وفجأة صاروا يرون الطيور والببغاوات والآرا والطوقان توكو، بينما كانت تصل إلى مسامعهم ضجيج بعض القردة.

كل ذلك كان تثير كارمو، وهو يرى كل هذه الوفرة من الصيد دون القدرة على إطلاق النار عليها واصطيادها، خشية أن يتنبّه الحاكم ورفاقه لوجودهم.

- سأعوّض معدتي في وقت آخر - تمتم - سأصطاد الكثير منها حتّى آكل لعشر ساعات متواصلة.

بدا أن القرصان لم يع هذا التغيير في الغابة، وقد كان منهمكاً تماماً في إتمام ثأره. كان يزحف كالأفعى، أو يقفز أحياناً كالنمر، ينظر أمامه بحثاً عن عدوّه اللدود، ولا يلتف حتّى ليرى فيما إذا كان رفاقه يتبعونه أم لا، كما لو أنه كان واثقاً من حسم القتال مع الحاكم الخائن ورفقته وحده فقط. لا يصدر عن زحفه أيّ ضجيج، كان يمرّ فوق الأوراق دون أن يجعلها تفرقع، ويفسح الطريق بين الأغصان دون أن يكسرها ويزحف كالأفعى بين الجذور، لم يثن عزمه لا التعب المتواصل، ولا الجوع. توقّف فجأة، ممتشقاً سيفه بيمينه، ومسدّسه بيساره، كما لو أنه يستعدّ للهجوم. سمع فجأة شخصين يتحدثان وسط الأشجار:

- ديغو - صاح صوت خافت - أعطني شربة ماءٍ أخرى .. شربة واحدة فقط قبل أن أغمض عينيّ إلى الأبد.

- لا أستطيع - أجاب صوت متحشرج آخر - لا أستطيع، يا بيدرو.

- لقد أصبح الآخرون بعيدين الآن - قال الأول.

- انتهى أمرنا، يا بيدرو، لقد أصابني الهنود الكلاب بجرحٍ قاتل.

- أما أنا؛ فقد أصبتُ بالحمّى التي ستُجهز علي.

- حينما ... سيعودون ... سنكون ... قد متنا.

- إن البحيرة ... قريبة من هنا ... والهندي ... يعرف مكان القارب .. آه! ... مَن هناك؟

قفز القرصان؛ حيث كان الاثنان، شاهراً سيفه بيده استعداداً للطعان، وإذا به يجد جنديين جريحين شاحبي الوجه ممدّدين تحت ظلّ شجرة كبيرة. حالما شاهد الجنديان ذلك الرجل المسلّح، نهضا بجهد كبير، وحاولا أن يتناولا بنادقهما، وقد كانت على بعد خطوات منهما، إلا أنهما سقطا؛ إذ لا طاقة لهما على النهوض.

- مَن يتحرّك منكما، فسأقتله - صرخ القرصان بلهجة المهدّد.

نهض أحدهما بجهد كبير، وقال بابتسامة مصطنعة:

- لن تقتل إلا رجلين محتضرين، أيها الفارس.

في تلك الأثناء، وصل الكتلوني إلى المكان، يتبعه الأفريقي والبحّاران. ما إن رأى الرجلين حتّى يصرخ:

- بيدرو! ... ديغو! ما حلّ بكما، يا رفيقاي المسكينان.

- الكتلوني - هتف الجنديان.

- أجل، هذا أنا، يا أيها الصديقان ...

- اصمت - صاح القرصان - أخبروني أين هو فان غولد؟.

- الحاكم؟ - سأل الجندي الذي كان اسمه بيدرو - لقد رحل من هنا منذ ثلاث ساعات.

- وحده؟

- بل مع دليلهم الهندي، وضابطين آخرين.

- أهم بعيدون من هنا؟ تكلّما، وإلا قتلتُكما.

- لا أحسبهم قد قطعوا مشواراً طويلاً.

- وهل هناك مَن ينتظرهم على ضفة البحيرة؟

- لا، على أن الهندي يخبئ قارباً هناك.

- يجب أن نرحل، يا أصدقاء - قال القرصان - وإلا أفلت فان غولد منّا.

- كيف لي أن أترك رفيقيّ، يا سيدي؟ - قال الكتلوني - ها هي البحيرة قريبة من هنا، لقد انتهت مهمّتي، إذنْ، يا سيدي، ولأجل أن لا أتخلّى عن هذين المسكينين، فإني أتخلّى عن ثأري.

- أتفهّم ما تنوي إليه - أجابه القرصان - لك الخيار في أن تفعل ما شئتَ، ولكنْ؛ لا أحسب أن إسعافك لهما سيجدي نفعاً.

- ربما كان بوسعي أن أنقذهما، يا سيدي.

- سأترك معك موكو، إذنْ، أما أنا؛ فيكفي البحّاران لمطاردة فان غولد.

- أراكم في جبل طارق، يا سيدي، أعدك بذلك.

- ألدى رفاقك شيء من الزاد؟

- القليل من الخبز، يا سيدي - أجاب الجنديان.

- هذا كافٍ - قال كارمو.

- وهناك الحليب أيضاً - أضاف الكتلوني، وقد نظر إلى الشجرة التي كان يرقد تحتها الجنديان.

- لا أطلب أكثر من هذا في الوقت الحاضر - أجاب كارمو.

حفر الكتلوني بسكين النافاجا شقاً في جذع الشجرة التي لم تكن في حقيقة الأمر شجرة حليب، بل شجرة ماساراندوبا، وهي شجرة مشابهة لها، يخرج منها سائل كثيف أبيض اللون مغذّ جداً، وله طعم كطعم الحليب. ملأ قناني البحّارين، ثم أعطاهما بعض الخبز، وقال للقرصان:

- ارحلوا، أيها الفارس، وإلا أفلت منكم فان غولد مرة أخرى، وأرجو أن نلتقي في جبل طارق.

- إلى اللقاء - أجاب القرصان، وقد انطلق في سيره - نحن في انتظارك هناك.

انطلق ستيلر وكارمو خلفه بعد أن استعادا نشاطهما، وقد أكلا شيئاً من الخبز، وشرب كل منهما نصف قنينة من الحليب. حثّ القرصان الخطى؛ ليختصر الساعات التي تفصله عن الهاربين، والوصول إلى البحيرة قبل نزول الظلام. كانت الساعة - عندئذٍ - الخامسة عصراً، فكان أمامه وقت قصير لتحقيق غايته تلك. لحسن الحظ كانوا كلّما تقدّموا قلّت كثافة الغابة، ولم تكن الأشجار متشابكة فيما بينها بالنباتات المتسلّقة، بل كانت هناك مناطق كثيفة بالأشجار، لكنها متفرقة، ممّا سهل على البحّارين الإسراع في سيرهم دون أن يتجشّموا عناء فتح الطريق بين النباتات.

بدؤوا يشعرون باقترابهم من البحيرة، فقد صار الهواء بادأً، وتنتشر فيه رائحة الملوحة. كان القرصان يسرع أكثر خشية الوصول متأخراً، فلا يلحق بالفارين، لم يكن يمشي، بل كان يركض، ويركض خلفه كارمو وستيلر. عند الساعة السابعة مساءً، وبينما كانت الشمس تشارف على المغيب، لاحظ أن رفيقيه لا يقويان على اللحاق به، فأمهلهما ربع ساعة؛ ليأخذا قسطاً من الراحة، فاستغلاها لشرب ما تبقّى في حوزتهما من الحليب. على أن القرصان لم يبق ثابتاً في مكانه، بل جعل يفتّش في أنحاء المكان، علّه يقع على أثر للفارّين، فتوجّه صوب الجنوب، وقد بدا له أنه سمع طلقات نارية وضوضاء في ذلك الاتجاه، ممّا يدل على قرب الخائن.

- لننطلق، يا أصدقائي، ليس إلا القليل من الجهد وسيقع فان غولد في يدي - قال حال عودته من مهمّة الاستكشاف - غداً سيكون بوسعكما أن ترتاحا ما شئتُما من الوقت.

- هيا بنا - قال كارمو، وقد نهض بجهد كبير - أحسب أننا اقتربنا من ضفاف البحيرة.

توغّلوا في بين الأشجار، وقد هبط الظلام، وبدأت بعض وحوش البرية تعوي هنا وهناك في أرجاء الغابة. بعد مرور عشرين دقيقة على مسيرهم، وهم يلهثون من شدة التعب، وإذا بهم يسمعون هديراً قاتماً، يبدو أنه صادر عن تكسّر الأمواج فوق الصخور، وفي الوقت ذاته، لاح لهم ضياء من خلال الأشجار.

- إنه الخليج - هتف كارمو.

- ولا بد أن هذه النار هي مكان تخييم الهاربين - صرخ القرصان - جهّزا سلاحيكما، يا رجال البحر! ولكنْ؛ دعا لي قاتل أخوتي.

هرولوا نحو المكان الذي تتوهّج فيه النار، والتي تبدو أنها على أطراف الغابة. قطع القرصان تلك المسافة في لحظات قليلة، وقد سبق البحّارين اليها، ثم وثب إلى المكان المضاء شاهراً سيفه في يمينه جاهزاً للطعان، إلا أنه توقّف، وصرخ بغضب. لم يكن هناك ظلّ أحد حول تلك النار، بل كانت هناك آثار لأشخاص قد أقاموا في المكان منذ وقت قريب جداً. كانت هناك بقايا قرد مشوي، وبعض قطع الخبز، وقنينة مفلوقة، إلا أن الأشخاص قد تركوا المكان، ورحلوا.

- بصواعق الجحيم! لقد تأخّرنا في الوصول - صرخ القرصان بصوت رهيب.

- لا يا سيدي - صرخ كارمو، وقد لحق به - ربما لا يزالون في مرمى بنادقنا. انظر هناك، على الشاطئ!

التفت القرصان نحو الجهة التي أشار إليها كارمو، كانت الغابة تنتهي على بعد مائتي متر، ويمتد بعدها الشاطئ الذي تنبسط وتنقبض عليه

الأمواج. تحت آخر أضواء الغروب لمح كارمو قارباً هندياً، يركب البحر على عجل متّجهاً صوب الجنوب؛ أي أنه يُبحر تجاه جبل طارق. ركض البحّارة نحو الشاطئ، وقد حشوا بنادقهم على عجل.

- قف، يا فان غولد، إن كنتَ شجاعاً - صرخ القرصان.

نهض أحد الرجال الأربعة الذين كانوا فوق القارب، وأطلق رصاصة، فإذا بالقرصان يسمع أزيز رصاصة توغّلت بين أغصان الأشجار القريبة منه.

- آه! أيها الخائن - صرخ القرصان، وكان غاية في الغضب - افتحوا النار.

جثا ستيلر وكارمو على ركبتيهما فوق الرمال، وصوبا بنادقهما، ثم فتحا النار. تردّدت في عرض الخليج صرخة، وشاهدوا رجلاً يهوي في الماء، على أن القارب لم يتوقّف، بل زاد في سرعته أكثر، متّجهاً نحو سواحل الخليج الجنوبية، حتّى توارى في الظلام الذي نزل بسرعة، كما هو معهود في المناطق الاستوائية. كاد القرصان أن يركض على طول الشاطئ، وقد تملكه الغضب، إلا أن كارمو استوقفه قائلاً:

- انظر، يا قبطان!

- ماذا هناك؟ - سأله القرصان.

- هناك قارب هندي آخر فوق الرمال.

- آه! لا يزال فان غولد في قبضتي - صرخ القرصان.

على مسافة عشرين متراً منهم، كان هناك قارب هندي من تلك القوارب التي يصنعها الهنود بعد أن يحفروا جذع شجرة الأرز، تبدو ثقيلة من النظرة الأولى، إلا أن راكبها يدرك فوراً أنها سهلة القيادة، وسريعة جداً حتّى إنها تباري أفضل القوارب. ركض القرصان ورفيقاه إلى ذلك القارب، ودفعوه بقوة نحو المياه.

- هل تتوفّر فيه المجاديف؟ - سأل القرصان.

- أجل، يا قبطان - أجاب كارمو.

- هيا، يا رجال، لا ندع فان غولد يفلت منّا.

- أجهد نفسك، يا ستيلر - صرخ كارمو - ليس بوسع أحدٍ أن يباري البحّارة بالتجديف.

- واحد ... اثنان ...!- هتف ستيلر، وهو يجدف بعزم.

انطلق القارب فوق مياه الخليج بسرعة سهم، وراحوا يلاحقون حاكم ماراكايبو.

-٣٠-
سفينة الكارافيل الإسبانية

كانت المسافة بينهم وبين قارب فان غولد حوالي ألف خطوة، إلا أن هذا لم يثبط من عزم البحّارين، كونهما يدركان أن ليس بوسع مجدف واحد؛ أي الهندي، أن يباريهما في التجديف. فلم يكن الضابط والحاكم، وهما رجلا حرب؛ ليقدّما يد العون للهندي. ورغم ما عانى كارمو وستيلر من الجهد والعناء، إلا أنهما كانا يجدّفان بقوة، جعلت القارب يجري بسرعة قصوى. أما القرصان؛ فقد كان جالساً في مؤخّرة القارب والبندقية بين يديه، وهو يحثّهما باستمرار على بذل قصارى جهدهم:

- جدّفا بقوة، أيها الباسلان، فلن يفلت مني فان غولد هذه المرة، بل سأنتقم منه! تذكّرا القرصانين الأحمر والأخضر! ...

كان القارب يقفز فوق أمواج الخليج، ويجري بسرعة فائقة، والأمواج تتكسّر على مقدّمته. وكان كارمو وستيلر يجدّفان بحنق وقوة، وقد ثبّتا أقدامهما، واستحضرا كل قوتهما. كانا على يقين من قدرتهما على اللحاق بقارب الأعداء، إلا أنهما لم يتهاونا مع الأمر خشية أن يلاقيا ما لا يتوقّعان، فيتسنّى للحاكم الخلاص من ملاحقتهم. بعد خمس دقائق من التجديف، وإذا بالقارب يصطدم بشيء ما.

- اللعنة - صرخ كارمو - لعلّها منطقة بحرية ضحلة؟

انحنى القرصان، فرأى كتلة سوداء طافية، مدّ يده، وجذبها قبل أن تنزلق تحت القارب.

- إنها جثة - هتف.

قلب الجثة بجهد كبير، ثم نظر إليها: كانت جثة الضابط الإسباني، وقد فلقت رأسه رصاصة ما.

- إنه أحد رفاق فان غولد - قال القرصان، وقد أفلت الجثة.

- لقد رموه في الخليج؛ ليخفّفوا وزن القارب - قال كارمو، وهو يجدف - هيا يا ستيلر، فليس هؤلاء اللعناء ببعيدين جداً.

- ها هم - صرخ القرصان في تلك اللحظة.

لقد رأى على مسافة ستمائة، أو سبعمائة متر، لمعان الرغوة التي يخلّفها القارب وراءه، وكانت تشتدّ لمعاناً كلّما تقدّموا. يبدو أن ما يسبّب ذلك اللمعان هو بيض الأسماك والحيوانات الأخرى المنتشرة في الماء.

- أتراهم، يا قبطان؟ - سأل كارمو وستيلر في آن واحد.

- أجل، إني أرى القارب عند نهاية الرغوة الفسفورية اللامعة - أجاب القرصان.

- هل اقتربنا منهم أكثر؟

- أجل.

- أجهد نفسك أكثر، يا ستيلر.

- وأنت أيضاً، يا كارمو.

- وسّع دائرة التجديف، سيقلّ جهدنا، وتزداد السرعة.

- اصمتا - قال القرصان - لا تبدّدا قوتكما بالثرثرة. هيا، أيها الباسلان، هاأنذا أرى عدوّي اللدود.

نهض القرصان والبندقية بين يديه، كان يحاول أن يتبيّن عدوّه من بين الهيئات الثلاث التي يراها فوق القارب. انطرح في المقدّمة، وصوّب سلاحه، وبعد أن عاين هدفه للحظات، أطلق النار. تردّد صدى الطلقة في أرجاء الخليج، ولكن لم تصل إلى مسامعهم أيّ صرخة لتؤكد لهم أنه أصاب الهدف.

- لا أظنك أصبت الهدف، يا قبطان - قال كارمو.

- لا أحسب ذلك - أجاب القرصان، وقد كزّ على أسنانه.

- لعلك تعلم، يا سيدي، أن التسديد صعب من على القارب.

- وسّع دائر التجديف، يا ستيلر.

- إني أحاول جهدي، يا كارمو - أجاب ستيلر الذي كان يلهث مثل عجل البحر.

كانوا في دنوّ مستمر من قارب فان غولد رغم كل الجهود التي يبذلها الهندي، ولو كان معه مجدّف هندي آخر، لما أستطاع البحّاران اللحاق بهما حتّى الفجر، ذلك أن هنود أمريكا الجنوبية كانوا ملاحين، لا يُشقّ لهم غبار. على أن الهندي كان يجدّف وحده، فلم يسعفه لا الضابط ولا الحاكم. أصبح القارب بمرأى من البحّارة لشدة قربه، ولعبوره منطقة مياه فسفورية. كان الهندي في المقدّمة، يجدّف بمجدافين، بينما الحاكم والضابط يجلسان على جانبي القارب. ولما لم يكن يفصل بينهم سوى أربعمائة خطوة، نهض القرصان مرة أخرى، وحشا بندقيته، ثم صرخ عالياً:

- توقّفوا، وإلا أطلقت النار!

لم يجبه أحد، بل إن القارب غيّر اتجاهه، ولم يعد يتّجه صوب أعالي البحار، بل صوب الشاطئ، ربما بحثاً عن مهرب في نهر الكاتاتومبو الذي لم يكن بعيداً من هناك.

- استسلم، يا قاتل أخوتي - صرخ القرصان مرة أخرى.

على أن أحداً لم يجبه هذه المرة أيضاً. صوّب بندقيته نحو فان غولد الذي لم يكن يبعد عنه سوى ثلاثمائة وخمسين خطوة، كان القارب يتمايل بشدة بفعل التجديف، فلم يكن من السهل عليه التسديد بدقة. رفع السلاح، وأخفضه ثلاث مرات، وهو يسدّد نحو القارب، ثم فتح النار في المرة الرابعة. تبعت صوت الرصاصة صرخة ما، ثم سقط أحدهم في الماء.

- هل أصبتَه؟ - صرخ كارمو وستلير في آن واحد.

أجاب القرصان بأنه غير واثق من ذلك.

في الحقيقة، لم يكن الحاكم من أُصيب، بل كان الهندي.

- فالجحيم تحميه، إذنْ؟ - تساءل القرصان بغضب - هيا، أيها البواسل، لنمسكه حياً!

لم يتوقّف قارب الحاكم رغم سقوط الهندي، ولكنْ؛ لن يكون بوسعهم الاستمرار بالفرار أكثر، لم تكن سوى دقائق، فيلحقوا بهم، كون كارمو وستيلر كانا قادرين على التجديف لساعات طويلة أخرى قبل أن ينهكهما التعب. لما أدرك الحاكم والضابط أنهما لن يستطيعان أن يباريا البحّارة في التجديف، توجّها صوب جزيرة صغيرة، لا تبعد عنهما سوى خمسمائة، أو ستمائة متر، ربما لكي يختبئا خلفها، ويحتميا من رصاص القرصان.

- إنهما يتوجّهان نحو الجزيرة، يا كارمو - قال القرصان.

- فهما يريدان اللجوء إلى اليابسة، إذنْ؟

- أحسب ذلك.

- لن يفلتا منا حتماً.

- اللعنة! - صرخ ستيلر.

- ماذا دهاك؟ ...

في تلك اللحظة، تناهت إلى مسامعهم صرخة ما.

- مَن هناك؟

- إسبانيا - صرخ الحاكم ورفيقه.

التفت القرصان، وإذا به يرى كتلة سوداء هائلة الحجم تظهر فجأة من وراء الجزيرة الصغيرة. كانت سفينة كبيرة الحجم تتقدّم باتجاه قارب الفارين.

- اللعنة - صرخ القرصان.

- لعلّها إحدى سفننا؟ - سأله كارمو.

صمت القرصان. كان جالساً في مؤخّرة القارب، يقبض بكلتي يديه على البندقية، وقد تغيّرت سحنته، وسيطر عليه الغضب، كان ينظر بعينين، يتطاير منهما الشرر إلى تلك السفينة، وقد اقتربت من قارب الحاكم.

- إنها كارافيل إسبانية - صرخ القرصان - اللعنة على هذا الكلب، لقد فرّ مني مجدداً!

- وسوف يقوم بشنقنا حتماً - أضاف كارمو.

آه! ليس بعد، أيها الباسلان - أجاب القرصان - هيا، لنتوجّه صوب الجزيرة الصغيرة قبل أن تمطرنا هذه السفينة بمدافعها، وتغرقنا وقاربنا.

- بكل الصواعق ...!

- والرعود! ... - أضاف ستيلر، وهو يجدف.

استدار القارب في مكانه، وتوجّه صوب الجزيرة التي كانت تبعد عنهم

ثلاثمائة، أو أربعمائة خطوة، ولما رأى كارمو وستيلر سلسلة الصخور الكبيرة تبرز فوق الماء، فقد حاولا الاختباء خلفها للاحتماء من مدافع السفينة. صعد الحاكم ورفيقه في تلك الأثناء على متن السفينة، ولا بد أنهما أبلغا قبطان السفينة عمّا حدث معهما؛ إذ بعد لحظات من صعودهما، أسرع البحّارة، وفتحوا أشرعة السفينة.

- أسرعا، أيها البطلان - صرخ القرصان الذي كان يراقب كل ما يجري - لقد تجهّز الإسبان لملاحقتنا.

- إننا على مسافة مئة خطوة من الساحل - أجاب كارمو.

ومضت في تلك اللحظة أضواء على متن السفينة، فسمع البحّارة الثلاثة أزيز الرصاص الذي أصاب قمة إحدى الصخور.

- أسرِعا ... أسرعا - صرخ القرصان.

تجهّزت السفينة لملاحقة القارب، وفي الوقت نفسه، أنزلت ثلاثة، أو أربعة قوارب لملاحقته أيضاً. ضاعف كارمو وستيلر الجهد، وبعد لحظات، وإذا بهم على بعد أربعة خطوات من الساحل. قفز القرصان في الماء حاملاً معه البنادق، ثم توجّه صوب الأشجار؛ ليحتمي خلفها. فجأة رأى كارمو وستيلر أحدهم، وبيده فتيل مشتعل فقفزا من القارب، وارتميا على الرمال. بعد لحظة، انطلقت رشقة من الرصاص على الشاطئ، ثم تبعتها بعد لحظات قنبلة مدفع أطلقت من السفينة، فحطمت مؤخّرة القارب.

- استغلا هذه الفرصة، وتقدّما نحوي- صرخ بهما القرصان.

- لن يخطئ هؤلاء في التصويب، يا قبطان - أجاب كارمو.

- اتبعاني، ولا تضيعا الوقت.

توغل البحّارة بين الأشجار دون أن توقفهم بنادق بحّارة القوارب التي كانت تمطرهم بالرصاص.

كانت تقع تلك الجزيرة الصغيرة عند مصبّ نهر الكاتاتومبو، وهو مجرى ماء، يمر في منطقة، تكثر فيها البحيرات والمستنقعات، ويصب في الخليج. وكانت جزيرة صغيرة مخروطية الشكل، ترتفع حوالي ثلاثمائة، أو أربعمائة متر فوق مستوى سطح البحر، وكانت كثيفة الأشجار، وتكثر فيها - على وجه الخصوص - أشجار الأرز الجميلة، وأشجار القطن والفربيون وأنواع مختلفة من النخيل. وصل البحّارة عند سفح المخروط دون أن يصادفوا أحداً، ولشدة تعبهم، أخذوا قسطاً من الراحة، ثم عاودوا السير وسط الشجيرات الشائكة وتحت الأشجار الكثيفة التي تنبت بكثرة على السفح، وقد حزموا أمرهم للوصول إلى القمة؛ لكي يتسنّى لهم مراقبة العدو، وتتبع خطواته حتّى لا يباغتهم فجأة. تطلب الأمر ساعتين من الجهد المتواصل، فقد توجّب عليهم فتح الطريق بحرابهم بفعل كثافة النباتات، إلا أنهم وصلوا أخيراً إلى قمة المرتفع، وقد كانت أرضاً صخرية جرداء سوى من بضع الشجيرات. ظهر القمر في تلك الأثناء، فتسنّى لهم أن يتبيّنوا السفينة الإسبانية التي رست على بعد ثلاثمائة خطوة من الشاطئ، بينما توقّفت القوارب في المكان الذي تحطّم فيه قارب القرصان ورفيقيه. نزل البحّارة من تلك القوارب، ولكنهم لم يجرؤوا على التوغّل في الغابة خشية أن يقعوا في كمين ما، فأقاموا على الشاطئ حول النيران التي أوقدوها خشية أن يمتصّ البعوض دماءهم.

- إنهم ينتظرون طلوع الفجر؛ لكي يهجموا علينا - قال كارمو.

- أحسب ذلك - أجاب القرصان.

- اللعنة، إن الحظ حليف هذا الحاكم الوغد!

- أو لعلّه الشيطان؟

- لا يهمّ إن كان هذا أو ذاك، فها هو يفلت مني للمرة الثانية.

- ليس هكذا فقط، بل قد يقبض علينا - أضاف ستيلر.

- آه! سنرى - أجاب كارمو - فنحن لا نزال أحراراً، ونمتلك السلاح.

- وماذا عسانا نفعل، إذا ما هاجمنا كل طاقم السفينة؟ - سأله ستيلر.

- ولكنْ؛ ألا تذكر في ماراكايبو كيف حاصرونا في دار محرِّر العقود، مع ذلك، فقد وجدنا طريقة للتخلّص من المأزق.

- أجل - قال القرصان - ولكنْ؛ نحن الآن لسنا في دار محرِّر العقود، وليس هناك كونت لارما؛ ليساعدنا على الهرب.

- لعل قدرنا أن نموت معلّقين على حبل المشنقة؟ ولكنْ؛ ماذا لو جاء الأولونيزي لنصرتنا؟

- إنه منشغل الآن في نهب ماراكايبو - أجاب القرصان - يجب ألاّ نعوّل عليه الآن.

- وأيّ أمل لدينا في البقاء ها هنا؟

- لا أعرف، يا كارمو.

- أتحسب، يا قبطان، أن الأولونيزي سيقضي وقتاً طويلاً في ماراكايبو؟

- كان من المفترض أن يكون هنا الآن، ولكنك تعرف كم يحبّ المال، لذلك لا بد أنه لاحق الإسبان الهاربين إلى الغابة لسلب ما حملوا معهم.

- ولكنْ؛ يجب أن يلتزم بموعده معك؟

- أجل، عند مصبّ نهر السوانا، أو نهر الكاتاتومبو - أجاب القرصان.

- إذنْ؛ فلا بد أن يمر من هنا قريباً.

- ومتى سيكون ذلك؟

- لا أعرف، ولكنْ: لا أحسبه يبقى لشهور في ماراكايبو! ثم إن من مصلحته الإسراع لمباغتة جبل طارق.

- أعرف ذلك.

- إذنْ: لا يبد أن يأتي، وقريباً جداً.

- وهل سنبقى أحياء وأحرار حتّى ذلك الوقت؟ أتحسب أن فان غولد سيتركنا وشأننا هنا فوق قمة هذا المخروط؟ لا، يا عزيزي، بل سيطوّقنا من كل الجهات، وسيسعى جهده؛ ليمسك بنا قبل مجيء القراصنة. إنه شديد الكره لي، ولن يتركني وشأني أبداً، ولا بد أنه - الآن - يجهّز المشنقة التي سيعلّقني عليها.

- ألم يكفه قتل القرصانين الأخضر والأحمر؟ يا له من كلب شرس هذا العجوز.

- لا، لم يكفه ذلك - أجاب القرصان بصوت كئيب - بل هو ينوي أن يفني عائلتي بأكملها، على أنني لم أقع بيده بعد، ولن أفقد الأمل في الانتقام منه. ربما الأولونيزي ليس ببعيدٍ جداً، ومَن يدري، إذا ما قاومنا بضعة أيام، ربما سأتمكّن من الأخذ بثأري من فان غولد الخائن.

- وماذا سنفعل، إذنْ، أيها القبطان؟ - سأله البحّاران.

- أن نقاوم قدر المستطاع.

- هنا؟ - سأله كارمو.

- أجل، هنا.

- إذنْ؛ يجب علينا أن نصنع ساتراً جيداً.

- وما يمنعنا عن فعل ذلك؟ لن يطلع الفجر قبل أربع ساعات من الآن.

- اللعنة - هيا يا ستيلر، يجب أن لا نضيع الوقت، سيهاجمنا الإسبان حالما تشرق الشمس.

- أنا جاهز، يا رفيقي - أجاب ستيلر.

- هيا، إذنْ، يا صديقي - قال كارمو - سنشيد ساتراً، يصعب على الإسبان إجتيازه، أما أنت؛ يا قبطان، فعليك مراقبة تحرّكات الإسبان.

كانت تنتشر على قمة المخروط صخور كبيرة، فجعل البحّاران يدحرجانها، وشكّلا حاجزاً دائرياً، كان واطئاً بعض الشيء، إلا أن بوسع الرجل أن يحتمي خلفه، إذا كان جاثماً على ركبتيه، أو منطرحاً. أستمر ذلك العمل الشاق لساعتين، ولكن النتائج كانت باهرة؛ إذ كان بوسع البحّارة المقاومة طويلاً خلف ذلك الساتر دون أن يصيبهم رصاص الأعداء. إلا أن كارمو وستيلر لم يكتفيا بتلك النتائج، فقد يحميهم ذلك الجدار الصخري من رصاص الأعداء، لكنه لن يحميهم من هجوم مباغت. لذلك نزلا إلى الغابة، وصنعا من بعض الأغصان حمّالة، ونقلا فيها إلى القمة ما جمعاه من الغابة من نباتات شائكة، ثم صنعا منها سياجاً قد يكون حقاً خطراً لمَن يحاول اجتيازه.

- ها هو حصن صغير سيعيق فان غولد وجنوده، إذا ما فكّروا مباغتتنا - قال كارمو، وهو يفرك يديه.

- ولكنْ؛ لا يزال هناك ما ينقصنا، رغم قلة عددنا - قال ستيلر.

- وما ذاك يا عزيزي؟ - سأله كارمو.

- كما تعلم، يا صديقي، لا يوجد هنا مخزن مؤن محرّر العقود.

- اللعنة، لقد نسيتُ أن ليس لدينا، ولا حتّى القليل من الخبز.

- وتعلم أن ليس بوسعنا تحويل هذه الحجارة إلى خبز.

- حسناً، يا صديقي، إذا كان الإسبان لا يزالون على الشاطئ، فسننزل إلى الغابة للبحث عن الطعام.

رفع رأسه نحو قمة المخروط؛ حيث كان القرصان يراقب تحركات الإسبان، وسأله:

- ألا يزالوا في مكانهم، يا قبطان؟

- أحسب ذلك.

- سنستغلّ الوقت للبحث عن الطعام، إذنْ.

- اذهبا، وسأبقى أنا هنا للمراقبة.

- إذا ما استجدّ ما يُقلق، فأطلق رصاصة واحدة.

- حسناً.

- هيا بنا، يا ستيلر - قال كارمو - سنذهب لجمع الثمار، واصطياد بعض الحيوانات البرية.

أخذ البحّاران الحمّالة، ونزلا إلى الغابة. دام غيابهما حتّى مطلع الفجر، ولكنهما عادا محمّلين بالمؤن؛ إذ وجدا مزرعة عامرة بالزرع، ربما اشتغل عليها أحد الهنود لقربها من الشاطئ، فنهبا كل ما فيها من الثمار. كانا يحملان جوز الهند، البرتقال، بعض الخضروات وسلحفاة كبيرة، اصطاداها عند بحيرة صغيرة. إذا ما اقتصدوا، فإن ذلك الطعام قد يكفيهم لأربعة أيام. وفضلاً عن الطعام، فقد اكتشفا شيئاً قد يعود عليهم بنفع كبير، وقد يمكّنهم من شلّ حركة الأعداء لبعض الوقت.

- آه آه - هتف كارمو الذي كان مبتهجاً جداً - سنفاجئ الحاكم وجنوده إذا ما فكّروا بحصارنا باستمرار، يا عزيزي ستيلر. لا بد سيصيبهم العطش

في أجواء كهذه، ولا أحسبهم يرجعون إلى السفينة لشرب الماء، كما لا أظنّ أنهم سيحملون معهم براميل من الماء. يا للهنود الماكرين، سيحقّق النيكو المعجزات.

- أنت واثقٌ، ممّا تقول؟ - سأله ستيلر.

- يا الهي، لقد عانيتُ منه أنا شخصياً، وكانت معجزة؛ إذ لم أمت من شدة الألم.

- وهل سيأتي الإسبان؛ ليشربوا من هنا؟

- وهل رأيت بحيرةً أخرى في هذا المكان؟

- لا.

- إذنْ؛ سيكونون مجبرين على شرب الماء من هذه البحيرة التي اكتشفناها نحن.

- يقتلني الفضول لأرى تأثير النيكو هذا.

- سأريك في الوقت المناسب، كيف ستصيب الرجال آلام في البطن، لن يستطيعوا احتمالها.

- ومتى سنسمّم الماء؟

- حالما نتيقّن أن أعدائنا سيهجمون علينا.

نزل القرصان في تلك الأثناء من على القمة التي كان يراقب من فوقها، وتوجّه إلى المكان المحصّن، وهو يقول:

- لقد حاصرت القوارب كل الجزيرة.

- إنهم يحاصروننا إذنْ؟

- حصاراً محكماً.

- ونحن على أتمّ الاستعداد؛ لنقاوم حصارهم ذلك، يا قبطان. سنقاوم طويلاً خلف هذه الأشواك والصخور، سنقاومهم حتّى يأتي الأولونيزي ومَن معه.

- هذا إذا منحنا الإسبان الوقت الكافي. لقد رأيتُ أكثر من أربعين جندياً ينزلون في الجزيرة.

- آه، إنهم كثيرون جداً - قال كارمو - على أن أملي كبير في النيكو.

- وما هو النيكو؟ - سأله القرصان.

- ألك أن تتبعني، يا قبطان؟ سيتطلب وصول الجنود إلى هنا ثلاث، أو أربع ساعات على الأقل، ونحن تكفينا ساعة واحدة؛ لنقوم بالمهمة.

- وما الذي سنفعله؟

- سترى ذلك بنفسك، يا قبطان. تعال معي، وسيبقى ستيلر هنا؛ ليحرس حصننا.

حملا سلاحيهما، ونزلا إلى الغابة، توغّلا بين أشجار الأرز والنخيل، فتحا طريقاً وسط النباتات المتسلّقة، وسارا حوالي مئة وخمسين متراً، وقد فرّت أمامهما بعض الببغاوات والقردة. وصلا إلى حوض الماء الذي أسماه كارمو مبالغةً بحيرة، ولكنه لم يكن سوى مستنقع ماء. كان عبارة عن حوض طبيعي، تتجمّع فيه المياه، تكثر فيه النباتات المائية، مثل الموكوكو. أشار كارمو إلى نباتات ذات سيقان طويلة ذات لحاء قاتم اللون، تنتشر حول حوض الماء، وتنمو بأعدادٍ كبيرة، ويلتف بعضها على البعض الآخر مثل الأفاعي.

- ها هي النباتات التي ستسبّب للإسبان آلاماً، لا تُحتمل - قال كارمو.

- وكيف ذلك؟ - سأله القرصان بفضول كبير.

- سترى ذلك عمّا قريب، يا قبطان.

استل البحّار حربته، ثم جعل يقطع سيقان النباتات تلك، والتي يسمّيها هنود الفنزويلا وغوينا نيكو، وجمع منها حزماً كثيرة، ووضعها فوق صخرة تنحدر نحو حوض الماء. ولما انتهى من جمع ثلاثين، أو أربعين حزمة، ووضعها فوق الصخرة، قام بقطع غصنين متينين وصلبين، وناول القرصان أحدهما قائلاً له:

- أضرب هذه النباتات بالعصا، يا قبطان.

- ولكنْ؛ ما هذا الذي نفعله؟

- سنسمّم ماء الحوض، يا سيدي.

أنسمّمها بهذه النباتات؟

- أجل، يا سيدي.

- أجننتَ، يا كارمو؟

- لا، يا قبطان، ولكن النيكو يُثمل السمك، ويسبّب آلاماً قوية في القولون عند البشر.

- يُثمل السمك؟ ما هذا الذي تقوله، يا كارمو؟

- ألا تعرف كيف يصنع الكاريبيون حين يريدون اصطياد السمك؟

- لا بد أنهم يستخدمون الشباك.

- لا، يا قبطان، بل هم يسكبون شيئاً من سائل هذه النباتات في ماء البحيرات، ثم ينتظرون قليلاً حتّى تطفو الأسماك فوق سطح الماء، وعندها يسهل صيدها باليد.

- وتقول إنه يسبب آلاماً في القولون عند البشر؟

- أجل، يا قبطان. ولأن هذا الحوض هو مصدر الماء الوحيد في هذه الجزيرة، فإن الجنود الإسبان الذين سيحاصروننا سيكونون مجبرين على شرب الماء من هنا.

- إنك ماكر، يا كارمو. هيا، إذنْ؛ لنسمّم ماء الحوض.

جعلوا يضربون تلك النباتات بالعصا حتّى خرج منها سائل كثير، وسال شيئاً فشيئاً في الماء. تلوّن الماء باللون الأبيض أول الأمر، كما لو أن حليباً قد سُكب فيه، ثم انقلب لونه إلى لون صدفي باهر، ولكنه سرعان ما عاد صافٍ زلالاً، وليس لأحدٍ أن يتبيّن ما تضمره تلك المياه من خطر. رمى البحّاران ما تبقّى من تلك السيقان في البحيرة، وكادا يذهبان، وإذا بهما يشاهدان العديد من الأسماك تصارع بغية الهرب من تلك المياه، وقد اتّجه بعضها صوب الضفة بفعل تأثير تلك المادة. اندفع كارمو صوب الضفة، وأصطاد عدّة أسماك بغية الإكثار من المؤن.

- هذا ما كنّا نحتاج! - هتف، وهو يتبع القرصان الذي توغّل بين الأشجار.

- وهذا أيضاً! ... صرخ صوت ما، ثم أطلقت رصاصة.

سقط كارمو هامداً بين سيقان القصب دون أن يئنّ، أو يصرخ، كما لو أنه قد صُعق.

-٣١-
الهجوم على الجزيرة

- كارمو! ... كارمو! ... أين أنت، يا كارمو؟

لم يصل إلى مسامع القرصان جواب سوى فحيح، يشبه فحيح الأفعى، لكنه كان مألوفاً لديه. وبدل أن يتقدّم القرصان، فقد قام بالاختباء وراء جذع شجرة، وصار يراقب بحذر ما يدور أمامه. عندها فقط لاحظ غيمة دخان لم تتبدّد بعد على حافة منطقة يكثف فيها النخيل.

- لقد أطلقوا علينا النار من تلك الناحية، إذنْ - تمتم - ولكنْ؛ أين اختبأ كارمو؟ لقد سمعت إشارته، إذنْ؛ لا بد أنه نجا من الكمين، وأنه قريب من هنا. آه، لقد وصل الإسبان هنا إذنْ؟ حسناً، سأتدبّر أمركم، فيما بعد.

كان لا يزال مختبئاً خلف جذع الشجرة الذي يحميه من خطر رصاص العدو، ثم جثا على ركبتيه، وجعل يراقب بحذرٍ من خلال الأعشاب العالية التي تنتشر في المكان. لم يتبيّن شيئاً من الجهة التي أطلقت منها الرصاصة، ولكنه لاحظ حركة ما بين مجموعة من الشجيرات التي تبعد مسافة خمس عشرة خطوة من الشجرة التي يختبئ خلفها.

- أحدٌ ما يزحف نحوي - تمتم - أهو كارمو أم إسباني ينوي مباغتتنا؟ على أن بندقيتي محشوة، ولن أخطئ الهدف، إذا ما لاحظتُ شيئا مريباً. بقي ساكناً بضع لحظات، وقد ألصق أذنه بالأرض، وإذا به يسمع خشخشةً خفيفة، تنقلها له الأرض بوضوح تام. كان متأكداً ممّا سمع، لذلك نهض واقفاً خلف جذع الشجرة، ثم ألقى نظرة فاحصةً بين الشجيرات.

- آه! - تمتم، وقد تنفس بعمق.

كان كارمو على مسافة خمس عشرة خطوة من الشجرة، يتقدّم بحيطة وحذر زاحفاً بين الأحراش. لم تكن حتّى الأفعى بقادرة على أن تزحف بتلك الطريقة الماكرة دون إصدار أي ضجيج.

- يا للماكر - قال القرصان - ها هو مثال للرجل الذي يعرف دائماً كيف يتخطّى الأخطار، وينفذ من الموت بجلده. ولكنْ؛ أين الإسباني الذي أطلق عليه الرصاص؟ هل ابتلعته الأرض؟

كان كارمو في الأثناء يتقدّم نحو الشجرة، جاهداً في أن لا يبدي شيئاً من جسده؛ كي لا تُطلق عليه النار مرةً أخرى. لم يترك ذلك الشجاع بندقيته، بل ولا حتّى الأسماك. عند رؤيته القرصان، نهض مسرعاً، ونفذ إليه بقفزتين، واختبأ إلى جانبه خلف جذع الشجرة.

- أجرحتَ؟ - سأله القرصان.

- لم أُصب حتّى بخدش - أجاب ضاحكا.

- ألم يصيبوك برصاصهم؟

- لا بد أنهم توهّموا ذلك، كوني أوقعتُ نفسي بين القصب، كما لو أنهم أصابوني في صدري، أو في رأسي، ولكنْ؛ كما ترى، فأنا سالم تماماً. آه آه، أيحسب هؤلاء الأوغاد أن بوسعهم قتلي بسهولة مثل أيّ هندي غبي! إن كارمو ماكرٌ، يا سيدي.

- وأين اختفى الرجل الذي فتح عليك النار؟

- لا بد أنه هرب ما إن سمع صوتك، يا سيدي، لقد تفحّصتُ المكان، ولم أرَ شيئاً.

- أكان وحده؟

- أحسب ذلك.

- وكان إسبانياً؟

- أجل، أظنه أحد البحّارة.

- أتظن أنه يراقبنا الآن؟

- من المحتمل أن يفعل ذلك، ولكنْ؛ لا أظن أنه سيجرؤ على الظهور، وقد علم أننا اثنان الآن.

- لنعد إلى القمة، يا كارمو، فأنا قلق على ستيلر.

- وإذا ما فتحوا النار علينا من الخلف؟ قد لا يكون هذا الرجل بمفرده.

- سنأخذ جانب الحذر، ولن تفارق أصابعنا زناد البندقية. هيا، أيها الباسل.

تراجعا مسرعين، وسلاحاهما بين أيديهما موجّهان صوب أطراف الغابة، وما إن وصلا إلى مجموعة من الشجيرات حتّى اختبآ بينها، ثم انتظرا لحظة؛ ليتأكدا أن لا أحد خلفهما، ولما لم يلمحا أحداً، ولم يسمعا أي ضجيج، أكملا سيرهما في صعود سفح المخروط. بعد عشرين دقيقة، وصلا إلى المكان الذي كانوا يتحصّنون فيه. نزل ستيلر نحوهم قائلاً:

- لقد سمعتُ إطلاق نار، هل كان أحدكما مَن أطلق النار؟

- لا - أجاب القرصان - أرأيتَ أحداً ما يقترب من هنا؟

- لا، لم يصل أحد إلى هنا، يا سيدي، ولكني شاهدتُ مجموعة من البحّارة يغادرون الشاطئ، وقد توغلوا بين الأشجار.

- ألا تزال السفينة في مكانها؟

- أجل، يا سيدي، لم تبارح مكانها.

- وماذا عن القوارب؟

- لا تزال تحاصر الجزيرة.

- أعلمت فيما إذا فان غولد متواجداً بين الجنود؟

- لقد لمحتُ عجوزاً بلحية بيضاء.

- إنه هو - هتف القرصان، وقد صرّ على أسنانه - فليأت هذا الملعون أيضاً، لنرى إذا كان سينجو هذه المرة من بندقيتي.

- أتظن أنهم سيصلون عمّا قريب إلى هنا، يا قبطان؟ - سأل كارمو، بينما كان يجمع بعض الأغصان اليابسة.

- ربما لن يهجموا علينا نهاراً، بل سينتظرون حلول الظلام.

- إذنْ؛ بوسعنا أن نجهّز الطعام؛ لكي نستعيد قوانا. أعترف لكم أنيّ لا أعرف ما حلّ بمعدتي. هيا، يا ستيلر، جهّز لنا هاتين السمكتين، أعِدك بشوي رائع، ستلحس أصابعك بعده.

- وماذا سنفعل، إذا هجم علينا الإسبان؟ - سأله ستيلر، وقد سيطر عليه القلق .

- اه، سنأكل بيد، ونقاتل بالأخرى، في ببطوننا السمك، وفي بطونهم الرصاص، وسنرى مَن سيهضم أفضل!

عاد القرصان فوق صخرة المراقبة، بينما أشعل البحّاران النار، وراحا يشويان السمكتين بعد أن نظّفاهما من الأشواك. بعد ربع ساعة، أعلن كارمو مبتهجاً أن الطعام أصبح جاهزاً، في حين لم يظهر الإسبان بعد. جلس البحّارة حول الطعام، لكنهم لم يكملوا بعد اللقمة الأولى، وإذا بهم يسمعون انفجاراً مدوياً.

- إنه المدفع - هتف كارمو.

لم ينه - بعد - جملته، وإذا بقنبلةٍ كبيرة، تفجّر قمة صخرة المراقبة.

- اللعنة - هتف كارمو واثباً.

اندفع القرصان نحو حافة القمة؛ ليرى مَن أطلق تلك القنبلة.

- يا للأوغاد - صرخ كارمو - ليس بوسع أحد أن يأكل بسلام في خليج ماراكايبو. ليبتلع الجحيم فان غولد وكل أتباعه! ها قد ذهب طعامنا سدى، وقد سحقت الصخور أسماكنا.

- ستعوّضنا عنها السلحفاة، يا كارمو.

- أجل، هذا إذا منحنا الإسبان الوقت الكافي - قال القرصان الأسود، بينما كان يتقدّم نحوهما - إنهم يصعدون عبر الغابة، والسفينة تستعد لقصفنا بالمدافع.

- يريدون أن يحيلوننا إلى رماد؟ - سأل كارمو.

- بل يريدون سحقنا مثل أسماكنا - قال ستيلر.

- لسوء حظهم، فنحن أسماك خطرة، يا صديقي. أبوسعنا رؤية الإسبان، يا قبطان؟

- إنهم لا يبعدون عنّا سوى خمسمائة، أو ستمائة خطوة.

- اللعنة!

- ما بك؟

- لقد خطرت في بالي فكرة.

- قل بسرعة.

- إذا كانت السفينة تتجهّز لقصفنا، فنحن بدورنا سنقوم بقصف الجنود الإسبان.

- وهل عثرت على مدفع ما، يا كارمو! أم أن الشمس صهرت دماغك!

- لا هذه، ولا تلك، يا سيدي، المسألة وما فيها أننا ندحرج هذه الصخور الكبيرة نحو الغابة. إن السفح شديد الانحدار، ولا أحسب هذه الصخور تتوقّف في منتصف الطريق.

- إنها فكرة حسنة، وسنقوم بذلك في الوقت المناسب. والآن؛ أيها الشجاعان؛ لنفترق، كلّ في جهة لحراسة موقعنا، ولا تقربا الصخرة؛ كيلا تصيبكما شظايا الصخر.

- لقد أصابني منها ما فيه الكفاية - قال كارمو، وقد دسّ في جيبه المانجو - هيا لنرى ماذا يريد هؤلاء المزعجون، سأجعلهم يدفعون ثمن الأسماك غالياً.

افترقوا، وقد اختبأ كل منهم خلف بعض الشجيرات التي تحيط بقمة المخروط انتظاراً لقدوم العدو. كان بحّارة السفينة يتسلّقون جوانب المخروط بحماس، ربما تدفعهم المكافأة التي وعدهم بها الحاكم، ويفتحون طريقهم بين الشجيرات الكثيفة. يبدو أنهم يصعدون من جانبين فقط، وقد كانوا جاهزين لأيّ مباغتة. كانت المجموعة الأولى قد وصلت حوض الماء، أما الأخرى فقد كانت تتسللّ عبر واد عميق. ما إن تأكد القرصان من وجهتهم حتّى قرر أن يستغلّ فكرة كارمو؛ لكي يعيق حركة أولئك الذي يصعدون عبر الوادي.

- هيا بنا، أيها الشجاعان - قال القرصان لرفيقيه - لنتولّ أمر المجموعة التي تصعد من خلفنا، بعد ذلك، سنتولى أمر المجموعة القريبة من حوض الماء.

- أما عن هؤلاء؛ فأرجو أن يؤدي النيكو دوره، ويعيقهم عن التقدّم - قال كارمو - يكفي أن يكونوا عطشين، سنراهم يولّون هاربين، وأيديهم على بطونهم.

- سنهجم على هؤلاء بالأحجار؟ - سأل ستيلر بينما كان يدحرج حجراً كبيراً.

-أجل، اهجما - أمر القرصان.

دحرج البحّاران على وجه السرعة عشرة أحجار من على القمة، وصوبوها نحو الوادي. نزلت تلك الكتل نحو الغابة كأنها إعصار، محطّمةً ما لاقت بطريقها من الشجيرات. لم تمرّ خمس دقائق حتّى تناهت إلى مسامع البحّارة صرخات فزع، رافقتها طلقات نارية.

- آه آه! - هتف كارمو مبتهجاً - يبدو أن أحدهم سحقته الصخور.

- ها أنا أرى بعضهم ينزلون من السفح هاربين - قال ستيلر، وقد صعد فوق صخرة.

- أحسبهم نالوا ما يكفيهم الآن.

- لنرشقهم مرة أخرى، يا ستيلر.

- أنا جاهز، يا كارمو.

دحرج البحّاران عشرة أحجار أخرى صوب الوادي. حطّمت تلك الصخور الشجيرات، وقلعت أحجاراً أخرى، وجرفت كل ذلك معها إلى الوادي. تسلّق بحّارة السفينة سفح الوادي؛ كيلا تسحقهم تلك الأحجار، ثم اختفوا تحت الأشجار.

- لقد انتهينا من أمر هؤلاء، ولن يشكّلوا أي خطر علينا - قال كارمو، وهو يفرك يديه - لقد نالوا نصيبهم من غضبنا.

- والآن؛ لنتولّ أمر الآخرين - صاح القرصان.

- هذا إذا لم يُصابوا بآلام في البطن - قال ستيلر - فلا أراهم يتسلّقون السفح.

- اصمتا الآن.

اندفع القرصان نحو حافة القمة الجرداء وجعل ينصت لبضع دقائق.

- أتسمع شيئاً ما، يا سيدي؟ - سأل كارمو، وقد نفد صبره.

- لا أسمع أي ضجيج - أجاب القرصان.

- لعلهم شربوا النيكو؟

- أو ربما يتقدّمون زحفاً كالأفاعي؟ - قال ستيلر.

- لنحترس؛ كيلا يباغتوننا برشقة رصاص عن قرب.

- لعلهم توقّفوا خشية أن تسحقهم صخورنا - قال كارمو - ألم تكن صخورنا أشد خطراً من مدافع السفينة حتّى وإن كانت أقل كلفة منها؟

- حاول أن تطلق رصاصة صوب الغابة - أمر القرصان متلفتاً نحو ستيلر - فإذا جاوبونا، علمنا كيف نتدبّر أمرهم.

توجّه ستيلر نحو حافة القمة الجرداء، جثا على ركبتيه خلف إحدى الشجيرات، ثم أطلق رصاصة نحو الغابة. تردّد صدى الرصاصة بين الأشجار، ولكنْ؛ دون جدوى. انتظر البحّارة بضع دقائق منصتين ومحدّقين في الغابة الكثيفة، بعد ذلك، أطلقوا رشقة رصاص في مختلف أرجاء الغابة. لم يحصلوا على جواب هذه المرة أيضاً، فلا صراخ، ولا أي شيء من ذلك. أين انتهى الأمر بالمجموعة الأخرى، إذنْ، وقد رأوهم يصعدون من جانب البحيرة؟

- أفضّل رشقات الرصاص على هذا الصمت - قال كارمو.

- إن هذا الصمت يقلقني، أخشى أنهم يدبّرون لنا مكيدة ما. ماذا سنفعل، يا قبطان؟

- لننزل، يا كارمو - قال القرصان، وقد سيطر عليه القلق.

- وإذا كان الإسبان يكمنون في مكانٍ ما، فيهجمون على موضعنا؟

- سيبقى ستيلر هنا، أريد معرفة ما يقوم به أعداؤنا.

- أتودّ معرفة ذلك حقاً، يا قبطان؟ - قال ستيلر، وقد تقدّم قليلاً - ألا تراهم؟ إني أرى سبعة، أو ثمانية يتخبّطون، كأنهم مجانين.

- أين؟

- هناك، قرب حوض الماء.

- آه آه! - هتف كارمو ضاحكاً - لقد تذوّقوا النيكو إذاً! يجب أن نرسل لهم بعض مسكّنات الآلام.

- على شكل رصاص، أليس كذلك؟ - سأل ستيلر.

- لا، أتركوهم وشأنهم - قال القرصان - لا فائدة من قتل أشخاص، لا يشكّلون خطراً علينا، ثم يجب علينا أن نحتفظ بعتادنا للحظة الحاسمة، بما أن الهجوم الأول كان دون جدوى. والآن لنعمل على تحصين موضعنا أكثر، فنجاتنا تعتمد على طول مقاومتنا.

- ولنجهّز بعض الطعام أيضاً، فلا تزال لدينا سلحفاة، وسمكتين - قال كارمو.

- لنقتصد قليلاً، يا كارمو، فقد يطول حصارنا لأسابيع، أو أكثر. قد يبقى الأولونيزي لوقت طويل في ماراكايبو، وأنت تعلم أنّه أملنا الوحيد للخروج من هذا المأزق.

- إذنْ؛ سنكتفي بسمكة البيرايا، يا سيدي.

وبينما كان البحّاران يشعلان النار، صعد القرصان فوق الصخرة؛ ليرى ما يحصل على الشاطئ. لم تترك السفينة مكانها بعد، ولكنْ؛ كان الجنود على متن السفينة منشغلين بمدفع المقدّمة، كما لو أنهم سيصوّبون نيرانهم إلى قمة الجزيرة مجدداً. بينما كانت القوارب الأربعة لا تزال تحوم حول الجزيرة، تُبحر ببطء قرب الشواطئ خشية أن يحاول المحاصرون الهرب. على أن خشيتهم تلك لا أساس لها، ذلك أن البحّارة لا يملكون قارباً؛ ليهربوا به، وليس بوسعهم أن يجتازوا المسافة التي تفصل الجزيرة ومصبّ نهر الكاتاتومبو سباحةً. ولا يبدو أن المجموعتين اللتين حاولتا الصعود إلى قمة المخروط قد عادتا إلى الشاطئ، فليس لهم أي وجود هناك.

- لعلّهم خيموا تحت أشجار الغابة بانتظار فرصة سانحة للهجوم علينا؟
- تمتم القرصان - أخشى أن النيكو والصخور لم تلعب دوراً كبيراً، ولا يبدو أن الأولونيزي سيصل قريباً. إذا لم يصل إلينا في اليومين القادمين، فقد أقع أسيراً بين يدي هذا العجوز الملعون.

نزل على مهل من الصخرة، وتوجّه نحو رفيقيه، وأسرّهما ظنونه ومخاوفه.

- يبدو أن الأمر أصبح أكثر خطورة - قال كارمو - أتظن أنهم يجهّزون لهجوم هذا المساء، يا قبطان؟

- أخشى ذلك - أجاب القرصان.

- وكيف لنا أن نجابه هذا العدد الكبير من الجنود؟

- لا أدري، يا كارمو.

- وإذا ما حاولنا كسر الحصار؟

- وبعدها، ماذا سنفعل؟

- نحاول أن نسيطر على أحد القوارب الأربعة!

- أظنها فكرة جيدة، يا كارمو - أجاب القرصان بعد لحظة تفكير - لن يكون الأمر هيناً، ولكنْ؛ أحسب أنّنا قادرون على فعل ذلك.

- ومتى سنقوم بذلك؟

- سنقوم بذلك الليلة، قبل ظهور القمر.

- وكم هي المسافة، حسب رأيك، بين هذه الجزيرة ومصبّ نهر الكاتاتومبو؟

- لا أظنها أكثر من ستة أميال.

- قد نجتازها بساعة، أو أقل من ذلك، إذا ما أجهدنا أنفسنا.

- ولكنْ؛ ألا تظنون أن السفينة ستلاحقنا؟ - سأل ستيلر.

- ستفعل بالتأكيد- أجاب القرصان - ولكنْ؛ هناك الكثير من المياه الضحلة أمام مصبّ النهر، وإذا ما حاولت ملاحقتنا، فإنها لا شك ستجنح.

- لنحزم أمرنا، ولنرحل من هنا الليلة إذنْ! - قال كارمو.

- أجل، هذا إذا لم يكونوا قد قبضوا علينا، أو قتلونا.

- لقد نضجت السمكة، يا قبطان، الطعام جاهز.

-٣٢-
الوقوع بين أيدي فان غولد

لم يقم فان غولد ولا بحّارة السفينة بفعل أي شيء طوال ذلك النهار، يبدو أنهم كانوا واثقين تماماً أن القرصان ورفاقه في قبضتهم، وأنهم سيمسكون بهم لا شك، فلم يكن من الضروري الإسراع في الهجوم. لا بد أنهم يحاولون إجبارهم على الاستسلام طواعية بفعل الجوع والعطش، ذلك أن الحاكم يرغب في القبض على القرصان الباسل حياً؛ لكي يشنقه فيما بعد، كما فعل مع أخويه من قبل. قام كارمو وستيلر بالنزول إلى الغابة، بحيطة وحذر، وتيقّنا أن البحّارة كانوا مخيمين عند سفح المخروط، إلا أنهما لم يشاهدا ولا حتّى نفراً واحداً عند حوض الماء، ذلك أنهم ولا شك أيقنوا خطر تلك المياه.

قام البحّارة عند حلول المساء بالتجهيزات اللازمة للرحيل، وقد حزموا أمرهم بكسر الحصار بدل انتظار الموت البطيء، جوعاً أو عطشاً، في موضعهم المحصن ذاك. عند الساعة الحادية عشر، وبعد أن تيقّنوا أن أعداءهم لم يغادروا مواقعهم عند السفح، قاموا بجمع ما تبقّى عندهم من المؤن، ثم اقتسموا الذخيرة فيما بينهم، وقد نال كل منهم ثلاثين رصاصة، وغادروا قمة المخروط بهدوء تام متّجهين نحو حوض الماء. على أنهم حدّدوا مواقع المخيمات قبل أن يغادروا مكانهم؛ كي يتجنّبوا المرور قربها خشية أن يطلق أحدهم الإنذار، فتفشل خطّتهم الوحيدة التي قد تنقذهم من براثن ذلك العجوز الملعون. قد يكون هناك بعض الحرس المنتشرين هنا وهناك، ولكنهم سيلزمون جانب الحيطة والحذر، وسيتمكنون، تحت جنح الظلام، من تجنّب أولئك الحرس. جعلوا يزحفون بهدوء كيلا يسبّبوا سقوط الصخور من على السفح، وبعد عشرة دقائق، وصلوا إلى الغابة؛ حيث يخيّم ظلام

دامس. توقّفوا لبضع دقائق، وأنصتوا؛ ليستبينوا فيما إذا كان هناك ضجيج ما، ولما رأوا أن نيران المخيمات لا تزال متّقدة عند السفح، عاودوا المسير زحفاً، وهم يختبرون الأرض بأيديهم؛ كي يتجنّبوا خشخشة الأوراق، أو تساقط الصخور. بعد مسير ثلاثمائة متر، وإذا بكارمو، الذي كان في المقدّمة، قد توقّف فجأة، وتوارى خلف جذع شجرة.

- ماذا هناك؟ - سأله القرصان بهمس بعد أن التحق به.

- لقد سمعت فرقعة غصن، يا سيدي - أجاب كارمو هامساً.

- وهل يبعد الكثير عنّا؟

- بل على مسافة قريبة.

- قد يَكون حيواناً ما؟

- لا أدري.

- أو لعله أحد الخفر؟

- إن الظلام دامس، وليس بوسعي رؤية شيء، يا قبطان.

- لنتوقّف بضع دقائق، إذنْ.

تمدّد الثلاثة بين الأحراش، قطعوا أنفاسهم، ثم أصخّوا السمع. وبعد لحظات من الانتظار المرير، وإذا بهم يسمعون شخصين على مقربة منهم، يتهامسان فيما بينهما.

- لقد اقتربت ساعة الصفر - قال أحدهما.

- هل الكلّ جاهز؟ - سأل الآخر.

- لعلّهم غادروا المخيمات - الآن - يا ديغو.

- ولكنْ؛ لا تزال النيران متّقدة.

- يجب أن تبقى النيران متّقدة؛ كيلا يظن القرصان ورفاقه أننا غادرنا مواقعنا.

- إن الحاكم ماكر جداً.

- إنه رجل حرب، يا ديغو.

- أتظن أننا سنقبض عليهم حقاً؟

- سنباغتهم بهجومنا.

- ولكنهم سيدافعون عن أنفسهم، والقرصان الأسود وحده يعادل عشرين رجلاً، يا سيباستيان.

- لا تنس أننا ستون جندياً، وأن معنا الكونت الباسل.

- ولكن كل هذا لا يكفي لهزيمة ذلك القرصان الشيطاني. أظن أن الكثير منّا سيلقون حتفهم.

- ولكنْ؛ مَنْ سينجون سيحصلون على جائزة كبرى. عشرة آلاف بياسترا، يا عزيزي.

- إنه لمبلغ كبير حقاً، يا سيباستيان. اللعنة، كم يودّ الحاكم أن يرى القرصان قتيلاً إذنْ!

- لا، يا ديغو، بل يريده حياً.

- ولكنْ؛ ليعلّقه على المشنقة، فيما بعد.

- لا شك في هذا! أسمعتَ، يا ديغو؟

- أجل، لقد تحرّك رفاقنا لتنفيذ الهجوم.

- هيا بنا إذنْ، إن العشرة آلاف بياسترا تنتظرنا فوق القمة.

لم يتحرّك القرصان ورفيقاه قط، بل تواروا بين الأعشاب والنباتات، على أنهم جهّزوا بنادقهم تحسّباً لأي طارئ مستعدين لفتح النار. شاهدوا في العتمة هيأة الجنديين، وهما يتقدّمان ببطء، ويفتحان طريقهما بين النباتات بحذر. وبعد أن تجاوزا القرصان ورفيقيه بمسافة قليلة، توقّف أحدهما قائلاً:

- أسمعتَ شيئاً ما، يا ديغو؟

- لا، يا رفيقي.

- يبدو لي أني سمعتُ فحيحاً ما!

- قد تكون حشرة ما.

- أو لعلّه ثعبان؟

- علينا أن نبتعد من هنا إذنْ، هيا يا رفيقي، لا أودّ أن أكون آخر مَن يشارك في القتال.

عاود الجنديان السير بعد أن تبادلا هذه الكلمات، حتّى تواريا تحت جنح الظلام. انتظر البحّارة الثلاثة بضع دقائق خشية أن يرجع الجنديان، أو يكونا قد توقّفا على مسافة قريبة، بعد ذلك، نهض القرصان؛ ليتفحص المكان.

- اللعنة عليهما - تمتم كارمو وقد تنفّس بعمق - أحسب أن الحظّ قد حالفنا الليلة.

- لقد ظننتُ لوهلة أنهما سيكتشفان أمرنا - قال ستيلر - لقد مرّ أحدهما قريباً مني حتّى كاد يدوس عليّ.

- حسناً فعلنا؛ إذ غادرنا موقعنا، فكيف لنا أن نقاوم هجوم ستّين رجلاً؟

- ستكون مفاجأة سيّئة لهم حين لن يجدوا سوى الأشواك والحجارة.

- وهذا ما سيحملونه للحاكم.

- هيا بنا - قال القرصان - يجب أن نصل إلى الشاطئ قبل أن يدرك الإسبان أننا هربنا. فإذا ما أطلقوا الإنذار، لن يكون بوسعنا الحصول على قارب، وسينتهي أمرنا.

نزل البحّارة باتجاه حوض الماء بعد أن أطمأنوا أن ليس هناك أي خطر يداهمهم، ثم توغّلوا في الوادي الذي أمطروه مسبقاً بوابل من الحجر، أملاً في الوصول إلى الشاطئ الجنوبي للجزيرة. قطعوا الوادي دون أن يلاقوا مصاعب تُذكَر، ووصلوا إلى الشاطئ قبل منتصف الليل. شاهدوا على مقربة منهم، عند طرف لسانٍ بحري، أحد القوارب الأربعة التي تحيط بالجزيرة، في حين كان طاقمه المكوّن من بحّارين فقط يغطّان في نوم عميق قرب نارٍ تكاد تخمد، مطمئنين أن لا أحد سيسبّب لهما القلق، كونهما يعلمان أن القرصان ورفيقيه كانوا محاصرين على قمة المخروط.

- ستكون مغامرة سهلة - تمتم القرصان - إن لم يستيقظ هذان البحّاران، فسيكون بوسعنا الإبحار، والوصول إلى مصب نهر الكاتاتومبو بهدوء.

- ألا نقتلهما؟ - سأل كارمو.

- لا فائدة من ذلك - أجاب القرصان - لن يسبّبا لنا المشاكل، على الأقل، هذا ما آمل.

- وأين هي القوارب؟ - سأل ستيلر.

- إني أرى أحدها هناك، قرب تلك الصخرة، ولا يبعد عنّا سوى خمسمائة خطوة - أجاب كارمو.

- هيا بنا، لنبحر بسرعة - أمر القرصان - سيدرك الإسبان أنّنا هربنا خلال دقائق قليلة.

ساروا بهدوء، ومروا قرب البحّارين اللذين كانا يغطّان في نوم عميق. دفعوا القارب إلى الماء بخف،ة ثم ركبوا فيه، وانطلقوا. ابتعدوا عن الشاطئ ما يقارب الخمسين خطوة، فازدادت آمالهم في النجاة دون أن يعيقهم شيء، ثم فجأة صاروا يسمعون صدى إطلاق نار كثيف يتردّد فوق قمة المخروط، يتبعها صراخ عالٍ. يبدو أن الإسبان بادروا بالهجوم مباشرةً حال وصلوهم القمة. استيقظ البحّاران على صدى تلك الطلقات النارية، ولما شاهدا القارب يبتعد عن الشاطئ، وقد ركب فيه عدّة رجال، اندفعا نحو الشاطئ والبنادق بين أيديهم، وصرخا:

- توقّفوا! مَن أنتم؟

وبدل إجابتهما، فقد عمد كارمر وستيلر إلى التجديف بقوة أكبر.

- عليكم بهم، إنهم يهربون! - صرخ الرجلان، وقد أدركا، بعد فوات الأوان، خدعة القرصان ورفيقيه، ثم أطلقا رصاصتين على الهاربين.

- فلتذهبا إلى الجحيم - صرخ كارمو، وقد هشمت إحدى الرصاصتين مجدافه.

- تناول مجدافاً آخر، يا كارمو - صاح القرصان.

اللعنة - صرخ ستيلر.

لا يزال الصراخ يتعالى فوق القمة، وكذلك إطلاق النار. يبدو أن الإسبان كانوا يخشون كميناً ما بعد أن رأوا حاجز الأشواك والصخور. بينما كان قارب البحّارة ينطلق مسرعاً بفعل تجديف كارمو وستيلر، متّجهاً نحو مصبّ النهر الذي كان لا يبعد أكثر من ستة أميال. كانت مسافة طويلة، ولكنْ؛ إذا ما تعذّر على الرجال الذين كانوا على متن السفينة معرفة ما يجري في الجانب الآخر من الجزيرة - ربما - يتمكّن القرصان ورفيقاه من العبور بأمان. رسا أحد المراكب الإسبانية عند اللسان البحري، وحمل البحّارين اللذين

كانا يصرخان بجنون. استغلّ كارمو وستيلر هذه الفرصة، وتقدّما ما يقارب المائة متر، ولكنْ؛ لسوء حظهما، فقد وصل الإنذار إلى الجهة الشمالية من الجزيرة أيضاً. لم يبتعد القرصان ورفيقاه ألف متر بعد حتّى شاهدوا قاربين يلاحقانهم، نصب على أحدهما مدفع صغير.

- لقد انتهى أمرنا - هتف القرصان دون وعي - لنستعدّ للموت بشرف، يا أصدقائي.

- اللعنة - صاح كارمو - أتخلّى الحظ عنا بهذه السرعة؟ ليكن ذلك، إذنْ، ولكنْ؛ قبل أن يقتلونا، سنقتل منهم جمعاً غفيراً.

أفلت المجداف، وتناول بندقيته. كانت القوارب تبحر بسرعة، يتقدّمها قارب كبير، ركب فيه اثنا عشر رجلاً، وصلت على مسافة ثلاثمائة خطوة منهم، فنادى أحدهم:

- استسلموا، وإلا أغرقناكم وقاربكم.

- لا - أجاب القرصان بصوت كالرعد - إن رجال البحر يموتون، ولا يستسلمون.

- يعدكم الحاكم بأنه سيوفّر حياتكم.

- إليك جوابي!

صوب القرصان بندقيته نحو القارب ،فقتل أحد المجدّفين. تعالى الصراخ فوق القوارب الثلاثة.

- افتحوا النار.

أطلقت قاذفة من المدفع الصغير، بعد لحظة، أنقلب قارب الهاربين نحو المؤخّرة، وامتلأ بالماء.

- اقفزوا من القارب - صاح القرصان، وقد رمى بندقيته. أفرغ البحّاران بندقيتيهما ضد القارب الكبير، ثم قفزا إلى الماء، بينما كان القارب ينقلب، وقد حطّمت قنبلة المدفع مؤخّرته.

- عضّا على حربتيكما، ولنهجم على القارب - صاح القرصان بغضب - سوف نموت على متن ذلك القارب.

كانوا يسبحون بعناء، وقد أثقلتهم أحذيتهم التي امتلأت بالماء، وهم يتّجهون نحو القارب عازمين على القتال حتّى الموت. كان الإسبان يريدون الإمساك بهم أحياء، وإلا فقد كان من السهل عليهم قتلهم رمياً بالرصاص. اتّجهوا نحوهم، وصدموهم بالقارب الكبير، فتراموا واحداً فوق الآخر، قفز عشرات الأشخاص إلى الماء، وأمسكوا بهم، وجرّوهم إلى القارب. قاموا بربطهم قبل أن يستعيدوا وعيهم من شدة ضربة القارب التي جعلتهم يبتلعون الكثير من الماء. حينما استعاد القرصان وعيه، وجد نفسه على متن القارب مقيّد اليدين، بينما وضع رفيقيه تحت مصطبة مؤخّرة القارب.

رفع القرصان رأسه، وإذا به يرى رجلاً واقفاً بجنبه، يرتدي ملابس كاستليانيةٍ أنيقةٍ، ويدير مقود القارب. ما إن رآه القرصان حتّى هتف بدهشة:

- هذا أنتَ ... أيها الكونت!

- أجل، أنا أيها الفارس - أجاب الكاستلياني مبتسماً.

- ما كنتُ أحسب أن كونت ليرما ينسى أنّني وفّرتُ حياته، في حين كان بوسعي قتله في بيت محرّر عقود ماراكايبو - قال القرصان بمرارة.

- وما الذي يجعلك تظنّ أنّني نسيتُ اليوم الذي تعرّفت فيه عليكَ، يا سيد فينتيميلا؟ - سأله الكونت بصوت خافت.

- ولكنْ؛ لا أرى سوى أنيّ سجينك الآن!

- وبعد؟

- وأنك ستقودني إلى الدوق الفيامينغي.

- وماذا بعد ذلك؟

- أنسيتَ أن فان غولد قام بشنق أخويّ؟

- لا، أيها الفارس.

- أتجهل الحقد والكره الذي بيننا؟

- بل أعرف ذلك جيداً.

- وتعرف أنه سيشنقني؟

- لا أظن.

- لا تصدّق هذا؟

- أعرف جيداً أن الدوق يتمنّى شنقك، ولكنْ: أنسيتَ بأنّني هنا أيضاً، أضف إلى ذلك أن السفينة هي سفينتي، وأن البحّارة لا يطيعون سواي.

- ولكن فان غولد هو حاكم ماراكايبو، ويجب على كل الإسبان أن يطيعوا أوامره.

- انظر، يا سيدي، لقد أرضيتُه بأن ألقيتُ القبض عليك، ولكنْ: ماذا بعد ذلك؟ - ثم أضاف الكونت بصوت خافت - إن جبل طارق وماراكايبو بعيدتان من هنا، أيها الفارس، وسترى قريباً كيف سيحتال كونت ليرما على الفيامينغي. لنلزم الصمت الآن.

وصل القارب برفقة القوارب الأخرى قرب السفينة، وبإشارة من الكونت نقل رجاله البحّارة الثلاثة على متن السفينة، وإذا بشخص يهتف بزهو:

- ها قد وقع آخرهم في يديّ أخيراً.

-٣٣-
الوفاء بالوعد

أسرع رجل بالنزول من على مقدّمة السفينة، ووقف أمام القرصان الأسود الذي أُطلق من قيوده. كان رجلاً متقدّماً في السّنّ، عريض المنكبين والصدر مهيب الطلعة، تعتلي وجهه لحية بيضاء طويلة، يبدو عليه البأس والشدة رغم عمره الذي ناهز الخمسة والخمسين، أو الستين عاماً. كان له مظهر كمظهر دوقات جمهورية فينيسيا البحرية الذين كانوا يقودون السفن الحربية، ويحرزون الانتصارات على قراصنة الإمبراطورية العثمانية. عليه درع بديع من الصلب المزخرف، وقد علّق في حزامه سيفاً طويلاً وخنجراً مقبضه من الذهب، ويرتدي زيّاً إسبانياً عريض الأكمام وكنزة من الحرير الأسود، ويضع حذاء من الجلد الأصفر مزيّناً بمهاميز من الفضة.

تفرّس بعينيه اللامعتين لعدّة لحظات في وجه القرصان، ثم كسر الصمت قائلاً بصوت هادئ:

- أرأيتَ، أيها الفارس، كيف حالفني الحظ؟! لقد أقسمتُ أن أشنقكم كلّكم، وسأبرّ بيميني.

رفع القرصان رأسه عند سماعه تلك الكلمات، ثم نظر إليه باحتقار قائلاً:

- إن للخونة نصيبهم في هذه الحياة، ولكنْ؛ لا أظنه سيكون كذلك في الحياة الأخرى، أيها السفاح. افعل ما شئتَ، ولكنْ؛ اعلم أن سادة فينتيميلا لا يرهبون الموت.

- لقد حاولتَ هزيمتي - أجاب الدوق بنبرة باردة - ولكنكَ خسرتَ النزال، وسوف تدفع ثمن ذلك.

- فاقتلني إذنْ، أيها الخائن.

- لن أقتلك بهذه السهولة.

- ماذا تنتظر، إذنْ؟

- لم يحن الوقت بعد. كنتُ أتمنّى أن أجعلك فرجة لسكان ماراكايبو، ولكنْ؛ بما أن رفاقك سيطروا على المدينة، فسوف أجعل شنقك فرجة لسكان جبل طارق.

- ألم يكفك قتلك أخوتي، أيها البائس؟

لاح بريق شرس في عيني الدوق العجوز.

- لا - أجاب بصوت خافت - إنك شاهد خطير على ما جرى في فلاندرا، ولا أستطيع أن أوفّر حياتك، ثم إنيّ إن لم أقتلك اليوم، فسوف تقوم أنت بقتلي في الغد. ربما أنا لا أكرهك كما تظن، ولكني أحاول أن أحمي نفسي فقط، أو ربما لأتخلّص من غريم، يقضّ مضجعي، هذا كل ما في الأمر.

- من الأفضل لك أن تقتلني الآن إذنْ، لأني إن تمكّنتُ من الفرار، فسأعود لمطاردتك فوراً.

- أعرف ذلك - أجاب الدوق بعد لحظات من التفكير - ولكنْ؛ لا يزال بوسعك أن تنجو من الموت الذي تستحقّه، كونك قرصاناً.

- لقد قلتُ لك إنيّ لا أخشى الموت - أجابه القرصان برباطة جأش.

- أعرف جيداً مدى شجاعة سادة فينتيميلا - أجاب الدوق ساهماً - أجل، لقد أثبتُّم لي قدركم ومنزلتكم ومدى استهزائكم بالموت في عدّة مواطن.

أحنى رأسه، وراح يتمشى ساهماً في التفكير، ثم عاد حازماً أمره، فأكمل:

- ربما لن تصدّق ما سأقول لك، أيها الفارس، ولكني تعبتُ من الصراع المتواصل معك، وسأكون سعيداً حقاً ومرتاح البال لو حصل، وانتهى كل ما بيننا.

- أجل - قال القرصان بنبرة سخرية - وسوف تنهي ذلك بشنقي!

- رفع الدوق رأسه، وحدق بالقرصان، ثم سأله بحزم:

- وإذا ما أطلقتُ سراحك، فما أنت فاعل؟

- سأواصل القتال ضدك بكل ما أوتيتُ من قوة، حتّى أنتقم لأخوتي - أجاب القرصان بشدة.

- إذنْ - والحال هذه - فأنت تجبرني على قتلك. كنتُ سأوفر حياتك؛ لكي أتخلص من بعض تأنيب الضمير، لو أنك تخليتَ وإلى الأبد عن سعيك في الانتقام، وعدتَ إلى أوربا، ولكنْ؛ كنتُ أدري أنك لن تقبل بشروط كهذه، لذلك سأشنقك كما فعلتُ مسبقاً مع أخويك القرصان الأحمر والقرصان الأخضر.

- وكما قتلتَ أخي الكبير في فلاندرا أيضاً.

- اصمت ... - صرخ الدوق بنبرة الملتاع - لماذا تستذكر الماضي؟ دعه يمضي إلى الأبد.

- أكمل مشوارك في القتل والخيانة - أضاف القرصان - واقتل آخر سادة فينتيميلا أيضاً، إن أردتَ، ولكنْ؛ اعلم أن الحرب ضدك لن تخمد، فهناك قرصان آخر، باسل ومغوار، سنيبرّ بقسم القرصان الأسود، ولن يغفر لك يوم تقع بين يديه.

- ومَن هو هذا القرصان؟ - سأل الدوق بنبرة رعب.

- إنه الأولونيزي.

- حسناً، سأشنقه هو الآخر.

- هذا إن لم يصل هو اليك، ويشنقك، إنه يقود الآن حملة عسكرية ضد جبل طارق، وبعد أيام قليلة، ستقع لا شك بين يديه.

- أأنت واثق من ذلك؟ - سأل الدوق ساخراً - إن جبل طارق ليست كماراكايبو، هناك سوف يُهزم القراصنة بلا شك أمام القوات الإسبانية العظيمة. ليأت الأولونيزي إذنْ، وسيأخذ هو الآخر عقابه الذي يستحق.

ثم التفت إلى البحّارة قائلاً:

- قودوا السجناء إلى عنبر السفينة، واحرسوهم جيداً. لقد نلتُم الجائزة التي وعدتُكم بها، وستحصلون عليها حال وصولنا إلى جبل طارق.

قال ذلك، ثم أدار ظهره للقرصان، وتوجّه صوب المقدّمة للذهاب إلى كابينته. ولما وصل إلى السلم، استوقفه كونت ليرما قائلاً:

- ألا تزال مصراً على شنق القرصان، أيها الدوق؟

- أجل - أجاب الدوق بنبرة حازمة - إنه قرصان، والقراصنة هم أعداء إسبانيا، وقد قاد مع الأولونيزي حملة ضد ماراكايبو، لذلك فهو يستحقّ الموت.

- إنه رجل نبيل وباسل، أيها الدوق.

- وماذا يهمّك في ذلك؟

- من المؤسف أن يُقتل رجل مثله.

- إنه عدونا، يا حضرة كونت.

- على أني لن أقتله، لو كنتُ مكانك.

- ولماذا؟

- كما تعلم - يا حضرة الدوق - فقد تناقلت أخبار فحواها أن القراصنة قد أمسكوا بابنتك.

- هذا صحيح - قال الدوق بحسرة - ولكنّنا لم نتأكد بعد فيما إذا كانت السفينة التي تقلّها قد سُلبت أم لا.

- وإذا كانت الأخبار صحيحة؟

نظر الدوق إلى الكونت بنظرة ملؤها الهمّ.

- وهل تيقّنتَ من شيء ما؟ - سأل الدوق بقلقٍ شديد.

- لا، يا حضرة الدوق، ولكنْ؛ لو صدقت الأخبار، فقد يكون بوسعنا أن نبادلها بالقرصان الأسود .

- لا، يا حضرة الكونت - أجاب الدوق بحزم - بوسعي أنْ أفتدي ابنتي بالمال، هذا إذا تعرّفوا عليها، فقد اتّخذنا كل الاحتياطات لجعلها تسافر متخفّية. ولكنْ؛ إذا ما حرّرتُ القرصان، فلن أستطيع أن آمن على حياتي. لقد أتعبني الصراع معه ومع إخوته، وقد حان الوقت؛ لأنهي المسألة تماماً. دع بحّارتك يعودون إلى السفينة، يا حضرة الكونت، ثم انطلق بنا إلى جبل طارق.

انحنى الكونت دون أن يجيب بشيء، ثم توجّه نحو المقدّمة، وهو يهمس لنفسه:

- لا بد أن يفي الرجل النبيل بوعده.

بدأت القوارب بنقل الرجال الذي شاركوا في القتال على الجزيرة إلى متن السفينة، ولما انتهت المهمة، أمر الكونت بفتح الأشرعة، ولكنه انتظر

عدّة ساعات قبل أن يرفع المرساة. ولما استفسر الدوق عن السبب، وقد نفد صبره، أخبره الكونت أن السفينة جنحت فوق الرمال، ويجب انتظار المدّ للإبحار. لم تبحر السفينة إلا في الساعة الرابعة عصراً، على أنها كانت تبحر بمحاذاة شاطئ الجزيرة، ولما اقتربت أكثر من مصب نهر الكاتاتومبو بقيت واقفة تقريباً، على مسافة ثلاثة أميال من الساحل. يشكّل انحناء الساحل ما يشبه البحيرة، وقد كان السكون يخيّم عليه تماماً. صعد الدوق إلى منصّة القيادة عدّة مرات، وقد نفد صبره من أجل الوصول إلى جبل طارق، طلب من الكونت أن يقود السفينة إلى أعالي البحار، أو أن تقوم القوارب بجرّها، إلا أن الدوق أجابه بالنفي، متعذّراً بتعب البحّارة، وصعوبة الإبحار في المياه الضحلة لتلك المناطق. بدأت النسائم تهبّ عند الساعة السابعة مساء، فتمكّنت السفينة من الإبحار أخيراً، على أنها لا تزال تسير بمحاذاة الشاطئ. وبعد أن تناول الكونت عشاءه بصحبة الدوق، توجّه نحو منصة القيادة، وجعل يتحدث إلى مساعده لوقت طويل. يبدو أن لديه الكثير من التوجيهات والأوامر لمساعده حتّى يتجنّب المياه الضحلة التي يكثر انتشارها ما بين مصبّ نهر الكاتاتومبو وسانتا روزا، وهي منطقة صغيرة تبعد بضع ساعات عن جبل طارق. استمرت تلك المحادثة السرية حتّى الساعة العاشرة مساء، عندئذٍ؛ لجأ الدوق إلى كابينته؛ ليخلد إلى الراحة. بارح الكونت منصة القيادة مستتراً بالظلام، ونزل إلى عنبر السفينة على غفلة من الطاقم.

- ها قد حان الوقت - قال لنفسه - سيفي كونت ليرما بوعده، وليكن ما يكن بعد ذلك!

أشعل شمعةً صغيرة كان قد خبئها في حذاءه، فأنارت المكان الذي كان فيه ثلاثة أشخاص غلبهم النعاس من شدة التعب.

- أيها الفارس - صاح الكونت بصوت خافت.

استيقظ أحد الرجال، وعدل جلسته، وقد كانت يداه مقيدتين خلف ظهره.

- مَن ذا الذي قدم لإزعاجنا في هذه الساعة؟ - سأل بحدّة.

- هذا أنا، يا سيدي.

- آه، هذا أنت، أيها الكونت - قال القرصان - وهل جئتَ لمسامرتي؟

- بل أنا هنا لأقوم بما هو أفضل من ذلك، أيها الفارس - أجاب الكاستلياني.

- ماذا تعني؟

- أتيتُ لأفي بوعدي، وأدفع ما عليّ من دين.

- لا أفهم ما ترمي إليه.

- وهل نسيتَ مغامرتنا في بيت محرّر العقود في ماراكايبو؟

- لا، أيها الكونت.

- إذنْ؛ فأنت تذكر أنك امتنعتَ عن قتلي في ذلك اليوم؟

- أجل، أذكر ذلك.

- وها أنا أفي بالوعد الذي قطعتُه على نفسي. لستُ أنا اليوم مَن يواجه الأخطار، بل أنت، إذنْ؛ فقد حان دوري؛ لأردّ لك الجميل، وأظنك ستقدّر ذلك.

- أفصح عمّا تنوي إليه، أيها الكونت.

- أنا هنا؛ لأنقذك، يا سيدي.

- تنقذني!! - هتف القرصان بدهشة - ولكنْ؛ ألم تفكر بما سيفعله الدوق؟

- إنه نائم، أيها الفارس.

- ولكنه سيصحو بالغد.

- إذنْ؟ - سأل الكونت بنبرة هادئة.

- لا بد أنه سيغضب منك، وقد يسجنك، بل قد يشنقك بدلاً عني. أفكّرتَ بهذا، أيها الكونت؟ أنت تعلم جيداً كيف هو فان غولد.

- أتظن أيها الفارس أنه سيشكّ بي؟ صحيح أنه محتال جداً، أعرف ذلك، ولكنْ؛ لا أحسب أنه سيوجّه التهمة لي أنا. من ثم؛ إن السفينة سفينتي، والطاقم لا ينفذ إلا أوامري، فلن يكون بوسعه فعل شيء. وأعلم أنه ليس مرغوباً فيه فيما بيننا، ذلك لعجرفته وقسوته. ربما لا يجب علي أن أحرّرك، بالذات في وقتٍ كهذا؛ حيث يقود الأولونيزي حملة ضد جبل طارق، لكنّني - وقبل كل شيء - رجل نبيل، لذلك يجب علي أن أفي بوعودي. لقد أنقذتني من الموت، وها أنا الآن أنقذك، وبهذا فقد تعادلنا. فإذا ما شاءت الأقدار، والتقينا فيما بعد في جبل طارق، فستقوم أنت بمهمّتك كقرصان، وأنا أقوم بواجبي كإسباني، وسنتقاتل كأعداء.

- لن نتقاتل كأعداء، أيها الكونت.

- إذنْ؛ سنتقاتل كرجلين نبيلين، كلّ تحت رايته - قال الكاستلياني بنبل.

- ليكن كذلك، إذنْ.

- ارحل بسلام، أيها الفارس، هذه فأس، ستنفعك في كسر جدار السفينة، وهذان خنجران؛ لتدافع بهما عن نفسك ضد الوحوش الضارية حينما ستصل إلى اليابسة. هناك قارب تجرّه السفينة بحبل طويل، خذه أنت ورفيقاك، واقطعوا الحبل، وتوجّه صوب الساحل، لن نرى لا أنا ولا مساعدي أيّ شيء ممّا سيحصل. إلى اللقاء، أيها الفارس، أرجو أن ألقاك في جبل طارق، وأن أتشرف بمبارزتك مجدداً.

ما إن أتمّ الكونت كلامه حتّى حزّ قيد القرصان، وأعطاه الخنجرين، ثم

صافحه، وبارح المكان بخطى سريعة. بقي القرصان ثابتاً في مكانه لبضع لحظات، كما لو كان غارقاً في أفكاره، أو ربما لا يزال مندهشاً من موقف الكستلياني النبيل، بعد ذلك، أيقظ ستيلر وكارمو قائلاً:

- هيا، لنرحل، يا أصدقاء.

- نرحل؟! - هتف كارمو مبحلقاً عينيه - إلى أين أيها القبطان؟ إننا مقيّدان مثل الخراف، وتريد منّا أن نرحل؟

تناول القرصان أحد الخنجرين، وحزّ قيديهما.

- اللعنة - هتف كارمو - نحن أحرار، إذنْ؟ ماذا حصل، يا سيدي؟ هل أصبح هذا الحاكم الماكر رحيماً فجأة حتّى يتركنا نرحل؟

- اصمتا، واتبعاني!

تناول القرصان الفأس، وتوجّه صوب جدار السفينة، استغلّ اللحظة التي أحدث فيها البحّارة ضجيجاً عالياً، بينما كانوا يغيّرون اتجاه السفينة، وقام بتحطيم جزء من الجدار بأربع ضربات قوية، أحدث فتحة تكفي لمرور رجل.

- كونا يقظين وحذرين؛ كيلا يباغتكما أحد ما - قال للبحّارين.

مرّ من الفتحة، ثم بقي متدلّياً في الفضاء وقد تشبّث بخشبة، على أن متن السفينة كان واطئاً جداً حتّى إنه انغمس في الماء حتّى الحوض، ثم انتظر حتّى ضربت موجة جانب السفينة عندها ارتمى في الماء، وبقي يسبح جنب السفينة؛ كي لا يراه بحّارة المراقبة. لحق به بعد لحظات كلّ من كارمو وستيلر، وقد عضّا على الخنجرين اللذين تركهما الكاسلياني. انتظروا حتّى مرت السفينة، وما إن رأوا القارب الذي كان موصولاً بمؤخّرة السفينة بحبل طويل حتّى سبحوا إليه، ثم ساعد أحدهما الآخر في الصعود للحفاظ على توازنه ومنعه من الانقلاب. وبينما كانوا يتناولون المجاديف، وإذا بشخص

ما يقطع الحبل الذي يربط القارب بالسفينة. رفع القرصان رأسه نحو مؤخّرة السفينة، وإذا به يلمح هيئة شخص، يودّعه بإحدى يديه.

- ها هو قلب نبيل حقاً - تمتم القرصان وقد تعرّف على الكاستلياني.
- حماه الله من غضب فان غولد.

انطلقت السفينة نحو جبل طارق دون أن يلاحظ بحّارة المراقبة ما جرى. لا يزالون يلمحوها من بعيد، وهي تعدو مسرعة حتّى تلاشت خلف مجموعة من الجزر العامرة بالأشجار.

- اللعنة - هتف كارمو كاسراً حاجز الصمت الذي كان يخيّم على القارب
- لا أدري إذا كان هذا حلماً أم حقيقة! قبل قليل كنّا على متن السفينة مصفّدين، ينتظرنا الموت عند حلول الصباح، وإذا بنا - الآن - أحراراً! ألا تخبرنا ما الذي حصل، يا قبطان؟ مَن الذي ساعدنا على الفرار من ذلك العجوز السفّاح؟

- لقد ساعدنا كونت ليرما - أجاب القرصان.

- آه! يا له من رجل نبيل! إذا ما حدث ولاقيناه في جبل طارق، فلن نمسّه بسوء، ما رأيك، يا ستيلر؟

- بل سنعامله كما لو كان من «أخوة الشاطئ» - أجاب ستيلر - والآن أين سنتوجّه، يا قبطان؟

بقي القرصان صامتاً، نهض، وراح ينعم النظر في الجهة الشمالية، كان يتأمل في خط الأفق، بشيء من القلق.

- أصدقائي - قال بلهفة - ألا ترون شيئاً هناك في العمق؟

نهض البحّاران، وأنعما النظر في الاتجاه الذي أشار إليه القرصان. هناك، حيث خط الأفق يلتقي بسطح الماء، كانت تتألّق نقاط ضوئية، تشبه النجوم

الصغيرة. ربما يظنها الناظر نجوماً، تشارف على الاختفاء، ولكن رجل البحر يدرك جيداً ماهيتها.

- إنها أضواء، يا رفاقي - قال كارمو.

- بل هي أضواء سفن تتقدّم نحونا - أضاف ستيلر.

- قد يكون أسطول الأولونيزي في تقدّم نحو جبل طارق؟ - تساءل القرصان، وقد لاح بريق في عينيه - آه! إذا كان حقاً كما أظن، فلا يزال بوسعي أن أنتقم لأخوتي.

- أجل، يا قبطان - قال كارمو - إن تلك النقاط الضوئية ليست سوى أضواء قوارب وسفن، إنه الأولونيزي، أنا متأكد من ذلك.

- هيا بنا إلى الشاطئ، إذنْ، بسرعة، ولنوقد ناراً كبيرة؛ كي يأتوا؛ ليأخذونا معهم.

تناول كارمو وستيلر المجاديف، وجعلا يجدّفان بحزم متّجهين صوب الشاطئ الذي لا يبعد عنهم آنذاك سوى ثلاثة، أو أربعة أميال. بعد نصف ساعة، وصل البحّارة إلى شاطئ، يتسع لأكثر من عشرة قوارب، ويقع على بعد ثلاثين ميلاً من جبل طارق. عند وصولهم، قاموا بجمع الحطب، وأشعلوا ناراً كبيرة جداً. أصبحت النقاط الضوئية - عندئذٍ - قريبة جداً، وكانت لا تزال تستمرّ في تقدّمها.

- أيها الأصدقاء - هتف القرصان، وقد صعد فوق صخرة مرتفعة - إنه أسطول الأولونيزي.

-٣٤-
الأولونيزي

عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل وصلت أربع مراكب صغيرة إلى الشاطئ، وقد جذبتها النار الملتهبة. كان على متنها مئة وعشرون بحّاراً، يقودهم الأولونيزي، وكانوا رأس الأسطول الذي يرمي إلى الهجوم على جبل طارق. تفاجأ القرصان الشهير عند رؤيته للقرصان الأسود، فلم يكن ليظنّ أنه سيلاقيه بهذه السرعة؛ إذ كان يحسب أنه لا يزال يجول الغابات الكبرى أو المسطحات المائية بحثاً عن الحاكم، بل إنه فقد الأمل في أن يرافقه للهجوم على جبل طارق. ولما علم بالمغامرة العجيبة التي خاضها القرصان ورفيقاه، قال:

- أيها الفارس المسكين، لم يحالفك الحظ - أبداً - في الإمساك بهذا الحاكم الملعون، ولكنْ؛ أقسم برمال أولونا أنّني سأمسك به هذه المرة، سنحاصر جبل طارق جيداً، ولن نترك له مفراً. وسوف نعلّقه على إحدى صواري سفينتك الفولغورا، أعدك بذلك.

- لا أظن أنّنا سنجده في جبل طارق يا بيترو - أجاب القرصان - أنه يعرف أنّنا سنهجم على المدينة، ويعرف جيداً أنّي سأبحث عنه في كل بيوت المدينة؛ لكي أنتقم لأخوتي، لذلك أخشى أن لا نجده هناك.

- ولكنْ؛ ألم تر سفينة الكونت، وهي تتّجه صوب جبل طارق؟

- أجل، يا بيترو، ولكنك تعلم جيداً أنه ماكر جداً، ولا بد أنه غيّر وجهته خشية أن نحاصره في المدينة.

- إنك محقّ - أجاب الأولونيزي - إن هذا الدوق الملعون أشدّ مكراً منّا، ولعله سيتجنّب الذهاب إلى جبل طارق، وسيهرب دون شك إلى السواحل الشرقية. لقد سمعتُ أن له أقارب أغنياء جداً في هندورسا، في بورتو كافالو، وربما سيلجأ إليهم هناك.

- أترى، يا بيترو، كم يحالف الحظ هذا العجوز اللعين!

- يوماً ما سيملّ الهرب، يا صديقي. إذا ما حصل وتأكّدت في يوم ما أنه لجأ فعلاً إلى أقاربه في بورتو كافالو، فلن أتردد في الهجوم على المدينة، وأنا واثق أن كل قراصنة التورتو سيتبعونني في ذلك، من أجل سلب تلك المدينة الثرية جداً. إذا لم نجده في جبل طارق، فسنتدبّر أمره فيما بعد، لقد وعدتُك أني سأساعدك في العثور عليه، وأنت تعلم أن الأولونيزي لا ينكث عهده.

- شكراً، يا صديقي، أنا اعتمادي كبير على مساعدتك. أين هي سفينتي الفولغورا؟

- لقد بعثتُها إلى مخرج الخليج مع سفينتي هاريس؛ لكي يمنعا السفن الإسبانية من مباغتتنا.

- كم من الرجال جلبتَ معك؟

- معي مئة وعشرون رجلاً، ولكنْ؛ سيصل الباسكي الليلة، ومعه أربعمائة رجل، وسوف نهجم على المدينة صباح الغد.

- أتظنّ أنّنا سننجح في مهمّتنا؟

- أنا واثق من ذلك، يا صديقي، رغم أنّي علمتُ أن الإسبان قد جمعوا ثمانمائة رجل، وقد قطعوا كل الطرق الجبلية التي تؤدي إلى المدينة. أمامنا مهمة صعبة جداً، وأظن أنّنا سنخسر الكثير من رجالنا، ولكنّنا سننتصر، كن واثقاً من ذلك، يا صديقي.

- وأنا على أتمّ الاستعداد لمرافقتك في هذه الحملة، يا بيترو.

- وأنا أعتمد على بسالتك، أيها الفارس. تعال معي؛ لنتعشّ معاً على متن مركبي، بعد ذلك، ستذهب لأخذ قسط من الراحة، أحسب تحتاج لذلك حقاً.

نهض القرصان بأعجوبة لشدّة تعبه، ثم تبع الأولونيزي، بينما كان البحّارة ينزلون على الشاطئ، ويخيّمون على أطراف الغابة، وهم بانتظار الباسكو ورفاقه. على أن ذلك اليوم لم يذهب سدى، فقد قامت مجموعة من البحّارة باستكشاف المناطق المجاورة؛ لكي يتمكّنوا من تنفيذ هجوم مباغت على المدينة الإسبانية. بل إن بعضهم وصلوا على مقربة من حصون جبل طارق العتيدة، كل ذلك؛ لكي يكوّنوا فكرة متكاملة عن دفاعات العدو وتحرّزاته، وتمكّن بعضهم من التحدّث إلى بضعة أشخاصٍ، وقد ادعوا أنهم صيادون تائهون. على أن نتائج تلك الاستكشافات لم تكن مشجّعة لتنفيذ الهجوم، رغم أن القراصنة البواسل كانوا معتادين على مواجهة الصعاب المهولة. فقد وجد المستكشفون أن جميع الطرق مقطوعة بسواتر، وضعوا عليها المدافع فضلاً عن سياجات من النباتات الشوكية، وكانت الأرياف قد أُغرقت بالماء. وعلموا - أيضاً - أن حاكم المدينة كان واحداً من أشجع الرجال الذين بعثتهم إسبانيا إلى مستعمراتها في أمريكا، وقد جعل جنوده يُقسمون على الموت حتّى آخر واحدٍ فيهم دون راية بلدهم. لقد تسلّل الخوف والقلق، أمام كل هذه الصعاب، حتّى في قلوب أشدّ البحّارة شجاعة وبسالة. إلا أن كل هذا لم يثبط عزم الأولونيزي، بل إنه جمع القادة مساءً، وخطب فيهم خطبته الشهيرة التي نقلتها لنا صفحات التاريخ، وكانت تنمّ عن مدى ثقته بنفسه، وبالبحّارة الشجعان:

- يا رجال البحر، يجب أن نقاتل غداً قتال الأبطال، ذلك أنّنا إن هُزمنا، فلن نموت فقط، بل سنفقد أموالنا التي كلّفتنا الكثير من العناء والدم.

لقد انتصرنا مسبقاً على أعداء أكثر عدداً من هؤلاء المجتمعين في جبل طارق، وحزنا على ثروات كبيرة. فانظروا كيف سيصنع قائدكم، واحذوا حذوه.

وصل مراكب مايكل الباسكو عند منتصف الليل، وعلى متنها أربعمائة رجل. تجهز رجال الأولونيزي للمسير إلى جبل طارق، وكانوا يتوقّعون الوصول إلى الحصون عند صباح اليوم التالي؛ إذ كانوا لا يرغبون في خوض الحرب ليلاً. اصطفّ رجال الباسكو حال وصولهم، ثم انطلق الجيش، وعلى رأسه قادته الثلاثة عبر الغابة، وقد تركوا عشرين رجلاً على حراسة المراكب. وبعد أن أخذ كارمو وستيلر قسطهما من الراحة، وملآ بطونهما بالطعام، تبعا خطى القرصان، وكلهما رغبة في القبض على فان غولد.

- يا صديقي ستيلر - قال كارمو - أرجو أنّنا سنتمكّن من الإمساك بالحاكم الملعون هذه المرة، ونسلّمه للقبطان.

- حالما سنتجاوز الحصون سنجول في المدينة؛ لكي نمنعه من الهرب، يا صديقي. علمتُ أن القرصان أمر خمسين رجلاً بتطويق الغابة، وقطع الطريق على الهاربين.

- ثم سيكون هناك الكتلوني، ولن يغفل عنه.

- أتظن أنه وصل إلى جبل طارق؟

- أنا على يقين من ذلك. سنجد هذا الشيطان حتماً، إن لم يُقتَل قبل وصولنا إليه.

في تلك اللحظة، أحسّ كارمو بشخص يربت على كتفه، وصوت مألوف يقول له:

- أنت محق، يا رفيقي.

التفت كارمو وستيلر، وإذا بهما يجدان الأفريقي أمامهما.

- هذا أنت، يا رفيقي الأسود! - هتف كارمو - من أين أتيتَ هكذا فجأة؟

- كنتُ أبحث عنكم على طول الشاطئ منذ عشر ساعات. أحقاً أن الحاكم العجوز قد أمسك بكم؟

- ومَن قال لك ذلك؟

- لقد سمعتُ بعض البحّارة يتكلّمون عن ذلك.

- هذا صحيح، ولكنْ؛ كما ترى، فقد تمكّنّا من الفرار من قبضته، بمساعدة النبيل كونت ليرما.

- بمساعدة الكستلياني النبيل الذي احتجزناه في بيت محرّر العقود في ماراكايبو؟

- أجل، يا رفيقي. وماذا عن الجريحين اللذين تركناكما معهما؟ ماذا حلّ بهما؟

- لقد توفيا صباح الأمس - أجاب الزنجي.

- يا للمسكينين! وماذا عن الكتلوني؟

- لا بد أنه قد وصل - الآن - إلى جبل طارق.

- سنواجه مقاومة مستميتة في هذه المدينة، يا صديقي.

- أخشى أنّنا سنفقد عدداً كبيراً من رجالنا، فحاكم المدينة سيدافع عن مدينته بكل ما أوتي من قوة، وقد قطع كل الطرق ونشر السواتر والوحدات المدفعية في كل مكان.

- أرجو أن لا نسقط في هذه المعركة، وأن نتمكّن من إلقاء القبض على فان غولد.

توغّلت صفوف الجيش الأربعة في الغابة التي كانت - آنذاك - تحيط بجبل طارق، وقد تقدّمهم بعض المجاميع الاستكشافية التي يشكّل البوكانير جزءاً كبيراً منها. كان الجميع يعلم أن الإسبان قد علموا بالهجوم، بل إنهم كانوا ينتظرون قدومهم، ولا بد أن حاكم المدينة قد أعدّ بعض الكمائن؛ لكي يقضي على أكبر عدد منهم قبل هجومهم على الحصون. تردّد صدى إطلاق نار في المقدّمة؛ حيث كانت المجاميع الاستكشافية، فأدرك الجيش قربهم من المدينة. عجّل القرصان الأسود ، الأولونيزي والباسكي على رأس مئة رجل في اللحاق بالمستكشفين ظنّاً منهم أنهم تعرّضوا لكمين ما، ولكنهم علموا بعد ذلك أنه لم يكن سوى تبادل إطلاق نار بسيط مع بعض خفر القوات الإسبانية. لما أدرك الأولونيزي انكشاف أمرهم، أصدر أوامره بالتوقّف، وانتظار طلوع الفجر، وقد أراد - أيضاً - التحقّق من دفاعات العدو، ومن طبيعة الطريق التي سيسلكونها، وقد بدت موحلة شيئاً ما. كان هناك تلّ على الجانب الأيمن من الطريق، يطلّ على جزء كبير من المدينة، فقام الأولونيزي بتسلّقه بصحبة القرصان الأسود، فوصلوا إلى القمة عند طلوع الفجر. انتشر ضياء أبيض سرعان ما تحوّل أحمر في الناحية الشرقية لساحل الخليج، فاصطبغت المياه بلون أحمر. كان ذلك الضياء يوحي بيوم مشرق. التفت القرصان والأولونيزي نحو جبل مقابل لهم، فإذا بحصنين يرفرف فوقهما العلم الإسباني، بينما تمتدّ خلفهما أبنية سكنية بجدران بيضاء وسقوف بعض الأكواخ. قطب الأولونيزي جبينه قائلاً:

- برمال أولونا، إن الهجوم على هذين الحصنين بلا مدافع، ولا سلالم، لهو مغامرة بحق. يجب أن نقوم بالمعجزات، وإلا هُزمنا هزيمة، سنكفّ - بعدها - عن التفكير بمضايقة الإسبان لوقت طويل.

- فضلاً عن ذلك، فقد قطعوا علينا الطرق الجبلية، يا بيترو - قال القرصان - ثم إني أرى وحدات مدفعية وسياجات من الأشواك، وسنكون مجبرين على تجاوزها تحت نيران المدفعية.

- ثم هذا الوحل الذي سيُجبر رجالنا على إنشاء جسور متحركة، ألا تراه؟

- أجل، يا بيترو.

- لو كان بوسعنا أن نحيد عن الطريق، ثم نسير عبر الهضبة، ولكنْ؛ ... لقد أغرقوها هي الأخرى، انظر كيف يجري الماء!

- إن حاكم هذه المدينة ماكر حقاً، وله دربة في شؤون الحرب، يا بيترو.

- ألاحظ ذلك، يا صديقي.

- وماذا سنفعل؟

- نجرّب حظّنا، أيها الفارس، إن في جبل طارق كنوز أكثر بكثير من تلك التي حصلنا عليها في ماراكايبو، سنحصل على غنائم كبرى. ثم ماذا سيُقال عنّا إذا تراجعنا؟ ستفقد البحّارة ثقتها بالأولونيزي، وبالقرصان الأسود وبالباسكي.

- أنت على حق، يا بيترو، وسنفقد شهرتنا كقراصنة بواسل ومقدامين. فضلاً عن كون عدوّي اللدود متواجداً في تلك المدينة.

- أجل، ولا بد أن أمسك به. سأترك لك وللباسكو الجزء الأكبر من البحّارة، وسوف تقودانهم عبر المستنقعات لفتح الطرق الجبلية. أما أنا؛ فسألتفّ من الجهة الأخرى، وسأحاول الاختفاء خلف الأشجار حتّى أصل إلى أسوار الحصن الأول.

- ومن أين ستأتي بالسلالم، يا بيترو؟

- لدي خطة بديلة. احرص أنت على أن تشغل الإسبان، واترك الباقي عليّ. إذا لم يسقط جبل طارق في أيدينا خلال ثلاث ساعات، فلن أكون أنا الأولونيزي. تعال، نتعانق، أيها الفارس، فمَن يدري إن كنا سنلتقي أم لا.

تعانق القرصانان بودّ، ثم نزلا من على التل مع أول خيوط الشمس. كان البحّارة قد خيّموا على أطراف الغابة، مقابل المستنقعات التي قطعت عليهم الطريق، وقد كان على الجهة الأخرى منها ساتر إسباني، نُصب عليه مدفعان. حاول كارمو وستيلر وآخرون معهم أن يتفحّصوا قابلية السير في ذلك الوحل، لكنهم سرعانٍ ما أدركوا صعوبة التقدّم فيه؛ إذ بدا كأنه يبتلعهم ما إن تقدّموا أكثر. كان ذلك العائق الصعب، إضافة إلى العراقيل الأخرى التي يجب عليهم تجاوزها للوصول إلى الحصنين، قد أدّت إلى خمود الحماس في الكثيرين، على أنهم لم يتجرّؤوا الحديث عن الانسحاب. لكن عودة القرصانين والقرارات التي اتّخذوها في خوض الحرب دون تردّد أوقدت الحماس في قلوب البحّارة لفرط ثقتهم بقادتهم.

- تشجّعوا، يا رجال البحر - صرخ الأولونيزي - توجد خلف هذه الحصون كنوز أكثر بكثير من تلك التي حصلنا عليها في ماراكايبو؛ لنبيّن لأعدائنا هؤلاء بأننا لا نُهزم.

أعطى أوامره بتشكيل صفّين، وأوصاهم بأن لا يتراجعوا مهما حصل، ثم أمرهم بالتقدّم. تقدّم القرصان الأسود برفقة الباسكي على رأس المجموعة الأكبر، في حين التفّ الأولونيزي بمجموعته حول الغابة؛ لكي يتجاوز الهضبة التي أغرقها الماء، ويصل - دون أن يشعر به الإسبان - إلى الحصنين.

-٣٥-
الاستيلاء على جبل طارق

كانت المجموعة التي يقودها القرصان الأسود والباسكي مكونة من ثلاثمائة بحّار، ويُفترض بها أن تقطع المستنقعات التي تتواجد على الطرف الآخر منها وحدة مدفعية إسبانية. كل سلاحهم هو الحراب، وبعض المسدّسات، ذلك أن البنادق - حسب ظنهم - ما كانت لتنفعهم ضد الحصون، وما كانت تجدي نفعاً في القتال بالسلاح الأبيض. على أنهم لم يكونوا رجالاً، بل شياطين، وكانوا متأهّبين لفعل كل شيء، ومستعدّين لمجابهة الصعاب. بدؤوا بالزحف، وهم يحملون حزماً من الخشب وجذوعاً ضخمةً لتسهيل عملية عبور المستنقعات. ما إن وصلوا عند حافة الوحل، وإذا بوحدة المدفعية المتواجدة على الطرف الآخر بدأت تمطرهم بصواريخها. كان إنذاراً بخطورة المغامرة التي سيخوضونها، على أنه ما كان ليثني عزم أولئك البواسل. صرخ - عندئذٍ - القرصان الأسود والباسكي صرخة الحرب:

- تقدّموا، يا رجال البحر!

ركض البحّارة نحو المستنقعات، وقاموا برمي حزم الخشب والجذوع دون أن يأبهوا بصواريخ وحدة المدفعية التي كانت تكثّف قصفها دقيقة بعد أخرى، فكان الماء والوحل يتطاير هنا وهناك تحت وقع القنابل. وكلّما تقدّم الجيش أكثر في الوحل، أصبح المسير أكثر صعوبة وتعقيداً. لم يكن الجسر الذي صنعوه من حزم الخشب والجذوع بكافٍ لعبور الجميع، فكان الرجال يتساقطون يميناً وشمالاً غائصين في الوحل حتّى الحوض، ولم يكن بوسعهم الخروج دون أن يمدّ لهم رفاقهم يد العون. ثم أدركوا أن ما جلبوه

من الخشب والجذوع لم يكن كافياً لعبور المستنقع، فأصبح لزاماً عليهم أن ينزلوا في الوحل، وأن يحملوا الخشب، ويقدّموه إلى الأمام بجهدٍ وعناءٍ كبيرين، فضلاً عن تعرّضهم لنيران المدفعية. وكانت نيران العدو تزداد كلّما تقدّموا أكثر، وكانوا يسمعون أزيز الرصاص بين القصب، فيصيب الصف الأول من البحّارة، ولم يكن بوسعهم أن يدافعوا عن أنفسهم؛ لأنهم لا يمتلكون سوى مسدّسات، لا يصل مداها وحدات العدوّ. رغم كل تلك المخاطر، فقد كان القرصان الأسود والباسكي رابطي الجأش، بشكل يثير الإعجاب، وكانوا يشجّعون الآخرين بالقول والفعل، يبثّون القوة في قلوب الجرحى، يتقدّمون إلى الأمام تارة، ويرجعون إلى الصفوف الخلفية تارة أخرى، يشجّعون حاملي الخشب والجذوع، ويشيرون عليهم بالأماكن الأكثر أماناً، والتي يغطّيها القصب؛ لكيلا يتعرّضوا لنيران العدو. كان البحّارة يعملون بجدّ ورباطة جأش رغم إدراكهم صعوبة المهمّة، والتي قد تُعدّ جنوناً حقاً، ولكنهم كانوا واثقين أنهم إذا ما تجاوزوا هذا الوحل، فسيكون من السهل عليهم أن يدحروا وحدة المدفعية تلك. على أن المدفعية لا تزال تحصد أرواح البحّارة في الصفوف الأولى. فقد أصابت أكثر من اثني عشر رجلاً بإصابات قاتلة، فسقطوا، وتواروا في الوحل، فضلاً عن أكثر من عشرين جريحاً كانوا يتخبّطون بين الخشب، على أنهم لم يتذمّروا رغم شدة الألم، بل كانوا يشجّعون رفاقهم، ويحثّونهم على التقدّم، يرفضون مساعدتهم؛ لكيلا يضيعوا وقتهم، وكانوا يصرخون بهم:

- تقدّموا، يا رفاق، تقدّموا، وانتقموا لنا.

كان لتلك الجرأة وذلك الإقدام - إضافة إلى ما للقادة من منزلة في النفوس - دور كبير في تخطّي العراقيل رغم المقاومة الإسبانية. ما إن تجاوزوا الجزء الأخير من الوحل، بعد خسائر جمّة وعناء كبيرين، وصل البحّارة - أخيراً - إلى اليابسة. أعادوا تنظيم صفوفهم، ثم هجموا كالإعصار على وحدة المدفعية، ودحروها في لحظات. ليس لأحد أن يقف بوجه أولئك الرجال المتعطّشين للانتقام، حتّى وحدة المدفعية تلك، رغم دفاعاها المستميت، لم تقف بوجوههم. هجموا

عليها بالحراب والمسدّسات، أوقعت رشقات الإسبان الصفوف الأولى منهم، ولكنهم انقضّوا على رجال المدفعية، وقتلوهم فوق مدافعهم، ثم توجّهوا إلى الجنود الذين كانوا يحرسون الوحدة، وقتلوهم جميعاً رغم دفاعهم الشرس. أطلقوا صرخة «يحيا» قوية؛ لينبئوا الأولونيزي ورفاقه أنهم تجاوزوا العائق الأول، وربما الأصعب. على أن فرحتهم لم تستمر طويلاً، فحين نزل القرصان الأسود والباسكي إلى الهضبة؛ ليستكشفا الطريق الذي يجب عليهم أن يسلكوه، أدركوا أن هناك عائقاً آخر، يقطع عليهم طريق الجبل. شاهدا ما وراء غابة صغيرة العلم الإسباني يرفرف عالياً، ممّا يدل على وجود حصن أو ساتر آخر.

- بأرواح كل الباسكيسن - هتف مايكل الباسكي بغضب - ما يزال هناك عائق آخر، يجب علينا أن نواجهه! لا بد أن حاكم جبل طارق الملعون يريد أن يمحونا عن بكرة أبينا. ما رأيك، أيها الفارس؟

- لا أحسب أن هذا وقت التراجع.

- لقد تجرّعنا خسائر فادحة.

- أعرف ذلك.

- وقد أهلك التعب رجالنا.

- سنمنحهم القليل من الوقت؛ ليأخذوا قسطاً من الراحة، ثم نهجم على وحدة المدفعية تلك.

- أتظن أنها وحدة مدفعية؟

- أحسبها كذلك.

- أتظن أن الأولونيزي وصل إلى الحصون؟

- لم نسمع أيّ إطلاق نار من جهة الجبل، وهذا يعني أنه تجاوز الغابات دون عراقيل.

- إن الحظّ يحالف هذا الرجل دائماً.

- أرجو أن يحالفنا الحظ نحن أيضاً، يا مايكل.

- ماذا سنفعل الآن؟

- سنرسل بعض الرجال؛ ليستكشفوا طريق الغابة.

- هيا بنا إذنْ، أيها الفارس، قبل أن تضعف همم الرجال.

أرسلوا بعض الرجال البواسل؛ ليستطلعوا قوة الأعداء، وبينما كان الرجال يبتعدون تتبعهم فرقة من البوكانير؛ لتحميهم إذا ما وقعوا في كمين ما، كان القرصان الأسود والباسكي ينقلون الجرحى إلى مكان آمن تحسباً لانسحاب مفاجئ، ثم أمروا الرجال برمي الخشب والجذوع في المستنقعات؛ ليجهّزوا طريقاً خلفهم للطوارئ. ما إن انتهوا من صنع الجسور حتّى عادت فرقة الاستطلاع، وفي جعبتهم أخبار سيئة. لقد أخلى الإسبان الغابة، ولكنهم وضعوا وحدة مدفعية عند الهضبة، يحرسها عدد كبير من الجند، ولا بد من الهجوم عليها، ودحرها إذا ما أرادوا أن يسلكوا الطريق الجبلية. في حين ليست هناك أي أخبار عن الأولونيزي وفرقته، كونهم لم يسمعوا إطلاق نار بعد.

- إلى الأمام، يا رجال البحر - صرخ القرصان شاهراً سيفه - لقد تمكّنّا من هزيمة الوحدة الأولى، ولن نتراجع أمام الثانية.

هبّ البحّارة الذين كانوا يأملون الوصول إلى الحصون بأسرع وقت ممكن. تركوا مجموعة من البحّارة لحراسة الجرحى، ثم توغّلوا بين الأشجار، وهم يسيرون على عجل على أمل أن يباغتوا الأعداء. تجاوزوا الغابة بسهولة؛ إذ لم يواجهوا أية مصاعب، ولكنْ؛ ما إن وصلوا إلى الهضبة حتّى توقّفوا لشدة ما بثّت وحدة المدفعية الرعب في قلوبهم. لم يكن خندقاً بسيطاً، بل كان ساتراً كبير، تنتشر أمامه الحفر والسياجات والجدران، وقد نُصبت فيه

ثمانية مدافع على أهبة الاستعداد لإمطارهم بالقنابل. حتّى القرصان الأسود والباسكي بدا عليهم القلق.

- إنها - حقاً - مغامرة كبيرة - قال الباسكي للقرصان - لن يكون تجاوز هذه الهضبة بالأمر الهيّن تحت نيران المدافع.

- ولكنْ؛ ليس بوسعنا أن نتراجع، وقد يكون الأولونيزي وصل - الآن - إلى الحصون. سيُشاع عنّا بأنّنا جبناء، يا مايكل.

- لو كان لدينا بعض المدافع!

- لم يكن بوسعنا أن نحرّك مدافع الوحدة التي تجاوزناها، وقد قام الإسبان بتثبيتها بشكل جيد. والآن هيا، لنهجم.

ركض القرصان بحزم نحو الساتر شاهراً سيفه، دون حتّى أن يتيقّن فيما إذا كان الآخرون يتبعونه أم لا. تردّد البحّارة أول الأمر، ولكنْ؛ لما رأوا الباسكي، كارمو، ستيلر والأفريقي يتبعون القرصان أيضاً، هجم الجميع عندئذٍ؛ وهم يصرخون علياً؛ ليبدّدوا مخاوفهم. تركهم الإسبان يتقدّمون أكثر، ولما أصبحوا في مرمى نيرانهم، أمطروهم بوابل من القنابل والرصاص. أصيب الخطّ الأول من البحّارة بنيران الإسبان، بينما تراجع الآخرون مذعورين رغم صراخ قادتهم وتشجيعهم على التقدّم. حاولت بعض المجموعات أن تعيد تنظيم خطوطها والهجوم مجدداً، ولكن رشقة أخرى من القنابل والرصاص أجبرتهم على الفرار وراء أغلبية الجيش الذين لاذوا بالغابة، ثم عبروا - بعد ذلك - المستنقعات. إلا أن القرصان الأسود لم يفرّ معه، بل قام بجمع اثني عشر رجلاً حوله، بينهم كارمو، ستيلر والأفريقي، ولاذوا تحت أشجار، تنتشر على أطراف الهضبة، ثم ركضوا مسرعين، فتمكّنوا من تجاوز مدى نيران المدافع، ووصلوا إلى سفح الجبل. ما إن توغّلوا في الغابات حتّى وصل إلى مسامعهم دويّ مدافع الحصون، وصراخ رفاقهم البحّارة.

- هيا، يا رفاق - صرخ القرصان - إن الأولونيزي يتجهّز للهجوم على المدينة، فاستعدوا، أيها البواسل.

- هيا بنا؛ لنشارك رفاقنا في القتال، يا أصدقاء - قال كارمو - أرجو أن يحالفنا الحظّ هذه المرة.

صعدوا إلى الطريق الجبلي رغم التعب والمعاناة، وجعلوا يفتحون الطريق بين الشجيرات. عند وصولهم إلى القمة، صاروا يسمعون دويّ مدافع الحصون الثقيلة، ممّا يدلّ على أن الإسبان كشفوا أمر الأولونيزي ورفاقه. كان رفاق الأولونيزي الشهير يردّون على قنابل العدو بصراخ عالٍ، ربما ليُوهموا الإسبان أنهم أكثر عدداً ممّا يحسبون، ولأنهم لا يحملون البنادق، فكان الصراخ هو الردّ الوحيد الذي يملكون؛ ليبثّوا الرعب في قلوب أعدائهم. كانت قنابل المدافع تنطلق في كل الاتجاهات، فكانت تصدم بالصخور والأشجار المعمرة، فتطيح بها مسبّبة جلبة كبيرة. أسرع القرصان الأسود ورفاقه في اللحاق بالأولونيزي قبل أن يبدأ هجومه على الحصون، وقد وجدوا طريقاً سالكةً بين الأشجار، فوصلوا بعد نصف ساعة إلى الخطوط الخلفية لقوات الأولونيزي.

- أين هو قائدكم؟ - سألهم القرصان الأسود .

- إنه عند حافة الغابة - أجاب أحدهم.

- وهل بدأتُم الهجوم على الحصن؟

- لا، إنما ننتظر اللحظة المؤاتية.

- خذوني إليه إذنْ.

قام بحّاران من المجموعة بالتسلل بين الشجيرات، وقادوا القرصان الأسود إلى الخطوط الأولى؛ حيث كان الأولونيزي مع بعض مساعديه.

- برمال أولون - هتف الأولونيزي مبتهجاً - ها قد جاءت الإمدادات بالوقت المناسب.

- ليس كما تظن، يا بيترو - أجاب القرصان الأسود - لم أجلب معي سوى اثني عشر رجلاً.

- اثنا عشر رجلاً! ... وماذا عن الآخرين؟ - سأل الأولونيزي، وقد شحبت سحنته.

- لقد تراجعوا في الهضبة بعد أن تكبّدوا خسائر فادحة.

- اللعنة، لقد كان كل اعتمادي عليهم.

- لعلّهم سيعيدون تنظيم صفوفهم، ويحاولون الهجوم على وحدة المدفعية مرة أخرى، أو ربما وجدوا طريقاً آخرى، فقبل قليل، سمعت دوي المدافع في الهضبة.

- لا يهمّ، سنهجم الآن على الحصن الكبير.

- وكيف لنا أن نتسلّق الحصن، وليست لدينا أي سلالم؟

- صحيح أن ليست لدينا سلالم، ولكنْ؛ سنحاول إجبار الإسبان على الخروج من الحصن.

- وبأي طريقة؟

- سنتظاهر بالفرار أمام قواتهم، وقد اتفقت مع البحّارة على هذه الخطة.

- فلنهجم إذنْ.

- إلى الهجوم، يا بحّارة التورتو! - هتف الأولونيزي.

كان البحّارة يختبئون تحت الأشجار خشية قنابل العدو، ولكنهم هُرعوا

للهجوم ما إن سمعوا أوامر قادتهم. كان القرصان الأسود والأولونيزي على رأس الجيش يركضون مسرعين؛ ليجنبوا رجالهم خطر قنابل العدو. فلما رآهم جنود الحصن القريب، والذي كان الحصن الأقوى، وهم يهرولون نحوهم، أمطروهم بوابل من القنابل والرصاص، ولكن جاء قصفهم بعد فوات الأوان. فبالرغم من تساقط عدد من البحّارة إلا أن الجيش استطاع الوصول إلى أسفل الحصن بلحظات قليلة، ثم بدؤوا يتسلّقون الحصن، ويطلقون نيران مسدّساتهم على الجنود الذين يقفون في طريقهم. تمكّن بعضهم من ارتقاء الحصن رغم دفاع الجنود المستميت، وإذا بالأولونيزي يصرخ عالياً:

- انسحاب، انسحاب، يا رجال البحر!

هُرِع البحّارة الذين كانوا يحاولون تسلّق الحصون إلى الهرب، ولاذوا بالغابة المجاورة، على أنهم لم يتخلّوا عن أسلحتهم. ظنّت القوات المسؤولة عن حماية الحصن أن بوسعهم القضاء على البحّارة بسهولة، وبدل من أن يمطروهم بالرصاص قاموا بإنزال الجسور المعلقة، ولحقوا بالبحّارة الهاربين. كان هذا تماماً ما يصبو إليه الأولونيزي. ولما أدرك البحّارة أن الجنود يلاحقونهم، عادوا إليهم، وكرّوا على الأعداء بقسوة. لم يكن الجنود الإسبان ليتوقّعوا هجوماً مفاجئاً بهذه الوحشية، فإذا بهم يتراجعون أمام ذلك الحشد الغاضب، ولكنهم اضطُروا إلى الصمود أمام الجسور خشية أن يستغلّ البحّارة تراجعهم، فيدخلوا الحصون. دارت معركة دامية أمام تلك الجسور، فكان البحّارة والإسبان يقاتلون بضراوة بالسيوف والحراب والمسدّسات، بينما كان الجنود الإسبان الذين لا يزالون فوق الحصون يمطرون بوابل من الرصاص الجيشين كليهما، فيصيبون برصاصهم الأعداء والأصدقاء. كان عدد الجنود الإسبان ضعف عدد البحّارة، فكادوا أن يدحروهم، وينقذوا جبل طارق منهم، ولكن وصول الباسكي وعصبته المفاجئ غيّر مقادير الحرب. لقد تمكّن الباسكي ورفاقه من التسلّل عبر غابات الجبل، والوصول إلى الحصون، وكان عددهم يقارب الثلاثمائة بحّار، وقد ساعد وصولهم في الوقت المناسب

على حسم المعركة. كانت القوات الإسبانية تواجه الهجمات من كل الجهات، ممّا اضطرهم إلى الانسحاب داخل الحصن، فدخل معهم البحّارة أيضاً، وعلى رأسهم القرصان الأسود، الأولونيزي والباسكي الذين لم يصابوا بأذى. كان الإسبان، رغم تراجعهم داخل الحصن، يقاتلون ببسالة وضراوة، وقد عزموا أمرهم على أن يقتلوا جميعاً دون أن يسمحوا بإنزال العلم الإسباني. كان القرصان الأسود على رأس الخطوط الأولى التي دخلت إلى الحصن، فوجد نفسه مع الآخرين في باحة، ينتشر فيها أكثر من مائتي إسباني يقاتلون بكل قوة لفتح طريق بين البحّارة والتوجّه صوب المدينة لحمايتها من فورة القراصنة. وبعد أن تهاوى عدد من الجنود الإسبان تحت ضربات سيف القرصان، وإذا برجل يهجم عليه فجأة، كان يرتدي لباساً وثيراً، ويعتمر قبّعة عريضة، تزّينها ريشة نعامة طويلة.

- إليّ، أيها الفارس، فإني قاتلك - صرخ ذلك الرجل النبيل، وقد شهر سيفه الطويل اللامع.

التفت القرصان بعد أن تخلّص بجهد كبير من أحد الضباط، وقد جثم يلفظ أنفاسه الأخيرة تحت قدميه، وإذا به يصرخ مندهشاً:

- هذا أنت، أيها الكونت!

- أجل، أنا، أيها الفارس - أجاب الكونت الكاستلياني، وقد ألقى التحية بسيفه - دافع عن نفسك، يا سيدي، فلم يعد هناك مكان للصداقة بيننا، فأنت تقاتل تحت لواء القراصنة، وأنا أقاتل تحت لواء كاستيليا.

- دعني أمرّ، أيها كونت - أجاب القرصان، وهو يهاجم مجموعة من الجنود الإسبان الذين كانوا يقاتلون رجاله.

- لا، يا سيدي - أجاب الكاستلياني بنبرة حازمة - إما أن تقتلني، أو أن أقتلك.

- دعني أمرّ، أرجوك، أيها الكونت، لا تجبرني على مبارزتك، فإن أردتَ أن تقاتل فهناك الكثير من البحّارة، وبوسعك مبارزتهم، أما أنا؛ فلا أزال مديناً لك.

- لا، يا سيدي، لست مديناً لي، فقد سوّينا حساباتنا. لن تنزل الراية الإسبانية ما لم يقتل كونت ليرما وحاكم المدينة وكل الضباط الشجعان.

ما إن أنهى كلامه حتّى هجم على القرصان مسدّداً له ضربات عنيفة. كان سيد فينتيميلا يدرك جيداً قدرته على هزيمة الكونت، ولكنه كان يحاول تجنّب قتل ذلك الرجل النبيل والكريم، فتراجع خطوتين إلى الخلف، وهو يصرخ:

- أترجاك، يا سيدي، لا تجبرني على قتلك.

- اقتلني، إن استطعت - هتف الكونت باسماً - إليّ، يا سيد فينتيميلا.

كان القتال الدائر حولهم يزداد عنفاً، بين صراخ وأنين وعويل وإطلاق نار، فهجم كل منهما على الآخر عازماً على أن يقتل، أو يُقتل. هجم الكونت بعنف كبير مضاعفاً ضرباته التي يتطاير منها الشرر، بينما كان القرصان يصدّ هجومه بسرعة البرق. استلّ كل منهما خنجره إضافة إلى السيف؛ ليتمكّنا من صدّ الهجمات بشكل أفضل. كان كل منهما يتقدّم تارة، ويتراجع تارة أخرى، يهجم كل منهما على الآخر بعنف رغم مصاعب الثبات على الأرض من كثرة الدماء التي تسيل في الباحة. فجأة خطر في ذهن القرصان أن يجرّد خصمه من سلاحه؛ لكيلا يُجبر على قتله، فثبت نصله على الجهة اليسرى من نصل الخصم، ثم أحناه نحو الأسفل، وأسقطه من يده، وقد كان ذلك سهلاً عليه؛ إذ قام به من قبل مع الكونت في بيت محرّر عقود ماراكايبو. لسوء حظ الكاستلياني، فقد كان جنبه الضابط الذي طرحه القرصان قتيلاً، ولايزال سيفه بين يديه، فعمد إليه الكونت، وانتزعه من يده، وهجم مجدّداً على خصمه. في ذات الوقت، هُرع جندي إسباني لنجدة الكونت، فوجد

القرصان نفسه يجابه خصمين، في آن واحد، على أن ذلك لم يثن عن عزمه، فوجّه طعنة سريعة كالبرق إلى الجندي، وأرداه قتيلاً، ثم التفت نحو الكونت الذي كان يهجم عليه من أحد الجوانب، وسدد إليه طعنة سريعة، لم يتوقّعها الكاستلياني؛ إذ لم يحسب أن بمقدور القرصان تسديد ضربتين متتاليتين بتلك السرعة. جاءت طعنة القرصان في صدر الكونت، فاخترقته، وخرجت من الظهر.

- أيها الكونت - صرخ القرصان، وقد أخذ الكونت بين يديه قبل أن يسقط أرضاً - يا له من نصر حزين، ولكنْ؛ كنتَ أنت مَن أصرّ على ذلك.

أصبح وجه الكاستلياني شاحباً، فتح عينيه، وحدّق في القرصان، ثم قال له بابتسامة خافتة :

- بل هذا ... ما أراده القدر ... أيها الفارس ... على أنيّ ... لن أرى علم كاستليا ... ينزل.

- كارمو! ستيلر! تعالا إلي! - صرخ القرصان.

- لا فائدة من ذلك ... أيها الفارس - أجاب الكونت بصوف خافت - أنا .. رجل ... ميت، وداعاً، أيها الرجل النبيل .. ودا...

طفح الدم من فمه، فلم يكمل كلمته، أغمض عينيه، وحاول أن يبتسم، ثم لفظ أنفاسه.

تأثر القرصان كثيراً لذلك المشهد، طرح جثة الرجل النبيل بلطف على الأرض، قبّله على جبهته التي كانت لا تزال دافئة، ثم تناول سيفه الملطّخ بالدماء واشتبك مع الأعداء صارخاً بصوت، يتخلّله النشيج :

- إليّ، يا رجال البحر! ...

لا يزال القتال مستمراً في كل مكان: فوق الحصن، في الممرات، في

الغرف، وحتّى في المكامن. كان الإسبان يقاتلون بعنف وضراوة رافضين الاستسلام رغم مقتل حاكم المدينة الباسل وكل الضباط. طوال ساعة من القتال المتواصل والجنود الإسبان يضحّون ببسالة حتّى وقع أغلبهم دفاعاً عن راية بلادهم البعيدة. وبينما كان رجال الأولونيزي يستولون على الحصن الأول، توجّه الباسكي مع جمع غفير من رجاله نحو الحصن الآخر الذي لا يبعد عن الأول إلا القليل، أجبروا الجنود فيه على الاستسلام بعد أن أمّنوهم على حياتهم.

انتهت تلك المعركة الرهيبة التي بدأت صباحاً عند الساعة الثانية بعد الظهر، وقد هلك فيها أربعمائة جندي إسباني، ومائة وعشرين بحّاراً، بعضهم لفظ أنفاسه الأخيرة في الغابة، وبعضهم داخل حصون الإسبان.

-٣٦-
قَسَم القرصان الأسود

انقضّ البحّارة ينهبون المدينة بنهم، ويأخذون كل ما وقع تحت أيديهم من أشياء نفيسة قبل أن يهرب بها السكان إلى الغابة. بينما كان القرصان الأسود ، كارمو، ستيلر وموكو يقلّبون الجثث المكدسة في أنحاء الحصن أملاً في العثور على جثة حاكم ماراكايبو فان غولد. كانت أعينهم تقع على مشاهد رهيبة، فالأموات ينتشرون في كل مكان، وقد شوّهت وجوههم وأجسادهم طعنات السيوف والحراب، فأذرعة مقطوعة، وصدور ممزقة، ورؤوس مهشّمة. كانت لا تزال هناك جراح، يسيل منها الدم فوق أرضية الفناء، أو فوق درجات السلالم، تنتشر منها راحة الموت. لا تزال مغروسة في أجساد بعض القتلى الأسلحة التي أطاحت بهم، بينما كانت تنتشر هنا وهناك جثث هامدة، ولكنْ؛ لا تزال أسنانها نابتة في عنق أحدٍ ما، في حين يجثم آخرون وأسلحتهم لا تزال بين أيديهم. كان يرتفع، بين الحين والآخر، أنين من بين تلك الجثث، فيزيل الجريح منهم الجثث عنه بجهد وعناء، ويظهر وجهه شاحباً، أو ملطخاً بالدماء وهو يطلب بصوت خافت شربة ماء.

لم يكن في قلب القرصان أيّ كراهية تجاه الجنود الإسبان، فكان يسرع في إزاحة الجثث عن الجريح، يساعده في ذلك موكو والبحّاران الآخران، ينقلونه إلى مكان آخر، فيسعفه أحدهم كيفما أستطاع. لا يزالون يقلّبون أجساد أولئك المساكين، وإذا بهم يسمعون صوتاً مألوفاً، يرتفع من بين كومة من جثث الجنود والبحّارة في إحدى زوايا الفناء.

- قسماً بكل أسماك القرش - هتف كارمو - أظنني سمعتُ هذا الصوت من قبل.

- يبدو ذلك لي أيضاً.

- قد يكون دارلاس ابن بلدي؟

- لا - أجاب القرصان - بل هو صوت إسباني.

- ماء ماء ... أيها الفارس! - يصيح ذلك الصوت من تحت الجثث.

- يا إلهي - هتف ستيلر - إنه صوت الكتلوني!

اندفع القرصان وكارمو نحوه، وأزالا الجثث عنه على عجل، وإذا هما يخرجان رأساً ملطّخاً بالدماء، ثم ذراعين طويلتين ونحيفتين، بعدها ظهر جسده الطويل، يغطّيه درع من الجلد ملطّخ بالدماء.

- يا إلهي - هتف الرجل عند رؤيته القرصان وكارمو - ها هو الحظّ يحالفني فوق ما أتوقّع.

- أهذا أنت؟! - هتف القرصان.

- أيها الكتلوني، يا حبيب القلب - صاح كارمو فرحاً - أنا مسرور حقاً أنك لا تزال على قيد الحياة. أرجو أن لا يكون جسدك النحيف قد قاس الويلات.

- أين أُصبتَ؟ - سأله القرصان، بينما كان يساعده على الوقوف.

- لقد طُعنتُ بحربة في كتفي، وأخرى في وجهي، ولكنْ؛ أقول لكم الحقيقة، وأرجو أن لا تغضبوا مني، لقد أرديتُ البحّار الذي طعنني صريعاً مثل كبش. أقسم لك، أيها الفارس أني سعيدٌ جداً برؤيتك.

- أتظن أن جراحك خطيرة؟

- لا، يا سيدي، لكنها آلمتني كثيراً حتّى إني فقدت الوعي. أعطوني شربة ماء، أرجوكم.

- خذ، يا رفيقي - قال كارمو، وقد أعطاه قنينة مليئة بالماء - ستستعيد قواك حالاً.

كانت الحمّى تشتعل في جسد الكتلوني، فما إن تناول القنينة حتّى أفرغها في بطنه، ثم التفت نحو القرصان قائلاً:

- لا بد أنك تبحث عن حاكم ماراكايبو، أليس كذلك؟

- أجل - أجاب القرصان - هل رأيتَه؟

- آه، يا سيدي، لقد أفلتَ اللعين من مشنقتك، ولن يكون بوسعي أنا أيضاً أن أثأر منه.

- ماذا تعني؟ - سأله القرصان بنبرة شديدة.

- أعني أن الماكر لم يأت إلى هنا، فقد أدرك أنكم ستتمكّنون من الاستيلاء على المدينة.

- ولكنْ؛ أين ذهب؟

- لقد علمت من أحد الجنود الذين رافقوه أنه توجّه بسفينة كونت ليرما إلى الساحل الشرقي من الخليج؛ لكي يفرّ من أسطولكم، ثم نزل في كورو؛ حيث كان واثقاً أنه يجد سفناً إسبانية هناك.

- وأين سيذهب بعد ذلك؟

- سيذهب إلى بورتو كافالو؛ حيث لديه أملاك وأقارب.

- أأنت متأكد مّما تقول؟

- متأكد تماماً، يا سيدي.

- اللعنة - صرخ القرصان بصوت رهيب - ها هو يفرّ مني مجدداً، وأنا

الذي كنتُ أظنه قد وقع بين يدي. ولكنْ؛ ليهرب حيث شاء، ليهرب إلى الجحيم، إن القرصان الأسود سيتبعه، وسيجده حيث كان، حتّى لو تحتّم عليّ أن أنفق كل ثروتي، سأذهب إليه في بورتو كافالو، أقسم على ذلك.

- وأنا سأرافقك، يا سيدي، إذا سمحتَ لي - قال الكتلوني.

- أجل، إن كنتَ ترغب بذلك، بما أنّنا نتقاسم ذات الكره. ولكنْ؛ أتظن أن بوسعنا اللحاق به الآن؟

- لا أظن ذلك، يا سيدي، أحسبه الآن قد وصل.

- ليكن إذنْ، ولكنْ؛ حينما سنعود إلى التورتو، فإني سأجهّز حملة، لا مثيل لها في خليج المكسيك. كارمو، ستيلر أوكل إليكما مهمّة الاعتناء بهذا الرجل، تعال معي، يا موكو، يجب أن نجد الأولونيزي.

بارح القرصان الحصن، يتبعه الأفريقي، ونزل إلى المدينة. كان البحّارة قد استولوا على المدينة دون أن يواجهوا أية مقاومة، وما كان يدور في شوارعها لا يختلف كثيراً عمّا حصل في الحصون. طال النهب كل بيوت المدينة، فكان يتعالى صراخ الرجال وعويل النساء وبكاء الأطفال من كل الجهات، وكان يُسمع هنا وهناك تبادل إطلاق النار. كان السكان يهربون في الشوارع حاملين معهم الأغراض النفيسة، يلاحقهم البحّارة والبوكانير. فكان يدور قتال رهيب بين البحّارة والسكان، وتتهاوى الجثث فجأة من الشبابيك. تتعالى - أحياناً - صرخات أغنياء المدينة من شدة التعذيب الذي يمارسه البحّارة للضغط عليهم، من أجل الاعتراف بأماكن كنوزهم المخبأة، ذلك أن أولئك الرجال كانوا مستعدّين لكل شيء في سبيل الحصول على الذهب. بعض البيوت التي انتهوا من نهبها كانت تتصاعد منها ألسنة اللهب والدخان، منذرة بحريق، قد يأكل المدينة كلها. كان القرصان معتاداً على تلك المشاهد، وقد رآها مسبقاً في الفلاندرا، فلم تكن تؤثّر فيه مطلقاً، مع ذلك، كان يسرع الخطى، وتبدو عليه علامات الاشمئزاز. وعند وصوله إلى ساحة مركز المدينة،

شاهد بين مجموعة من البحّارة الذي يحيطون بجمع من السكان، فلمح بينهم الأولونيزي، وهو يزن الذهب الذي كان يجمعه رجاله من جميع الجهات.

- برمان أولون - هتف القرصان الشهير عند رؤيته القرصان الأسود - كنتُ أظنك غادرتَ جبل طارق، أو قد انشغلت بشنق فان غولد. لا تبدو لي سعيداً، أيها الفارس!

- إنك محق، يا صديقي - أجاب القرصان.

- ما الذي حصل إذنْ؟

- إن فان غولد الآن يبحر نحو سواحل نيكاراغوا.

- لقد فرّ منك مرة أخرى! ... برمال أولون إن هذا إلا الشيطان. أأنت متأكد مّما تقول؟

- أجل، يا بيترو، لقد لجأ إلى هوندورسا.

- وما عساك فاعل؟

- جئتُ أخبرك أني عائد إلى التورتو لتجهيز حملة عسكرية.

- أتقوم بذلك بدوني، أيها الفارس! ما هذا الذي أسمعه!

- وهل ستأتي معي؟

- كيف لا؟! وقد وعدتُك بذلك. سنسافر بعد بضعة أيام، وحالما سنصل إلى التورتو سنجهّز أسطولاً جديداً، ونذهب للبحث عن هذا العجوز الملعون.

- شكراً، يا بيترو، سأعتمد عليك إذاً.

أنهى البحّارة عمليات السلب والنهب خلال ثلاثة أيام، ثم ركبوا المراكب التي أرسلها لهم رفاقهم الذين كانوا في الجانب الآخر من الخليج، وغادروا

المدينة. أخذوا معهم أكثر من مائتي سجين، أملاً منهم في الحصول على أموال كثيرة من الفدى التي ستُدفع عنهم. ثم حملوا معهم كميات كبيرة من المؤن والبضائع، فضلاً عن الذهب الذي تُقدّر قيمته بمائتين وستين ألف بياسترا. على أن كل تلك الأموال لا تكفيهم أكثر من أسابيع قليلة من المتعة واللهو في التورتو.

عبروا الخليج دون أي صعاب، وفي اليوم التالي، وصل البحّارة إلى سفنهم، وأبحروا تجاه ماراكايبو، كونهم يرغبون في سلب المدينة مرة أخرى، ونهب ما فيها. ركب القرصان ورفاقه في سفينة الأولونيزي كون الفولغورا التي كانت لا تزال عند مدخل الخليج لحماية البحّارة من مفاجآت سفن الإسبان التي كانت تجول البحار لحماية مستوطناتها في المكسيك، يوكتانا، هوندوراس، نيكاراغوا وكوستاريكا. جلب كارمو وستيلر الكتلوني معهم بعد أن تأكّدا أن جراحه لم تكن خطيرة فعلاً.

كانَ سكان ماراكايبو، وكما توقّع البحّارة، قد عادوا إلى مدينتهم ظناً منهم أن القراصنة لن يعودوا بعد، فلما رسا البحّارة في ماراكايبو، لم يكن بوسع سكانها أن يقاوموا بأدنى مقاومة، فحصل البحّارة على ثلاثين ألف بياسترا أخرى بعد أن نهبوا ما نهبوا، وتركوا المدينة بين ألسنة اللهب.

ونهبوا من بين ما نهبوا في المدينة الكنائس، فجرّدوها من أثاثها المقدّس، من اللوحات والصلبان، بل وحتّى من جرسها، نيّةً منهم في إنشاء كنيسة في التورتو.

عند الساعة الرابعة من ذات اليوم، غادرت فرقة البحّارة المدينة، وركبوا البحر على عجل للخروج من الخليج. أصبح الطقس مخيفاً، فكان الكلّ يستعجل مغادرة تلك السواحل. كانت ترتفع من جهة سيرا سانتا ماريا سحب سوداء فوق البحر، وقد حجبت الشمس التي كانت تشارف على المغيب، بينما تحوّلت نسمات الهواء فجأة إلى رياح قوية.

ما إن لمحت فرقة السفن الفولغورا حتّى أمر الأولونيزي بإطلاق قذيفة إشارة إلى مورغان للاقتراب، ثم أنزل قارباً، ركب فيه القرصان الأسود، الكتلوني، ستيلر، كارمو وموكو. حين لمح مورغان الإشارة، ورأى أضواء السفن، توجّه بالسفينة، والتقى قارب القرصان ورفاقه، ما إن صعد القرصان على متن سفينته حتّى حياه الجميع هاتفين:

- يحيا قبطاننا الباسل!

سار القرصان، يتبعه ستيلر وكارمو اللذين كانا يسندان الكتلوني، يشقّ طريقه بين صفين من البحّارة، وهو يتوجّه نحو هيئة بيضاء، بدت على سلّم عنبر السفينة. هتف القرصان من شدة الفرح :

- هذه أنت، يا هونوراتا!

- أجل، أنا، أيها الفارس - أجابت الفتاة الفيامينغية، وهي تتقدّم نحوه - كم أنا سعيدة برؤيتك، وقد عدتَ سالماً!

برقت السماء في تلك اللحظة، فاخترق الضوء الظلمة التي كانت تخيم فوق البحر، وتبعه صوت الرعد. ما إن بانت ملامح الفتاة الفيامينغية الجميلة تحت ضوء البرق حتّى صرخ الكتلوني مندهشاً :

- إنها هي، ابنة فان غولد ... يا إلهي! ...

كاد القرصان أن يحتضن الدوقة، ولكنه جفل، وتوقّف عند سماع ذلك، التفت مرعوباً نحو الكتلوني الذي كان يحدّق في الفتاة بعينين زائغتين، وسأله بصوت لا يمت بصلة للصوت الإنساني :

- ماذا قلتَ؟ تكلم، وإلا قتلتُك!

بقي الكتلوني صامتاً، كانا منحنياً إلى الأمام، ينظر بصمت إلى الفتاة التي كانت تتراجع ببطء، كما لو أن طعنة خنجر قد اخترقت صدرها. ساد

الصمت للحظات فوق السفينة، يبدده بين الحين والآخر هدير الأمواج. لم يتكلّم أحد من المائة وعشرين بحّاراً، بل كانوا يحدّقون في الشابة تارة، وهي لا تزال تتراجع، وفي القرصان تارة أخرى، وهو يمد قبضته نحو الكتلوني. كان الجميع يتوقّع بهلع وقوع مأساة ما.

- تكلّم! - كرّر القرصان أمره بنبرة مخنوقة - تكلّم!

- إنها ... إنها ابنة فان غولد - قال الكتلوني كاسراً الصمت المخيم على السفينة.

- أتعرفها؟

- أجل.

- أقسم أنها هي ...

- أقسم لك ذلك ...

صرخ القرصان بصوت رهيب، ما إن أكد الكتلوني ذلك، رآه البحّارة وهو ينطوي على نفسه، كما لو أن أحداً ضربه بهراوة على بطنه، حتّى كاد يلامس ظهر السفينة، لكنه وثب فجأة كالنمر.

صرخ بصوت غليظ، اختلط بهدير الأمواج:

- لقد أقسمتُ أن أفني عائلة فان غولد في الليلة التي كنتُ أعبر فيها هذا الخليج حاملاً معي جثمان أخي القرصان الأحمر. اللعنة على تلك الليلة التي ستجعلني أقتل المرأة التي أحبّ!- يا قبطان - صاح مورغان، وهو يقترب منه.

- اصمت! - صرخ القرصان باكياً - الحكم هنا لأخويّ.

ارتجف أفراد الطاقم رعباً، وتطيروا مّما يحدث، فتعلّقت أنظارهم بالبحر الذي صار يتألّق، كتلك الليلة التي أخذ القرصان فيها على نفسه المواثيق،

فظن البحّارة أن جثماني القرصانين قد يبرزان - الآن - من أعماق الخليج. كانت الشابة الفيامينغية لا تزال في تراجعها، وقد شبكت يديها على شعرها الذي كانت تلاعبه الرياح، بينما كان القرصان يتبعها خطوة بخطوة، وعيناه تتّقدان غضباً. كان كلاهما صامتاً، كما لو أنهما فقدا القدرة على الكلام. جمد البحّارة في أماكنهم، وقد سيطر عليهم الرعب من ذلك المشهد، يتبعانهما بأعينهم. حتّى مورغان لم يجرؤ بعد على الاقتراب من القبطان.

وصلت الشابة - عندئذٍ - إلى حافة السلم الذي ينزل إلى عنبر السفينة، توقّفت لحظة، ومدت يديها بيأس، ثم استمرت في النزول متراجعةً، والقرصان يتبعها. توقّفت الدوقة الشابة حينما وصلا إلى الكابينة، ثم تهاوت على الكرسي، كما لو أنها فقدت كل القوة التي كانت تسندها قبل قليل. أغلق القرصان الباب، وصاح بها بصوت، يقطعه النشيج :

- أيتها الملعونة!

- أجل - تمتمت الشابة بصوت خافت - أنا ملعونة!

تلا ذلك وهلة من الصمت، تخلّلها نشيج الشابة الفيامينغية المخنوقة.

- اللعنة على ذلك القَسَم - ردّد القرصان بألم ويأس - أنت ... ابنة فان غولد، ابنة الرجل الذي أقسمتُ على قتله! ابنة الخائن الذي قتل أخوتي! يا إلهي .. يا إلهي .. كم هذا مرعب!

توقّف عن الكلام لحظة، ثم عاد إلى ثورته.

- ألم تعرفي أني أقسمتُ أن أفني كل مَن أراد له طالعه التعيس أن ينتمي لعائلة عدوي اللدود؟ لقد أقسمتُ على ذلك في الليلة التي رميتُ فيها جثمان أخي الثالث في أعماق هذا البحر، بعد أن قتله أبوك، وقد شهد الله والبحر ورجالي على قَسَمي ذلك، والذي سيكلّفني الآن حياة الفتاة الوحيدة التي أحببتُها في حياتي ... لأنك ستموتين، يا سيدتي.

- حسناً - قالت الفتاة - اقتلني إذنْ، فقد أراد القدر أن يكون والدي خائن وقاتل ... ولكنْ؛ يجب أن تقتلني أنت بيدك. سأموت سعيدة حتماً، إن قتلني الرجل الذي أحببتُه حباً جماً.

- أنا؟! ... - هتف القرصان متراجعاً بفزع - أنا؟! ... لا ... لا ... أنا لن أقتلك، لن أقتلك.

ثم سحب الشابة من ذراعها نحو شباك السفينة الواسع الذي يطل على البحر. كان البحر يتألّق، كما لو أن نحاساً مذاباً أو كبريتاً يسيل تحت الأمواج، بينما كان البرق يشق الأفق المظلم بين الحين والآخر.

- انظري - قال بفورة غضب - إن البحر يتألّق كما الليلة التي رميتُ فيها جثماني أخوي اللذين راحا ضحية لبطش أبيك. إنهما هناك، ينظران إليّ، إلى سفينتي ... إني أرى أعينهم، وهي تحدّق بي ... ينشدان الانتقام ... أرى جثتيهما طافيتين، تتمايلان بين الأمواج، ينشدانني أن أبرّ بقَسَمي. أجل، يا أخوي ... سأبرّ بقَسَمي ... ولكنني أحببتُ هذه المرأة، فاعتنيا بها ... لقد أحببتُها ... أحببتُها!

تفجّر بالبكاء، فانقطع صوته، كان كالمجنون، مال نحو الشباك، وراح ينظر إلى أمواج البحر التي تركب أحدها الأخرى، وتهدر بشدة. ربما في لحظة اليأس تلك، كان يرى جثماني أخويه القرصان الأخضر والأحمر. التفت فجأة إلى الشابة التي كانت قد أفلتت من يده، اختفت كل آثار الألم عن وجهه، عاد ذلك القرصان الرهيب، جوال البحّار الذي يحمل بين أحشائه حقداً أعمى على قاتل أخوته.

- تجهّزي للقاء الموت، يا سيدتي - قال للشابة بنبرة مرعبة - ادعي الله وأخويّ أن يحموك. أنا بانتظارك على ظهر السفينة.

بارح الكابينة بخطوات حازمة دون أن يلتفت، صعد السلم، ووقف فوق منصة القيادة. لم يبرح رجال الطاقم أماكنهم بعد، كان البحّار على مقود السفينة يتّجه بالفولغورا نحو الشمال، يتبع فرقة الأولونيزي التي كانت فناراتها تسطع من بعيد.

- مورغان - ناداه القرصان، وهو يقترب منه - جهّزوا قارباً، وأنزلوه في البحر.

- ماذا تنوي أن تصنع، يا قبطان؟ - سأله مساعده.

- أنوي أن أبرّ بقَسَمي - أجاب القرصان بصوت خافت.

- ومَن سينزل بالقارب؟

- ابنة الخائن.

- سيدي!

- اصمت! إن أخويّ يراقباننا الآن. نفّذ الأوامر فحسب. القرصان الأسود هو فقط مَن يُطاع على متن هذه السفينة.

لكن أحداً لم يتحرّك لتنفيذ الأمر، أولئك الرجال البواسل الذين قاتلوا مئات المعارك بشراسة وضراوة كان يشعرون بالرعب، وقد سمّرهم إلى ظهر السفينة. صرخ القرصان بنبرة المهدد:

- نفّذوا الأمر، يا رجال البحر.

خرج رئيس الطاقم من بين الصفوف، أشار إلى بضع رجال، وأمرهم أن يتبعوه، أنزل قارباً في البحر، ورمى فيه بعض المؤن. لقد علم أن القرصان كان ينوي شراً بابنة فان غولد. ما إن انتهى من مهمته حتّى ظهرت الشابة الفيامينغية. كانت لا تزال ترتدي ثوبها الأبيض، وقد تناثر شعرها الأشقر فوق كتفيها، فبدت لأفراد الطاقم كأنها شبح، وكانت تسير بصمت، كأنها - بالكاد - تلمس أرضية السفينة بقَدَميها، لكننها تتقدّم بحزم، وبلا تردد.

وصلت إلى السلّم، وقد أشار رئيس الطاقم إلى القارب الذي كانت تتلاعب به الأمواج بعنف، فيصطدم بجانب السفينة. توقّفت هنيهة، والتفتت نحو منصة القيادة؛ حيث كان القرصان الأسود، فكانت هيأته المخيفة تنتصب أمام الأفق، يضيء البرق وجهه بين الحين والآخر. نظرت للحظات إلى عدوّ أبيها الذي كان واقفاً على منصة القيادة، وقد شبك ذراعيه على صدره، ودّعته بيدها، ثم هبطت السلّم على عجل، وركبت في القارب. سحب رئيس الطاقم الحبل الذي يربط القارب دون أن تصدر أيّ حركة من القرصان. صرخ أفراد الطاقم لا إرادياً:

- أنقذها!

لم يجب القرصان بشيء، بل انحنى على جدار السفينة، وراح ينظر إلى القارب الذي تلاقفته الأمواج، فصار يتمايل بشكل يثير الفزع. هبّت رياح قوية، بينما كان أفق السماء يتّقد بالبرق، وامتزج هدير الأمواج بهدير الرعد الصاخب.

ابتعد القارب أكثر فأكثر، ولكنْ لا تزال هيأة الشابة الفيامينفية بارزة بلباسها الأبيض، تمدّ كلتي يديها نحو السفينة، وعيناها تحدّقان في القرصان الأسود. ركض كل أفراد الطاقم نحو جدار السفينة، وراحوا يراقبونها، ولكنْ؛ لم ينبس أحد ببنت شفة، لقد أدركوا أن أي محاولة للتأثير على القرصان لابد ستبوء بالفشل.

كان القارب في تلك الأثناء يبتعد أكثر، يرونه من بعيد، وكأنه نقطة سوداء فوق الأمواج، أحياناً يرتقي موجة ما، وأحياناً أخرى يختفي خلف الأمواج، ليعود ويظهر من جديد، كما لو أن مخلوقاً خفياً، يحمي ذلك القارب. لا يزالون يرون القارب لدقائق أخرى، لكنه اختفى بعد ذلك في الأفق المظلم الذي كانت تتكاثف فوقه سحب سوداء كالحبر.

حينما التفت أفراد الطاقم إلى منصة القيادة، شاهدوا القرصان، وهو

ينطوي على نفسه، ثم هوى على كومة من الحبال، وخبّأ وجهه بين يديه. كان نشيجه يصل إلى أسماعهم ما بين عويل الريح وهدير الأمواج. اقترب كارمو من ستيلر، ثم أشار نحو منصة القيادة، وقال بصوت حزين:

- انظر هناك، إن القرصان الأسود يبكي!

المترجم: كاصد محمد

كاتب ومترجم عراقي ولد في مدينة بابل في العام ١٩٧٩، تخرج من جامعة بغداد في اللغة والأدب الأيطاليين في العام ٢٠٠٦، ثم حصل على الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة بولونيا الإيطالية في العام ٢٠١٥.

يكتب وينشر باللغة الإيطالية، ونشر فيها العديد من القصص والقصائد والمقالات، ضمن أنتلوجيات مختلفة وفي مجلّات إيطالية ورقية وإلكترونية. وقد حاز على المركز الثالث في مسابقة القصة الإيطالية (إل راكونتو نيل كاسيتو).

أنشأ رفقة كتاب وشعراء إيطاليين وغير إيطاليين مجلة (الآلة الحالمة) التي تعنى بترجمة ونشر الأدب العالمي في إيطاليا.

حالياً يعمل كأستاذ للغة العربية لغير الناطقين بها، في جامعتي بولونيا ومودنا، ويمارس نشاطات عدة في مجالات الأدب والثقافة في مدينة بولونيا التي يعيش فيها.

يعد سالغاري، كما هو الحال مع أُمبرتو إيكو وإيتالو كالفينو، أكثر الروائيين الإيطاليين ترجمة وإنتشاراً في العالم. وكان نتاج سالغاري الأدبي مصدر إلهام للكثير من عظماء الأدباء والسينمائيين الذين شغفوا بحب رواياته. فقد أُنتج من رواياته ما يقارب الإثنين والأربعين فيلماً سينمائياً. كان في مكتبة المخرج الإيطالي الشهير فيديريكو فيلليني يوجد أكثر من خمسين رواية لسالغاري. ومن بين الكتاب اللذين عشقوا سلغاري وقرأوه وألهمت رواياته خيالهم: أُمبرتو إيكو، غابريل غارسيا ماركيز، كارلوس فوينتس، خورخي لويس بورخس وبابلو نيرودا. وقد الهمت اعماله كبار المخرجين، امثال ستيفن سبيلبيرغ وسرجو ليون. كما أن تشي جيفارا قرأ اثنين وستين رواية من روايات سالغاري، حتى أن "باكو انياثيو تايبو" كاتب مذكرات جيفارا، عزا أفكار جيفارا ضد الإمبريالية إلى سالغاري.

المتوسط

إيميليو سالغاري (١٨٦٢-١٩١١) ولد في مدينة فيرونا من أسرة ثريّة تعمل بالتجارة. التحق بالمعهد البحريّ في البندقية وسرعان ما ترك دراسته ليعمل في المجال الصحفيّ. اشتهر بكتابة القصص القصيرة والمسلسلة على صفحات الجرائد، حتى تهافتت عليه دور النشر فألّف ما يقارب الثمانين رواية تتحدث جميعها عن مغامرات البحار والبلاد البعيدة التي تعكس ولعه في الملاحة والاستكشاف. ورغم الاعتراف بمكانته الأدبية فقد عاش سالغاري فقيراً ومنعزلاً في مكتبه، وانغمس في الكتابة حتى دخل حالة اكتئاب أفضت به إلى الانتحار في مدينة تورينو.

ترك سالغاري إرثاً كبيراً من القصص والروايات، بلغ أكثر من ثمانين رواية ومائة قصة. وبعد موته، صدرت عشرات الروايات التي نسبت إليه؛ والتي لم تكن حقيقةً له، فقد أصبح يمثل بعد موته مدرسة قائمة بذاتها، وبدأ الكتاب يحذون حذوه ويقلدون أسلوبه، وصدرت إثر ذلك عدد هائل من الروايات التي اتخذ كُتّابها من أسلوب سالغاري وطريقته في الكتابة منهلاً لهم. معظم تلك الروايات صدرت بتوقيع كاتب ما إضافة إلى اسم أحد أبناء سالغاري.


ISBN 978-88-99687-26-7
9 788899 687267

المتوسط

إن العلامة التي أحدثها إميليو سالغاري (أكبر أدباء المغامرة في إيطاليا) في تاريخ الأدب الإيطالي هي، باعتراف الجميع، علامة فارقة، فضلاً عن بصمته المميزة التي بات أثرها واضحاً في مجمل تاريخ الأدب العالمي.

صنع سالغاري بطلاً شعبياً تميز عن الذين صنعتهم الآداب الأوروبية والعالمية، وهذا ما لفت انتباه أنتونيو غرامشي حين حلّل النظرية القومية في الأدب الإيطاليّ، واصفاً سالغاري بالمبدع لقدرته على خلق بطل شعبيّ تَروج حكاياته في أرجاء إيطاليا، رغم أنه منْ صنع الخيال، ومغامراته المفترضة تدور في بلاد بعيدة جداً عن إيطاليا، وتمتدّ من ماليزيا إلى وسط إفريقيا فالكاريبي والقارة الأمريكية.

وقد يصل بنا النقد إلى العثور على ظلال سالغاري في كلّ الأفلام السينمائية التي نقلت أدب المغامرة إلى الشاشة الكبيرة. وهنا نستذكر أُمبرتو إيكو في تحليله لشخصية السوبرمان وأثرها على الجماهير. إذ ربط إيكو هذه الشخصيات السينمائية بجذورها الأدبية وعزز مكانة سالغاري في ابتكار هذا النموذج الهرقليّ الحديث، ناهيك عن إبداعه لبطل شجاع ينقذ الآخرين ويعيش لحظات مصيريّة فيها من الأهوال الجانبية ما يكفي لاستنزاف قضيته العالقة بين الحبّ والثأر.

وهذا الكتاب، هو إحدى أروع الروايات التي جادت بها مخيّلة إميليو سالغاري، وهي الحلقة الأولى من سلسلة «قراصنة جزر الانتيل»، التي تتحدث عن مغامرات القراصنة وصراعهم مع الأساطيل الإسبانية في القرن السابع عشر. تدور أحداث الرواية في بلاد تفوق الخيال، ويصوّر الكاتب المدن والغابات العجيبة ببراعة ودقّة فريدتين، وأسلوب سلس وبسيط. تمتاز بقوة التشويق في وصف المعارك الضارية التي تقع في عرض المحيط وعند أسوار القلاع، كما نتعرف من خلالها على أهوال البحار وقوانينها.

تعتبر هذه الرواية، الصادرة عام ١٨٩٨، ملحمة الأدب الإيطالي المعاصر في سبرها لمعاني البطولة والنبل والفروسية.

الناشر